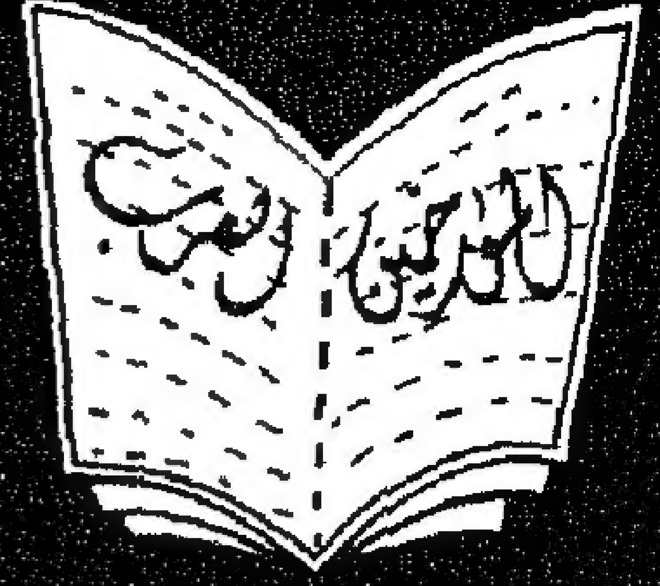
منشورات اتحاد



القاهرة

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

العدد الثانى عشر - المجلد الأول
مارس ٢٠٠٤ م

تم الجمع والإخراج الداخلى والخارجى فى :

دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية
٥ شارع ترعة المريوطية - عمارات شركة الخليج
تليفون وفاكس / ٣٨٧١٦٩٣

* علمية تاريخية بحتة ، تصدر عن اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

* تستهدف الحقيقة التاريخية صافية نقية ، بعيدة عن أى تيارات سياسية أو عقائدية .

* البحوث التى تنشر فيها محكمة ، تعبر عن وجهة نظر أصحابها ، وهيئة التحرير غير مسئولة عما يرد فيها من أراء علمية .

* تصدر مؤقتًا سنويًا فى مارس من كل عام ؛ على أن تصلها البحوث المقدمة للنشر فى كل عدد فى موعد غايته نهاية شهر نوفمبر من العام السابق .

* لايزيد حجم البحث المقدم للنشر عن أربعين صفحة ، منسوخ على الآلة الكاتبة أو الكمبيوتر ؛ ويكون البحث من نسختين أصل وصورة .

* تخصص أقسام فى المجلة - حسب الإمكانات - لعرض الكتب والمراجعات العلمية وتقارير عن المؤتمرات التاريخية والندوات .

* البحوث والأعمال المقدمة للنشر لا ترد لأصحابها فى حالة عدم إجازتها للنشر بالمجلة .

* يأتى ترتيب البحوث المنشورة وفق أسبقية ورودها وإجازتها للنشر مع مراعاة الترتيب الزمنى بقدر الإمكان ، مراعاة للحاسة التاريخية . ولا علاقة إطلاقًا بين هذا الترتيب ومكانة الباحث أو درجته العلمية .

* * * *

* جميع المراسلات تكون باسم السيد الأستاذ الدكتور رئيس هيئة التحرير .

العنوان : ١٠ شارع فؤاد بدوانى - الحى الثامن - مدينة نصر - القاهرة .

تليفون / ٢٨٧٠٠٩٠ - فاكس ٢٨٧٠٠٩١

المحتويات

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الافتتاح

فى إطار اهتمامات مجلة المؤرخ العربى - كأحد إصدارات اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة - وتنفيذاً لرسالتها التى أنشئت من أجلها باعتبارها نافذة علمية وثقافية متاحة ، تقدم الجديد دائمًا فى الدراسات التاريخية للمؤرخ والباحث والمفكر والمثقف ، من خلال بحوث علمية ، ودراسات جادة منتقاة ، فى ثوب قشيب ومعالجة رصينة ، واستقراءات مستجدة .

يصدر العدد الثانى عشر من مجلة المؤرخ العربى (مارس ٢٠٠٤) متضمنًا مجموعة من البحوث التاريخية تحمل عناوين لموضوعات متعددة ومتميزة فى علم التاريخ كتبها باحثون أكاديميون من الجامعات العربية .

وألقت البحوث المنشورة الأضواء على موضوعات جديدة فى تاريخ بلاد اليمن بصفة خاصة ، والجزيرة العربية بصفة عامة ، فضلاً عن موضوعات هامة عن طريق التجارة الخارجية لبلاد المغرب والأندلس ، وعن الوكالات التجارية ، وعن دور الهنود فى الحياة الثقافية فى مكة المكرمة والمدينة المنورة زمن سلاطين المماليك ، والمعاهدة السعودية البريطانية التى عقدت فى عام ١٩٢٧م ، وغير ذلك من الموضوعات .

ولعل هذه البحوث ، وما اشتملت عليه من آراء وأفكار تكون إضافة علمية للمكتبة التاريخية العربية ، وعونًا للباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية للوطن العربى .

والله من وراء القصد إنه نعم المولى ونعم النصير

أ.د/ سعيد عبد الفتاح عاشور

أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد(*)

الدوافع الحقيقية لغزو الأحباش لليمن فى القرن السادس الميلادى فى ضوء النقوش اليمنية القديمة

إن الشائع فى المراجع القديمة من مسيحية وإسلامية أن الغزو الحبشي لليمن والذى حدث فى القرن السادس الميلادي (وبالتحديد فى الربع الأول منه)، إنما كان نتيجة دوافع دينية وبالتحديد نتيجة صراع بين أتباع الديانتين اليهودية والمسيحية وتعرض مسيحيي نجران للموت حرقا على يد ملك حمير اليهودي.

فبالنسبة للمراجع المسيحية فإن أهم وأشمل مرجع فى هذا الموضوع هو ما يسمى "كتاب الحميريين وقد ألفه بالسريانية قسيس مجهول حوالى عام ٥٢٥ ميلادية ووردت فيه حادثة الحرق هذه فى فصل بعنوان حرق البيعة دياكليروس نجران وأبنائها وسمائر الذين أحرقوا هناك" (moberg 1924,p. 68 .) .

وبالنسبة للمراجع الإسلامية فكلها تعتمد على ما ورد فى الآيات ٤- ٧ من سورة البروج ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ .

---

* - أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ بكلية الآداب- جامعة الإسكندرية .

غير أننا إذا تأملنا في طبيعة الصراع بين اليمنيين والأحباش ورجعنا إلى الوراء فى التاريخ لتتبع أخبار هذا الصراع منذ بدايته فى النقورش اليمنية القديمة، نجد أنه بعيد عن الدوافع الدينية وانما هو فى الأساس نتيجة دوافع اقتصادية، وربما كانت أحداث الحرق المشار إليها فى كل من كتاب الشهداء الحميريين والقرآن الكريم مجرد أسباب وقتية مباشرة لتبرير إحدى حملات الأحباش على اليمن فى القرن السادس الميلادى .

وأول دليل على انتفاء الدوافع الدينية للصراع بين اليمنيين والأحباش أنه بدأ فى العصور الوثنية أى فى وقت لم تكن المسيحية أو اليهودية قد دخلت اليمن، بل وكان اليمنيون والأحباش يعبدون إلهًا رئيسيا واحدا هو إله القمر وبنفس الاسم الذى أطلقه عليه السبئيون وهو.. إيل مقه " إلى جانب الآلهة اليمنية الثانوية الأخرى وهى الشمس" ذات حميم " والزهرة " عثتر" (اليونسكو ١٩٨٥ ص ٣٥٧).

وقد يبدو هذا التشابه بين آلهة اليمن وآلهة الحبشة مستغربا، ولكن هذا الاستغراب يزول إذا علمنا أن الحضارة الحبشية ترجع فى أصلها إلى الحضارة اليمنية عندما هاجر اليمنيون السبئيون، أى فى عصر دولة سبأ، إلى اليمن فى القرن السابع قبل الميلاد (أو بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد) ونقلوا معهم مظاهر حضارتهم من ديانة وعمارة ونحت ولغة وكتابة (عبد المنعم عبد الحليم٢٠٠٣، ص ٢٩- ٥٨)، ثم تمكنوا من تأسيس دولة اتخذت من مدينة " أكسوم " (الواقعة على بعد ٩٥٠ كيلو مترا إلى الجنوب الغربى من ميناء مصوع) عاصمة لها (الخريطة رقم ١) وقد ازدهر هذه الدولة وبدأ اسمها يتردد فى النقوش فى القرن الثالث الميلادى (اليونسكو١٩٨٥، ص ٣٦٩) ولكن بمرور الزمن ذابت هذه الحضارة فى الخضم الحبشى ولم يتبق منها سوى الكتابة أو بالتحديد الخط المسند الذى مازال الخط الحبشى يشبهه حتى اليوم وكان هذا التشابه من العوامل التى ساعدت علماء النقوش السامية على حل رموز الخط المسند وقراءة النصوص اليمنية القديمة (عبد المنعم عبد الحليم ٢٠٠١، ص ١١٢-١١٦).

الأدلة على عبادة إله القمر فى اليمن من نقوش الملوك اليمنيين الذين حاربوا الأحباش، وفى الحبشة من بلاد الحبشة نفسها:

أول ملك يمنى تصدى للأحباش هو الملك السبئى "- شاعر أوتر" (٢٠٥- ٢٣٠ ميلادية) وقد دون أخبار حروب هذا الملك ضد الأحباش قائد عمل تحت إمرته يدعى أبكرب- أحرس وجاء فى النقش الذى دونه (ويعرف فى علم النقوش اليمنية القديمة برقم (Ja 635) ما يلى :

(سطررقم ١-٣)

أب ك رب/ أح رس/.... هـ ق ن ى / أل م ق هـ /.... ص ل م ن/

أبكرب أحرس .... قد قربانا (للإله) أيل- مقه تمثالا

ذ ذ هـ ب ن / لأنه أعاد سيده شاعر أوتر سالمًا من الحرب........

من البرونز المذهب » » » » » » » » ....

(سطر ٢) ع ل ى / أح ب ش ن

ضد الأحباش (Jamme 1962, pp. 136 - 137)

وفى عهد الملك ايلشرح يحضب (٢٤٠ - ٢٦٠ ميلادية) فى النقش رقم Ja 577 إشارة إلى مساعدة الإله أيل- مقه " للملك فى حربه ضد الأحباش فى نجران كما يلى:

(سطر ٨)

وح م دم/ ب ذت/ هـ وش ع هـ م و/ أل م ق هـ/ ب وض ع/

وشكرا لأن سيدهم أيل- مقه (ساعد فى) إخضاع

ش ع ب ن/ ن ج رن/ ب ع ب ر/ أ ح ب ش ن

شعب نجران المتحالف مع الأحباش (Jamme 1962, pp. 76-78)

أما الأدلة على عبادة إله القمر السبئى.. أيل- مقه" فى الحبشة، فهو وجود نصوص تشير لهذه العبادة فى منطقة ملازو " الواقعة إلى الجنوب من" أكسوم " (الخريطة رقم ١) والعثور على محراب وموائد قرابين مكرسة له فى منطقة " عدى- قلامو" الواقعة إلى الشرق من أكسوم (الخريطة رقم ١) (اليونسكو ٩٨٥ ام، ص ٣٥٧).

وبالإضافه لذلك عثر فى الحبشة على اثار كثيرة عليها الرمز الى"لوف لإله القمر اليمنى وهو القرص والهلال مثل محارق البخور وموائد القرابين كما صور هذا الرمز عكى قمم المسلات التى ترجع للقرن الثالث الميلادى (وهو عصر غزو الأحباش لليمن كما ذكرنا) مثل مسلات مدينة " مطرا " الواقعة على بعد ٥٠٠ كيلومترا إلى الشمال الشرق من مدينة أكسوم (عبد المنعم عبد الحليم ٢٠٠٣، ص ٤٠ والأشكال ١١، ١٢، ١٨ والخريطة رقم ٢).

وقد ظلت الآلهة اليمنية تعبد فى الحبشة حتى منتصف القرن الرابع الميلادى. ديان كان قد حدث بعض التغيير فى أسمائها عندما اعتنق الملك الحبشى الاكسومى عيزانا (٣٢٥- ٣٦٠ ميلادية) الديانة المسيحية (موسكاتى ١٩٥٧، ص ٢١٥).

من كل هذا يتبين أن تضرع اليمنيين إلى الهة وثنية لنصرتهم فى حربهم ضد الأحباش وأنها نفس الآلهة التى عبدها الأحباش، ينفى أن تكون الأسباب الدينية- كما حدث ظاهريا فى القرن السادس الميلادى- هى الدوافع لغزو الأحباش لليمن، ديانما تكمن هذه الدوافع وراء الأهداف الاقتصادية .

فما هى الأهداف الاقتصادية؟

يمكننا أن نتعرف على هذه الأهداف إذا علمنا أن المناطق الرئيسة التى دارت فيها الحروب بين اليمنيين والأحباش تقع عند مداخل وعلى مسارات ومخارج الطرق التجارية، التى كانت تخترق الجزيرة العربية من جنوبها إلى شمالها، فالمداخل هى موانى الجنوب مثل ميناء المخا ومنطقة باب المندب، ومسار الطريق التجارى القادم من هذه المناطق بالإضافة إلى أن ميناء عدن يمر بأهم مركز تجارى وهو مدينة " ظفار " (بفتح الظاء) أما مخرج الطريق فهو يقع عند مدينة نجران (الخريطة رقم ٢). وسوف نلاحظ من تتبع الصراع بين الأحباش واليمنيين فى النقوش اليمنية طوال العصور ابتداء من عصر الملك شاعر أوتر فى أوائل القرن الثالث الميلادى حتى آخر غزو حبشى لليمن فى عام ٥٢٥ ميلادية، أن الحملات الحبشية استهدفت هذه المناطق. فعبر هذا الطريق وهو الفرع الغربى للطريق التجارى العظيم (الذى يطلق عليه

أحياناً طريق الذهب والبخور والذى يسمى جزؤه المار بالمملكة العربية السعودية حتى اليوم "درب البخور") كانت تمر تجارة السلع الثمينة القادمة من القارة الإفريقية المسماة سلع الترف مثل الذهب والعاج والأبنوس وريش النعام وغيرها، وتصب هذه التجارة في مدينة نجران التى ينتهى عندها فى شمال اليمن، الطريق التجارى الرئيسى بعد أن يكون قد مر بعواصم دول حضرموت وقتبان وسبأ ومعين والتحم بالطريق الغربى القادم من عدن وظفار فى مدينه "تمنع" عاصمة دوله قتبان (الخريطة رقم ٢) وهذا الطريق الرئيسى يبدأ من الميناء المسمى قديماً" ق ن أ " الواقع على ساحر البحر العربى " ومكانه الحالى ميناء. " بئر على" وتطل عليه أطلال حصن يسمى حالتا " حصن الغراب س (الخريطة رقم ٢)، فكانت تتجمع فى هذا الميناء سلع الترف القادمة من الهند إلى جانب سلعة البخور المجلوبة من منطقة " ظفار ا" (بضم الظاء) فى جنوب دولة حضرموت القديمة (حاليا فى دولة عمان)، وتصب هذه السلع الثمينة كلها فى مدينة نجران فى شمال اليمن ومنها تنقل نحو الشمال إلى منطقة البحر المتوسط حيث توجد الإمبراطوريات والإمارات الغنية فى مصر والعراق والشام وآسيا الصغرى ثم فيما بعد فى بلاد اليونان والرومان والتى كان حكامها وأغنياؤها يدفعون أغلى الأثمان فى سبيل الحصول عليها (عبد المنعم عبد الحليم ٢٠٠١، ص ٧- ٩).

من هنا كان تطلع الأحباش للسيطرة على مداخل هذه السلع القريبة منهم فى جنوب غرب اليمن ثم على مخرجها من اليمن فى مدينة نجران.

وقد عكست النقوش اليمنية أخبار حملات الأحباش للسيطرة على هذه المناطق ابتداء من أوائل القرن الثالث الميلادى وحتى أوائل القرن السادس.

فمن عصر الملك شاعر أوتر (٢٠٥ - ٢٣٠ ميلادية) جا فى النقش ٦٣٤ على إشارة إلى حرب شنها هذا الملك لطرد الأحباش من مدينة ظفار كما يلى:-

𐩥𐩰𐩫𐩩|𐩱𐩥𐩡𐩥|𐩱𐩢𐩨𐩦𐩬|𐩨𐩬|𐩭𐩡𐩰|𐩹𐩰𐩧

(سطر ٣٥) وف ت أول و / أح ب ش ن / ب ن / خ ل ف / ظ ف ر

فانسحب الأحباش من منطقة ظفار

(Jamme 1962, p. 132-133)

وفى النقش رقم Ja 35 من عصر الملك شاعر أوتر أيضا إشارة إلى محاربة هذا الملك للأحباش فى مدينة نجران كما يلى:

(سطر ٢٣– ٢٤)

خ ل ف / هـ ج ر ن / ن ج ر ن / ب ع ل ى / ض ب أ ت / أ ح ب ش ن

(فى) منطقة مدينة نجران ضد محاربى الأحباش

(Jamme 1962, p. 136-137)

ويبدو أن حملات شاعر أوتر ضد الأحباش فى مدينة ظفار أدت إلى طردهم منها نهائيا فإن النقوش خلت من الإشارة إلى حروب ضدهم فى هذه المدينة في عهد الملك أيل– شرح يحضب أحد الخلفاء المباشرين للملك شاعر أوتووهو أنشط هؤلاء الخلفاء في شن الحرب ضد الأحباش، ومما يؤيد ذلك أن الملك أيل– شرح يحضب تتبع الأحباش فيما وراء منطقة ظفار إلى الساحل حيث حاصرهم فى وادى سردد الذى يصب فى البحر الأحمر شمال ميناء الحديدة بأربعين كيلومترا ويبدو أن الأحباش تقهقروا أمام حملات أيل– شرح يحضب وتمركزوا فى وادى" سهام " الواقع جنوب ميناء الحديدة بعشرة كيلومترات (الخريطة رقم ٢) ويسجل النقش Ja 574 هذه الأحداث كما يلى:

(سطر ٥– ٦) ب س ر ن / س ر د د / ب ع ل ى / أ ح ز ب / ح ب ش ت /

فى وادى سردد ضد فرق المحاربين الأحباش

(سطر ٤) ح ر ب / ب ق ر هـ م و / ب س ر ن / ن س هـ م

حارب مستوطناتهم فى وادى سهام

(Jamme 1962, p. 60-61)

وبعد حروب الملك أيل- شرح يحضب اختفت أخبار الحروب ضد الأحباش من النقوش اليمنية ويبدو أن هذا الملك طردهم نهائيا من مستوطناتهم الساحلية فى وادى سهام كما جاء فى السطر ٤ من النقش الأخير فانتهى بذلك وجودهم فى اليمن حتى عادوا للظهور فى القرن السادس الميلادى.

وقبل أن نتناول ما ورد فى النقوش اليمنية عن غزو الأحباش لليمن فى القرن السادس الميلادى نلخص ما عرضناه فى النقاط التالية:-

أولاً: أن غزوات الأحباش قبل القرن السادس الميلادى أى فى المرحلة الوثنية كانت تستهدف أساسا المراكز التجارية الرئيسية فى الجنوب الغربى لليمن (أى المناطق المواجهة لبلادهم على الجانب الشرقى للبحر الأحمر) وأهم هذه المراكز مدينة ظفار، ثم مخرج التجارة من اليمن فى مدينة نجران وما حولها.

ثانيًا : لم يكن الدافع لهذه الغزوات دينيا فقد كان الأحباش فى القرن الثالث الميلادى يعبدون نفس الآلهة التى تعبدها اليمنيون الذين يحاربونهم وفى مقدمتها الإله " إيل- مقه إله القمر.

ثالثًا: بناء على ذلك فإن دوافع غزو الأحباش لليمن فى القرن الثالث الميلادى كانت اقتصادية.

أدلة استمرار الدوافع الاقتصادية لغزو الأحباش لليمن فى القرن السادس الميلادى:

تتمثل هذه الأدلة فى ثلاثة نقوش سجلها قائد يدعى " شرح- أيل- يقبل" عمل تحت إمرة الملك الحميرى الذى تصدى للأحباش المسمى فى هذه النقوش " يسف أسار " أو يوسف أسار يثأر".

والاسم الأول " يوسف " يطابق الاسم الأول الذى أطلقه عليه الكتاب المسلمون وهو" يوسف ذو نواس" .

والنقوش الثلاثة مؤرخة بسنة واحدة هى سنة ٦٣٣ حميرية التى تعادل سنة ٥١٨ ميلادية وهى محفورة على الصخر فى منطقتين إحداهما تدعى " جبال الكوكب " (ويعرف هذا النقش فى علم النقوش اليمنية برقم Ry 508) الواقعة على بعد ١٥٠ كيلومترًا شمال مدينة نجران

(الخريطة رقم ٣) وهذا النقش مؤرخ بالشهر الحميرى المسمى فى النقش " ذو قيظن" الذى يعادل شهر يونية (سنة ٥١٨ ميلادية كما ذكرنا). والنقشان الآخران محفوران على الصخر فى المنطقة المسماة " بئر حما " الواقعة على بعد ٩٠ كيلومترا إلى الشمال من مدينة نجران (الخريطة رقم ٣) ويعرفان فى علم النقوش اليمنية بأرقام Ry 507 و Ja 1028 ، والنقشان مؤرخان بالشهر الحميرى المسمى فى النقش " ذو مذرأن " الذى يعادل شهر يولية (سنة ٥١٨ ميلادية). (و Ry و Jaهما اختصار اسمى العالمين اللذين ترجما هذه النقوش ونشراها وهما G.Ryckmans و A.jamme على التوالى).

وواضح من سياق هذه النقوش الثلاثة أن الأحباش ركزوا هجماتهم- كما فعلوا فى القرن الثالث الميلادى- ضد المداخل المؤدية إلى المراكز التجاريه وهى باب المندب وميناء المخا وفى أهم المراكز التجارية فيما وراء هذه المداخل وهو مدينة " ظفار" ثم حاولوا القبض على التجارة الثمينة عند مخرج الطريق التجارى فى منطقة نجران وما حولها ولذلك نجد أن الملك الحميرى.. يوسف أسار يثأر ". يحاول إيقاف الهجمات الحبشية عند بداياتها فقاد بنفسه الحرب ضد الأحباش فى مناطق المداخل أى باب المندب وميناء المخا وحرمان الأحباش من أهم المراكز التجارية فيما وراء هذه المداخل وهو منطقة مدينة ظفار وهى نفس الخطة التى اتبعها أسلافه (أى شاعر- أوتر وايل- شرح يحضب) فى القرن الثالث الميلادى بينما عهد الملك الحميرى إلى القائد " شرح- أيل يقبل " الذى دون النقوش الثلاثة المذكورة بقيادة الحرب ضد الأحباش فى مخرج الطريق التجارى وهو مدينة " نجران " ومجاوراتها (وهو أيضاً نفس الميدان الذى تصدى فيه الملكان المذكوران فى القرن الثالث الميلادى للأحباش).

ونقوش القرن السادس الميلادى المذكور تشرح مسار هذه الحروب كما يلى:

جاءت أول إشارة إلى الحرب ضد الأحباش فى النقش رقم Ry 508 المحفور على الصخر فى منطقة جبال الكوكب الواقعة على بعد ١٥٠ كيلومترا إلى الشمال من مدينة نجران كما يلى:-

(سطر ٣) ع ل ى / أح ب ش ن / ب ظ ف ر / ود هـ رو / ق ل س ن

ضد الأحباش . بظفار واقتحموا الكنيسة

كما جاءت الإشارة إلى انتشار الصراع إلى المناطق الممتدة من ساحل البحر (حيث نزل الأحباش إلى البر) مثل ميناء المخا ومنطقة باب المندب كما يلى:-

(سطر ٣)

وح رب / م خ ون (سطر ٨) .... ول ص ن ع ت / س س ل ت / م د ب ن

وحارب المخا ولتحصين سسلة (باب) المندب

ويستخلص من العبارة الأخيرة أن الحميريين مدوا سلسلة (معدنية) عند مضيق باب المندب لعرقلة وصول سفن الأحباش إلى البر (أو بتعبير أدق قوارب نقل الجنود الأحباش من السفن الكبيرة إلى البر نظراً لأنها منطقة ضحلة بالنسبة لهذه السفن ذات الغاطس العميق).

أما الإشارة إلى محاربة الأحباش فى نجران فقد جاءت كما يلى:-

(سطر ٦)

وب ن / ذ ك ى هـ و / م ل ك ن / ل ق ر ن / ع ل ى / ن ج ر ن / ب ن /

وبناء على تزكية الملك للحرب ضد نجران مع

ق رم / ب ن / أزان

زعماء بنى يزن (Ryckmans 1953 b, p.280f.)

واضح من هذا النص أنه يشير إلى تكليف الملك الحميرى يوسف أسار يثأر إلى القائد "شرح- أيل- يقبل" (كاتب النقش) بقيادة حملة بالاشتراك مع زعماء قبيلة " يزن " لشن الحرب ضد الأحباش فى نجران فى أقصى شمال اليمن بينما كان الملك يقود بنفسه الحرب فى الجنوب الغربى من اليمن.

والنقش الثانى الذى يحمل رقم Ry 507 المحفور على الصخر فى منطقة بئر حما الواقعة على بعد ٩٠ كيلومتراً إلى الشمال من نجران والمؤرخ بشهر "مذرأن" (يولية) سنة ٦٣٣

حميرية (٥١٨ ميلادية) أى بعد شهر واحد من كتابة نقش جبال الكوكب Ry 508 – هذا النقش (Ry 507) ، بعد أن يذكر اسم الملك الحميرى بصيغته الكاملة وهى : ي وس ف / أس ا ر/ ى ث أ ر، يشير إلى مهاجمة الملك لمدينة ظفار وميناء المخا وتحصين باب المندب بسلسلة كما يلى:-

(سطر ٤)

وهـ رج و / أح ب ش ن / ب ظ ف ر.... (سطر ٥) وهـ رج و /.........

وقتلوا (أى الملك قتل) الأحباش فى ظفار وقتلوا ....

ب م خ ون.... (سطر ٩) وى ص ن ع ت/ س س ل ت/ م دب ن

فى المخا وحصنوا سلسلة (باب) المندب

(Ryckmans 1953a, p.295.)

(يلاحظ أن النصوص اليمنية تستخدم صيغة الجمع لتعظيم الملك)

ثم يشير النقش إلى تكليف الملك للقائد شرح- إيل- يقبل بقيادة حلف من قبيلته وقبيلة همدان والبدو لمهاجمة نجران كما يلى:

(سطر ٩)

ش رح : أل / ذى زأن / ...... ك ى دن / ب ش ع ب / ذ هـ م دن/

شرح - أيل (يقبل) ذويزن عندما توجه مع قبيلة همدان

وأع رب ن / ب ع ل ى / ن ج رن / ث و / ى ق هـ ن / م ل ك ن

والبدو ضد نجران كما أمر الملك

وهكذا يتكرر التلازم فى الحرب فى منطقة المخا وباب المندب حيث يقع مدخل الأحباش إلى اليمن وفى منطقة ظفار المركز التجارى الغنى وفى نجران مخرج التجارة الثمينة من اليمن.

ونفس الأمر يتكرر فى النقش الثانى فى منطقة بئر حما (رقم Ja 1028) وهو كما قلنا مؤرخ بشهر " مذرأن " (يولية) أيضًا سنة ٦٣٣ حميرية (٥١٨ ميلادية) مثل نقش بئر حما الأول (Ry 507) ودونه نفس القائد شرح– إيل– يقبل كاتب النقشين Ry 508 و Ry 507 وقد ورد فيه اسم الملك الحميرى مطابقا لاسمه في نقش بئر حما الأول وهو " يوسف أسار يثأر " .

ويدل تدرج أماكن هذه النقوش من الشمال (منطقة جبال الكوكب ١٥٠ كيلومتراً شمال نجران) إلى الجنوب (منطقة بئر حما ٩٠ كيبومتراً شمال نجران) على تحصن الحميريين بقيادة " شرح– أيل– يقبل " فى المناطق الجبلية البعيدة عن متناول الأحباش المتمركزين فى نجران، ثم تحركهم نحو الجنوب فى اتجاه نجران كلما حققوا انتصاراً على الأحباش. وينفرد نقش بئر حما الثانى (Ja 1028) عن النقشين السابقين بما يرويه من معلومة جديدة فبعد أن يكرر انتصار الملك الحميرى " يوسف أسار يثأر " على الأحباش فى كل من ظفار والمخا وتحصين منطقة باب المندب وانتصار القائد " شرح – أيل – يقبل" فى نجران (الأسطر ٣ و ٦ و ٧)، يذكر المعلومة التالية:

(سطر ٨–٩)

وك س ب أت م / أود هـ / ذ ق ف ل و / أب ت هـ م و / ب ث ل ث

والحملة (بلغت) نهايتها عندما رجعوا لبيوتهم بعد ثلاثة

ع ش ر / أورخ ن (Jamme 1966, pp. 39-42)

عشر شهراً

هذه المعلومة تساعد على التعرف على المدة التى استغرقتها المعارك وتاريخ بدء هذه المعارك فإذا اعتبرنا أن نهاية هذه المدة توافق شهر يولية سنة ٥١٨ ميلادية وهو تاريخ تسجيل القائد

شرح– أيل– يقبل النقش ، ورجعنا إلى الوراء ثلاثه عشر شهراً، فإننا نصل إلى شهر يونية أو شهر يولية سنة ٥١٧ ميلادية كبداية لهذه المعارك.

وهناك أهمية أخرى لهذا النقش هى ورود فى مقدمته (سطر ٢) اسم القائد الذى سيقود فلول الحميريين بعد الانتصار النهائى للأحباش وهو القائد سميفع أشوع " وهو فى الغالب أخ القائد " شرح– أيل– يقبل " الذى دون النقوش الثلاثة.

فقد جاء فى نقش يعرف بنقش " حصن الغراب " (ورقمه RÉS 2633) محفور على الصخر المطل على ميناء " قنأ " المسمى حاليًا " بئر على " (المذكور سابقا كمدخل للفرع الشرقى من الطريق التجارى) جاء فى هذا النقش ما يلى:–

(سطر ١)

س م ى ف ع / أش وع / وب ن ى هـ و /....... (سطر ٦) س ط رو / ذن /

سميفع أشوع وأبنــاؤه .... سطروا (نقشوا) هذا

م س ن دن / ب ع رن / م وى ت .... (سطر ٨– ٩) ك س ت ص ن ع و/

النقش بالحصن (المسمى) ماوية عندما تحصنوا

ب هـ و / ك ج ب أ و / ب ن / أرض/ ح ب ش ت / وأس ى و/

به عندما عادوا من أرض الحبشة وأرسل

أح ش ن / زرف ت ن / ب أرض / ح م ى رم / ك هـ رج و / م ل ك

الأحباش الحملة بأرض حمير عندما قتلوا ملك

𐩢𐩣𐩺𐩧𐩣 | 𐩥𐩱𐩤𐩥𐩡𐩠𐩥 | 𐩱𐩢𐩣𐩧𐩬

ح م ى رم / وأق ول هـ و / أح م رن

حمير وأمرائه الحميريين

(المقصود بعبارة "أرض الحبشة" فى النقش، المنطقة من اليمن التى احتلها الأحباش وهى كما تبين من هذه الدراسة أنها الجزء الممتد من نجران شمالاً إلى المراكز التجارية فى وسط اليمن وجنوبه).

وينتهى النقش بتاريخ تسجيله كما يلى:

(سطر ١٠)

𐩥𐩧𐩭𐩠 | 𐩹𐩢𐩴𐩩𐩬 | 𐩹𐩡𐩱𐩧𐩨𐩲𐩺 | 𐩥𐩪𐩻 | 𐩣𐩱𐩩𐩣 | 𐩭𐩧𐩰𐩩𐩣

ورخ هـ / ذح ج ت ن / ذل أرب ع ى / وس ث / م أ ت م / خ رف ت م

تاريخه ذو الحجة لأربعين وست مائه سنة

(وسنة ٦٤٠ حميرية المذكورة فى هذا السطر تعادل سنة ٥١٨ ميلادية كما ذكرنا سابقا)

وما يهمنا من هذا النقش أنه يبرز حقيقة هامة وهى موقع ميناء " قنا " كمكان للجوء الحميريين هرباً من الأحباش فالواضح أنه ليس بسبب بعده فقط عن منطقة الاحتلال الحبشى ولكنه وهو الأهم يقع عند مدخل الفرع الشرقى للطريق التجارى الرئيسى الذى يتحكم فى تجارة الترف القادمة من الهند وفى سلعة البخور التى تتجمع فى هذا الميناء (بعد نقلها من منطقة " ظفار " الواقعة إلى الغرب من هذا الميناء) ويبدو أن اختيار سميفع أشوع ورفاقه لهذا الموقع كان من بين أهدافه حرمان الأحباش المحتلين لليمن من مصدر الثروة التى تتدفق من هذا الميناء بالإضافة إلى ضمان مورد اقتصادى له ولرفاقه أثناء هروبهم من وجه الأحباش .

وهكذا حتى فى وقت الهزائم والمحن كان للتجارة الثمينة دور فى توجيه الأحداث التاريخية فالدوافع الاقتصادية هى غالبًا– إن لم يكن دائمًا– هى أقوى الدوافع .

من كل ما عرضنا من نقوش يتبين أن غزوات الأحباش لليمن فى المرحلة الوثنية فى القرن الثالث الميلادى عندما كان الأحباش واليمنيون يعبدون نفس الالهة، كانت أهدافًا اقتصادية تستهدف المراكز التجارية الرئيسة وهى ظفار فى الجنوب الغربى لليمن ونجران فى شماله التى لم تكن فى تلك المرحلة مركزًا دينيًا رئيسًا تحمل اسم " كعبة نجران " كما سميت فيما بعد فى المرحلة المسيحية. ونفس هذه الأهداف الاقتصادية كانت الدوافع لغزو الأحباش لليمن فى المرحلة المسيحية فى القرن السادس الميلادى، فقد تركزت غزواتهم فى نفس المراكز التجارية فى القرن الثالث الميلادى، ولم تكن الأسباب الدينية إلا مظهرًا يغلف الأهداف الاقتصادية الحقيقية.

المراجع ومصادر النقوش

– اليونسكو ، ١٩٨٥

– اليونسكو، تاريخ إفريقيا العام، المجلد الثانى، حضارات إفريقيا القديمة، إشراف جمال الدين مختار.

– عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠١

– عبد المنعم عبد الحليم سيد، الآثار الباقية فى الجزيرة العربية من عصور ما قبل الإسلام، الإسكندرية.

– عبد المنعم عبد الحليم سيد ٢٠٠٣

– عبد المنعم عبد الحليم سيد، "تطور الصلات بين اليمن والأحباش وأثرها فى حضارة الأحباش " بحث منشور فى مجلة المؤرخ العربى، إصدار اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، العدد الحادى عشر لسنة ٢٠٠٣ ، ص ٢٩– ,٥٨

– موسكاتى ١٩٨٥

– موسكاتى، سبتيتو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة السيد يعقوب بكر، مراجعة محمد القصاص، القاهرة، ١٩٨٥ م.

Jamme 1962

= Jamme, A; Sabaean Inscriptions from Mahram Bilqis (Marib), Baltimore.

- **Jamme 1966**

= Jamme, A; Sabaean and Hasaen Inscriptions from Saudi Arabia, Rome.

- **Kitchen,** K. A; Documentation for Ancient Arabia, Part I, Liverpool, 1994.

– اعتمدنا على هذا المرجع فى كتابة تواريخ حكم ملوك اليمن.

- **Moberg 1922**

= Moberg, A. The Book of the Himyarites, Lund.

- RÉS

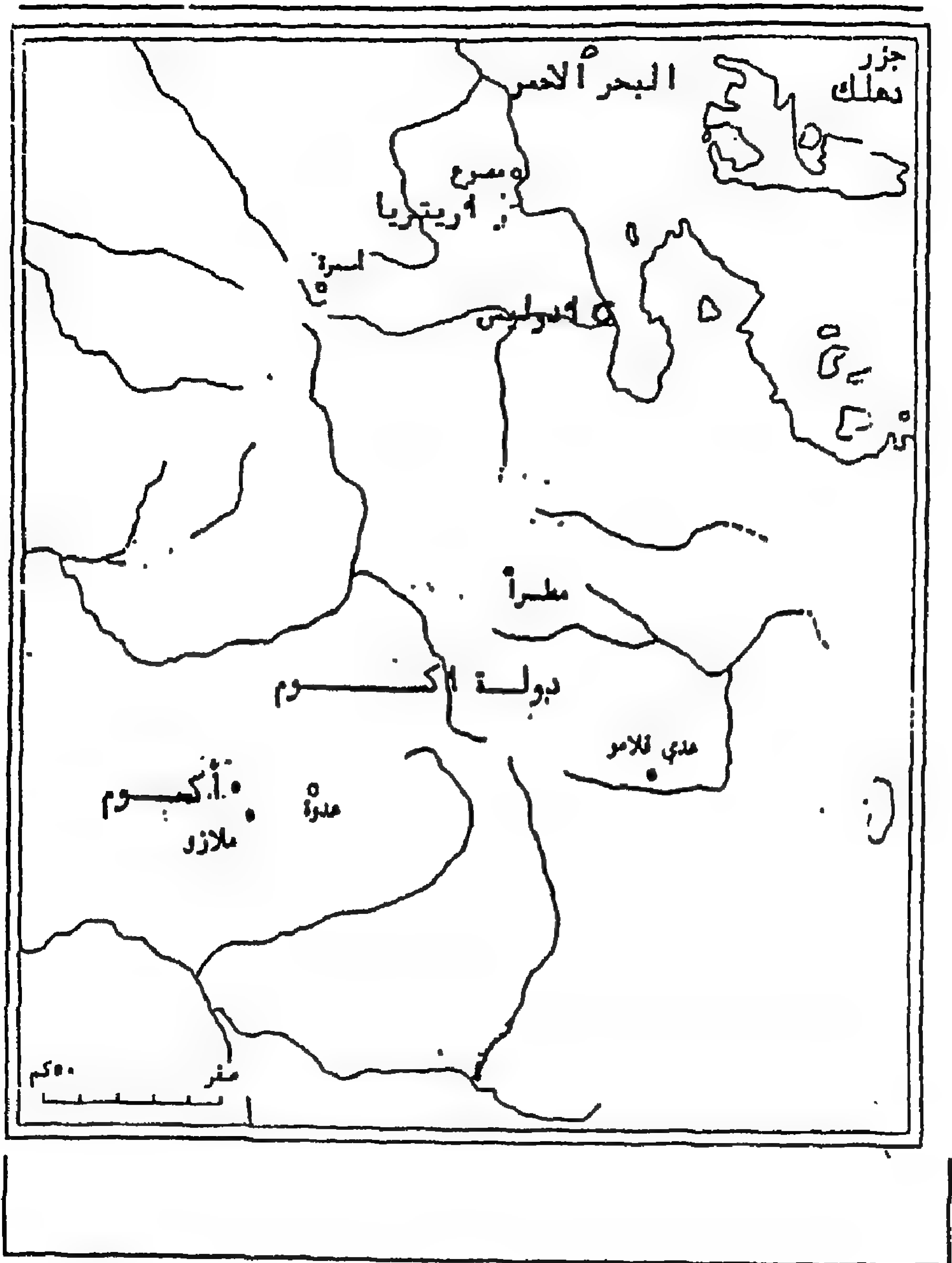
= Répertoire d'Épigraphie Sémitique, Paris.

- Ryckmans 1953 a

= **Ryckmans, G.**, " Inscriptions Sud-Arabes", Le Muséon, 66, p. 295 f

- Ryckmans 1953 b

= **Ryckmans, G.**, " Inscriptions Sud-Arabes", Le Muséon, 66, p. 280 f



خريطة رقم (١)

بيان مراكز عبادة إله القمر السبئى – مقة

فى دولة أكسوم بالحبشة فى القرن الثالث الميلادى

(خريطة رقم (٢)

بيان مسار الطريق التجارى العظيم بفرعيه الشرقى والغربى وعواصم الدول اليمنية القديمة ومواقع الحروب بين اليمنيين والأحباش فى القرنين الثالث والسادس الميلاديين

– مواقع هذه الحروب موضحة بخطين متوازين أسفل اسم الموقع .



(خريطة رقم (٣)

بيان مواقع جبال الكوب وبئر حما بالنسبة لموقع مدينة نجران حيث دون القائد " أبل – شرح يقبل " النقوش الثلاثة التى تروى أخبار الصراع ضد الأحباش

د. أحمد أمين جمعة الشريتلي(*)

اليمن ودورها فى النشاط الحضارى

١ - البحر الأحمر وأهميته والدول المطلة عليه :

تعريف البحر الأحمر :

يرجع تسمية البحر الأحمر بهذا الاسم أنه قد اشتق من التغيرات اللونية فى مياهه ، فعادة يكون لون البحر أزرق مائل إلي الخضرة ولكن البحر الأحمر نتيجة لوجود نسبة كبيرة من الطحالب التى يميل لونها إلى الأحمر بسبب عملية التمثيل الضوئى النشطة - بفضل المادة المكونة لأنسجتها - وهذه الطحالب عادة تكون قريبة من سطح البحر فينعكس لونها على مياهه فتظهر مائلة إلى الإحمرار (١).

وقد عرف البحر الأحمر منذ القدم (ببحر القلزم) ويبلغ طوله من السويس شمالاً حتى مضيق باب المندب حوالى ١٣٠٠ ميل (٢١٠٠ كيلو متر) ويبلغ متوسط عرضه حوالى ١٩٠ ميلاً بحريًا(٢) ، ويصل أقصى عرض له حوالى مائتين وثلاثين ميلاً . أما مساحته فتبلغ حوالى ١٦٩,٠٠٠ ميلاً مربعًا ، وتحيط به من الجانبين سلاسل من الجبال (٣).

---

* - دكتوراه فى الحضارات الآسيوية (فنون وعمارة وآثار إسلامية) معهد الدراسات والبحوث الآسيوية- جامعة الزقازيق .

وإذا استعرضنا تاريخ البحر الأحمر فإن أهميته فى العصور القديمة والوسطى ليست بأقل من أهميته العظمى فى عالم اليوم . فقد كان هذا البحر يمثل طريقًا من أهم طرق التجارة العالمية فى تلك العصور ، ولم يكن يضعف من أهميته هذه وجود الطرق البرية المحيطة به والتي كانت تصل بين الشرق والغرب وإنما كانت تبرز هذه الأهمية تمامًا حينما تتدهور تلك الطرق بينما يظل البحر الأحمر يزدهر بالحركة والنشاط على مر السنين .

الأهمية الجغرافية للبحر الأحمر :

لقد اكتسب البحر الأحمر أهمية استراتيجية واقتصادية كبرى للعالم كله حيث يمثل طريقًا بحريًا هامًا منذ أقدم العصور حتى يومنا هذا ، والبحر الأحمر بما فيه من جزر منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان بحرًا عربيًا إسلاميًا لكونه ضمن دار الإسلام التى شملت جميع شواطئ البحر الأحمر .

ومن هذا المنطلق فإن البحر الأحمر كان ولا يزال عاملاً للتنافس والتدخل الخارجى والصراعات المختلفة على مر العصور . كما إن خصائصه الاستراتيجية أغرت كثيرًا من الدول القوية بمحاولة السيطرة عليه مما جعله موقعًا للتنافس والصراعات الدولية والإقليمية قديمًا وحديثًا (٤).

ويتميز البحر الأحمر بين بحار العالم بموقعه الفريد لأنه من أهم البحار التى تربط بين العديد من البحار والقارات والأقاليم ، بل هو أهم أجزاء السلسلة الفقرية فى الاستراتيجية البحرية التى تمتد من المحيط الهندى ثم الخليج العربى ثم البحر الأحمر فالبحر الأبيض المتوسط ثم المحيط الأطلسى (٥).

كما يتميز البحر الأحمر بأهميته العالمية وموقعه الفريد إذ إنه يقع عند ملتقى قارات العالم الثلاث أسيا وإفريقيا وأوروبا ، كما أنه يشكل حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية وقد ظل هذا البحر على مدى العصور المتعاقبة عاملاً فعالاً لربط البلاد المحيطة به بعضها ببعض ، إذ كان طريقًا للملاحة بينها ووسيلة لتسهيل التبادل التجارى والحضارى بين شعوب العالم (٦).

وقد نظر العلماء إلى حوض البحر الأحمر المتوسط باعتباره نقطة البدء لعبور الأجناس ، والالتقاء الأول فيما بينها على الصعيد الديمغرافي والحضارى وذلك بمد رحلة طويلة دامت آلاف السنين قبل أن تتشكل خارطة الأمم التى نراها اليوم . وقد ظلت شواطئ البحر الأحمر

رغم ذلك ، وفيَّة لمبدأ التكافل بين البشر الذى سار عليه أجدادهم الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ وتمسكوا من جانبهم بشرف الحفاظ على دور الوساطة بين حضارة الأمم وتأمين سلامة سريان التجارة العالمى وتبادل الإنتاج الفكرى والحضارى(٧).

ملامح البحر الأحمر :

والواقع أن التحديد الجغرافى للبحر الأحمر من السويس إلى باب المندب هو تحديد مرتبط بالظاهرة الجغرافية البارزة الموجودة فى جنوبه وهو مضيق باب المندب ، أما البحر الأحمر تاريخيًا فلا يمكن فصله عن خليج عدن وميناء عدن والساحل الصومالى ، كما لا يمكن فصله عن قناة السويس شمالاً ، فإذا ما نظرنا إلى خريطة البحر الأحمر بصورة عامة نجد أن أهم الملامح البارزة فيه هى قناة السويس ومضيق باب المندب وخليج عدن ، بينما تبرز عدة جزر متناثرة على طول البحر الأحمر تختلف درجة أهميتها من مجموعة لأخرى ، وهناك عدد من الموانئ الهامة على طول سواحل هذا البحر بالإضافة إلى ميناء عدن (٨).

ويعتبر البحر الأحمر بمثابة حوض ضيق مستطيل من المياه يميل محوره فى اتجاه شمال شمال غرب إلى جنوب جنوب شرق ، حيث يفصل هذا البحر سواحل شبه الجزيرة العربية عن السواحل الإفريقية ، ويتفرع فى الشمال إلى خليجى السويس والعقبة ، وتفصلهما شبه جزيرة سيناء ، كما يتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط عن طريق قناة السويس التى تمر بممر البحيرات المرة وبحيرة التمساح ويتصل بخليج عدن والمحيط الهندى فى الجنوب عن طريق مضيق باب المندب (٩).

وقد ظل البحر الأحمر عاملاً فعالاً لربط البلاد المحيطة به ببعضها البعض وبغيرها من دول العالم فكان بذلك وسيلة تسهل عملية الاتصال والتبادل الحضارى والتجارى بين الدول المحيطة به ، كما أنه فى نفس الوقت يمثل المخرج الوحيد لبعض دوله الساحلية ، وبجانب الاستفادة من العمليات التجارية والملاحية فى البحر الأحمر كان أيضًا مصدراً للإثراء عن طريق فرض الرسوم الجمركية(١٠) منذ القدم .

ومن المعروف أن البحر الأحمر من حيث طريقة تكوينه الجيولوجى الفريد قد تكون على طول خط عميق انفلقت فيه القشرة الأرضية وانفصل شرقها من غربها فإذا به بحراً أخدودياً عميقًا له جرف قارى بالمعنى العلمى ، كما إن البحر الأحمر هو أكثر أجزاء الأخدود الإفريقى اتساعًا وأكبرها عمقًا ، وتحدد سواحله خطوط الصدوع من الجانبين كما تمتد الجبال والتى

تمثل جوانب الأخدود المرتفعة على كلا جانبي البحر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب تاركة بينها وبين خط الساحل سهولاً ساحلية ضيقة تتركز بها مؤثرات البحر الأحمر المناخية من حيث ارتفاع درجات الحرارة وارتفاع معدلات الرطوبة النسبية (١١). وقد نشأت الصخور الهشة لليمن وشرق إفريقيا نتيجة للانبعاثات البركانية (١٢).

مناخ البحر الأحمر :

يعتبر مناخ البحر الأحمر من أكثر بحار العالم ارتفاعًا فى درجات الحرارة والملوحة ، أما المنطقة الشمالية منه فمعتدلة نسبيًا . وتزداد حرارة سطح البحر باتجاه الجنوب والغرب وتقل الملوحة والحرارة من الشمال إلى الجنوب . أما الرياح فهى موسمية غير مستقرة وتختلف حركة التيارات البحرية بين الشتاء والصيف (١٣). ونتج عن هذه الظروف المتمثلة فى ارتفاع درجة الحرارة وارتفاع ملوحتها وصفائها – بسبب عدم وجود أنهار تصب فى البحر – توفر الظروف الملائمة لنمو حيوان المرجان ، وتنتشر الحواجز والحلقات المرجانية فى كل أنحاء هذا البحر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، كذلك الحواجز المرجانية على طول السواحل وموازية لها .

أهم الدول المطلة على البحر الأحمر :

تطل على البحر الأحمر الجزيرة العربية وبلاد الشام ومصر والسودان وساحل الدناكل وساحل الصومال من الغرب ، والبحر الأحمر حوض شريطى الشكل يفصل بين كتلتين من القشرة الأرضية هما شبه الجزيرة العربية وكتلة شمال إفريقيا وهو يتصل من الشمال بالبحر البيض المتوسط عبر قناة السويس ومن الجنوب بالمحيط الهندى عبر مضيق باب المندب (١٤). ويتفرع البحر الأحمر إلى ذراعين الشمالى الشرقى هو خليج العقبة (١٥).

ويوجد عند التقاء خليج العقبة والبحر الأحمر مضيق تيران الغربى وهو الممر المائى الوحيد الصالح للملاحة وهو موازى لساحل سيناء شمال شرم الشيخ ، أما مضيق تيران الشرقى فتكاد تسد مجراه الصخور والحواجز المرجانية ولا يتجاوز عرضه ٨٠٠ متر . أما خليج السويس فيبلغ طوله من مدينة السويس حوالى ١٧٥ ميلاً ويتراوح اتساعه ما بين ١٠ – ١٢ ميلاً (١٦) . وتوجد فى قمته العديد من الجزر والنتوءات الصخرية التى تجعل الملاحة فيه صعبة إلى حد كبير وتفصل بين خليج العقبة والسويس شبه جزيرة سيناء .

ونظراً لشكل البحر الأحمر المستطيل وشبه المقفل فإن له مداً وجزراً خاصان به يسيران غالبًا فى اتجاه عقرب الساعة ولكن ميعاد المد والجزر يختلف باختلاف الأماكن بل وقد لا يرتفع الماء أو ينخفض فى بعض المناطق (١٧).

أهم جزر البحر الأحمر :

توجد فى البحر الأحمر مئات الجزر التى تقع بالقرب من ساحليه الشرقى والغربى والقليل منها تقع بعيداً عن السواحل ، ومعظم هذه الجزر ضيق المساحة ، ونظراً لطبيعة البحر الأحمر الأخدودية وما صاحبها من نشاط نارى فإن بعض هذه الجزر من الصخور مما يدل على هذا النشاط النارى وخاصة الصخور البركانية فى عدد من جزر البحر الأحمر . ويوجد حوالى ٣٧٩ جزيرة على البحر الأحمر معظمها جزر صغيرة جداً بمعدل ١ ، ٢ جزيرة كل ميل مربع من السطح المائى (١٨). ومعظمها يقع فى الجزء الجنوبى من البحر . وأهم هذه الجزر هى بريم ومويلية الواقعتان داخل مضيق باب المندب وتتلوهما جزيرتا تيران وصنافير الواقعتان عند مدخل خليج تيران المفضى إلى خليج العقبة ، وتقع جزر جوبال عند مدخل السويس وأكبر جزيرة عند خليج السويس هى جزيرة شدوان .

وهناك جزيرة حالب أيضًا تقع فى خليج عصب عند الطرف الجنوبى من الساحل الإريترى وهى تلى جزيرة بريم وفى شمال جزيرة حالب جزيرة فاطمة ويقع أرخبيل حنيش شمال حالب وأكبر جزر هذا الأرخبيل هى جزيرة حنيش الكبرى وجزيرة رقر التى تتميز بقيمة استراتيجية عالية بفضل ارتفاعها الذى يتيح إمكانية مراقبة ورصد الأنشطة البحرية التى تجرى فى المياه المحيطة بها .

ويعد حوض البحر الأحمر وجزره المرجانية الرائعة وشواطئه الرملية الجميلة ومدنه الحالمة نقلة حضارية هامة بالنسبة لعلماء الأجناس وطبقات الأرض ، وقد نظر العلماء إلى حوض البحر الأحمر باعتباره نقطة بداية لعبور الأجناس المختلفة من شتى بقاع العالم .

ويجدر الإشارة هنا إلى أن طريق الخليج العربى لم تنجح فى منافسة طريق البحر الأحمر وهذا يعود إلى أن طريق البحر الأحمر أقصر مسافة من طريق الخليج العربى إضافة إلى صعوبة طريق الخليج المتمثلة فى المرحلة البرية القاسية التى كانت تقطعها قوافل التجارة فى أعالى دجلة والفرات إلى حلب وفيها إلى موانئ البحر المتوسط ، كما أن الملاحة فى الخليج كانت تتعرض لأخطار القرصنة (١٩).

ويمكن تصنيف أهمية البحر الأحمر واليمن فى الآتى :

١ - الأهمية التاريخية السياسية من حيث أن البحر الأحمر كان همزة الوصل بين إقليم اليمن وبين العالم المحيط به وبالأخص الأقطار العربية والإفريقية ، والعالم الخارجى فى الشرق والغرب .

٢ - الأهمية الاستراتيجية من حيث أن اليمن يسيطر على المنفذ الجنوبى للبحر الأحمر المعروف بباب المندب والذى يقع بين الزاوية الجنوبية الغربية لشبه جزيرة العرب وبين إفريقيا ويربط البحر الأحمر بخليج عدن والمحيط الهندى . وتشطر جزيرة ميون اليمنية هذا المجرى المائى إلى قناتين ، قناة شرقية عرضها حوالى ميلين وعمقها أقل من مائة قدم ، وقناة غربية عرضها تسعة أميال وربع وعمقها يقارب ألف قدم . وتجرى الملاحة عملياً عبر القناة الغربية على طريق يبعد مسافة ميلين عن جزيرة ميون وسبعة أميال عن الساحل الإفريقى .

٣ - الأهمية الاقتصادية : فقد كان للبحر الأحمر الأثر الكبير فى الحركة التجارية النشطة لليمنيين عبر العصور التاريخية المختلفة . كذلك الدور الكبير الذى لعبوه فى التبادل التجارى بين الشرق والغرب كما أن وجود الثروة السمكية فى هذا البحر قد أدى إلى انتشار القرى الصغيرة على الساحل والتى يعمل سكانها فى صيد الأسماك (٢٠).

٢ - اليمن جغرافياً وأهمية موقعها عند المدخل الجنوبى :

الشخصية الجغرافية لليمن :

لكل دولة من دول العالم شخصيتها الجغرافية التى تميزها عن غيرها من سائر الدول والتى نتج عنها تفاعل دؤب على مر العصور بين الإنسان والبيئة . واليمنيون كشعب دؤب فى كفاحه استطاعوا أن يستثمروا البيئة التى عاشوا فيها فوق أرض اليمن إلى درجة أثارت الإعجاب وأن يبنوا لهم فيها حضارة من أعرق الحضارات وأقدمها وأن يحملوا هذه الحضارة إلى شعوب أخرى كانت تعيش خارج حدودهم فكانوا بحق رسل حضارة وثقافة لهم شخصيتهم الجغرافية البارزة .

أهمية الموقع الجغرافى لليمن :

تتميز اليمن بموقع جغرافى على جانب عظيم من الأهمية فوقوعها فى الطرف الجنوبى من الجزيرة العربية عند نقطة تقترب فيها القارة الآسيوية من قارة إفريقيا ولا يفصل بينها إلا

شقة بحرية ضيقة هى بوغاز باب المندب جعلها حلقة اتصال بين القارتين ومعبراً تجتازه الجماعات البشرية على مر العصور ابتداء من عصر ما قبل التاريخ حتى اليوم فعن هذا الطريق عبرت الجماعات الإفريقية إلى جنوب الجزيرة العربية ومنه تسربت على طول السواحل الجنوبية لقارة آسيا (٢١).

وتطل اليمن على بحرين هامين هما البحر العربى وخليج عدن اللذان يجاورانها من ناحية الجنوب والبحر الأحمر الذى يجاورها من ناحية الغرب . وكان هذان البحران ولا يزالان طريقًا للملاحة الدولية تمر به التجارة بين الشرق والغرب وهو طريق رئيسى من الدرجة الأولى وطالما تنافست على التحكم فيه الدول العظمى من أيام البطالمة إلى وقتنا الحاضر .

أما البحر الأحمر فيربطها بالعربية السعودية والحبشة كما يربطها بمصر وبلاد الشام وارتباطها بالسعودية ارتباط قديم وكانت الصلات دائمة بين موانئ موزع والمخا والحديدة وبين ميناء جدة ، فكثير من الغلات الزراعية كانت تنقل من اليمن إلى السعودية عن طريق البحر وكذلك وفود الحجاج التى تأتى إليها كل عام .

تقع اليمن بين خطى عرض ١٢ْ ، ١٩ْ شمالاً وبين خطى طول ٤٢ْ ، ٥٣ْ شرقًا . أما الموقع الجغرافى لليمن فقد أعطاها استراتيجية كبيرة ، فهى تطل على جهتين هما : البحر الأحمر فى الغرب وخليج عدن والبحر العربى والمحيط الهندى فى الجنوب ، وكذلك فإن اليمن تحتل نقطة التقاء جغرافى هامة بين قارتى آسيا وإفريقيا(٢٢) .

وقد جعل هذا الموقع الجغرافى لليمن وضعًا يؤهلها للتحكم فى الملاحة البحرية من وإلى البحر الأحمر ، مما هيأ لها أن تلعب دوراً فى تاريخ التجارة الدولية القديمة ، فمن مظاهر استغلال اليمنيين لموقع بلادهم هو إرساء العديد من الصلات البشرية والاقتصادية مع العالم الخارجى مثل مصر وسواحل شرق إفريقيا وجنوب شرق آسيا .

والواقع أن ارتباط اليمن بمصر كان ارتباطًا وثيقًا منذ العهدين المعينى والسبئى ، فكانت تجارة البخور والمر رائجة فى مصر والتى كانت تحملها القوافل اليمنية قديماً وكانت تجد طريقها إلى مصر بمد مياه البحر الأحمر وكانت تتلقاها الموانئ المصرية العديدة التى قامت على سواحل البحر الأحمر منذ الأزمان القديمة .

أما ارتباط اليمن بالحبشة فيتمثل بصورة واضحة فى خضوع الحبشة يومًا لحكم اليمن وخضوع اليمن لحكم الأحباش وهو ارتباط وثيق يدل عليه الأعداد الكبيرة من اليمنيين الذين يعيشون الآن فى الحبشة ، ومن الأحباش الذين يعيشون الآن فى اليمن .

الأهمية الاستراتيجية لليمن :

الواقع أن أهمية موقع اليمن الجغرافى أعطاها إمكانية التحكم فى بوغاز باب المندب هذا المضيق الذى يفصل بين اليمن والحبشة ، وقديماً أعطى هذا المضيق نوعًا من الارتباط بين اليمن والحبشة ، كما أن باب المندب كان بمثابة المعبر الذى ظلت تجتازه الجماعات البشرية على مر العصور ، والموقع الجغرافى اليوم لا يقل أهمية عنه بالأمس حيث ازدات أهميته بعد افتتاح قناة السويس ثم اكتشاف البترول فى منطقة الخليج العربى وأخيراً فى اليمن . كل هذا ساعد على الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية لليمن (٢٣).

ويعد البحر الأحمر جزءًا من المحيط الهندى الذى يربط القارتين الآسيوية والإفريقية ففى جنوب آسيا ربط المحيط الهندى بين اليمن والحضارة وبين بلاد الهند وسيلان وأندونيسيا بل ربطهم ببلاد الصين . وعن هذا الطريق كانت تحمل التجارة بينها ومن زمن قديم وعنه انتشر الإسلام فى البلاد الآسيوية على يد العناصر اليمنية والحضرمية .

أما فى إفريقيا ربط المحيط الهندى بين اليمن والعمانيين وبين الإفريقيين على طوال الساحل الشرقى ابتداء من الرأس الإفريقى فى الصومال عبر زنجبار حتى موزمبيق ومدغشقر، ومما يزيد من أهمية الموقع البحرى لليمن أنها تتحكم فى بوغاز باب المندب الذى تمر به كافة السفن العالمية التى تمر بقناة السويس . والواقع أن هذه السفن جميعًا تمر فى المياه الإقليمية لدولة اليمن (٢٤).

والواقع أن اليمنيين نجحوا نجاحًا عظيمًا فى استغلال موقعهم الجغرافى سواء فى تلك الجبهة البحرية التى جعلت منهم بحارة مهرة ، والجبهة البرية التى جعلت منهم حملة لتجارة القوافل وحماة لها . وهكذا تحكموا فى التجارة البحرية والبرية وجنوا منها أرباحًا طائلة كانت الرخاء الذى نعم به اليمنيون زمانًا طويلاً ثم علاقاتهم الواسعة بمواطن الحضارات القديمة ومهبط الديانات السماوية جعل اليمنيين يحتضنون الديانات السماوية التى ظهرت فى شمال الجزيرة العربية .

وقد احتكر التجار اليمنيون التجارة لفترة طويلة تقدر بـ ١٥ قرنًا من الزمان ، وكان المحيط الهندى مجالاً واسعًا للتجارة حيث امتد نشاط التجار اليمنيين إلى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) وماليزيا ، حيث أسسوا مراكز تجارية عظيمة لا سيما فى جزيرة جاوة .

واستفاد الملاحون اليمنيون من حركة الرياح الموسمية الشمالية الشرقية شتاءً والرياح الموسمية الجنوبية صيفًا ، فقد كان لهم رحلتان سنويًا ، رحلة الصيف إلي جنوب آسيا ورحلة الشتاء وهى رحلة العودة إلى اليمن .

لماذا سمى اليمن بهذا الاسم :

لقد اختلف الإخباريون فى تفسير مدلول اسم اليمن : فإن الكلبى يعلل تسميتها بهذا الاسم بأن أقطن بن عابر(*) نزل فى موضع اليمن فقال العرب تيمن بنور يقطن . وذكر ابن عباس أن اليمن سميت يمنًا لأنها تقع على يمين الكعبة وهو اليمن بخلاف الشام الذى سمى شامًا لوقوعه على شمال الكعبة . وقيل أيضًا أن اليمن سمى يمنًا ليمنه والشام شامًا لشؤمه . ويرد ياقوت على ذلك : " يتامن الناس فسموا اليمن ، لأن الكعبة مربعة ، فلا يمن لها ولا يسار، فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت عن يسار أخرين ، وكذلك الجهات الأربع إلا أن يريد بذلك من يستقبل الركن اليمانى فإنه أجلها ، فإذا يصح "(٢٥) .

والواقع أن بلاد اليمن لم تكن تعرف بهذا الاسم ، ولا بهذا المعنى أو بذاك فقد ورد اسم اليمن فى نصوص سبأ القديمة باسم يمنات ويمنيت ، ومن البديهى أن اسم اليمن اشتق من يمنات . ولعل يمنات تعنى اليمن والخير ، فلقد كانت بلاد اليمن فى أقدم عصورها التاريخية بلادًا كثيرة الأشجار والثمار والزروع حتى أنها عرفت لذلك السبب باليمن الخضراء (٢٦).

٣ – اليمن عبر العصور التاريخية :

أ – الدور الإسلامى :

عندما جاءت رسالة النبى صلى الله عليه وسلم وقام بتبليغها ، كان الأوس والخزرج وهما من القبائل اليمنية التى استوطنت المدينة فى أرض الحجاز أول من آمن به وتعده فى نشر

(*) قال قوم : سمى باليمن بن أقطن بن عابر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح النبى عليه السلام ، وهو قطر المبارك عظيم البركة جاءت فيه الآثار النبوية على الناطق بها أفضل الرضوان منها : " الإيمان يمان والكعبة يمانية لأجد نفس الرحمن من قبل اليمن " وقوله صلى الله عليه وسلم : " جاءكم وفد اليمن أرق قلوبًا وألين أفئدة " . وفائدة هذا الحديث أن من رق قلبة ولان فوائده كان أسرع قبولاً للإيمان ، ولذلك إنهم آمنوا بوصول معاذ بن جبل ، وشاهدوا النبى صلى الله عليه وسلم . (ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ٤٤٧) .

الإسلام وعندما داى النبى صلى الله عليه وسلم إلى الجهاد وقام بغزواته المعروفة بل وعندما دعا خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم من بعده إلى القيام بالفتوحات الإسلامية المختلفة كان اليمنيون هم أول من لبى نداء الجهاد وأبلوا فى سبيله بلاء حسنًا (٢٧).

والواقع أن انتشار الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ومن بعد ذلك فى البلاد الإسلامية الواسعة يدين بالكثير إلى جهود القبائل اليمنية التى تحمست له وبادرت إلى رفع رايته فى كل مكان . وليس ذلك غريبًا على المجتمع اليمني ، فتلك هى طبيعته لأنه شعب متدين منذ القدم ، فلقد احتضن الديانات السماوية جميعًا وتحمس لها كما احتضن من قبل عبادة الكواكب والنجوم . ففى عهد الحضارات اليمنية القديمة عبد اليمنيون الشمس والقمر وأقاموا لها المعابد ، ثم بعد ذلك عبدوا الأصنام وأقاموا لآلهتها النصب والتماثيل (٢٨).

واعتنق اليمنيون اليهودية والمسيحية كذلك ، إلى أن ظهرت دعوة الإسلام لبى النداء اليمنيون من كان يقيم منهم فى اليمن نفسها أو خارجها . وكان سبيلهم فى ذلك إما الجهاد أو التجارة ، ففى سبيل الجهاد أسهم اليمنيون ، وهم شعب محارب بطبيعته ، فى فتح الشام تحت قيادة خالد بن الوليد ، وفى فتح العراق تحت قيادة سعد بن أبى وقاص ، وفى فتح مصر تحت قيادة عمرو بن العاص ، وفى فتح شمال إفريقية وبلاد المغرب وأسبانيا تحت قيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وفى هذه الفتوح جميعًا كان للمعينيين دورهم الهام .

ومن القبائل اليمنية الرئيسية التى أسهمت إسهامًا فعالاً فى الفتوح الإسلامية قبائل حمير وهمدان ومذحج والأزد والأشاعر وزبيد ومراد .

ومنذ مئات السنين قبل ظهور الإسلام لم تكن تعرف فى شبه جزيرة العرب دولة أو مجموعة من الدول باسم اليمن . كانت الأسماء السائدة فى المراجع القديمة القبائل الحاكمة أو ذات السلطان العريض ، فعرفت دولة معين ودولة سبأ ودولة حمير فى جنوب شبه جزيرة العرب وعرفت دولة الأنباط فى غربى شبه الجزيرة إلى الشمال والكلدنيون أو بنى خالد فى شرقى شبه الجزيرة العربية (٢٩).

والدراسة الأركيلوجية الحديثة لإقليم مأرب تبين أن ملوك دولة سبأ فى القرن الرابع قبل الميلاد كان من بين ألقابهم (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت واليمانات أى اليمن) ولكن موقع اليمن والمنطقة التى أطلق عليها هذا الاسم كانت غير معروفة (٣٠).

اليمن المهد الأول للحضارة :

كانت اليمن الحقل الصالح لولادة الإنسان الأول، ولنا أن نتخيل تحت أضواء نواميس التكوين أن اليمن شهدت تطورات هذا الإنسان يخطي منتظمة نحو مدنية العالم القديم التى تركت لنا الكتب المقدسة ، منها قصة آدم ونوح عليهما السلام والطوفان والسفينة وما حملته من كل زوج اثنين وأن قوم نوح اتخذوا آلهة ودا وسواعًا ويغوث ويعوق ، وغمرة الماضي بطوفان النسيان ، ماعدا ما حفظته الكتب المقدسة المسجلة لعروبة ذلك العهد بأسمائه وتقاليده وحضارته (٣١).

وقد عرفت بلاد اليمن قديمًا بتجارة العطور والبخور والطيوب والمر والصمغ والكافور ، وكان لمنتجات اليمن سوق رائجة فى مصر الفرعونية ، إذ كان المصريون يستخدمون اللبان اليمني والصومالى مع البخور فى المعابد ، كما كانوا يستخدمونه فى تحنيط جثث الموتى ، وبالإضافة إلى قيام أهل اليمن بتصريف منتجاتهم الوطنية فقد كانوا يعملون وسطاء للتجارة بين الهند وبلاد العراق والشام ومصر ، فعن طريق اليمن كانت لآلئ الخليج الفارسى ، والتوابل والسيوف الهندية والحرير الصينى والعاج والذهب الأثيوبى تصل إلى مصر والشام والعراق(٣٢).

وكانت لمواسم التجارة ارتباطًا وثيقًا باليمن لتميزها بموقعها التجارى الهام بأسواق موسمية معروفة مكانًا وزمانًا داخل اليمن أو خارجها ، بالإضافة إلى الأسواق المحلية ، وكانت طرق القوافل التجارية تخترق اليمن شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا ومن ثم كانت لقريش رحلتا الشتاء والصيف الدورية التى لم تختلف عنها إلا بعد أن نشب الصراع بين الإسلام وبين قريش ممثلة للجاهلية العربية ، بالإضافة إلى شخصيات قرشية تجارية هامة كانت ذات علاقة وطيدة بشخصيات تجارية يمانية (٣٣).

والواقع أن الأسواق التجارية ليست للبيع والشراء فحسب بل كانت منتديات عامة تجرى فيها كل شئون القبائل التجارية والسياسية والإدارية والأدبية والاجتماعية .

وللعلماء فى وصف اليمن وما فيه من آثار ومصنفات جمة ، ليس هذا موضع إيرادها . ومدينة اليمن صنعاء ، لأنها كانت فى الصدر الأول والعصر المتقدم كرسى ملك التبابعة ، فكل من ملك حضرموت إلى حجة ، وما وراء ذلك سمى تبعًا ، ووقع اصطلاح أهل ذلك العصر أن

كل من ولى مصر سمى فرعون ، وكل من ولى فارس سمى كسرى ، وكل من ولى الروم سمى قيصراً ، وكل من ولى اليمن سمى تبعاً ، وكل من ولى الحبشة سمى النجاشى (٣٤).

ونظراً لاختلاف التضاريس فى اليمن ، فإن هناك تبايناً كبيراً فى الأحوال المناخية فعلى الهضبة تنخفض درجات الحرارة شتاءً إلى أقل من ٥° مئوية حيث يتكون الصقيع أما فى الصيف فتكون درجات الحرارة مرتفعة وذلك بسبب قربها من خط الاستواء .

وتصل كمية الأمطار التى تسقط سنوياً على هضبة اليمن إلى ما يزيد على ٢٠ بوصة ولكنها قد تصل إلى ٤٠ بوصة فى القمم العليا حيث تسقط الأمطار بغزارة وتتميز المنطقة الزراعية فى اليمن بمحصولين رئيسيين هما البن والذى تزرع اشجاره على مرتفعات تصل إلى ١٦٠٠ متر – والقات التى أصبحت شجرته منافساً خطيراً للبن، والقات Gatha adulis شجرة تشبه شجرة الشاى إلى حد كبير والذى يصل طولها إلى ٣ أمتار وتمضغ أوراق هذا النبات التى تحتوى على سائل شديد التخدير مثل الكحول ، وينتشر مضغ القات فى اليمن بين كل فئات الشعب ، ولذلك تنتشر زراعته فى مساحات واسعة فى البلاد ، وقد وجد طريقه كسلعة تصدير إلى الخارج ، ومن هنا بدأ كمنافس شديد لشجرة البن (٣٥). وخاصة أن زراعته لا تحتاج إلى مجهود كبير بعكس البن ، ورغم زراعته فى كل مناطق اليمن إلا أنها تتركز حول منطقة تعز فى الجنوب الغربى .

الملاحة والتجارة البحرية فى اليمن :

المصريون هم أول من شق عباب البحر الأحمر طلباً للبان والمر وسلع أخرى وتعد أقدم تلك الرحلات حين أرسلت الملكة حتشبسوت بعثتها الشهيرة إلى بلاد بونت وهى البعثة التى خلدتها نقوش دير البحرى فى منتصف الألف الثانى قبل الميلاد .

والواقع أن الرحلات البحرية فى ذلك الوقت كانت تغلب عليها صفة الاستطلاع وتحف بها مخاطر جمة ، ولم تصبح بديلاً للتجارة البحرية التى أحكم اليمنيون قبضتهم عليها ، كانت محاولات الإبحار القديمة فى البحر الأحمر تهدف ، فيما يبدو إلى اختصار الطريق البرى بين مصر وبعض أجزاء من إفريقيا الشرقية لاستجلاب بضائعها المرغوبة ، ومن هنا جاءت مشاريع ربط النيل بالبحر الأحمر . أما السلع العربية والشرقية فكانت تأتى بحراً إلى مينائى قنا وعدن ثم تحمل على الجمال براً إلى سواحل فلسطين (٣٦).

ومن ثم فإن أى نشاط بحرى لليمنيين فى ذلك الوقت لابد وأنه كان محصوراً بالضرورة فى الأجزاء الجنوبية من البحر الأحمر وفى البحر العربى والخليج العربى لجلب البضائع الإفريقية والشرقية إلى موانئهم ثم نقلها إلى الشمال على قوافلهم ، وهكذا فلم تؤثر محاولات استخدام البحر الأحمر من قبل الشعوب الأخرى على تلك التجارة ومن بينها ماولة داريوس (٥٨٥ – ٤٢١ ق.م) إعادة شق القناة التى تربط النيل بالبحر الأحمر إبان احتلال الفرس لمصر (٣٧).

لقد ظلت اليمن خلال القرون الأربعة الأخيرة على الأقل تشكل قلعة حصينة أرضًا وشعبًا وتراثًا ، امتنعت على كل المحاولات التى بذلك للسيطرة أو التأثير فيها ، سواء من جانب قوى إسلامية أو عربية أو حتى أوروبية غربية . ووقفت بذلك موقفًا فريداً ربما اقتصر عليها دون غيرها من بلدان العالم العربى الحديث من مشرقه إلى مغربه (٣٨).

ب – الدور الحضارى :

اليمن مركز من مراكز الحضارات القديمة فى العالم :

فى الألف الثانى قبل الميلاد قامت حضارة راقية فى أرض اليمن ، كانت تركز على التجارة فى المقام الأول ثم على الزراعة ، أما عن المراحل التى سبقت ذلك والتى تدرجت فيها هذه الحضارة العريقة وتطورت حتى بلغت أوجها ، فقد وصلت الحضارة اليمنية إلى أوج عظمتها فى بداية الألف الأول قبل الميلاد فى عهد الملكة بلقيس عندما تم لقاؤها مع نبى الله سليمان ، وكانت هذه الحضارات معاصرة للحضارات القديمة التى قامت فى مصر والعراق وللحضارتين الإغريقية والرومانية فقامت بينهم جميعاً صلات تجارية وثيقة كان اليمنيون هم حملتها .

وأولى الحضارات اليمنية ازدهرت فى عهد المعينيين فيما بين عامى ١٤٠٠ و ٨٥٠ ق.م. وكان قيامها على مشارف الصحراء فى الطريق الشرقى فى أرض اليمن فيما يعرف حاليًا بوادى الجوف حيث يمتد طريق القوافل التى كانت تحمل التجارة من جنوب الجزيرة إلى مراكز الحضارات القديمة فى الشمال (٣٩).

وبعد المعينيين حمل السبأيون شعلة الحضارة اليمنية فيما بين عامى ٨٦٥ ، ٥٤٠ ق.م. وكانوا كالمعنيين حملة التجارة وحماة لها ، فازدهرت فى عهدهم ازدهاراً عظيماً ونهضت فى ظلها حركة الإنشاء والتعمير كما نهضت الزراعة التى كانت تعتمد على قنوات الرى وإقامة السدود التى يعتبر سد مأرب العظيم أهمها (٤٠).

ويعد السبأيين تعهد الحميرين الحضارة القديمة فيما بين عامي ١١٥ ق.م. و ٥٢٥ م فتتابعت ازدهارها ولكنها في أواخر أيامها أصابها الوهن والاضمحلال ، وفقدت التجارة أهميتها بعد أن هجرت طريق القوافل الذى كان يمتد عبر الأرض اليمنية وتحولت إلى طريق البحر الأحمر على يد البطالمة والرومان كما تدهورت الزراعة بعد انهيار سد مأرب العظيم ، وهكذا تعرضت بلاد اليمن للغزو الخارجي على يد الأحباش تارة والفرس تارة أخرى (٤١).

دولة معين :

تعتبر دولة معين من أقدم الممالك اليمنية وأكثرها جهالة عند المؤرخين الإسلاميين لعدم ورود ذكرها فى القرآن الكريم ، أما المؤرخين اليونانيون فلم يعرف مما سجلوه عنها إلا القليل ، وقد بقى تاريخ هذه الدولة مجهولاً حتى عام ١١٤٧ هـ / ١٧٦١م ، حينما بدأ المستشرقون يتعاقبون على اليمن سعياً وراء البحث ودراسة الآثار اليمنية القديمة وفى مقدمتها كارستن ينبور الدنماركية ، والدكتور ستيرن الإنجليزى ، ثم الضابط الإنجليزى جميز ويليد وغيرهم .

وقد عثر هؤلاء المستشرقون على نقوش معينة مكنتهم من معرفة بدء قيام هذه الدولة واستمرار بقاءها ، وتاريخ انقراضها وأبانت دراستهم من النصوص التى عثروا عليها فى خرائب الجوف وكخربة (معين) و (براقش) و (كمنا) و (نشق) و (ناعط) و (هران) وأن مدينة قرناو كانت العاصمة الأولى لدولة معين وأن مدينة (معين) كانت العاصمة الثانية ، وتقعان فى المنطقة الشرقية مما يلي الجوف (٤٢).

وقد أشار هاليفى الذى عثر على أكثر من ثمانين نقشًا معينيًا إلى أن هذه المنطقة هى أغنى بقعة فى الجزيرة العربية بالآثار . وذهب المستشرق فيلبى إلى أن عدد ملوك معين ٢٢ ملكًا ويتكون من خمس سلالات وأن الحكم فيها كان وراثيًا .

وكانت دولة معين أقرب الدول الجنوبية اتصالاً بالمناطق الشمالية فى شبه الجزيرة العربية ، ونشأت فى الجوف الجنوبى فيما يمتد بين حدود حضرموت وبين نجران ، وانتفعت معين بسهل متسع يمده بالخصوبة ومياه الرى وادى الخارد وفروعه .

واتخذت الدولة المعينية عاصمتها فى مدينة (قرناو « خربة معين الحالية ») فى شرق الجوف وقد ثبت مسطيلة فى مساحة صغيرة نسبيًا وتبلغ مائة ألف متر مربع ، وسورت بسور ضخم ذى مدخلين تحميهما الأبراج الحجرية ويقى جزءًا من البرجين اللذين يحفان بمدخلها الشرقى وقام إلى جانب العاصمة معبد كبير رددت النصوص المعينية اسمه وهو معبد

(رصـغم) ولا زالت بقية من أعمدته ونقوشه وزخارفه قائمة تشهد بكفاءة أصحابها حتى الآن(٤٣).

وقد تعاقبت على حكم معين خمس أسرات حاكمة لم تحتفظ النصوص الباقية بألقاب حكامها الأوائل ولكن يرجح الباحثون أن سلطاتهم بدأت بنفس الصيغة الدينية التى ظهرت عند جيرانهم فتلقب كل منهم بلقب (مزود) ربما يعنى من يزود المعبد بقرابينها ، واعتمد هذا الترجيح على بقاء مزود ضمن ألقاب حكام معين المتأخرين بعد أن تلقبوا بألقاب الملوك (٤٤).

ومنذ عام ١٩٧٥م صدر عن مركز الدراسات الشرقية بمدينة (نابولى) الإيطالية مدونة للنقوش المعينية جمعها ونسقها عالم إيطالى اسمه (جيوفانى جاربينى) وتضم تلك المدونة (٤٦٧) نقشاً هى كل حصاد نقوش منطقة الجوف ، وقبل هذا الجهد المفيد بحوالى مائة عام تمكن العالم الفرنسى (جوزيف هاليفى) من زيارة الجوف ونقل إلى المهتمين أول أخبار عن آثار الجوف ونقوشه ولأول مرة فى العصر الحديث بدأت معين تحتل مكانها فى صفحات تاريخ اليمن القديم دولة وحضارة (٤٥).

واستناداً إلى قلة عناية المؤرخين العرب مقارنة بما ذكروه عن سبأ وحمير استنتج العالم النمساوى (جلازر) فى مطلع هذا القرن أن سبب ذلك هو تقادم العهد على دولة معين ولذلك فمعين هى أقدم الدول اليمنية القديمة ، ودعم رأيه ذاك بما ورد فى نقش صرواح السبئ فى ذكر مدن نشان ونشق وغيرها من الجوف منذ القرن الخامس قبل الميلاد ، ورسخ هذا الرأى الرحالة الإنجليزى " فيلبى " فى منتصف هذا القرن عندما نشر قوائم ملوك معين وافترض القرن الثانى عشر قبل الميلاد بداية لذلك .

وقد تعود الناس بعد ذلك على الأخذ برأى " جلازر " وبقيت معين فى أذهانهم إلى اليوم أقدم الدول اليمنية القديمة . ونشر عالم ألمانى معنى بدراسة اليمن القديم ونقوشه منذ فترة قريبة مقالاً تناول معين ، واعتبر أن كتابة " تاريخ معين " أشد تعقيداً من كتابة تاريخ أية دولة يمنية قديمة ، ومن أسباب ذلك صعوبة إزاحة الاعتقاد الشائع بأن معين أقدم الدول اليمنية القديمة ، على أن السبب الرئيسى هو توقف الكشف الأثرى فى منطقة الجوف (٤٦).

دولة سبأ :

بعد انقراض دولة معين قامت على أنقاضها دولة سبأ أو مملكة سبأ(٤٧) وقد سميت باسم مؤسسها الأول عبد شمس سبأ بن يشجب يعرب بن قحطان بن عابر(٤٨) وهو الذى بنى السد

المعروف بسد مأرب " العرم " وسمى سبأ لكثرة سبيه(٤٩) وهذا هو النسب الصحيح لسبأ حسبما ذهب إليه الكثير من المؤرخين الإسلاميين وغيرهم ، وأكد على ذلك عثور بعض المستشرقين على هذا النسب حرفيًا منقوشًا فى صحيفة من النحاس فى إحدى الخرائب اليمنية حسبما آثار الدكتور جواد على فى كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام) (٥٠).

ويعتبر تاريخ سبأ هو عمود التاريخ اليمنى القديم ، وتكوينه السياسى الكبير وما تلك الدول التى ذكرت معها سوى تكوينات سياسية معاصرة لفترات سبأ ، انفصلت منها أحيانًا واندمجت فيها أحيانًا أخرى مثل دولة معين وأوسان وقتبان وحضرموت ودويلات المرتفعات ، أو اتحدت معها لتكون دولة واحدة كدولة حمير .

وأقدم الشواهد التاريخية تذكر سبأ ، وأطول صراع وأعنفه دار فى اليمن قديمًا كان حول اللقب الملكى : ملك سبأ وذى ريدان وعندما حسمت حمير الصراع فى أواخر القرن الثالث الميلادى لم يسم ملوكها أنفسهم بملوك حمير وإنما بملوك سبأ وذى ريدان ، وذو ريدان هم حمير ، ورغم أن حمير كانت هى الغالبة على حكم اليمن إلا أن سبأ تصدرت ألقاب ملوكهم تأكيدًا لتلك الحقيقة .

ويرجع تاريخ سبأ إلى عام ٧٢٠ ق.م. فى نص أشورى فى عهد الملك سرجون الثانى الذى أشار فيه أنه تسلم هدية من الذهب والأحجار الكريمة والأعشاب من " يثامر " الذى هو المكرب السبئى المعروف يثع أمر ، كما ورد ذكر المكرب كرب إيل فى نص آشورى آخر يعود إلى عهد سنحاريب أى حوالى عام ٦٩٥ ق.م. وذكر فيه أنه حين احتفل بوضع حجر أساس " بيت أكيتو" وقد يكون معبدًا أو حصنًا أو قصرًا ، استقبل مندوبًا عن الحاكم السبئى " كريبى إيلو " حمل إليه الهدايا من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والطيوب (٥١).

والواقع أن الشواهد المنقوشة من حضارة سبأ لاتزال قليلة ولا تعنى بحاجة الباحث كما أن الدلائل الأثرية الموجودة مازالت قاصرة خاصة إذا علم أن حصيلة العلماء من معلومات أثرية هى نتيجة مسح غير كامل وقد وجدت عن طريق الصدفة .

ويعتبر أقدم ذكر لسبأ ورد فى التوراة وبصيغ مختلفة حوالى ٢٣ مرة منذ القرن العاشر قبل الميلاد ، وتشير الدلائل الحبشية إلى أن هجرة بعض قبائل اليمن إلى الحبشة وإبان الدولة السبئية كانت فى حوالى منتصف الألف الأول قبل الميلاد ، وذكرت سبأ بعد ذلك فى النقوش اليمنية القديمة وفى القرآن الكريم ، وارتبط ذكرها دائمًا بالرخاء والشهرة .

ويرجع جمهور العلماء أن النبى سليمان عليه السلام قد عاش فى حوالى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، وبناء عليه فإن زيارة ملكة سبأ له ، والمعروفة باسم بلقيس لابد وأن تكون تمت فى ذات العصر .

وقد ارتبطت بسبأ معظم الرموز التاريخية القديمة لليمن ، فسبأ عند النسابة هو أبو حمير وكهلان ومنها تسللت أنساب أهل اليمن جميعاً ومهما اختلف الناس فى الأنساب إلا أنها ولا ريب جزء هام من علوم الإنسان التى إن جانبه الصواب أحياناً فهى تعكس رغم ذلك صدى مفيداً لمسار التاريخ . وبلقيس هى عند الجميع ملكة سبأ ، وهجرة أهل اليمن ارتبطت بسبأ والبلدة الطيبة التى أشار إليها القرآن الكريم هى فى الأصل أرض سبأ ، وأكثر من ذلك أن أبرز رموز اليمن التاريخية هو سد مأرب قد اقترن ذكره بسبأ وكان تكريمه فى القرآن الكريم بالذكر سبباً فى ذيوع ذكر قوم سبأ وحاضرتهم مأرب فى التاريخ الإسلامى .

أما مأرب فكانت أشهر مدينة يمنية قديمة وهى عاصمة سبأ لقرون طويلة ، وموقعها فى السهل السبئى على مشارف صحراء صيهد يتحكم بطريق التجارة الهام المعروف بطريق اللبان والذى كان يمتد من ميناء قنا إلى ساحل المحيط الهندى عبر حضرموت إلى نجران ومنها إلى ددان (العلا اليوم) ثم إلى غزة على ساحل البحر المتوسط وتدل الخرائب والاثار المنتشرة والتى تكتنف قرية مأرب الصغيرة ، على الضفة اليسرى من وادى (ذنه)، على ضخامة المدينة القديمة وعظمته ، تلك المدينة التى اعتبرها بطليموس الجغرافى الإسكندرى وسط الإقليم المناخى الأول على الأرض ، وكانت مساحة المدينة حوالى كيلو متر واحد مربع ويحيط بها سور عرضه متر تقريباً وثمانية أبواب هى نفسها أبواب المدينة (٥٢).

وسد مأرب قديم قدم ازدهار حضارة سبأ الذى يرتبط بتلك القدرة الفنية الرائعة على إقامة السد السهيد ، وآثاره الباقية تدل على أن بناء السد مر بمراحل عديدة ، وأنه تجدد مع الزمن ، وكان جدار السد متماسكاً وضخماً مما جعل بعض الناس يروون عن بناءه أجمل الأساطير فقالوا أن بنائيه هم العمالقة من قوم عاد ، (ضخامة حجارته) مثل لقمان بن عاد وذلك فى سالف العصر والزمان .

ويعتبر سد مأرب أشهر آثار اليمن وأروع عمل هندسى منذ القدم فى الجزيرة العربية وقد بنى بين مازمى الجبلية البلق الشمالى والبلق الجنوبى على وادى ذنه ميزاب اليمن الشرقى .

ووادى ذنه هو أعظم أودية مشرق اليمن كما هو وادى مور أعظم ودية مغربية ، حيث تتجمع مساقط المياه فى المرتفعات الشرقية من ناحية رداع وزمار ومراد وخولان وغيرها ، وتأتى هذه السيول التى تكون عادة موسمية في فصلى الربيع والصيف .

وقد كرم الله تعالى السد فى القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سورة سبأ : آية ١٥ ، ١٦] صدق الله العظيم .

ومن المدن القديمة باليمن مدينة صنعاء وقد ذكر ابن حوقل " أنها كانت ديار ملوك اليمن فيما تقدم " والمعروف أن السبأيين بعد حملة أيليوس جالوس على اليمن نقلوا عاصمتهم من مأرب إلى دمار (٥٣). وصرواح من المدن التى لعبت دورًا هامًا فى تاريخ اليمن القديم ، وتقع بين صنعاء ومأرب ، وينسبون بناءها إلى سليمان بن داود (٥٤). وقد اتخذ السبئيون مدينة صرواح بادئ ذى بدء حاضرة لهم ، وفيها أقاموا المعابد للإله (القمر) ثم انتقلوا فيها إلى مأرب . ومعبد صرواح الكبير اليوم من أهم آثار اليمن القديمة ، أقيم فى القرن الثامن قبل الميلاد عندما كانت صرواح حاضرة لمكربى سبأ على يد المكرب يدع إيل ذريح(٥٥) ومعين ، وكانت فى العصور القديمة حاضرة للمعنيين وإحدى مدينتين معينيتين هامتين ثانيهما براقش التى كانت تسمى بيثل وكانت تقع فى بلاد الجوفى ولم تكن تسمى بهذا الاسم وإنما كانت تعرف باسم قرنا أو قرنه ومازال موضع معين يضم كثيرًا من الآثار القديمة .

دولة حمير :

تعتبر حمير آخر الدول اليمنية القديمة حكمًا وأخلدها ذكرًا ، فقد اتفق المؤرخون أن عصر " ملوك سبأ وذى ريدان " والعصر التالى له والمعروف بعصر ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت " هما العصران اللذان برز فيهما الحميرين على مسرح الأحداث فى بلاد العرب الجنوبية ولذلك اصطلحوا على تسمية هذين العصرين بعصرى الدولتين الحميرية الأولى والحميرية الثانية .

١ – الدولة الحميرية الأولى : " ملوك سبأ وذى ريدان (١١٥ ق.م. – ٣٠٠م) :

مؤسس هذه الدولة بنو ال شرح يحضب الذى ينسب إليه الإخباريون بناء قصر غمدان أشهر قصور اليمن(٥٦) وفى عصر هذه الدولة كانت الحملة الرومانية المعروفة بحملة اليوس

جالوس حاكم مصر الرومانية عام ٢٤ ق.م. للاستيلاء على اليمن بغية السيطرة على طرق التجارة التى كان يحتكرها ملوك سبأ ، واستغلال ثروات اليمن وتطهير البحر الأحمر من القراصنة وكان فشل حملة اليوس جلوس السبب فى قيام الرومان بتغيير خططهم السياسية نحو بلاد العرب ، فعدلوا نهائيًا عن فتح هذه البلاد عسكريًا وبدا الضعف يدب فى كيان دولة سبأ وذى ريدان وتطلع البطالمة ومن بعدهم الرومان إلى احتكار الطريق التجارى عبر البحر الأحمر والتخلص بذلك من اعتمادهم على تجارة العرب فى اليمن وحضرموت (٥٧).

٢ – الدولة الحميرية الثانية " ملوك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت (٣٠٠م – ٥٢٥م) :

مؤسس هذه الدولة شمر يهرعش المعروف عند الإخباريين بشمر يرعش بن ناشر النعم تلقب عام ٢٩٠م بملك سبأ وذى ريدان وحضرموت ويمنت ، ومشر هذا عند الإخباريين هو تبع الأكبر(٥٨) الذى ذكره القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ صدق الله العظيم(٥٩) .

وذكروا أنه زحف بجيوشه إلى أرمينية ، وهزم الترك ، وهدم المدائن بدينور وسنجار ودخل مدينة السغد وهدمها فسميت شمركند أو شمر كنداى عند الفرس ، والتى عربت إلى سمرقند.

وقد شيدت مدينة ظفار عاصمة للدولة الحميرية حيث اتخذت تقويمًا خاصًا بها يبدأ عام ١١٥م قبل التقويم الميلادى ولكن النقوش المتوفرة لا تؤرخ به سوى منذ القرن الأول الميلادى ولا نعرف حتى يومنا هذا ، هذه الحادثة التاريخية التى بدأت حمير تؤرخ لها ومبلغ علمنا أن حمير كانت فى الأصل قبائل تتبع الدولة القتبانية ومناطقها الأصيلة كانت ضمن أراضى دولة قتبان .

وفى القرن الأول بعد الميلاد برزت حمير كقوة ضارية فى اليمن حيث بسطت نفوذها على أراضى شاسعة كانت ضمن سيطرة قتبان وسبأ وادعت سيطرتها على مناطق سبأ الرئيسية ويعتقد أن أول ذكر فى النقوش الحميرية عثر عليه فى حضرموت ويعود إلى القرن الأول الميلادى ، ويروى ذلك النقش أن الحضرميين صدوا حملة على المناطق الجنوبية مما يوحى بأن حمير آنذاك كانت قد وسعت سيطرتها حتى بلغت السواحل الجنوبية ، ثم خرجت حمير منتصرة فى صراع القوى الذى احتدم بين الأسر المتعددة فى اليمن فى نهاية القرن الأول الميلادى ودام حوالى مائة وخمسون سنة (٦٠).

من أهم مظاهر الحضارة اليمنية القديمة :

١ – سد مأرب :

إن روعة وضخامة سد مأرب بأجزائه تدعوا إلى الشك فيما إذا كان قد بدا هكذا منذ عهد سمه على ينوف ، وعهد يثع أمرين ، وقد تعرضت جدران السد أكثر من مرة للهدم نتيجة لتراكم الإرساب خلفها ، وأيضاً بتأثير عامل الزمن فى مبانيها ، وسجل عدد من السبئين عدد مرات الإصلاح التى تمت فى عهدهم وكان على سبيل المثال أن أعيد بناء الهويس الشمالى فى عهد الملك " ثاران يهنعم بن نمار على يهد " وابنه " ملكى كرب الذى كان يشاركه فى الحكم وذلك فى حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى (٦١).

أما مأرب فتقع عند ملتقى طرق تجارة القوافل القديمة الواردة من بيجان وحضرموت وموانئ البحر العربى ، فضمنت لنفسها موارد اقتصادية كبيرة من التجارة وقامت فى الوقت نفسه عند النهاية الشمالية الشرقية لتل يمتد نصف كيلو متر مربع ويعرض ٣٥٠ متراً ما كفل لها بعض الحماية الطبيعية (٦٢).

وكانت الأمطار الغزيرة تسقط على المرتفعات فى مواسمها وتجرى على هيئة سيول شديدة أحياناً فى عدة وديان وينتهى بعضها إلى فتحة طبيعية كبيرة توسطت بين جانبى جبل بركانى مرتفع يسمى جبل البلق ، وهو جبل بين الصحراء وبين المرتفعات فى منطقة مأرب .

وتعد فكرة بناء السد التى استغلها السبئيون من أجل ثلاثة أغراض هامة ، وهى أن يقللوا من اندفاع السيول إلى وادى اذنة وما يمكن أن تؤدى إليه من بوار الزرع وتدمير القرى فى مواسم الأمطار العنيفة ، وأن يحولوا دون ضياع أغلب مياه السيول فى جوف الأرض حين تجاوز هذا الوادى ، وأن يرعوا مستوى مياه الرى عدة أمتار عن طريق فتحات جانبية يسهل التحكم فيها .

وهكذا يميل الرأى إلى تعديل الفكرة القديمة عن الغرض من السد وهى فكرة تخزين المياه خلف بحيرة صناعية أو نحوها نظراً لوجود بيئة يمكن أن تشرب أرضها المياه بسهولة ويسر. وظل سد مأرب يؤدى أغراضه حتى عهد أبرهة فى عام ٥٧٠م أى بعد بداية ما وصلنا عنه بأكثر من أحد عشر قرناً ، ثم انهار حوالى عام ٥٧٥م بما وصفه القرآن الكريم فى سورة سبأ ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ [الآيات ١٥ – ١٨] وأقام السبئيون سدوداً أخرى محلية فى عهود متفرقة فى المناطق التى تصلها مياه السهل بعيداً عن منطقة مأرب(٦٣) .

٢ – كتابة المسند :

فى الواقع أن خطوط الكتابات القديمة التى سبقت الخط العربى فى شبه الجزيرة العربية تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين مجموعة شاعت فيها كتابة المسند ، وكتابة استخدمتها الدول العربية الجنوبية المتحضرة قديماً ، سبأ وقتبان ومعين وحضرموت وأوسان ثم شاركتها فيها بعض الإمارات والجماعات العربية الشمالية فى شبه الجزيرة وما يتصل بها جنوب الشام ، بعد أن صور كتبتها فى أشكال حروفها بما يتفق مع مدى اتفاقهم لها وربما يناسب مخارج ألفاظهم تعديلات عفوية أحياناً وتعديلات مقصودة أحياناً أخرى . وهكذا خرجوا منها بخطوط إقليمية يمكن التمييز فيها أيضاً بين خطوط فرعية محلية اختلفت فيما بينها اختلافات قليلة ، ثم مجموعة أخرى من الخطوط اعتمدت أساساً على قواعد الكتابة الآرامية ، وكتب بها فرق أخرى من الدول والإمارات العربية الشمالية بعد أن قام كتبتها بتحويرها تحويراً مختلفاً إلى حد ما (٦٤).

وتضمنت كتابة المسند تسعة وعشرون حرفاً لم نعرف أسمائها القديمة ولا ترتيبها القديم حتى الآن ولكن تشابهت أصوات ثمانية وعشرون حرفاً منها أصوات حروف الهجاء الحالية .

٣ – الفن المعمارى :

لقد أنشئ معبد صرواح الكبير لمعبود دولتها الأكبر الذى أطلق عليه اسم (المقة) كان لفظ (ال) أو (إيل) عند العرب الجنوبية وعند شعوب سامية وقديمة أخرى فى العراق وفى الشام يدل على معنى الإله ثم استخدم بهذا المعنى مثل أسماء إسماعيل وجبرائيل وميكائيل وهلم جر. أما العناصر المعمارية الظاهرة تألفت فى معبد (المقة) فى صرواح من جزئين ضخمين أحدهما مستطيل واسع ، والآخر يتصل به ويبدو هيئة البيضاوى الناقص وتضمن أحد نصوص المعبد اسم الكرب يدع إيل ذراع ونكر أنه سور معبد (المقه) ويميل الدارسون إلى تاريخ عهد هذا المكرب نحو ٦٦٠ق.م. ويبدو أنه لم يشيد المعبد كله ، إنما بدأ بتوسيع معبد صغير قديم لمعبود قومه وعمل على تسويره (٦٥).

الصيغة الدينية التى استعان بها المكربون فى تدعيم حكمهم جعلتهم يولون اهتماماً كبيراً لمعابد معبوداتهم ، إظهاراً لتقواهم الشخصية ، وتأكيداً لصلتهم الروحية بهذه المعبودات ، عملاً على كسب ولاء رجال الكهنوت وبعض المدنيين أيضاً عن طريق تخصيص المرتبات الدينية لهم من عائدات هذه المعابد .

وقد أنشئ معبد " معرب " فى قرية المساجد ببلاد مراد وعلى بعد ٢٧كم من مأرب الحالية ، من أجل " المقه " أيضًا وقد أقيم الجزء الداخلى من المعبد الذى تألف من بهو أعمدة بقيت منها ثلاثة ألوان ، ويعقبه إلى الداخل فناء كبير تقوم فى أواسطه مقصورة العبادة الرئيسية وتحمل سقفها أربعة أعمدة فى صفين ، بينما يتقدم المقصورة صفة ذات ستة أعمدة ولاتزال هذه المجموعة المعمارية فى المعبد تحتفظ بروعتها على الرغم مما لحق بها من تهدم ، وهى التى لا تزال عليها أكثر من ما تبقى من آثار الأمم القديمة ونتيجة لبناء أغلبها من الأحجار الصلبة ، ومحافظة القدماء عليها بالترميم جيلاً بعد جيل ، كما تعتبر الآثار الموجودة من أصدق الدلالات على مدى الإمكانيات الفنية فضلاً على المعتقدات الدينية لهم (٦٦).

الهوامش

١ – خديجة الهيصمي : سياسة اليمن في البحر الأحمر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٢م ، ص ٦ .

٢ – الميل البحرى = ١٨٥٢متراً = ١,٨٥٢ كيلو متراً – الميل البحرى المربع = ٣,٤٣٤ كيلو متر مربع – العقدة البحرية = ١ ميل بحرى – الميل البحرى = ١٦٠٩ متراً = ١,٦٠٩ كليو متراً – الميل البحرى المربع = ٢,٦ كيلو متر .

٣ – نبيل أحمد حلمى : أمن البحر الأحمر والقرن الإفريقى ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٤ أكتوبر ١٩٧٨م ، ص ٨١ .

٤ – عبد الله عبد المحسن سلطان : البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٤م ص٣ .

٥ – أحمد محمد بن بريك : اليمن والتنافس الدولي في البحر الأحمر ، دار الثقافة العربية ، ط١ ، ٢٠٠١ ، ص ١٣ – ١٤ .

٦ – محمد الشعيبي : اليمن (الظواهر الطبيعية والمعالم الأثرية) ، دراسة تطبيقية ومنهجية ، دار الكتب العامة ، صنعاء ١٩٩٨م ، ص ٥٦ .

٧ – عبد اللطيف بن محمد الحميد : البحر الأحمر والجزيرة العربية في الصراع العثماني خلال الحرب العالمية الأولى ، ط١ ، الرياض ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ص ١١ .

٨ – أنور عبد العليم : البحار والمحيطات ، الدار القومية للطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ١٩٦٤م ، ص ٢٥٣ – ٢٦٧ .

9 - Farid Abdel Magid, the Red sea prospect stability , London, 1992 , p. 72 .

10 - R.W. Girdier, the sea. Ageopotyeal Background, New York, Hot Brnes, 1984, p. 48 .

١١ – أمال شاور : الإطار الجغرافي في البحر الأحمر ومجموعاته الجزرية ، جزر البحر الأحمر ، القاهرة ، ١٩٧٧م ، ص ٢٥ .

١٢ – أجيه يونان جرجس : البحر الأحمر ، مضايقه بين الحق العربي والصراع العالمي ، القاهرة ، ١٩٧٧م، ص ١٢ .

١٣ – على حميد شرف : الجزر والفنارات اليمنية في البحر الأحمر (خليج عدن – البحر العربي) ، دار التوجيه المعنوى ، اليمن ، ط٣ ، ٢٠٠٢ ، ص ٣٣ .

١٤ – أحمد شقيله : الاستراتيجيات في البحر الأحمر ، مجلة معين ، صنعاء ، ١٩٩٠م ، ص ١٣ .

١٥ – عبد البارى اللجم : خليج العقبة ومضائق تيران ، الموصل ، ١٩٧٨م ، ص ٥ .

١٦ – محمود توفيق محمود : البحر الأحمر فى الاستراتيجية الدولية ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٧ ، القاهرة ، ١٩٧٩م ، ص ٢٨ .

١٧ – خديجة الهيصمى : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

١٨ – محمود توفيق محمود : المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ، دراسة فى الجغرافية السياسية والجيوبولتيكس ، الرياض ، دار المريخ ، ١٩٨٣م ، ص ٢٨ .

١٩ – فاروق عثمان أباظة : عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، ١٨٣٩م – ١٩١٨م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦م ، ص ٢٢ .

٢٠ – السيد عليوة : سياسة اليمن فى البحر الأحمر ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ٥٤ ، أكتوبر ١٩٧٨م ، ص ٩٦ .

٢١ – محمد متولى ، محمود أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ، جـ٣ ، ط٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م ، ص ٨ .

٢٢ – عبد الله محمد أحمد : جغرافية اليمن الطبيعية ، المنتدى الجامعى للنشر والتوزيع ، صنعاء ، اليمن ، ط٢ ، ٢٠٠٢ ، ص ٦ .

٢٣ – نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٢٤ – محمد متولى، محمود أبو العلا : المرجع السابق ، ص ٧ .

٢٥ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الإسلام ، مؤسسة شباب الجمعة ، ط١ ، الإسكندرية ، ٢٠٠٠م ، ص ٨٩ .

٢٦ – تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى : بهجت الزمن فى تاريخ اليمن ، محمد أحمد السنباتى، دار الحكمة اليمنية ، صنعاء ، ط١ ، ١٩٨٨م ، ص ١٧ .

٢٧ – محمد متولى ، محمود أبو العلا : جغرافية شبه جزيرة العرب ، المرجع السابق ، ص ٢٦ .

٢٨ – نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٢٩ – نفس المرجع ، ص ٧ .

30 - Wenner M.W. Modern vemen (1918 - 1966) Beltimore, 1967, p. 72 .

٣١ – عبد الله بن عبد الوهاب المجاهد الشماحى : اليمن (الإنسان والحضارة) منشورات المدينة ، بيروت، ١٩٨٥م ، ص ٣ .

٣٢ – فتحى محمد أبو عيانة : دراسات فى جغرافية شبه جزيرة العرب ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، ١٩٩٦م ، ص ١٤٦ .

٣٣ – صالح أحمد العلى ك محاضرات فى تاريخ العرب ، ج–١ ، بغداد ، ١٩٥٩م ، ص ١٥ .

٣٤ – عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع : تاريخ اليمن فى الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، دار الفكر ، صنعاء ، اليمن ، ط٣ ، ١٩٩٩م ، ص ٤٥ .

٣٥ – تاج الدين عبد الباقى ، المرجع السابق ، ص ١٧ .

٣٦ – محمد عبد الله باقيه : تاريخ اليمن القديم ، مؤسسة الدينية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص ١٧٩ .

٣٧ – نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٣٨ – ادجار أوبلانس : اليمن (الثورة والحرب حتى عام ١٩٧٠م) ، ترجمة وتعليق عبد الخالق محمد لاشين، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٩٠ ، ص ٥ .

٣٩ – محمد متولى ، محمود أبو العلا : المرجع السابق ، ص ١٩ .

٤٠ – نفس المرجع .

٤١ – نفس المرجع .

٤٢ – عبد الله حسن الشيبة : دراسات فى تاريخ اليمن القديم ، مكتبة الوعى الثورى للطباعة والنشر ، ط١، تعز ١٩٩٩م ، ص ٤٤ .

٤٣ – نفس المرجع ، ص ٤٥ .

٤٤ – نفس المرجع .

٤٥ – يوسف محمد عبد الله : أوراق فى تاريخ اليمن وآثاره ، دار الفكر ، سورية ، ط٢ ، ١٩٩٠م ، ص ٢١٢ .

٤٦ – نفس المرجع .

٤٧ – ابن رستة : الأعلاق النفيسة ،لندن ، ١٨٩٢م ، ص ١١٣ .

٤٨ – ياقوت الحموى : معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة سبأ ، ص ١٨١ .

٤٩ – نفس المصدر : مجلد ٥ ، مادة مأرب ، ص ٣٤ .

٥٠ – تاج الدين عبد الباقى : نفس المرجع .

٥١ – عبد الله حسن الشيبة : المرجع السابق ، ص ١٢ .

٥٢ – يوسف محمد عبد الله : المرجع السابق ، ص ٢٠٣ – ٢٠٥ .

٥٣ – صالح أحمد العلى : محاضرات فى تاريخ العرب ، جـ١ ، بغداد ، ١٩٥٩م ، ص ٢٤ .

٥٤ – ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ، مادة صرواح ، ص ٤٠٢ .

٥٥ – أحمد فخرى : اليمن ، بحث فى المؤتمر الثالث للآثار العربية المنعقدة فى فاس ١٩٥٩م ، القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢٣٤ .

٥٦ – الهمدانى : الإكليل ، جـ٨ ، تحقيق د/ نبيه أمين فارس ، ١٩٤٠م ، ص ١٩ .

٥٧ – فيليب حتى : تاريخ العرب ، ترجمة محمد مبروك نافع ، ص ٦٩ – ٧٢ .

٥٨ – السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١١٤ .

٥٩ – سورة الدخان ، الآية ٣٧ .

٦٠ – يوسف محمد عبد الله ، المرجع السابق ، ص ٢٤٩ .

٦١ – نفس المرجع ، ص ٢٥٠ .

٦٢ – عبد الله الشيبة ، المرجع السابق ، ص ٩٩ .

٦٣ – نفس المرجع ، ص ٩١ .

٦٤ – نفس المرجع ، ص ١٠٠ .

٦٥ – نفس المرجع ، ص ٨٢

٦٦ – نفس المرجع ، ص ٨٩ .

أ.د. أحمد بن عمر الزيلعي (*)

بنو الزيلعي العقيليون (أصحاب اللحيّة) وانتشارهم في تهامة اليمن وجنوب غرب المملكة العربية السعودية

مدينة اللحيَّة – الموقع والتاريخ :

اللحية (تصغير لِحْيَة) مدينة ساحلية تقع إلى الشمال من الحديدة بمسافة ١٢٠كم، وهي من الموانئ المعروفة في أقصى الشمال الغربي للجمهورية اليمنية، وتعد من مغاصات اللؤلؤ الشهيرة في شرقي البحر الأحمر، وإلى الشرق منها سلسلة جبال الملح الممتدة من الصُلَيْف وجبل القُمَّة وغيرها، ومن هذه السلسلة يستخرج معدن الملح الحجري الذي تشتهر به تهامة اليمن(١). وإليها يصب وادي مَوْر المشهور والمعروف باسم : ميزاب تهامة الأعظم(٢)، ولايضاهيه في العظم إلا وادي بَيْش في منطقة جازان بجنوب غرب المملكة العربية السعودية(٣). واللُّحَيَّة مدينة غير مسورة، ولكنها محاطة بآكام مرتفعة عليها اثنتا عشرة قلعة من بناء الأتراك العثمانيين ، بين كل قلعة وأخرى حوالي من ٢٠٠ إلى ٢٥٠م ، ولكل منها باب مرتفع يصعد إليه بسلالم ، بعضها متحرك(٤). وهي في الوقت الحاضر مديرية تتبع لواء الحُدَيْدَة ويتبعها من المراكز الإدارية وادي مَوْر ، والزُّعْلِيَّة، والبعْجِيَّة (٥)، ويربطها بالطريق الرئيسي الواصل بين المملكة العربية السعودية واليمن عبر تهامة– طريق فرعي طوله ستون كيلو مترا يتجه إليها غرباً من مفرق المُعَرَّس الواقع على بعد ٨٦ كم

* قسم الآثار والمتاحف – كلية الآداب– جامعة الملك سعود – الرياض .

شمال شرق مدينة الزَّيْدِيَّة(٦). وهذه الأخيرة مدينة تهامية معروفة تقع على وادى سُرْدُد إلى الشمال الشرقى من مدينة الحديدة بمسافة ٦٥كم (٧). ويجتازها الطريق الواصل إلى الحديدة من منفذ الطُّوال الحدودى بالمملكة العربية السعودية.

كانت اللحية منذ مطلع العصور الحديثة من الموانئ الرئيسية فى شمال اليمن على البحر الأحمر (٨)، وكانت معبراً للقوات العثمانية القادمة إليها من الحجاز (٩). تلك القوات التى سببت لمدينة اللحية معاناة طويلة لاتقل عن معاناتها من حروب أخرى طويلة سنأتى إلى ذكرها بعد.

وقد زارت اللحية البعثة الملكية الدنماركية فى عام ١٧٦٣م (١١٧٦هـ) فوصلتها فى ٣٠ ديسمبر ١٧٦٢م (١١٧٦هـ)(١٠)، واستقبلت فيها استقبالاً كريماً أثَّر فى نفس كارستن نيبور العضو الوحيد من أعضائها الذى بقى حيًا، وكتب عنها فيما بعد (١١). لقد طابت لأعضاء الفريق الإقامة فيها، والتنقل بين أرجائها، والاختلاط بسكانها الذين تقبلوا هؤلاء الوافدين الغرباء ، وأكرموهم ، وقدموا لهم مختلف التسهيلات (١٢). وقد وصف نيبور اللحية وصفًا دقيقًا عرض فيه لموقع اللحية، وتحصيناتها الدفاعية، وطبيعة مينائها، وتأثره برياح الشتاء والصيف التى تتحكم بدرجة كبيرة فى عمق غاطسه وضحالته تبعًا لحركتى المد والجزر (١٣). وعرض نيبور كذلك لوصف بيوت اللحية، ومواد البناء المستخدمة فيها، كما عرض لمواردها المائية المتمثلة فى عدة آبار تقع خارج المدينة، وزود نيبور ما قدمه من وصف لمدينة اللحية بمُصورين نادرين ، أحدهما خريطة لمدينة اللحية، والآخر صورة أو رسم لمينائها من جهة البحر(١٤).

ومثل ما عانت اللحية من غزوات العثمانيين على اليمن عانت كذلك من الحروب التى اجتاحت المنطقة فى النصف الأول من القرن الماضى؛ فقد قصفتها مدافع الأسطول الإيطالية من البحر فى سنة ١٩١٢م (١٣٢٩هـ) خلال الحرب الإيطالية التركية(١٥).

وبعد ذلك بحوالى ست سنوات أى فى سنة ١٩١٨م (١٣٣٧هـ) تعرضت اللحية للضرب من قبل الأسطول البريطانى بوصفها آخر المواقع البحرية اليمنية التى ظلت بأيدى الأتراك العثمانيين فى اليمن خلال الحرب العالمية الأولى (١٦). وتعرضت فى الوقت نفسه لغزو برى من قبل القوات الإدريسية المتحالفة مع الإنجليز إلى أن أسلمت قيادها للقوات الغازية من البحر، ثم من البر. وقد أثرت هذه الحرب وخصوصًا البحرية منها على الكتلة العمرانية لمدينة اللحية، ولاتزال آثار تلك الحروب على مساكن المدينة ومرافقها العامة بادية حتى اليوم كما سيأتى.

تلت هذه الحروب حروب أخرى اصطلت بها اللحية، ومنها حرب الإمام يحيى مع الأدارسة بين عامى ١٣٤٣-١٣٤٤هـ / ١٩٢٥-١٩٢٦[١٧]، ثم حربه مع الملك عبد العزيز فى عام ١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م [١٨]. تلك الحرب التى انتهت بتوقيع معاهدة الطائف بين الملك عبد العزيز والإمام يحيى حميد الدين فى ٦ صفر عام ١٣٥٣هـ/ ١٩ مايو ١٩٣٤ م. وبموجب تلك المعاهدة انسحبت القوات السعودية من تهامة اليمن بما فيها مدينة اللحية التى انتقلت تبعتها من المملكة العربية السعودية إلى اليمن.

مشيخة اللحية وعمران المدينة :

تجمع المصادر والمراجع المتاحة على أن عمران مدينة اللحية يرجع إلى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى حينما استوطنها الفقيه الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى الذى شهدت المدينة فى زمانه إقبالاً كبيراً من تلاميذته ومريديه، وأصبحت من أكثر المدن ازدهاراً فى وادى مور، ومن أفضلها اتساعًا حتى وفاته فى عام ٧٠٤هـ / ١٣٠٤ - ١٣٠٥م كما سيأتى، ثم تطور عمران المدينة وازدهارها فى عهود ذريته الذين تقلّبوا على مشيخة اللحية حتى وقت ليس ببعيد.

على أننا قبل الدخول فى الحديث عن ذرية الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى، وتولى بعضهم مشيخة اللحية، وانتشار آخرين فى أمكنة أخرى بعيدة فى اليمن، والمملكة العربية السعودية، وكذلك الحديث عن الكتلة العمرانية للمدينة بما فى ذلك المسجد الجامع المنسوب إليه- يحسن بنا أن نعرض لترجمة الشيخ الزيلعى، وما كان عليه حاله فى حياته، ثم تراثه بعد مماته.

تلقى الشيخ الزيلعى فى صغره القراءة والفقه على يد الشيخ حسان «صاحب الحَرُورْ» المعروفة فى بلاد الطَّرَف من أعمال مديرية بُرَع بمحافظة الحديدة ، ثم قرأ كتب الغزالى، وبرع فى علم السلوك «التصوف» [٢٠]. بعد ذلك انتقل إلى اللحية، وبنى بها مصلى لايزال موضعه معروف فى مؤخرة مسجده بالركن الغربى لجامعه الكبير المعروف حاليًا باللحية[٢١]. ثم انتقل بعد ذلك إلى قرية المَحْمُول ، إحدى قرى وادى مور على ساحل المحالب بالقرب من اللحية، وبنى فيها زاوية معروفة حتى وقتنا الحاضر [٢٢]، ثم عاد إلى اللحية، وبنى بها مقدمة مسجده الجامع «وهو بناء عجيب لم ير مثله فى الناحية» على رأى المؤرخ اليمنى ابن الأهدل [٢٣]. ولهذا يعرف الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى فى معظم الكتب التى عرضت لسيرته بصاحب اللحية والمحمول[٢٤] .

ترجم للزيلعي كثيرون من مؤرخي اليمن الذين عرضوا لسيرته، ومنهم الجندى (ت حوالي ٧٣٠هـ / ١٣٢٩-١٣٣٠م) الذى ينعته بالفقيه الصالح، ويصفه بأنه كان «كبير القدر، شهير الذكر، معروفًا بالعلم والعمل ، صاحب كرامات ومكاشفات »(٢٥). ويمثل هذه النعوت التي يطلقها الجندى على الفقيه الزيلعي تابعه مؤرخ يمنى آخر هو الخزرجي (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م)(٢٦). والظاهر أنه ينقل عن سابقه بالحرف. أما ابن الأهدل (ت ٨٨٥ / ١٤٨٠م) فيفرد لترجمة الزيلعي حيزًا واسعًا في كتابه : علماء اليمن، حينما ينعته بالفقيه الصالح العلامة، وبأنه «كان مشهورًا بالعمل والورع والزهد والعبادة والكرامات »(٢٧)، ثم يتحدث عن بعض كراماته، وعن نفوذه الروحي وعن مسجده في اللحية، وزاويته بالمحمول ، ويذكر بأنه كان يطعم مائة فقير منهم ستون في اللحية، وأربعون في المحمول (٢٨) . وممن ترجم للشيخ الزيلعي من مؤرخي اليمن أبو العباس الشرجي (ت ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م) في كتابه : طبقات الخواص ، وعنه يقول : «هو أبو العباس أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي الهاشمي من عباد الله الصالحين، ومن أعظمهم مجاهدة وعبادة وزهادة »(٢٩). ويقول عنه الوشلي في كتابه: نشر الثناء الحسن: «والذى قَرّره غير واحد من المؤرخين أن الزيلعي عقيلي منسوب إلى عقيل بن أبي طالب، أخي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فهم قرشيون هاشميون أولاد عمنا عقيل بن أبي طالب الذي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم وهل ترك لنا عقيل من دار؟»(٣٠)، ثم يتحدث الوشلي عن علمه وصلاحه وعلو قدره، كما تحدث عنه، وعن نسبه وذريته، وفضلهم في رسالة أخرى له عنوانها : إرهاف السيف الصقيل في فضل بني عقيل(٣١). أما محمد بن أحمد العقيلي فيتناول سيرة الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي بمثل ما يتناولها سابقوه من الثناء عليه، وعلى عمله، وصلاحه ، وزهده ويقول عنه «إنه من العُبَّاد المتقين الذين تَزَيَّد الكاتبون في سيرتهم ، وغلوا في شخصياتهم، والغلو ضلال مبين»(٣٢).

وممن عرض لترجمة الفقيه أحمد بن عمر الزيلعي من الكتاب المُحْدثين أحمد بن علي الراجحي العقيلي في كتابه : العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، وهو كتاب جامع لبني عقيل يمن فيه الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي وذريته ، وقد فصل في نسب الشيخ وترجمة حياته، وانتشار ذريته في اليمن وخارجها ، وكتابه هذا من المراجع الأساسية المهمة لهذا البحث(٣٣) . وممن ترجم للزيلعي من الكتاب المحدثين كذلك، زين رشيد الشافعي حيث عرض لنسب الشيخ، وحياته في اللحية والمحمول، ولبعض من ذريته، خصوصًا من هم منهم في جازان ومحافظة القنفذة(٣٤) . أما علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين فقد أورد في كتابه: الأغصان لشجرات أنساب قحطان وعدنان جداول قيمة لذرية الشيخ أحمد بن عمر

الزيلعي (٣٥). وآخر من عرض من الكتاب المحدثين لذكر الشيخ الزيلعي، وأورد سلسلة نسبه وترجم لبعض أحفاده – عاتق بن غيث البلادي في كتاب له بعنوان : بين مكة وبرك الغماد– رحلات ومشاهدات(٣٦).

يتضح مما سبق أن الفقيه الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي كان من عباد الله الصالحين، وأنه كان له مريدون كثيرون في زمانه ، وأن مدينة اللحية شهدت في عصره نمواً وازدهاراً خولها لأن تكون من أكثر المدن ازدهاراً في تلك الناحية. أما عن صلاح الشيخ الزيلعي، وتمرسه في العبادة فخير ما نسجله عنه هنا شهادة مؤرخ كان قريباً جداً من عصره ، هو الجندي المؤرخ اليمني المعروف الذي يذكر أنه قدم عليه في الجَنَد أحد الفقهاء الملازمين للشيخ الزيلعي فسأله عن سيرته في العبادة، فقال عن الشيخ الزيلعي (رحمه الله) : «كان يخرج في الثلث الأخير من الليل إلى المسجد فلا يزال مصلياً تالياً للقرآن حتى الفجر ، فيركع ثم يصلي الفرض، ثم يشتغل بالذكر حتى تطلع الشمس، ثم يركع الضحى ، ثم يقبل على أصحابه فيعظهم، ويتكلم معهم بالحكمة حتى يرتفع النهار، ثم يقوم إلى البيت، فيدعو الناس للغذاء فلا يزالون يتغذون فوجاً فوجاً إلى الزوال، ثم يتوضأ ويخرج إلى المسجد فيصلي التحية حين يدخله ، فإذا ثبت عنده الزوال صلى الظهر بعد الأذان والسنة، ثم يشتغل بالذكر والتلاوة حتى يصلي العصر، ثم يقبل على الناس يعظهم ويرشدهم ساعة، ثم يدخل داره، ويستدعي الناس فيعشيهم إلى الغروب، ثم يدخل المسجد فيصلي المغرب، ثم يمكث حتى يغيب الشفق فيصلي العشاء، ويمكث في المسجد إلى الثلث الأول، ثم يدخل داره، فهذا دأبه مدة حتى توفي»(٣٧). وقد تواتر ذكر هذه القصة عند كثير من المؤرخين اليمنيين الذين جاءوا بعد الجندي، ونقلوا عنه، كما نقلوا عنه كثيراً من كرامات الشيخ الزيلعي ومكاشفاته(٣٨). تجدر الملاحظة إلى أن هؤلاء المؤرخين الذين تناولوا سيرته، ونسبوا إليه مثل هذه الكرامات والمكاشفات التي لا تكون لأحد من البشر مهما بلغ من التقوى والصلاح– كانوا ينطلقون من روح عصرهم، وتقاليد زمانهم الذي كانت تسوده بعض الغيبيات التي لم يعد يتقبلها عصرنا هذا. وقد أعرضنا عن ذكرها في هذا البحث لكونها من الشركيات المنافية للعقيدة الخالصة لله وحده . ولانملك إلا أن نسأل الله سبحانه وتعالى السلامة من كل قول أو عمل يؤدي إلى الشرك به جلَّت قدرته ووحدانيته. كما نسأله المغفرة والرحمة للشيخ الزيلعي مما قد يكون لحقه من غلو المغالين، وجهل الجاهلين الذين اعتقدوا فيه والعياذ بالله اعتقاداً باطلاً، كما اعتقدوا في آخرين غيره من صلحاء اليمن الذين وصلت إلينا أخبارهم، وسير حياتهم (رحمهم الله جميعاً وغفر لهم) .

وقد امتد النفوذ الروحى للشيخ الزيلعى من وادى مور فى شمال اليمن إلى وادى خَلَب فى جنوب غرب المملكة العربية السعودية حالياً، وكان له تلامذة ومصاحبون أخيار تعلموا القرآن والفقه على يديه، واستفادوا من حلقاته التى كان يعقدها فى مسجده الجامع ومنهم: الفقيه عمر بن السكدول العَبْسى، والفقيه سُمَيل النزارى، والفقيه إبراهيم الشامى، والفقيه أحمد الأدبع، والفقيه سالم من أهل السالمية، وأحمد بن يعقوب البحر من بنى العجيل بقرية الحادث، والفقيه محمد بن مهنا (والد عبد الله المقدم المعروف) (٣٩). وتأثر به كثيرون من أهل وادى خَلَب خاصة منهم بنو أيوب، وبنو الأعوص، وبنو العجمى، وبنو السيُّقَل وغيرهم(٤٠). وللشيخ الزيلعى عدد من المؤلفات أشهرها : ثمرة الحقيقة ومرشد السالك إلى الطريقة ، ونزهة الجليس، وكتاب الوداع (٤١). وله فتاوى على مسائل كان يقول فيها : الجواب عند علماء الشريعة كذا، وعند علماء الظاهر كذا ، وعند الباطن كذا (٤٢).

توفى الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى- كما قدمنا- فى عام ٧٠٤هـ / ١٣٠٤-١٣٠٥م عن نيِّف وسبعين سنة، ودفن باللحية بجوار مسجده الجامع من الناحية الشمالية الغربية (٤٣)، وقبره هناك يوصف بالبركة وبكثرة الزوار الذين يأتونه من أماكن بعيدة حاملين معهم أصناف الطعام والسمن والبخور والنقد على حد قول المؤرخين الذين تناولوا سيرته، ومنهم الأهدل الذى يستشهد على قوله بهذه الأبيات (٤٤):

وكم ترى من وافـــدٍ للزيلعى ... من كلِّ فجٍ ومكانٍ شـــاسعِ

بالنقـدِ والتمـــرِ والطعـــامِ ... والسـمنِ والبخـورِ والأنْعَـامِ

إذا دعـــوا قـــالوا بحقِّ الزيلعى ... وحَلْفـــهم كـــذاك لا والزيلعى

وهذا الكلام، إن كان قد وقع من بعض الجهال، فهو شرك عظيم ، إذ لايجوز الحلف إلا بالله سبحانه وتعالى، وكذلك النذور التى أشارت إليها المصادر لا تجوز لغير الله وحده ، وما كان منها لسواه فهى باطلة ، ولعل ما كان يحمل إلى قبر الشيخ الزيلعى، أو إلى زاويته ومسجده الجامع من طعام، ومن نقود وخلاف ذلك إنما يقع فى باب الصدقة على الفقراء المقيمين هناك، وكذلك على طلاب العلم، وعلى القائمين بأمور الجامع سواء من أبناء الزيلعى، أو من سواهم من أهل تلك الناحية :

ذرية الشيخ الزيلعى ومن آلت إليه المشيخة منهم :

توفى الشيخ الزيلعى (رحمه الله) عن أربعة عشر ولدًا ذكرًا كانوا جميعًا- كما تصفهم المصادر- أبناء أخيار أهل علم وتقى وعبادة وزهاده لا يخلو موضعهم من قائد يعرف بالخير، ويشار إليه بالتقى والصلاح مقتفين فى ذلك أثر والدهم، ومحافظين على تراثه ، ومن أشهرهم العباس، وبه يكنى والده، ثم إبراهيم ، وأبوبكر ، وعمر، وعلى، وعيسى، ومحمد ، وعثمان، وموسى، وعبد القادر، وعبد الغفار ، وعبد الأول ، وقادرى، والمقبول(٤٥) . وللزيلعى أعقاب من تسعة من أبنائه فى حدود ما وصل إلينا، وهم : إبراهيم، وأبوبكر وعمر، وعلى، وعيسى، وموسى، وعبد القادر، وعبد الغفار، وعبد الأول (٤٦). وقد تفرقت ذرية هؤلاء على مدى القرون بين اليمن ومنطقة جازان بما فى ذلك جزر فرسان، ثم فى منطقة عسير ، ومحافظة القنفذة بمنطقة مكة المكرمة ، وبصورة خاصة فى أودية حَلى ويَبَة وقَنُوْنا ، ثم فى مكة نفسها، ومحافظة جدة، ومنطقة المدينة المنورة ، واختلف انتساب هؤلاء من مكان إلى آخر ، فمنهم من حافظ على نسبة جدهم الأبعد، وهو عقيل بن أبى طالب رضى الله عنه، فيقال لهم «العقيليون» وهؤلاء يكثرون فى منطقة جازان .

ومنهم من حافظ على نسبة الجد الأقرب، وهو أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى، فيقال لهم «بنو الزيلعى»، وآل الزيلعى، وهؤلاء كثر فى اليمن، وفى المملكة العربية السعودية ، وبصورة خاصة فى منطقة جازان، ومحافظة القنفذة ومنطقة المدينة المنورة، ومنهم من انتسب إلى الفقيه، فيقال لهم «الفقهاء» والواحد منهم «فقيه» ومن أبرزهم فقهاء حَلِيْ ، وفقهاء قَوْز أبى العير بمحافظة القنفذة، وفقهاء مَعْلَح ببلاد بنى شهر بمنطقة عسير. ومنهم من انتسب إلى المشيخة فيقال لهم «الشيوخ» والنسبة لواحدهم «الشيخ» ، وهؤلاء يكثرون فى اليمن، وفى جدة ومنطقة المدينة المنورة . وهناك فئات أخرى من عقب الشيخ الزيلعى اشتهر كل منها بنسبة خاصة بها، خلاف ما ذكر، ومن هؤلاء آل عثمان، والرواحجة ، والهراملة، والمناحمة ، وآل السِّيْقَل (٤٧).

أما مشيخة اللحية وتوابعها بعد وفاة الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى فقد آلت إلى ابنه أبى بكر بن أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى، وكان وجيهًا، عظيم القدر، مكرمًا عند الناس حتى قيل بأنه استوهب من بعض القبائل نحو أربعة عشر قتيلاً فوهبوها له قبل أن ينزل عن دابته (٤٨). فلما توفى خلفه فى المشيخة ابن أخيه محمد بن عيسى بن أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى فظل فيها حتى وفاته فى عام ٧٨٨هـ / ١٣٨٤م(٤٩)، فخلفه ابنه أبوبكر بن محمد بن عيسى المعروف

بصاحب الخال حتى وفاته في عام ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م(٥٠). وهكذا ظل عقب محمد بن عيسى هذا هم المتوارثون لمشيخة اللحية وتوابعها حتى عصر الناس هذا(٥١).

التراث العمراني لمدينة اللحية:

حينما عزمت على إعداد هذا البحث وضعت في اعتباري إفراد جامع الشيخ الزيلعي، وكذلك الكتلة العمرانية القديمة المجاورة له بجزئية خاصة تركز على دراستها دراسة أثرية معمارية ، إلا أن الزميل الدكتور عبد الرحمن حسن الجار الله، عضو هيئة التدريس بقسم الآثار- جامعة صنعاء الذي التقيته في الندوة العالمية لتاريخ الجزيرة العربية المنعقدة في جامعة الملك سعود بالرياض في الفترة من ١٠-١٢ شعبان ١٤٢٤هـ / الموافق ٦-٨ أكتوبر ٢٠٠٣م أخبرني أنه أجرى مسحًا معماريًا لمدينة اللحية القديمة، وأنه في سبيله إلى إعداد دراسة مفصلة عن عمران اللحية بما فيها جامع الشيخ الزيلعي، فعدلت عن الفكرة مفسحًا له المجال، ومؤملاً أن تكون دراسته أكثر تخصصًا وشمولية للتاريخ العمراني لمدينة اللحية مما كنت سأفعل فالدكتور جار الله ابن اليمن، وقريب الدار للحية، ، وأعرف بها وبدروبها ، وبثقافة أهلها مني. وسأكتفي هنا فقط بإيراد صورة وصفية ظاهرية عَجْلَى عن التراث العمراني للحية، وبصورة خاصة الحي القديم، وجامع الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي المتصل به من الجنوب الشرقي.

وقبل الدخول في هذه الصورة الظاهرية العجلى لعمران اللحية تجدر الاشارة إلى أن المواد الخام المستخدمة في مساكن اللحية تتوزع بين الحجر الجبلي المقدود من التلال الجبلية القريبة، ومن الطوب الأحمر، وهو قليل جداً مقارنة بذلك الذي يستخدم في مساكن زبيد وبيت الفقيه على سبيل المثال، والحجر البحري المقدود من الشعاب المرجانية التي تنمو في البحر، وهو الأكثر شيوعًا في مساكن اللحية ، وميزته أنه خفيف الوزن، سهل التشكيل والاستخدام، وبه تبني الأقواس والعقود والثريات والنخلات غير النافذة، ومنه تستخرج النورة بعد حرقه في محارق خارج البلدة(٥٢). وهي تستخدم مع كسر الأحجار الصغيرة بين المداميك لربط البناء، وكذلك في الياسة، وتبييض المنازل بلون البياض الغالب على منازل اللحية ذات البناء التقليدي الموروث. وهناك قسم رابع للمواد المستخدمة في البناء التقليدي في اللحية هو القش المستخدم في بناء العُشاش (مفرد عُشة) ، وهي مساكن شعبية دائرية الشكل أو مربعة تبنى بالأعواد والجريد والأخشاب المتخذة في الغالب من شجر الأثل، وتكسى من الخارج بطبقة من نبات المرخ، أو الحلفاء، أو القصبي أو الضَّرَم (الثمام) وتكسى من الداخل بطبقة من فضلات البقر المكسوة- بعد جفافها- بطبقة أخرى من الطين الأصفر المجلوب من الأطيان الزراعية المتوافرة

فى بطون الأودية، ثم تُبَيَّض من الداخل بالجص أو النورة، وهذا النوع من المساكن ينتشر فى أطراف مدينة اللحية ، أو فى القرى القريبة منها (٥٣).

ويهمنا من عمران اللحية ذلك الجزء القديم الذى يقع بجوار جامع الشيخ الزيلعى من الغرب والشمال الغربى ، وهذا أشرنا إلى أنه تضرر كثيراً من المدفعية البريطانية التى دكّت المدينة من البحر على التوالى فى سنتى ١٩١٢م (١٣٢٩هـ)، ١٩١٨م م (١٣٣٧هـ) ، ولم يبق منه إلا خرائب بعضها أكوام من الحجارة ، وبعضها جدران متهدمة لاتزال بقاياها شاخصة حتى زيارتى الأخيرة للمدينة فى ٢٣ رجب عام ١٤٢٤هـ / ٢١ سبتمبر ٢٠٠٣م (٥٤). وتتكون منازل اللحية فى الغالب من دور واحد أو دورين، ويغلب على المنازل ذات الدور الواحد طراز «المُرَبَّعَة» المنتشرة على طول مدن الساحل الشرقى للبحر الأحمر فى كل من مَيْدى، وجازان، والقنفذة إلى الوجه فى شمال غرب المملكة العربية السعودية.

وتتكون المربعة- كما هو الحال فى مدينة القنفذة التي لا تزال صورة المربعة فيها حاضرة فى ذهنى – من غرفة واحدة كبيرة يتسع صدرها لأربعة أو خمسة أسِرَّة خشبية من النوع السائد فى تهامة ، ولها بابان نافذان على فناء فسيح، وباب ثالث ينفذ على غرفة صغيرة ملحقة بالمربعة تسمى الخزانة، ويلحق بالمربعة ملاحق أخرى أكبرها المجلس الذى لاتقل مساحته على مساحة المربعة فى الغالب ، وتُزيَّن المربعة من الداخل بمختلف زخارف البناء من عقود وثريات ونحوها (٥٥)، وكذلك أبوابها يُعنى بصناعتها وزخرفتها على نحو يعطيها شخصيتها المستقلة ، وطابعها التهامى المميز، ولا تقتصر العناية بالبناء وبزخرفته على المربعات وملحقاتها ، وإنما بالأبنية ذات الطابقين والثلاثة والتى تبني فى الغالب من الأحجار البحرية المقدودة من الشعاب المرجانية ، أو من الجبال القريبة من اللحية، والتى هى ذات طبيعة مرجانية كذلك (٥٦).

وكما يتضح من الخرائب الباقية فإن أبنية اللحية تُلَيَّسُ من الداخل بالنورة، أو الجص ، ويدخل الجص أحياناً فى تشكيل عقود الزينة التى تتصدر بعض منازل اللحية الفارهة(٥٧). أما أرضيات المبانى فكانت تبلط بطبقة مرصوفة من الطين ، أو بالأسمنت بعد شيوع استخدامه فى البناء فى فترات لاحقة.

جامع الشيخ الزيلعي:

يقع جامع الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى العقيلى على ربوة فى الجنوب الشرقى من المدينة ،

ويطل عليه من الشرق تل جبلي تعلوه إحدى القلاع العثمانية(٥٨)، وهو من الجوامع الكبيرة في المديرية، ويتكون من جزئين أمامي وخلفي، فالجزء الأمامي المجاور للمقبرة من الشرق، يبدو أنه أحدث من الجزء الخلفي المقبّب ، أو أنه هدم وأعيد بناؤه على نحو جعله خاليًا من القباب التي تعلو الجزء المكمل له من الجنوب. أما الجزء الخلفي فيكمل الجزء الأمامي من جنوبيه، ويمتد غربيًا إلى مسافة تقترب من طول المسافة المكملة للجزء الأمامي. ويتكون من رواقين تعلوهما قباب ضحلة تشبه تقريبًا تلك القباب العثمانية التي تعلو جامع الأشراف بمدينة أبي عريش بمنطقة جازان(٥٩)، وجامع الدَّبس بالأحساء بالمنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية (٦٠). ويفضي هذا الرواق من الغرب إلى الزاوية التي كان يتهجَّد فيها الشيخ الزيلعي ثم إلى بناء رحب تعلوه قبة كبيرة (٦١)، ويبدو أن هذا البناء كان مخصصًا للمعلامة أو لمكان الدرس الذي كان الشيخ الزيلعي ومن جاء بعده من أبنائه وحفدته يعقدون فيه حلقات الدروس لطلاب العلم، وقيل بأن حلقات الدروس كانت تعقد في جانب من الرواقين الغربيين المقببين، وأن القبة الكبيرة المذكورة ما هي إلا قبة ضريحية أنشئت لتكون مدفنًا لصاحبها فُعدل عن ذلك بعد بنائها ، أما اليوم فتستخدم مغسلة للموتى، ويتوسط رواق القبلة في تلك الجهة الخارجة عن كتلة الجامع من الغرب، محراب مقوس تقع دخلته في جدار صغير تعلوه شرفات متقنة الصنع، وإن كانت في الوقت الحاضر قد سقطت إحدى تلك الشرفات والباقيات بحاجة إلى صيانة (٦٢). ويبدو أن هذا الجدار الصغير أقيم فقط من أجل بناء المحراب في وسطه، لأنه لا يمتد كثيرًا إلى شرقي المحراب أو غربيه، وإنما يصل بين قائمتي أحد العقود في بائكة واحدة من بوائك الرواق. أما باقي البوائك فهي مفتوحة تمامًا إلى الناحية الشمالية من تلك الجهة(٦٣). ولا نعرف على وجه الدقة واليقين وظيفة هذا المحراب، ولعله كان يستخدم مع الرواق الذي يليه، للصلاة في الأيام القائظة طلبًا للهواء البحري الذي يهب من خلال هذا الجزء المفتوح على الرواق، وعلى المصلين فيه .

ويلحق بالجامع منارة (مئذنة) غير عالية نسبيًا تقع في زاويته الشمالية الغربية مما يلي سور المقبرة، وهي طراز محلي فريد يصعب تصنيفه، وإن كنا نميل إلى أنها يمنية الطابع لوجود أشباه كثيرة لها في جوامع اليمن ومساجدها(٦٤). والجامع بجميع أقسامه بما فيه المئذنة مكسو باللون الأبيض، وتتخلله من الداخل زخارف معمارية، وأشرطة كتابية تتصدر حنايا العقود في كل بائكة من بوائك الرواق المقبب (٦٥)، وهي كثيرة ، وتتضمن بعض الآيات القرآنية والأدعية المختارة بعناية لتناسب المقام(٦٦).

وتقع مقبرة الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي (رحمه الله) في محيط الجامع إلى الشمال الغربي منه، وهي مسورة، وغير كبيرة في مساحتها، وليس بها قباب مشرفة ، وإنما هي عبارة عن جدران غير مرتفعة تشبه الأحواض المستطيلة الشكل ، ويقع قبر الشيخ الزيلعي في وسطها، وليس له ما يميزه عن سائر القبور سوى خشبة مركوزة في وسط القبر(٦٧)، أما باقي القبور المحيطة بقبر الشيخ الزيلعي فهي ليست كثيرة، ويقال إنها لأبيه، وأمه وزوجاته، وأبنائه(٦٨). ويروي أحمد بن علي العقيلي نقلاً عن إمام الجامع، أو القَيِّم الذي يقوم عليه ، أنه سأله عن التبرك بقبر الشيخ والنذر عنده هل لا يزال كما كان سابقًا؟ فأخبره القيم أنه لم يحصل شئ من هذه لا في عهده، ولا عهد والده الذي كان قيِّمًا للجامع قبله (٦٩). ولا شك أن هذا الخبر هو مدعاة للحمد والشكر لله تعالى على بطلان تلك البدع الزائفة.

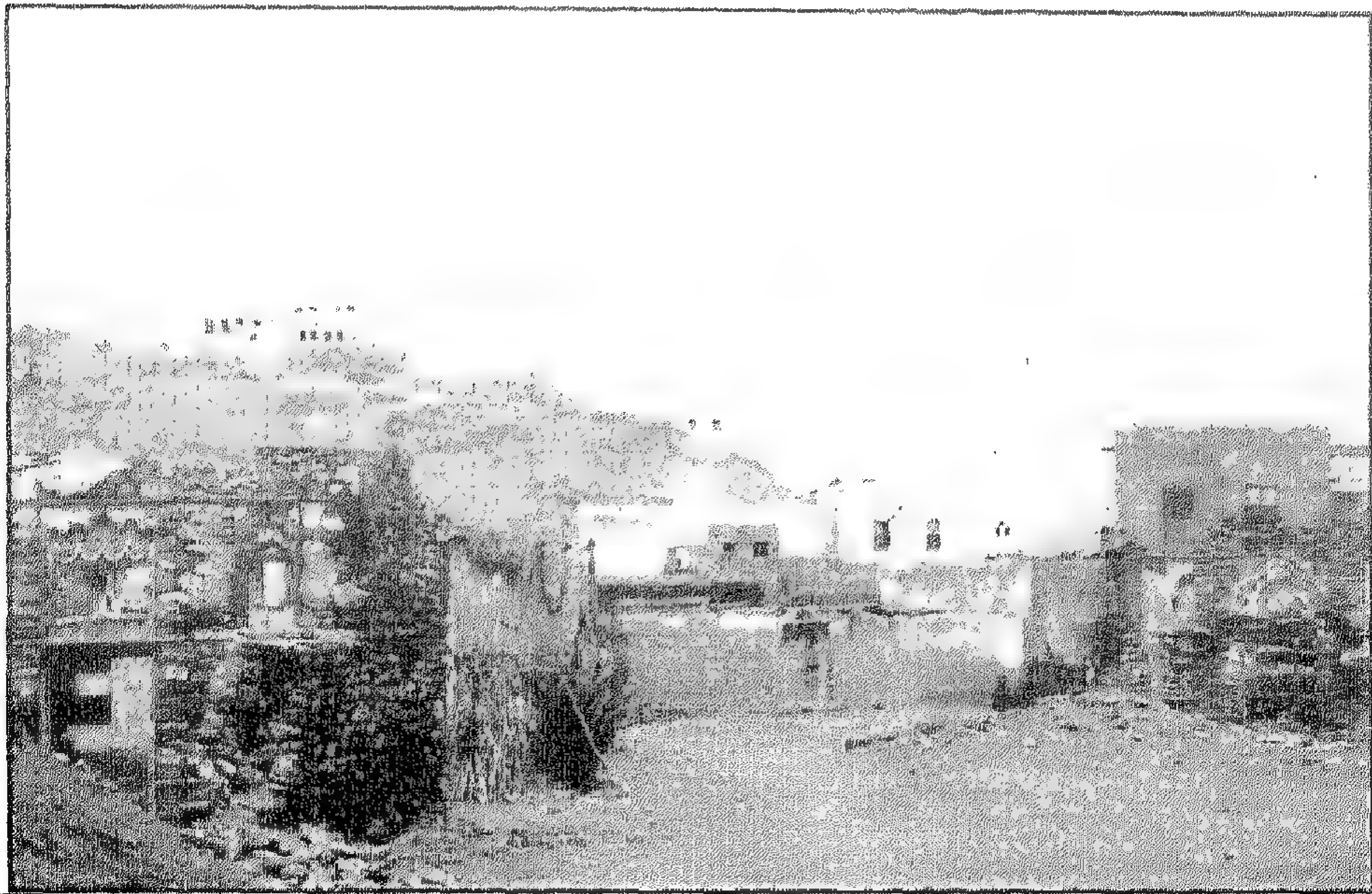
يتضح مما سبق أن الشيخ أحمد بن عمر الزيلعي العقيلي هاشمي النسب طالبي الأصل من ذرية عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنه كان من عباد الله الصالمين ، ومن العلماء الذين برزوا في حقل اهتمامه وهو الفقه وعلم التصوف، وأنه كان له تلامذة ومريدون تعلموا على يديه، واقتدوا به في علمه وطريقته في العمل والعبادة. وكان للشيخ الزيلعي وجاهة ونفوذ امتد من وادي مور في جمهورية اليمن إلى وادي خَلَب في المملكة العربية السعودية، كما كان له ذرية أخيار صلحاء ساروا على سنن والدهم، وقاموا بتراثه العلمي والروحي في اللحية والمحمول، وسائر المناطق التي امتد إليها نفوذ والدهم الروحي، وظلت مشيخة اللحية، وقَوَامة جامع الشيخ الزيلعي بها في أيديهم حتى اليوم.

كما يتضح ما طرحه الله سبحانه وتعالى من بركة في ذرية الشيخ الزيلعي (رحمه الله) الذين تكاثرت أعدادهم ، وانتشرت ذرياتهم في رقعة جغرافية شملت أجزاء واسعة من اليمن والمملكة العربية السعودية، وبرز منهم علماء أخيار ، وأولياء صالحون تَرَكَّزُوا وتشَيَّدُوا أمكنة كثيرة في جزر فرسان وجازان، وجدة، والصالحي، وحلي ، وبِيَة بمحافظة القنفذة- منطقة مكة المكرمة ، وكذلك بمنطقة عسير، ومنطقة المدينة المنورة.

ويتضح كذلك رجوع عمران اللحية إلى اتخاذها داراً من قبل الشيخ الزيلعي، ثم ذريته من بعده ؛ فعلى أيديهم نمت وازدهرت وتطورت حتى غدت من المدن الساحلية المهمة في تهامة ، وإن كانت الحروب والإهمال قد أثرت في عمارتها التي يعم الخراب والدمار أجزاء واسعة منها في وقتنا الحاضر.



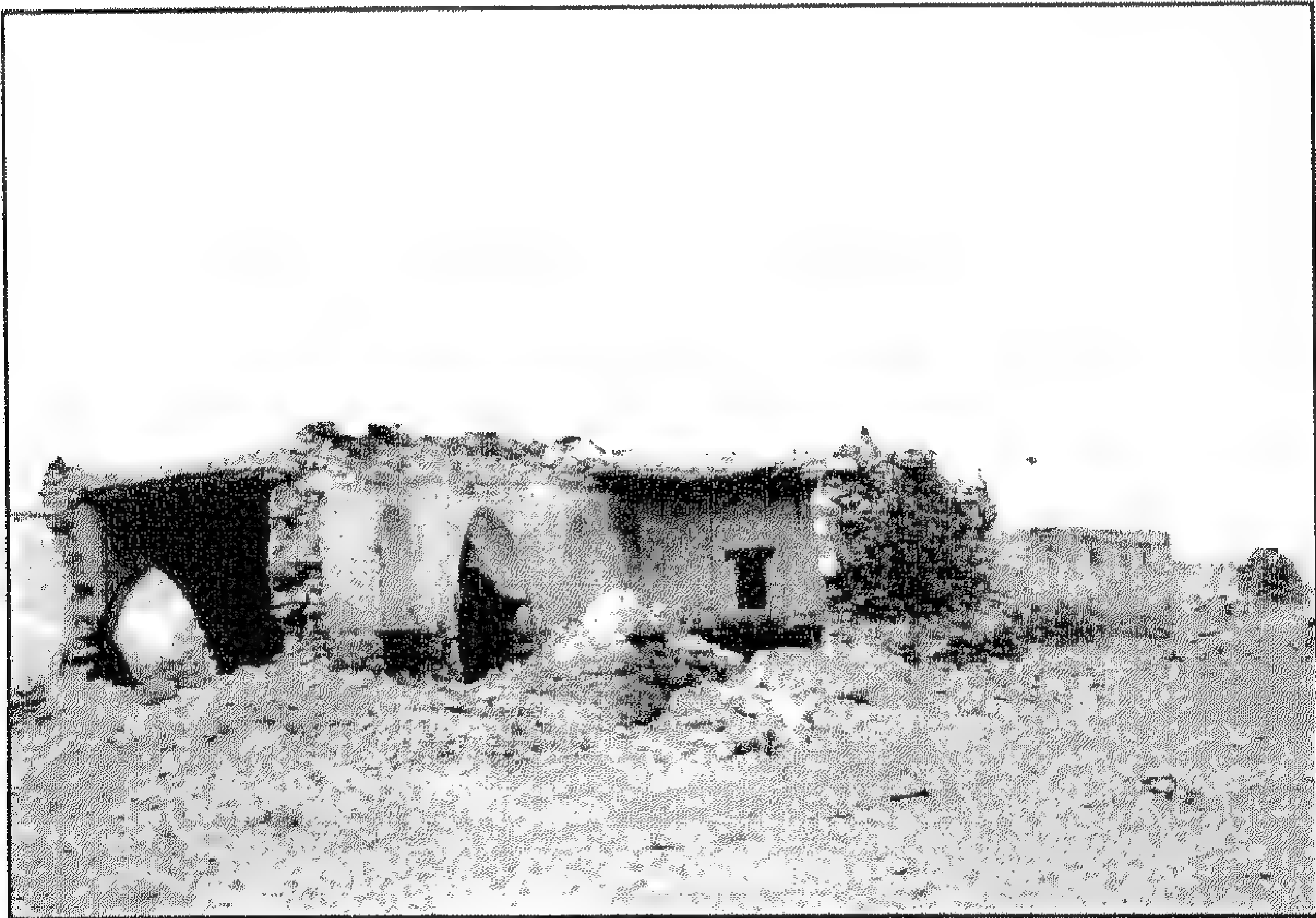
اللوحة رقم (١) مجموعة من العشش المبنية من القش فى إحدى القرى القريبة من اللحية



اللوحة رقم (٢) جامع الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى تطل عليه إحدى القلاع العثمانية
من الشرق ، وحوله مجموعة من البيوت القديمة فى اللحية : قائمة ومهدمة



اللوحة رقم (٣) مجموعة من البيوت القديمة المتهدمة فى اللحية يتوسطها جدار شاخص تظهر فيه أقواس معقودة من الجص



اللوحة رقم (٤) بعض المنازل المتهدمة فى اللحية ، وفيها يظهر أسلوب البناء بالأحجار المرجانية وأشكال العقود وبقايا لياسة الجدران وتبييضها بالنورة



اللوحة رقم (٥) بقايا قوس مبنى من الأحجار المرجانية فيه أثر النورة ظاهر بين الأحجار



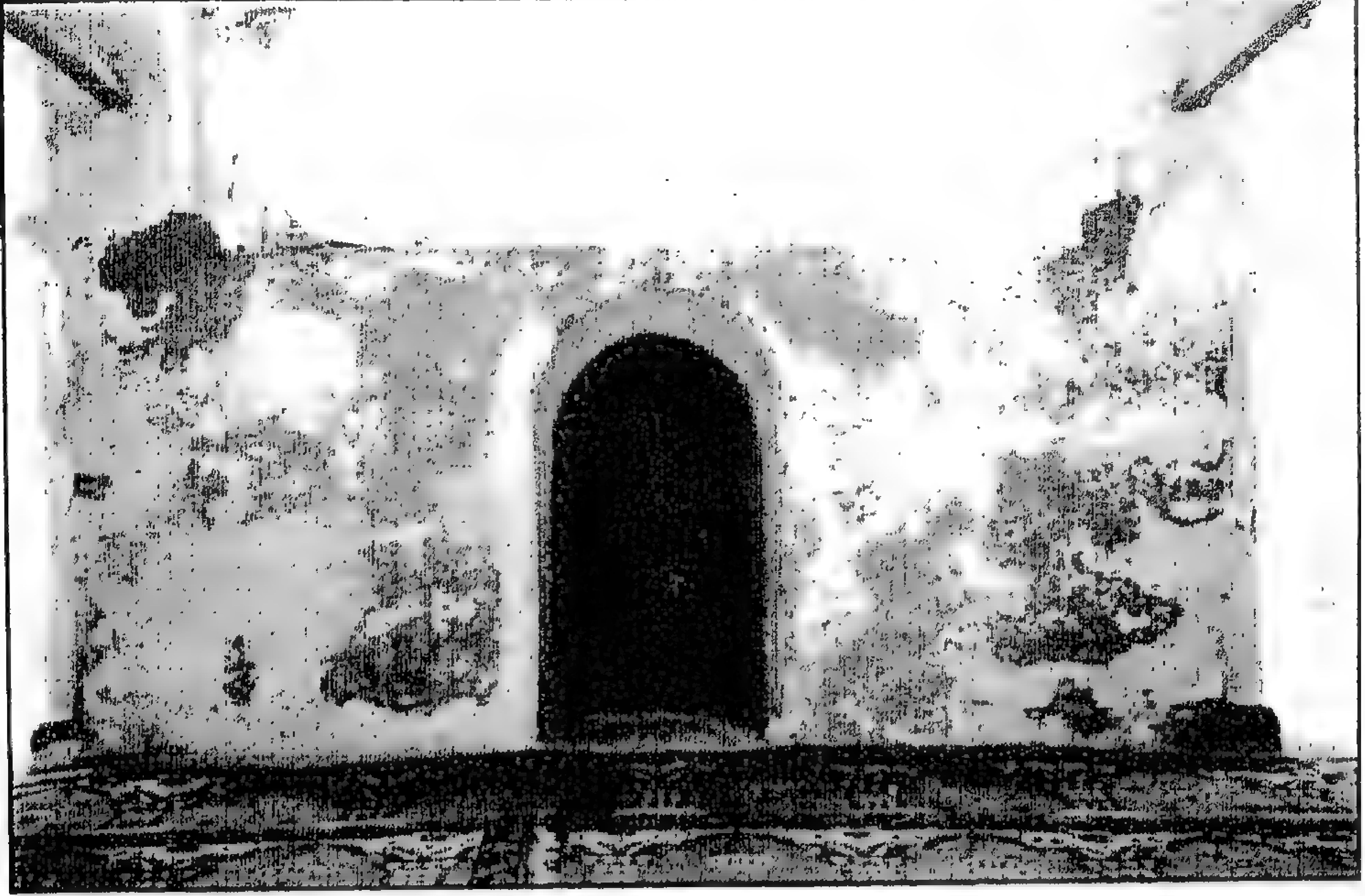
اللوحة رقم (٦) إحدى القلاع العثمانية فوق تل جبلى تطل من الشرق
على جانب من جامع الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى



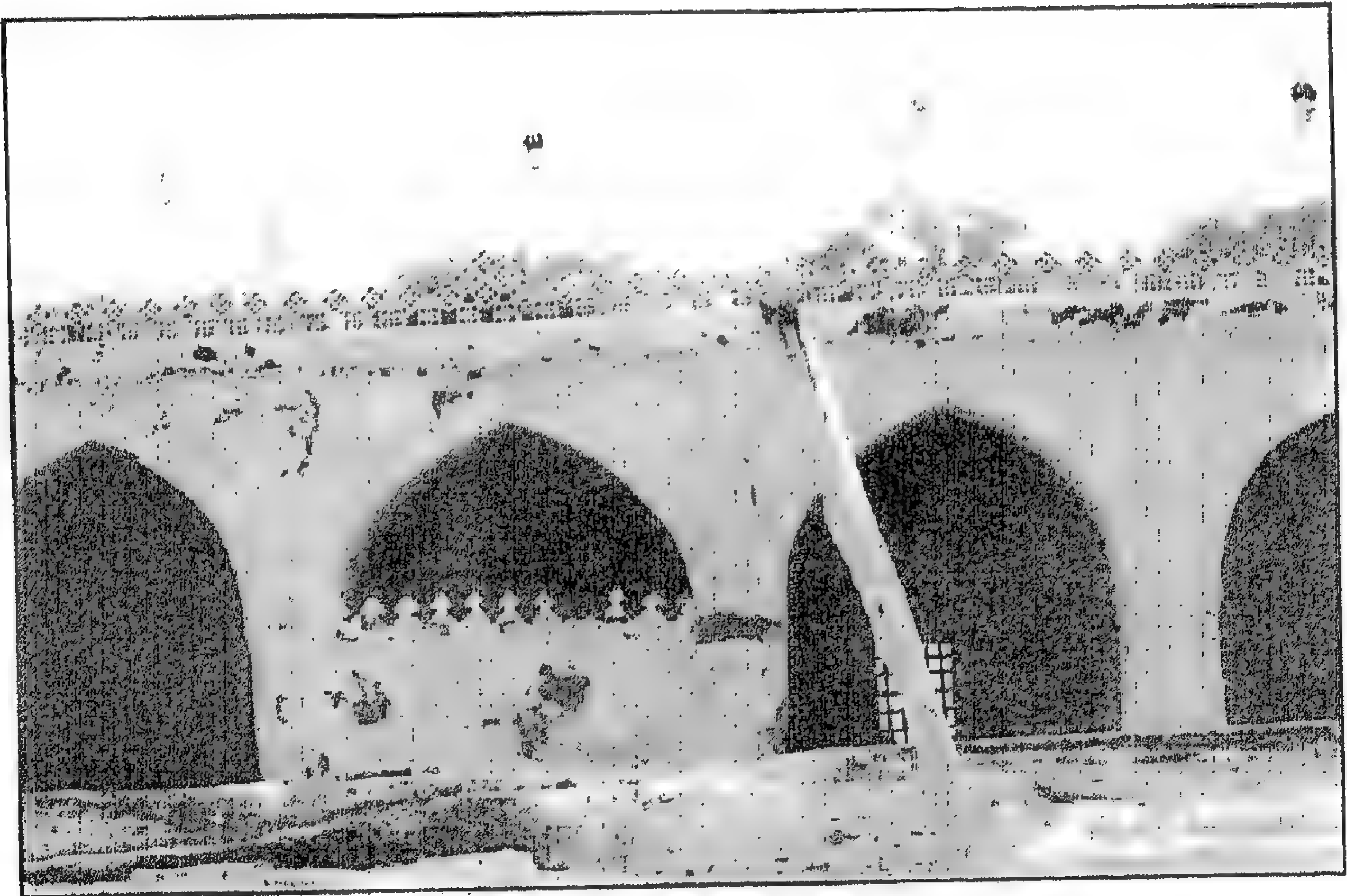
اللوحة رقم (٧) جانب من جامع الشيخ الزيلعي تبدو فيه المئذنة والقبة الكبرى ، وبعض القباب الضحلة التى تظلل رواقية المقببين. والى يسار المئذنة جانب من سور المقبرة



اللوحة رقم (٨) أحد رواقى الجامع المقببين من الداخل ، وفى الصورة مؤذن الجامع مع الباحث



اللوحة رقم (٩) المحراب الذى يتصدر الجزء الغربى المقبب من جامع الشيخ الزيلعى ، ويرى فى الصورة سقوط إحدى الشرفات فى الجدار القصير الذى يتصدر المحراب نفسه



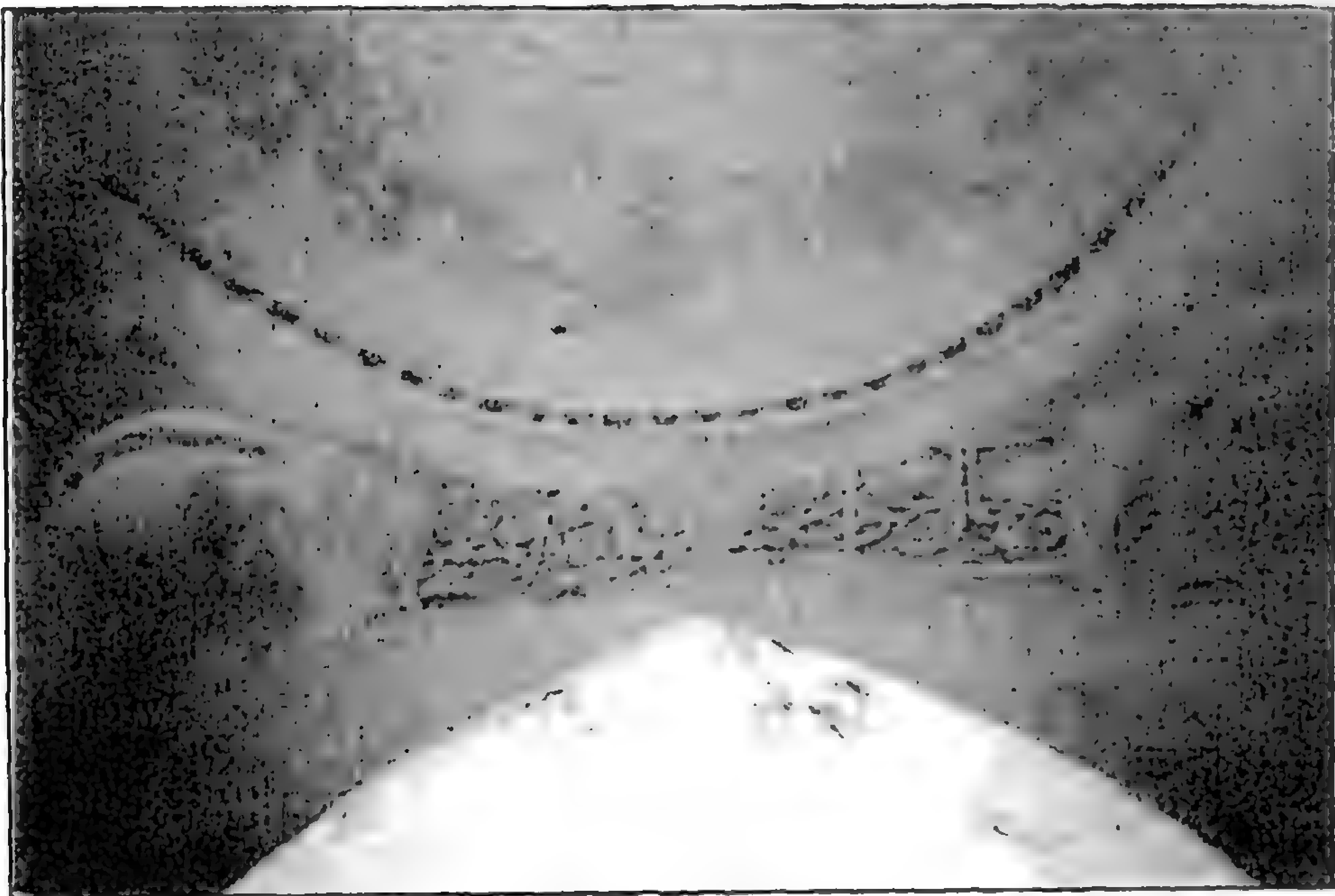
اللوحة رقم (١٠) صورة الجدار الذى يتوسطه المحراب من الخلف ويرى فى الصورة أنه ليس جدارا كاملا وإنما يصل فقط بين عنودى إحدى البوائك فى الرواق على حين أن باقى البوائك مفتوحة وتطل من الشمال على المقبرة المسورة



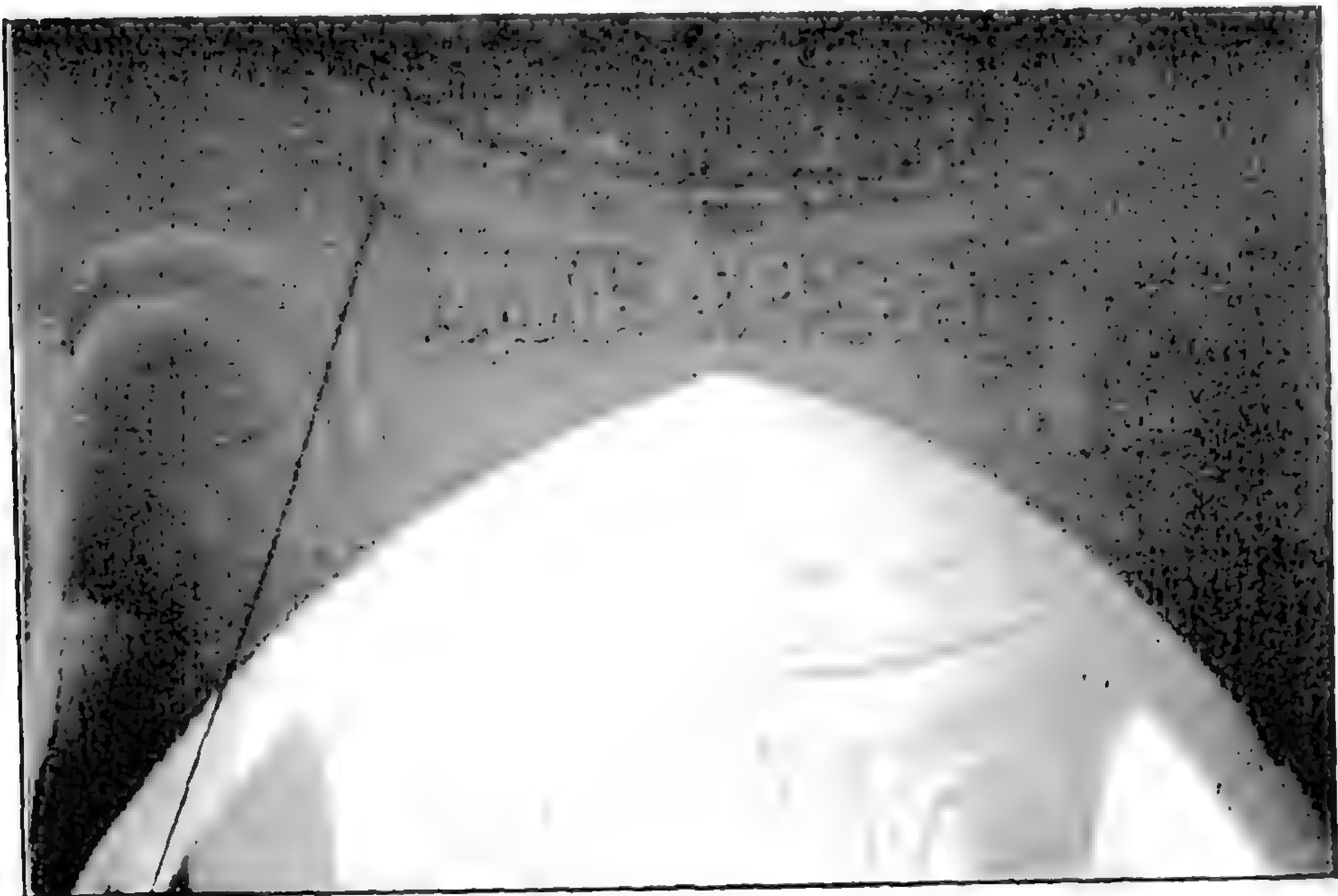
اللوحة رقم (١١) الشاحة التى تحتلها المقبرة المسورة فى الطرف الشمالى الغربى من مساحة المسجد ، وفى وسطها قبر الشيخ الزيلعى معلم بخشبة مركوزة فى وسطه



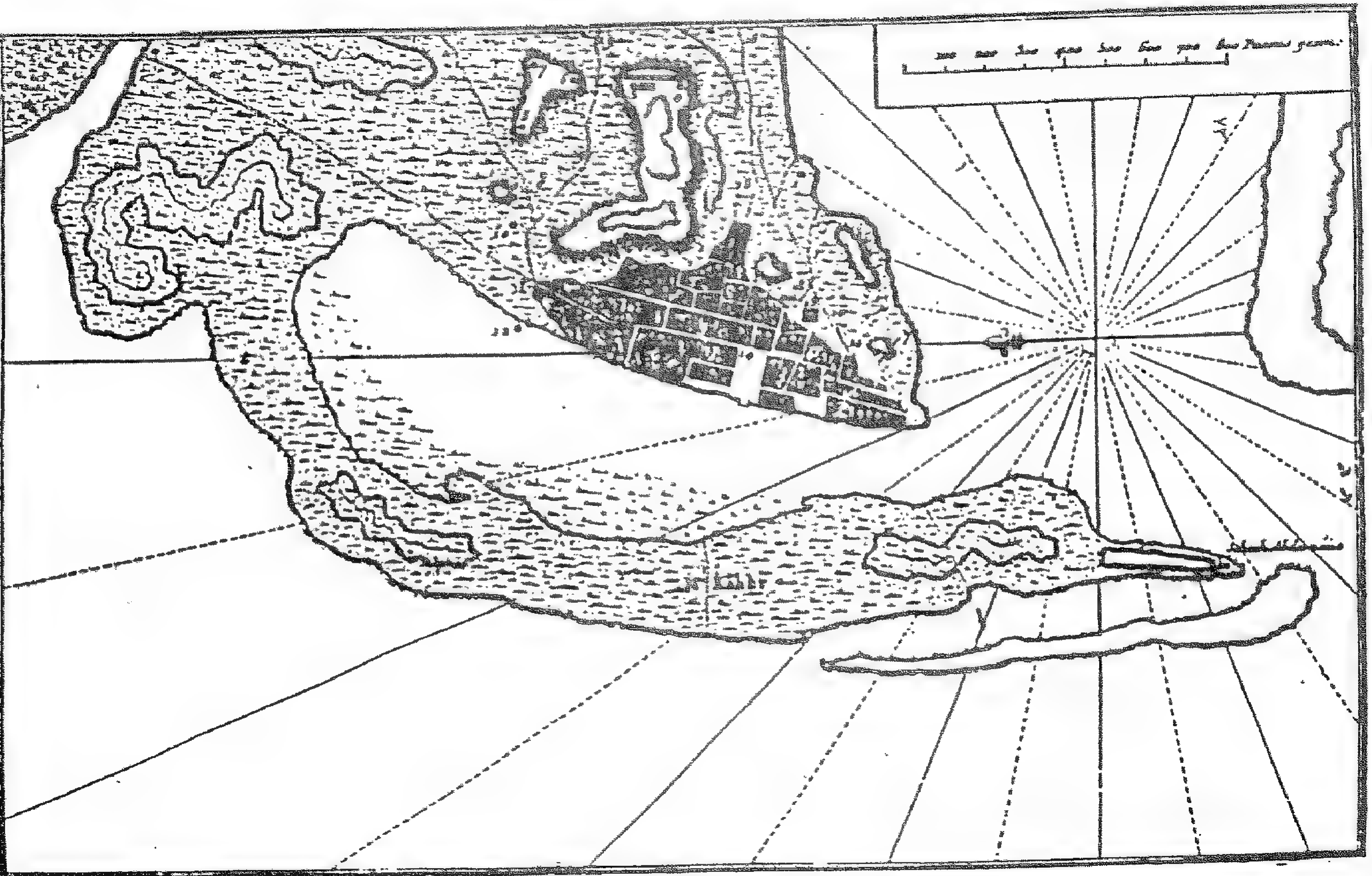
اللوحة رقم (١٢) بعض عقود أروقة المسجد الجامع المقببة تعلوها كتابات قوامها آيات قرآنية وأدعية تناسب المقام.



اللوحة رقم (١٣) كتابة بخط الثلث تعلو أحد الأقواس المقببة ، وقراءتها :
(فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين



اللوحة رقم (١٤) كتابة بخط الثلث تعلو أحد الأقواس المقببة ، وقراءة
" ياأمان الخائفين ويارجاء السائلين "



شكل رقم (١) خريطة لميناء اللحية رسم نيبور عن كتاب: من كوبنهاجن إلى صنعاء لتوركيل هايسن



شكل رقم (٢) ميناء اللحية بريشة بورنفانيد عن كتاب: من كوبنهاجن إلى صنعاء لتوركيل هايسن.

الإحالات والمصادر والمراجع

١- المقحفي، إبراهيم أحمد: معجم البلدان اليمنية، صنعاء ، دار الكلمة للطباعة والنشر، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢ م، ج٢ ، ص ص١٣٧٠-١٣٧١ .

٢- المرجع نفسه، ص ١٣٧١ ؛ الحجرى ، مجموع البلدان اليمن وقبائلها ، تحقيق وتصحيح ومراجعة إسماعيل بن على الأكوع، ط (١) ، صنعاء ، وزارة الإعلام والثقافة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م، ج٣ ، ص٦٧٩ .

٣- العقيلى ، محمد بن أحمد ؛ المعجم الجغرافى للبلاد السعودية- مقاطعة جازان، الرياض، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، ج١ ، ص٦١ .

٤- الصايدى ، أحمد قايد ، المادة التاريخية فى كتاب نيبور عن اليمن، ط١ ، بيروت، دار الفكر المعاصر ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م ، ص٢٢٠ .

٥- المقحفى، معجم البلدان اليمنية، ج٢، ص١٣٧١؛ الحجرى، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٣ ، ٦٧٩ .

٦- المقحفى ، معجم البلدان اليمنية ، ج١ ، ص٧٥٥ .

٧- انظر العمرى، حسين بن عبدالله : مئة عام من تاريخ اليمن الحديث، ط (١) دمشق، دار الفكر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م، ص٢٥٨ .

٨- المرجع نفسه، ص٣٣٤ .

٩- هانسن ، توركيل، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ترجمة أحمد محمد الرعدى، بيروت، دار العودة، ١٩٨٢م، ص ص٢١١-٢١٨-٢٢٧ .

١٠- الصايدى، المادة التاريخية فى كتاب نيبور عن اليمن، ص٥٣ ، وانظر أيضاً فى المرجع نفسه ص٩ .

١١- هانسن ، من كوبنهاجن إلى صنعاء، ص ص٢١٨-٢٢٧ ، الصايدى، المادة التاريخية فى كتاب نيبور عن اليمن، ص٥٣ ، ص٥٤ .

١٢- الصايدى، المرجع نفسه، ص٢٢٠ .

١٣- المرجع نفسه والصفحة نفسها، وانظر شكل رقم (١)، وشكل رقم (٢) .

١٤- الريحانى، أمين، ملوك العرب، ط (١) ، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المجلد الأول، ص٢٧١ .

١٥- العقيلي ، أحمد بن علي الراجحي، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، ط٢ ، دار المنار، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٠٥ .

١٦- الريحاني، ملوك العرب، المجلد الأول، ص٣٧٢ .

١٧- سالم، السيد مصطفى ، تكوين الحديث، ط (٢) ، الإسكندرية ، مكتبة سعيد رأفت / ١٩٧٠م، ص ص٢٧٨-٢٨٢؛ اللواسعي ، عبد الواسع بن يحيى، تاريخ اليمن، ط٣ ، صنعاء الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص٣٢٨ .

١٨- سالم ، تكوين اليمن الحديث ، ص ص٣٩٥-٤٠١؛ السيد ، عصام ضياء الدين؛ عسير في العلاقات السياسية السعودية اليمنية، ط١(١) ، القاهرة ، دار الزهراء، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م ص ص٢٧٩-٢٨٩ .

١٩- السيد، تكوين اليمن الحديث، ص٤٢٣، وانظر نص المعاهدة في المرجع نفسه، ص ص٥٤٤-٥٥٨ ؛ الواسعي، تاريخ اليمن، ص ص٣٩١-٤٠٣ .

٢٠- العقيلي ، أحمد بن علي الراجحي، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، ص١٠١ .

٢١- المرجع نفسه والصفحة نفسها .

٢٢- الشرجي، أبو العباس أحمد بن علي بن عبد اللطيف ، طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، ط (١) ، صنعاء الدار اليمنية للنشر والتوزيع ، ص ص٧٤-٧٥ ؛ العقيلي، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني تهامة، ص١٠١ .

٢٣- الأهدل، الحسين بن عبد الرحمن بن محمد، علماء اليمن، مخطوط المكتبة البريطانية، رقم Or. 1345 ورقة ١١٦أ.

٢٤- المصدر نفسه، ورقة ١١٥ب.

٢٥- الجندي، أبو عبدالله بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب السكسكي، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط (١) صنعاء ، وزارة الإعلام والثقافة ، ج٢، ص٣١٧ .

٢٦- الخزرجي ، علي بن حسين الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بسيوني عسل، القاهرة، مطبعة الهلال ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، ج١، ص٣٦٥ .

٢٧- الأهدل ، علماء اليمن، مخطوط، ورقة ١١٥ب .

٢٨- المصدر نفسه، ورقة ١١٦ب.

٢٩- الشرجي. طبقات الخواص ، ص٧٤ .

٣٠- الوشلي، إسماعيل بن محمد ، نشر الثناء الحسن على بعض أرباب الفضل والكمال من أهل اليمن وذكر الحوادث الواقعة في هذا الزمن، تحقيق الحسين إبراهيم المقحفي، ط (١)، صنعاء ، مكتبة الإرشاد ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.

٣١- الوشلي، السيد إسماعيل بن محمد، إرهاف السيف الصقيل للرد على من أنكر فضل آل عقيل، مخطوط، ص ص٣-٦ .

٣٢- التصوف في تهامة ، ط (٢) جدة، دار البلاد، ص١٥٧ .

٣٣- انظر: ص١٠١ والصفحات التي بعدها .

٣٤- الروض الزاهر في سيرة التاريخ والنسب الظاهر للأسر القرشية العدنانية بمنطقة جازان، ط١ الرياض، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٥م ص ص٣٥٢-٣٥٧ .

٣٥- ط (٢) ، الرياض ، مكتبة العزيزية ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ص ص٣٦٧-٣٨٢ .

٣٦- ط (١) مكة المكرمة ، دار مكة للنشر والتوزيع ، ص ص٥٤-٦٠ .

٣٧- الجندي، السلوك ج٢ ، ص٣١٨ .

٣٨- انظر على سبيل المثال: الأهدل، علماء اليمن، مخطوط ورقة ١١٧أ؛ الخزرجي، العقود اللؤلؤية ، ج(١) ص٣٦٥ ، الشرجي ، طبقات الخواص ، ص ص٧٥-٧٦ ؛ الوشلي، نشر الثناء الحسن، ج٣ ص ص٥٦-٦٠ ، وانظر هذه القصة كذلك في العقيلي، محمد بن أحمد ، التصوف في تهامة، ص١٥٧ .

٣٩- الأهدل ، علماء اليمن، مخطوط ، ورقة ٤٩ب ، العقيلي، محمد بن أحمد، التصوف في تهامة، ص١٥٨ ؛ العقيلي، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، ص ص١٠٢-١٠٣ .

٤٠- العقيلي ، محمد بن أحمد ، التصوف في تهامة، ص ص١٥٨-١٥٩ .

٤١- العقيلي ، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة ، ص١٠٢ .

٤٢- الأهدل، علماء اليمن، مخطوط ، ورقة ٤٦ أ.

٤٣- المصدر نفسه والورقة نفسها.

٤٤- انظر العقيلى ، أحمد بن على الراجحى، العقيليون فى المخلاف السليمانى وتهامة، ص١٠٣ ، نقلاً عن الأهدل فى كتابه ، بهجة القلوب، ص١٩ .

٤٥- الأهدل ، علماء اليمن، مخطوط ، ورقة ١٤٧أ العقيلى، أحمد بن على الراجحى، العقيليون فى المخلاف السليمانى وتهامة، ص ص١٠٣-١٠٤ .

٤٦- العقيلى، المرجع نفسه، ص١٠٤ .

٤٧- عن انتشار ذرية الزيلعى وأماكن سكانهم ، انظر : العقيلى، أحمد بن على الراجحى ، العقيليون فى المخلاف السليمانى وتهامة، ص١٠٩ ، والصفحات التى بعدها فى أمكنة متعددة، ولمزيد من المعلومات انظر ، الوشلى ، نشر الثناء الحسن، ج٣ ، ص ص٦٠-٦٧ .

٤٨- الأهدل ، علماء اليمن ، مخطوط ، ورقة ١٤٧أ ؛ الوشلى، نشر الثناء الحسن ، ج٣ ، ص٦٠ .

٤٩- الأهدل ، علماء اليمن، ورقة ١٤٨أ، ١٤٨ب .

٥٠- العقيلى ، أحمد بن على الراجحى ، العقيليون فى المخلاف السليمانى وتهامة ، ص١٨٥ .

٥١- المرجع نفسه والصفحة نفسها، شيخ اللحمية من أحفاد الفقيه الشيخ أحمد بن عمر الزيلعى (رحمه الله) فى وقتنا الحاضر هو السيد محمد بن عيسى بن إبراهيم بن مقبول العقيلى الزيلعى .

٥٢- الصايدى ، المادة التاريخية فى كتابات نيبور عن اليمن، ص٢٢٠ .

٥٣- المرجع نفسه والصفحة نفسها؛ وانظر اللوحة رقم (١) رافقنى فى هذه الرحلة الأخ العزيز الأستاذ بروجى بن أحمد المتحمى المعلم بمدرسة عبد الملك بن مروان بالحبيل (حى قنبور) ، وتحمل كثيراً من المشاق ، ودلنى بمعرفته على كثير من المواقع فى اليمن، فله الشكر والعرفان.

٥٤- انظر اللوحات ذوات الأرقام ٢، ٣، ٤، ٥ .

٥٥- انظر اللوحة رقم (٣) .

٥٦- انظر اللوحة رقم (٥) .

٥٧- انظر اللوحة رقم (٣) .

٥٨- انظر اللوحات ذوات الأرقام ٢، ٦، ٧ .

٥٩- Philby , H.St.J.B., Arabian Highlands, " New York Corenell University Press, 1976 , p. 577 , Figure 55 .

٦٠- عن مشاهدة شخصية ، وهو من المساجد التاريخية المهمة بالأحساء، ولم يأخذ حقه من الدراسة حتى الآن .

٦١- انظر العقيلي، أحمد بن علي الراجحي ، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة، وانظر كذلك اللوحة رقم (٧) .

٦٢- انظر اللوحة رقم (٩) .

٦٣- انظر اللوحة رقم (١٠) .

٦٤- انظر اللوحة رقم (٧) .

٦٥- انظر اللوحة رقم (١٢) .

٦٦- انظر اللوحة رقم (١٣) واللوحة رقم (١٤) .

٦٧- انظر اللوحة رقم (١١) .

٦٨- العقيلي، أحمد بن علي الراجحي، العقيليون في المخلاف السليماني وتهامة .

٦٩- المرجع نفسه، والصفحة نفسها .

د. أحمد محمد إسماعيل الجمال (*)

طرق التجارة الخارجية للمغرب والأندلس

خلال القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى

(عصر الموحدين)

أولاً : الحياة الاقتصادية فى عهد الموحدين:

أسس الموحدون دولتهم على أسس مركزية قوية، وانعكست تلك الصورة على الوضع الاقتصادى الذى تميز بالتطور الذى شمل جميع القطاعات الاقتصادية نتيجة للظروف الطبيعية الملائمة ، وسيادة الأمن والاستقرار ، باستثناء فترات قصيرة نتجت عن بعض الفتن والثورات .

وقد تعددت مصادر الثروة الاقتصادية فى المغرب والأندلس. ففى المجال الزراعى: شهد العصر الموحدى جهوداً كبيرة لتوفير المياه للزراعة وذلك بتنظيم وسائل الرى والصرف ، بإنشاء الجسور والقناطر والسدود وحفر الترع والقنوات التى لاحصر لها فى مختلف الأنحاء[1] ، فى مراكش وسلا والرباط[2] ، وفاس وسبته [3]، بالمغرب ، وفى أشبيلية[4] بالأندلس. وترتب على مشاريع الرى استصلاح واستغلال أراضى كثيرة فى الفترة الموحدية (القرن السادس الهجرى) . وأغلب الظن أن هذا الجهد الموحدى شجع الناس على الزراعة، فأخذوا يستثمرون أراضى لم تكن زراعية من قبل ففى أشبيلية شملت الزراعة

* مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية ، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية ، فرع دمنهور .

حتى مناطق الحلفا(٥)، وفي سهول فاس انتشرت الزراعة حتى فى الأماكن المالحة بعد إصلاحها (٦)، وعمت الزراعة سهول البلاد الغربية كلها بعد أن كانت مقفرة(٧).

من هنا نجد أن الدولة الموحدية أولت الزراعة عناية خاصة، فأمر عبد المؤمن أهل البلاد الغربية بالعودة إلى أوطانهم وفلاحتها (٨)، وتذكر المصادر أن الزراعة قد اتسعت فى المغرب كله ، وعمّ الرخاء والهناء أهله، خاصة فى خلافتى يوسف والمنصور(٩). وتوصف الزراعة فى المغرب الأقصى خلال القرن السادس الهجرى بالنمو والازدهار ، وبكونها تجاوزت مستوى الاكتفاء الذاتى وانتقلت إلي مرحلة تصدير العديد من المنتجات الزراعية نحو الأندلس وأفريقية، نتيجة وجود فائض فى الإنتاج خصوصًا الحبوب والسكر، وبعض الفواكه المجففة والقطن والكتان والنيلج وغيرها (١٠).

كان القمح من أهم المنتجات الزراعية بالمغرب وأهم مناطق إنتاجه منطقة السوس(١١) وتامسنا (١٢)، وتادلا (١٣)، والسايس (١٤)، ومنطقة الهبط (١٥)، وسجلماسة(١٦). وتحتل منطقة تامسنا المرتبة الأولى فى إنتاجه يدل على ذلك أثمانه الرخيصة جدًا فى المنطقة، وتصديره إلى الخارج عبر موانئ كثيرة مثل آسفى ومازغان وفضالة ، وانفا (١٧).

أما قصب السكر فتنتشر زراعته بالمغرب فى وادى السوس، وتارودانت(١٨)، وعلى طول وادى نفيس (١٩)، وبضواحي قرية بليونش (٢٠)، ويذكر الإدريسى أن قصب السكر فى السوس يعتبر أكثر الأنواع حلاوة وكثرة ماء ، وانتشاره فى المنطقة يمتد على مساحة واسعة طولاً وعرضًا بشكل لايوجد مثله فى غيره من الأماكن، ويحول محليًا إلى سكر، وشهرة سكر السوس تعم بتصديرهعدة مناطق خارج المغرب خاصة وأنه أحسن الأنواع في الطيب والصفاء(٢١).

أما بالنسبة للقطن تعتبر أشبيلية أهم منطقة لزراعته بالأندلس ، حيث يذكر الحميرى أن القطن يجود بأرضها فيعم بلاد الأندلس(٢٢)، ويؤكد ذلك ياقوت : «ومما فاقت (إشبيلية) به غيرها من نواحي الأندلس زراعة القطن، فإنه يحمل منها إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب»(٢٣).

كما اشتهرت الأندلس بزراعة الزعفران Azafran وأهم مناطق زراعته فى بياسة (٢٤)، وبسطة (٢٥)، وباغة (٢٦)، (من أعمال غرناطة) وبلنسية (٢٧)، وإفراغة (٢٨)، وطليطلة (٢٩)، والمعروف أن الأندلس كانت من أبرز مناطق إنتاج الزعفران فى العصور الوسطى، وكانت له

أهمية كبيرة فى التجارة العالمية نظرًا لاستخداماته العديدة فى الصباغة والطيب والطعام والعقاقير الطبية[٣٠].

ومن ناحية الثروة الغابية: اشتهرت المغرب والأندلس بغاباتهما الكثيفة وأخشابهما الجيدة التى تغطى مساحات كبيرة من المناطق الجبلية، ولكن غابات الأندلس تميزت بأخشابها المتنوعة الجيدة التى تعددت مجالات استخدامها، ومن أهمها أشجار الصنوبر[٣١] الذى استخدم لجودته فى بناء السفن وصواريها وصناعة الأثاث. كما اشتهرت قرطاجنة فى شرق الأندلس بنبات الحلفاء الذى استخدم فى صناعة الحصر والقفاف والسلال، وكان يصدر عن طريق ميناء لقنت Alicante إلى جميع بلدان حوض البحر المتوسط[٣٣].

أما من ناحية الثروة الحيوانية فنظرًا لاختلاف البيئة الجغرافية بالمغرب فقد ظهر اختلاف فى توزيع ثرواته الحيوانية فى بيئاته المختلفة ، لقد كانت منطقة الأغنام والأبقار فى البلاد الشرقية هى جبل زغوان وبونة وشرشال والجزائر وجيجل وقسنطينة، وفى البلاد الغربية هى تلمسان وجبال غمارة وسهولها الغربية ومنطقة فاس تادلا والسهول الساحلية الغربية والسوس وسجلماسة ودرعة [٣٤]. وتجدر الإشارة إلى أن الأبقار والأغنام كثرت فى البلاد الغربية، وكثيرا ما كانت تصدر إلى سواحل الأندلس الشرقية من تلمسان ، وإلى السواحل الغربية الأندلسية من سهول البلاد الغربية الساحلية عبر مرسى فضالة[٣٥].

كم اشتهرت المغرب والأندلس بوفرة ثرواتها المعدنية التى تكثر فى جبالهما وسهولهما، وإلى البكرى والإدريسى يرجع الفضل الأعظم فى إلقاء الضوء على الأماكن التى توجد بها الثروات المنجمية ونظام استغلال المناجم فى القرن الخامس والسادس .

ومن أهم المعادن فى المغرب والأندلس: الذهب حيث ذكر الجغرافيون أن الذهب يوجد فى بلاد السودان بكثرة [٣٦]، وكانت ترد منه إلى المغرب كميات كثيرة، وقد أولى الموحدون منذ قيام ثورتهم اهتمامًا خاصًا لضمان تأمين تدفق ذهب السودان عندما سارعوا بالاستيلاء على مدينة سجلماسة [٣٧]– المركز الرئيسى لتجارة الذهب ومرور قوافله[٣٨] – سنة ٥٣٥هـ ١١٤٠م أى قبل الاستيلاء على العاصمة ماركش فضمنوا بذلك تحكمهم فى ذهب السودان كما تعددت مناطق إنتاج الفضة فى المغرب[٣٩]، والأندلس [٤٠]. وكذلك مناجم الحديد[٤١] والنحاس [٤٢]. ومن أجود أنواع النحاس ذلك الذى يستخرج من منجم داى بسهل تادلا ، فهو «نحاس خالص لايعدله غيره من الناحس بمشارق الأرض ومغاربها لقى رواجا كبيرا لأن لونه يميل إلى البياض، ويدخل فى لحام الفضة ولايتشرح إذا طرق [٤٤].

أما الملح فكان يستخرج من أماكن عديدة بالمغرب والأندلس سواء من البر أو البحر. والنوع الأول هو الملح الصخرى كان أهم منطقة يستخرج منها فى المغرب السوس [٤٥]، وقد أشار إليه البكرى باعتباره أهم سلعة يصدرها إلى بلاد السودان ويستبدل به الذهب [٤٦]، كما كان يستخرج أيضا من ملاحة قرب فاس طولها ثمانية عشر ميلا[٤٧]، وتم اكتشاف مناطق أخرى منتجة للملح فى العصر الموحدى، الأولى فى بلاد حاحة Hea والأخرى فى بلاد تاجموت قرب مراكش[٤٨].

وفى الأندلس اشتهرت سرقسطة بالملح الصخرى حيث كان يوجد بها الملح الذرانى (الذرانى) الأبيض الأملس ، وهو ملح معدنى متبلور ، ولايوجد بموضع آخر فى الأندلس مثل هذا النوع من الملح [٤٩]، كذلك كان الملح يستخرج من منجم فى لوشة Loja من أعمال غرناطة[٥٠] . أما الملح البحرى- كان يستخرج من ساحل المرية[٥١]. ومن قصر أبى دانس[٥٢].

بالإضافة إلى ذلك كان يستخرج من البحار والأنهار بعض المواد النفيسة مثل المرجان والعنبر والصدف سواء فى المغرب والأندلس[٥٣] وكان العنبر يستخدم فى صناعة العطور والطيب [٥٤].

كذلك استخرج الشب Jebe فى العصر الموحدى من السوس بالمغرب[٥٥] ومن لبلة فى الأندلس ، والزاج Aceche- حامض كبريتى - من لبلة[٥٦] وأشبيلية[٥٧]، وقد استخدم المسلمون الشب والزاج فى الطب والصباغة وتثبيت الألوان[٥٨].

بالإضافة إلى كل هذه الثروات اشتهرت الأندلس بوجود معادن أخرى مهمة كالرصاص[٥٩] الذى يستخدم فى عمل أنابيب لتوصيل المياه إلى قصور الخلفاء والأمراء والخاصة [٦٠]. كذلك كان يصنع منه صنوج الموازين، وكان يصب أحيانا فى أقراص الأعمدة الضخمة لتتماسك فيما بينها [٦١].

كما اشتهرت المغرب والأندلس بمناجم الزئبق الذى كان يطلب فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى والمسيحى [٦٢]. وتتوفر بالأندلس الكحل وهو من المعادن الهامة التى تدخل فى صناعة العقاقير الطبية[٦٣].

واشتهرت الأندلس كذلك بكثرة مقاطع الرخام والأحجار اللازمة لأغراض البناء والتشييد[٦٤].

مما تقدم يتضح أن أراضى الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس كانت غنية بالثروات الزراعية والمعدنية وغيرها. وقد أدى ذلك إلى ازدهار الصناعات بكافة أنواعها. وبالتالى نشطت حركة التجارة الداخلية بالمغرب والأندلس خلال القرن السادس الهجرى. وقد بدأ هذا الازدهار منذ قيام الدولة المرابطية إلا أنه بلغ أوجه في عهد قوة الدولة الموحدية نتيجة وجود عدة عوامل شجعت على التجارة الداخلية من أهمها :

١- حالة الاستقرار والأمن التى نجح الموحدون فى إرسائها فى كافة أرجاء دولتهم . كما أن اتساع رقعة الدولة الموحدية أفسح المجال للحركة التجارية بين مدن المغرب والأندلس وشجع التجار الذين كانوا يخضعون فى هذه المناطق لحكومة واحدة على التنقل بحرية تامة مما ساعد على تنشيط حركة التجارة من بيع وشراء وتبادل منتجات [٦٥].

٢- إلغاء عبد المؤمن بن على للمغارم والقبالات والمكوس التى فرضها المرابطون فى أواخر عصرهم[٦٦]. كما حرص الموحدون علي تسبيل الجسور دون قبالة ولا إجازة عمالة[٦٧]. ولتنشيط الحركة التجارية قام الخلفاء فى بعض الأحيان بإسقاط الضرائب السابقة مما كان له أثره فى تنشيط حركة البيع والشراء[٦٨].

٣- تشجيع الموحدين لحرفة التجارة حيث تقوم الدولة بإقراض طلبة الحضر أموالاً يتاجرون فيها ثم يردون السلف[٦٩].

٤- اهتمام الموحدين ببناء الفنادق فى مدن مغربية وأندلسية كثيرة ، حيث يشغل الفندق مكانة هامة فى العمران الاقتصادى[٧٠].

٥- عمل الموحدون على تمهيد الطرق فى جميع أنحاء دولتهم ببناء الجسور وتشييد المنازل لنزول التجار وتجهيز الصهاريج توفيراً للماء[٧١].

وهكذا أدى اتساع الدولة الموحدية إلى تعدد وتنوع المنتجات الزراعية والمعدنية والصناعية مما ساهم بشكل واضح فى رواج حركة التجارة بين مختلف المدن.

ثانيا : التجارة الخارجية خلال القرن السادس الهجرى :

كان للانتعاش الذى أصابته التجارة الداخلية فى المغرب والأندلس فى أغلب فترات عصر الموحدين أثر بعيد فى تنشيط حركة التجارة الخارجية ، هذا بالإضافة إلى عوامل أخرى ساعدت على نشاط التجارة الخارجية منها اتساع رقعة الدولة الموحدية، وإقرار الأمن والنظام وحماية طرق القوافل من اللصوص والعابثين بالأمن [٧٢].

كما إن استيلاء الموحدين على الأندلس أدى إلى فتح أسواق الأندلس أمام تجارة السودان، مما كان يعنى تمهيد الطريق إلى أسواق أوروبا عن طريق موانئ شرق الأندلس[٧٣]. وقد لعب الأسطول الموحدى دوراً هاماً فى تأمين تجارة المغرب الصادرة إلى الأندلس أو إلى الأسواق العالمية الأخرى سواء فى غرب أوروبا أو فى منطقة البحر المتوسط أو المشرق الإسلامى ، ذلك أن البحرية القوية تستطيع حماية السفن التجارية من خطر القراصنة وتأمين الطرق البحرية والسهر على حمايتها [٧٤].

العلاقات التجارية للمغرب مع السودان الغربى :

كان اكتشاف الذهب فى أفريقيا السوداء الغربية حدثاً له أهمية كبرى فى الحضارة الإسلامية والمنجزات التى تعتز بها . لهذا ترجع العلاقات التجارية للمغرب مع بلاد السودان إلى قرون عدة قبل العصر الموحدى.

ويشكل الذهب البضاعة الرئيسية المربحة التى يستوردها تجار القوافل المغاربة من بلاد السودان الغربى [٧٥]، حيث يستخرج من منطقة الغابات الاستوائية الموالية للصحراء من الناحية الجنوبية ، وهى المنطقة التى تحكمها الممالك الزنجية خصوصاً مملكة غانة [٧٦]. ويؤكد الإدريسى أن مدينة غانة أكبر مدينة فى السودان وأكثرها سكاناً وأوسعها تجارة حيث كانوا يستخرجون الذهب ويستبدلونه بالملح [٧٧]. ويذكر صاحب الاستبصار أنها مقصد «المياسير من جميع البلاد المحيطة بها من سائر بلاد المغرب الأقصى»[٧٨].

ولهذا كانت البيوت التجارية المغربية فى محطات القوافل فى الجنوب تحتفظ بشبكة من المراسلين والوسطاء الذين يعملون لشراء الذهب لحسابها بالمقايضة الصامتة، مع قبائل السود التى تشتغل فى التقاط الذهب[٧٩]. وهذه التجارة هائلة الحجم والنطاق. فابن حوقل (القرن العاشر الميلادى) يذكر أنه شاهد بنفسه وثيقة تجارية تبلغ قيمتها اثنين وأربعين ألف دينار[٨٠]. وهذا المصدر تؤيده مصادر أخرى وتنوه بالثراء الفاحش الذى كان من حظ التجار الذين يعملون فى التبادل مع السودان[٨١].

بالإضافة إلى الذهب كان المغرب يجلب أيضاً بضائع نفيسة من السودان مثل العنبر من مدينة أوليل[٨٢] وأودغشت [٨٣]، وبعض أنواع الجلود من المناطق الصحراوية ، مثل جلود الماعز من منطقة غدامس [٨٤]، وجلود اللمط التى تجلب من غرب الصحراء من نول لمطة أودغشت – وتعتبر من أكثر أنواع الجلود متانة ، حيث تصنع منها الدرق اللمطية المفضلة لدى

الجيوش الموحدية (٨٥). كما كان يجلب أيضًا جلود الفنك، والصمغ من أودغشت، والرقيق السوداني (٨٦). بالإضافة إلى العاج الذى كان يجد رواجًا خاصا فى أسواق المدن المغربية، ويعتبر العاج من المواد التى يصدرها التجار المغاربة إلى المدن الأوروبية (٨٧). كما يستورد الشب من سجلماسة (٨٨)، يتم استعماله كمادة قابضة وفى صناعة المنسوجات ، وتصدر هذه المادة أيضا إلى المدن والبلاد الأوروبية(٨٩).

كان معدن الملح خلال العصر الوسيط أهم بضاعة يحملها التجار المغاربة إلى بلاد السودان ، فقد كان له مكانة فى المبادلات التجارية وهو ما يتضح من رواية البكرى إذ يقول: «ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يومًا تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر ويوجد تحت قامتين أو دونها من وجه الأرض ويقطع كما تقطع الحجارة ويسمى هذا المعدن تنتال ... ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سلجماسة ، وغانة وسائر بلاد السودان . والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة»(٩٠).

ويشير ابن حوقل إلى الثمن الذى كان يباع به الملح فى السودان ، حيث يذكر أن حمل الملح، أى ما يحمله الجمل الواحد كان ثمنه فى غانة ما بين ٢٠٠ ، ٣٠٠ دينار (٩١). وحمل الجمل، حسب بعض الباحثين المعاصرين يتراوح بين ١٢٥ ، ١٥٠ كيلو جرام ، الشئ الذى يثير تعليق «ديفيس» بقوله : «إننا إذن أمام ملح يساوى ثمنًا غاليًا جدًا ، فإذا قدرنا أن الدينار يزن فى قيمته المتوسطة ٣,٨٠جرام، يكون حمل الجمل يساوى فى حده الأدنى ٧٦٠ جرامًا من الذهب، وفى حده الأعلى ١١٤٠ جرامًا » (٩٢). ولكن نظرًا لانعدم الملح فى بلاد السودان، كان لابد من جلبه من الشمال ومن ثم نشأ التبادل بين الملح والذهب، وصعد ثمن الأول إلى تلك الأسعار الخيالية(٩٣).

وتشير المصادر الجغرافية إلى أن التجار المغاربة كانوا يقومون بتصدير الحنطة والفواكه والزبيب وأدوات النحاس والحديد، والعطور والسلاح وأدوات الترف، والأنسجة النفيسة والزرابى والودع والثياب الفاخرة فى اتجاه أفريقيا الغربية(٩٤).

وهذه السلع كلها، ليست ذات قيمة فى حد ذاتها ولكن قيمتها تزداد بسبب المسافات الطويلة والسفر المضنى الذى يتطلبه نقلها إلى البلدان التى تحتاج إليها ولاتملكها . وهكذا كانت الواجهة الجنوبية الغربية حيوية للاقتصاد النقدى فى العالم الإسلامى(٩٥).

العلاقات التجارية بين المغرب والأندلس ومدن أوروبا الجنوبية:

العلاقات التجارية بين المغرب والأندلس :

لم تكن العلاقات التجارية بين المغرب والأندلس وليدة القرن السادس الهجرى، بل كانت قائمة قبل ذلك، إلا أنها شهدت تطوراً كبيراً منذ التدخل المرابطى فى الأندلس. ولما قامت الدولة الموحدية تطورت المبادلات التجارية تطوراً أكبر نظراً لاهتمامهم بتشجيع النشاط الاقتصادى. هذا بالإضافة إلى عامل القرب بين سواحل المغرب الأقصى والسواحل الجنوبية للأندلس.

كانت الأندلس فى عهد الموحدين أكبر مستفيد من ذهب السودان بعد المغرب الأقصى نظراً للعدد الكبير من دور السكة التى استمرت فى نشاطها نتيجة لاستمرار تدفق ذهب السودان إلى الأندلس، واشتهرت العملة الموحدية المعروفة باسم «الدوبلة» ووصلت إلى معظم بلدان وإمارات أوروبا الغربية(٩٦).

كما كانت المغرب تصدر إلى الأندلس الجلود اللمطية (٩٧)، والجلود الغدماسية والسكر السوسى (٩٨)، والتمر(٩٩)، والنيلة، والشب ، والنحاس (١٠٠)، وأدوات سروج الخيل، والخيول(١٠١)، والأغنام(١٠٢)، والصمغ (١٠٣)، والصوف (١٠٤).

وعلى الرغم من أن المغرب قد شهدت عملية تصنيع كبيرة فى العصر الموحدى، فقد كانت تستورد من البلاد الأندلسية مصنوعات كثيرة نتيجة الزيادة المستمرة فى عدد السكان، حيث كان يجلب من الأندلس المصنوعات الجلدية والفخارية والزجاجية (١٠٥)، وأدوات الموسيقى(١٠٦)، والمصنوعات المعدنية خاصة المذهبة منها (١٠٧)، والوشى المذهب، والبسط (١٠٨)، والورق الشاطبى (١٠٩)، والزيت(١١٠). والقرمز والزعفران(١١١) والتين المجفف ، واللوز والزبيب (١١١٢). ومن المواد الخام الأولية التى كانت تصدرها الأندلس القطن الإشبيلى (١١٣)وحرير غرناطة(١١٤)، ونبات الحلفاء الذى اشتهرت به لقنت وقرطاجنة (١١٥)، وأخشاب طرطوشة(١١٦) ويابسة(١١٧).

ومن المعادن الزئبق ، والزنجفر (١١٨)، والكحل (١١٩)، والكبريت الأحمر الذى كان يصل إلى بلاد الهند(١٢٠).

وكانت للمنسوجات الأندلسية شهرة كبيرة فى جميع أنحاء العالم فى العصور الوسطى(١٢١).

العلاقات التجارية مع مدن أوروبا الجنوبية :

بدأ التعامل بين المغرب والمدن الإيطالية منذ القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، ولكن يبدو أن ذلك التعامل كان بطريقة غير مباشرة، وبدون اتفاقات رسمية، لهذا تأخر التعامل التجارى الرسمى بين المغرب والإمارات الإيطالية إلى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، إذ تم توقيع أول معاهدة تجارية مع المرابطين سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م[١٢٢]. وبعد قيام الدولة الموحدية بدأت عملية تنسيق أسس التعامل التجارى بين المغرب وإمارتى جنوة وبيزة بتوقيع مجموعة من المعاهدات خلال النصف الثانى من القرن السادس الهجرى[١٢٣].

كانت إمارة جنوة من أكثر الإمارات الإيطالية تعاملا مع المغرب، وأول معاهدة تم توقيعها تعود إلى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٣م[١٢٤]. وفى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م تم توقيع معاهدة أخرى نصت على توسيع إطار التعامل التجارى بين الطرفين، حصل بموجبها تجار جنوة على امتيازات تجارية مهمة فى مقدمتها السماح لهم بالتعامل مع كل الموانئ التجارية التباعة للموحدين[١٢٥]. كما نصت المعاهدة على المقادير الجمركية التى سيؤديها تجار جنوة على معاملاتهم حيث حددت فى ١٠ ٪ من قيمة المعاملات [١٢٦]. وفى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٨م تم تجديد هذه الاتفاقية ، وأطلق عليها اتفاقية سلام، حيثنصت على إعطاء كل الضمانات من طرف الموحدين فى البحر وفى الموانئ التابعة للموحدين ، لتجار جنوة، قصر ممارسة أعمالهم التجرية، وأعطى الموحدون لهم حق إقامة فنادق، فى كل من سبتة والعرائش [١٢٧].

مما تقدم يتضح أن المعاملات التجارية كانت نشيطة بين الموحدين وجمهوريات المدن الإيطالية خلال القرن السادس الهجرى، وكان لجنوة وبيزا مركز الصدارة بين المدن الأخرى فى التعامل مع المغرب [١٢٩].

صادرات المغرب والأندلس إلى المدن الأوربية والبلدان الأخرى :

نظراً لتوافر الإنتاج الزراعى والصناعى والمعدنى للمغرب فى العصر الوسيط، كانت تقوم بتصدير العديد من ذلك الإنتاج. ولعل الجلود كانت أكثر السلع تصديراً إلى جنوة وبيزا ولمباردى وفرنسا [١٣٠]، وكذلك الأصواف إلى جنوة وبيزا أيضاً [١٣١]. ويصدر الشب السوسى والنيلة والدرعية والسكر السوسى إلى أوروبا [١٣٢]. والزيت الصفاقسى إلى بلاد الروم وصقلية وإيطاليا (وسواحل أوروبا) ومصر [١٣٣]، وكان التمر السوسى يصل إلى أوروبا [١٣٤]، والنحاس إلى أوروبا والسودان[١٣٥].

كانت الأندلس تصدر العديد من منتجاتها ومن أهمها الزعفران[١٣٦]، والتين [١٣٧]، والسكر[١٣٨]. الزيت[١٣٩].

ومن المعادن التي تصدرها الأندلس الكحل[١٤٠] والكبريت الأحمر الذى كان يصل الهند والشام والعراق وأقطار أخرى[١٤١].

وكانت للمنسوجات الأندلسية شهرة كبيرة فى جميع أنحاء العالم فى العصور الوسطى، حيث كانت تصدر الديباج والأقمشة الكتانية[١٤٢] والحلل الموشية [١٤٣]، والبسط التنتلية [١٤٤]، واشتهرت مالقة بصناعة الفخار المذهب العجيب الذى كان يجلب منها إلى أقاصى البلاد فى أوروبا وإنجلترا [١٤٥]، والكاغد من شاطبة[١٤٦].

كانت الأقمشة خاصة المذهبة والمنقوشة ترد إلى المغرب من مصر[١٤٧] والعراق[١٤٨] وخراسان[١٤٩] واليمن والشام [١٥٠]، ويستورد الفستق والجوز والبندق من صقلية [١٥١]، والسيوف من بيزة [١٥٢]، والنحاس من بيزا وجنوة أيضا [١٥٣]. كما كان القطن والكتان والحرير تستورد من جنوة وبيزا أو عن طريقهما من المشرق [١٥٤]، ومواد الصباغة من إسبانيا أو أوروبا أو الهند [١٥٥]، والجواهر والياقوت من الهند والخليج الفارسى[١٥٦]، والرقيق من السودان[١٥٧].

كانت الأندلس تستورد نوعا من الحديد من إسبانيا المسيحية، يعرف بالشلق ، كان يجلب للأندلس من مملكة قشتالة ، وهو حديد أسود تصنه منه الآلات الحربية[١٥٨].

وكانت الاسكندرية باب المغرب والأندلس إلى الشرق، وعن طريقها كانت تجلب إلى الأندلس منتجات الهند والسند والعراق خاصة من الطيب والتوابل والجواهر [١٥٩]. ومن النوبة والحبشة والسودان كانت الأندلس تستورد الذهب وأنياب الفيلة [١٦٠]، وعن طريق الأندلس كان ذهب السودان يصل إلى إسبانيا المسيحية والمدن الإيطالية [١٦١]، وكان يجلب من مكة إلى الغرب الإسلامى كل ما يخرج من بلاد الهند خاصة العود والمسك[١٦٢]، ولم تقتصر علاقات الأندلس التجارية على بلاد المشرق، بل امتدت حتى شرق أوروبا، فكان يجلب من فنلندا ثياب الملف[١٦٣].

والحقيقة أن حركة التجارة الخارجية سواء كانت تتعلق بالتصدير أو الاستيراد قد ساعدت إلى حد كبير على ازدهار الاقتصاد فى عصر الموحدين.

ثالثًا : الطرق التجارية عبر بلاد المغرب:

كان المغرب الأقصى بحكم موقعة الجغرافى فى أقصى غرب البحر المتوسط ، يعتبر من أهم المحاور الأساسية لمرور القوافل التجارية الرابطة بين الأندلس ومدن أوروبا الجنوبية من جهة والصحراء ، وبلاد السودان من جهة ثانية.

المسالك البرية :

كانت مراكش خلال العصر الموحدى، المدينة الرئيسية التى تربط الاتصال بالتجارة الصحراوية (١٦٤)، عبر مجموعة من المدن الجنوبية التى تشكل بوابة الصحراء، فمن هذه المدينة ينطلق محوران رئيسان من المسالك التجارية . محور مراكش سجلماسة ، ومحور مراكش تامدولت عبر تارودانت (١٦٥)، وكلاهما طريقان جبليان يمران بمجموعة من المنازل كمحطات ثانوية(١٦٦).

المحور الأول: كانت سجلماسة أولا وقبل كل شئ مدينة تجارية ، ويعود الفضل فى ازدهارها وتقدمها وتوافد التجار عليها من كافة الأنحاء إلى نشاطها التجارى، ومركزها الحساس فى مفترق مسالك تجارية شهيرة فى تاريخ التجارة المغربية فى العصر الوسيط. ولعلنا لانبالغ إذا قلنا أن سجلماسة كانت مركزا تجاريا عالميا فى ذلك العصر.

وكان محور التجارة الرئيسى ينطلق من مراكش عبر تادلا ثم سجلماسة حيث يلتقى بطريقين آخرين أحدهما قادم من فاس عبر قلعة مهدى والمزى ثم تساغموت ثم إلى أمغاك على نحو ستين ميلا ومنها تدخل إلى سجلماسة (١٦٧). والثانى من وجدة إلى سجلماسة عبر أجرسيف (١٦٨). ومن سجلماسة تبدأ طرق التجارة فى اتجاهين ، اتجاه غربى نحو تامدولت ومنها إلى أودغشت (١٦٩)، واتجاه غربى جنوب يمر عبر قرى درعة نحو غانة وولاته (١٧٠). هذا بالإضافة إلي طريق من تلمسان فى اتجاه الجنوب الغربى نحو سجلماسة ، تمر القوافل بقلعة ابن جاهل، وهى قلعة منيعة كثيرة الثمار والأنهر، ويتصل بها جبل تارنى، وهو وما يليه جبال معمورة إلي مدينة تيزيل، وهى أول الصحراء، ومنها يسافر إلى مدينة سجلماسة وإلى وارجلان (١٧١). ويعتبر هذا المحور أكثر المسالك التجارية حركة خلال العصر الوسيط.

المحور الثانى : ينطلق من مراكش نحو تامدولت مارا بتارودانت، وإيجلى(١٧٢). وفى تامدولت يتفرع طريقان صحراويان الأول نحو نول لمطة، ومنها يسير بمحاذاة الساحل الأطلسى فى اتجاه الجنوب حيث ينتهى عند مدينة أوليل(١٧٣) الساحلية الواقعة شمال نهر

السنغال، بينما يسير الطريق الثانى من تامدولت مخترقًا وسط غرب الصحراء نحو أودغشت[١٧٤].

أما مسالك المنطقة الوسطى الشمالية فكانت تربط بين الجهات الوسطى الداخلية والعالم الخارجي المحيط بالمغرب الأقصى من الناحيتين الشمالية والشرقية إما براً أو بحراً فضلا عن اتصالها بمسالك الواجهة الجنوبية السابقة. الذكر وتتمحور هذه المسالك حول المدن المغربية الكبرى مثل مراكش وسلا وفاس.

فمن مدينة مراكش ينطلق طريقان رئيسان فى اتجاه الشمال. **الأول** : طريق كان يربط بين أغمات وفاس عبر تادلا [١٧٥]. وكان أهم ممر يربط شمال المغرب الأقصى بجنوبه الغربى، إلا أن بناء مدينة مراكش أدى إلى إحداث طريق ثان يربط مدينة مراكش بمدينة سلا [١٧٦]، ومن ثم أصبح الطريق الرئيسى الذى يربط مراكش بمنطقة الغرب فى اتجاه الأندلس من جهة وفاس والمغرب الأوسط من جهة ثانية.

وهكذا ، أصبحت مدينة سلا خلال القرن السادس الهجرى أهم ميناء تجارى[١٧٧] للمغرب على المحيط الأطلسى ، فمن مدينة سلا تنطلق أربع طرق : الأول: نحو مراكش عبر منطقةتامسنا [١٧٨]، والثانى: نحو تادلا[١٧٩] وهو طريق قديم، والثالث : يربط سلا بمدينة فاس عبر مكناسة [١٨٠]، والرابع : يربط سلا بمدينة سبتة[١٨١] عبر مجموعة من المدن والمراكز الحضرية كقصر عبد الكريم والبصرة ، ويغلب عليها الطابع العسكرى دون التقليل من أهميته التجارية.

أما فاس فقد ظلت طوال العصر الوسيط أهم مدينة مغربية تتمحور حولها مجموعة من المسالك التجارية متعددة الاتجاهات نحو سجلماسة ثم مراكش عبر تادلا ، وسلا عبر مكناسة. أما المسالك الأخرى المنطلقة من فاس فتتخذ ثلاثة اتجاهات من فاس إلى وجدة وتلمسان[١٨٢] عبر مجموعة المار من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق [١٨٣]، وفى اتجاه سبتة ينطلق طريق أساسى يربط فاس بمدن الشمال الغربى، وكان يخترق جبال غمارة من وسطها قبل قيام دولة المرابطين [١٨٤]. إلا أنه نتيجة لتوتر العلاقات بين قبائل غمارة والمرابطين ثم الموحدين، أدى إلى تغيير الطريق وأصبح يمر نحو الغرب عبر البصرة وقصر عبد الكريم ثم نحو الشمال فى اتجاه سبتة وطنجة[١٨٥].

وآخر الطريق الرئيسة المنطلقة من فاس ، تتجه نحو الشمال إلى موانئ البحر المتوسط[١٨٦] شرق منطقة غمارة، وعلى مصب نهر ملوية، مثل مرسى تابحريت[١٨٧]، ونكور ،

وبادس وغيرها من المراسى التى لها اتصال بالعالم الخارجى كالأندلس، ومدن أوروبا الجنوبية ومراسى المغرب الأوسط وأفريقية.

المسالك البحرية بالمغرب :

قبل القرن السادس الهجرى كانت التجارة البحرية للمغرب الأقصى تتم انطلاقا من موانئ البحر المتوسط [١٨٨]، نظرا لسهولة عملية توقف السفن بسبب ضعف حركة الأمواج والتيارات البحرية، ونظرا لسهولة عبور البحر المتوسط والقرب النسبى للموانئ والمدن الأوربية ، ومن أهم هذه الموانئ سبتة، وطنجة وتابحريت، وغساسة وغيرها من موانئ شرق جبال غمارة. ويبدو أن المعاملات التجارية لهذه الموانئ كانت تتم بالأساس مع موانئ الأندلس [١٨٩].

وفى عهد الموحدين حدث تغيير للطرق البحرية فى المغرب الأقصى، إذ أصبحت موانئ الساحل الغربى الأطلسى تستحوذ على قسط مهم من المبادلات التجارية [١٩٠]، ولكن دون التقليل من أهمية الموانئ الشمالية وقد حافظت سبتة على المركز الأول فى مجال المعاملات نظرا لقربها النسبى من الأندلس [١٩١]. بينما فى الواجهة الغربية ظهرت سلا كأهم ميناء للمغرب على المحيط الأطلسى[١٩٢] استقطب اهتمام التجار الأندلسيين[١٩٣] والجنويين على وجه الخصوص ، وإلى جانبها ظهرت أهمية موانئ أنفا وآسفى [١٩٤]، ومازيغان[١٩٥].

إن الاهتمام بالمواصلات البحرية يعكس اهتمام الدولة الموحدية كقوة بحرية، بدأت تفرض سيطرتها على شواطئ بلادها الواسعة والمياه المجاورة لها .

ويظهر اهتمام الموحدين بالبحر والتجارة البحرية من خلال فرض الأمن على السواحل[١٩٦]، وإلغاء الحواجز التى تعرقل العمليات التجارية [١٩٧]، وتشجيع دور صناعة السفن التجارية [١٩٨]، مما أدى إلى توسيع مجال المعاملات التجارية مع دول عالم البحر المتوسط.

وبالنسبة للطرق البحرية الرابطة بين الموانئ المغربية وأوربا والأندلس [١٩٩]، يلاحظ أن موانئ الشمال المتوسيطة ترتبط بصفة عامة بشرق الأندلس ، ومدن إيطاليا وجنوب فرنسا[٢٠٠]، عبر ميناء سبتة باعتبارها أهم ميناء تجارى فى شمال المغرب إبان العصر الموحدى، تنطلق منه السفن التجارية نحو موانئ مالقة والمرية، ثم جزر البليار ودانية وبرشلونة ليصل إلى الموانئ الفرنسية مثل مونبلييه وماريليا [٢٠١]، وبموازاة هذا الطريق يسير طريق آخر من سبتة إلى المدن الإيطالية ، خاصة بيزا وجنوة[٢٠٢].

وفى الواجهة الغربية ، تنطلق مسالك أخرى من موانئ سلا وانفا وفضالة وآسفى، إما فى اتجاه سبتة ثم موانئ شرق الأندلس وجنوب أوروبا[٢٠٣] وإما نحو جنوب وغرب الأندلس كإشبيلية ولشبونة[٢٠٤].

الطرق التجارية عبر بلاد الأندلس :

أشارت الكتب الجغرافية إلى الطريق البرى الذى كان يربط الغرب الإسلامى ببلاد المشرق، فيذكر الإدريسى أن الأندلسيين فى رحلاتهم البرية للمشرق كانوا يعبرون المضيق أولاً إلى قصر مصمودة بالمغرب الأقصى على ساحل البحر[٢٠٥] ومنه يتجهون إلى سبتة أو فاس ثم إلى تاهرت ثم القيروان ثم إلي مصر [٢٠٦]، ومنها كان المرء يتجه إلى الشام والعراق والأراضى المقدسة بالحجاز.

وكانت الرحلات البحرية فى العصور الوسطى شاقة وخطيرة للغاية حتى بالنسبة للطرق البحرية المألوفة فى حوض البحر المتوسط. وتوضح رحلة ابن جبير فى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م الطريق البحرى الذى يربط الأدلس بالمشرق، فقد عبر المضيق من ثغر طريف إلى قصر مصمودة ، ومنه إلى سبتة ، حيث أقلع من هناك فى مركب رومى (من جنوة) متجهًا إلى الإسكندرية، فسار بمحاذاة الساحل الشرقى للأندلس فى دانية، ثم اتجه ناحية جزيرة يابسة ، وبعد ذلك ميورقة ثم منورق فسردانية ثم صقلية فإقريطش (كريت) ومنها إلى الإسكندرية، ثم زار الأراضى المقدسة وذلك بعد أن استقل مركبًا من ميناء عيذاب على البحر الأحمر إلى جدة[٢٠٧].

وكان الأندلسيون بعد وصولهم إلى إقريطش يتجهون فى بعض الأحيان إلى قبرص ثم عكا، ومنها يأخذون الطريق البرى إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام[٢٠٨]. إلا زن هذا الطريق البحرى كان محفوفًا بالمخاطر ، فكثيراً ما كانت السفن تتعرض للعواصف العاتية التى تنتهى بتحطيمها ويهلك ركابها غرقًا ، ولهذا كان الرحالة البحريون يلتمسون طريقًا طويلاً ولكنه أكثر أمانًا ، فكانت سفنهم تخرج من موانئ الأندلس إلى ساحل المغرب الأوسط أو ساحل العدوة (المغرب الأقصى)، ومن هناك تسير بحذاء الساحل الأفريقى وترسو عند ثغوره المطلة على بحر المغرب حتى تصل إلى خليج سرت، ومن هناك تتابع الساحل الليبى وبرقة حتى تصل إلى الاسكندرية[٢٠٩]. وكان طريق الرحلة هذا يستخدم لنقل الركاب للحج والتجارة أيضًا وكان ميناء الإسكندرية هو المرسى الطبيعى الكبير لنزول التجار والمسافرين من أهل الأندلس والمغرب خاصة وأنه كان يوجد خط ملاحى منتظم يصل بين المرية والإسكندرية [٢١٠].

أما فى حالة رغبة هؤلاء التجار السفر نحو المحيط الهندى فإنه يتعين عليهم فى هذه الحالة السير بحراً حتى ميناء الفرما ومنه يعبرون الصحراء إلى القلزم ثم يبحرون من جديد نحو مسقط فى عمان حيث يمكن مواصلة السفر على ظهر أى مركب إلى بلاد الهند والصين[٢١١].

والمعرف أن المدن الإيطالية مثل جنوة وبيزا والبندقية احتكرت النقل البحرى فى غرب البحر المتوسط فى عصر دولتى المرابطين والموحدين، وكان لتلك المدن التجارية الآثر الكبير على سير التجارة الأوروبية عامة، وكان تجار هه المدن يتولون نقل بضائع الشرق الخاصة التوابل والمنسوجات إلى الغرب مما ساعد على انتعاش الحياة الاقتصادية فى غرب البحر المتوسط[٢١٢].

ومن أهم المراكز والموانئ التجارية بالأندلس:

(أ) المرية : كانت المرية من أهم المراكز التجارية البحرية فى الأندلس منذ عصر الخلافة الأموية، وبلغت أوج ازدهارها فى عصر المرابطين وكانت- كما يذكر الرازى- باب الشرق ومفتاح الرزق [٢١٣]، ويضيف الإدريسى أنه : «كانت تقصدها مراكب البحر من الإسكندرية والشام وأنه لم يكن بالأندلس أيسر من أهلها مالا ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخاراً[٢١٤].

وقد استمر النشاط التجارى فى عصر الموحدين، فيذكر الشقندى أنها كانت حط مراكب النصارى ومجتمع ديونهم ومنها كانت تتوزع بضائعهم على سائر الأنحاء، وفيها كانت تشحن البضائع التى تصلح لهم. وقد عادت تلك الامتيازات الممنوحة للنصارى بالنفع على الدولة، إذ كانت تفرض على هؤلاء التجار ضريبة العشور[٢١٥].

وكانت لمدينة المرية علاقات تجارية مزدهرة بمختلف مناطق العالم خاصة الإسكندرية وبلاد المشرق وإيطاليا وفرنسا وقلطونية ، إذ كانت تصدر المنسوجات الحريرية وزيت الزيتون والأوانى الخزفية [٢١٦]، بينما كان يجلب إليها الحنطة من المغرب[٢١٧].

(ب) مالقة: كانت مالقة من الثغور الأندلسية الهامة المطلة على البحر المتوسط وذلك لموقعها الجغرافى الممتاز على طرق المواصلات البحرية ولكونها من القواعد التجارية الرئيسة، وأهم المحطات البحرية سواء لشحن السفن أو تفريغها أو لإصلاح ما تتعرض له من أعطاب، وكذلك لوفرة إنتاجها الزراعى ونشاطها التجارى والصناعى[٢١٨].

(ج) إشبيلية : بلغت إشبيلية أوج تطورها وازدهارها فى عصر الموحدين حيث اتخذوها حاضرة لهم فى الأندلس وذلك منذ تبعية الأندلس لدولتهم ، وكان يوسف بن عبد المؤمن قد اهتم بتجميلها وتعميرها وتحصينها وأولاها عنايته .

وكان مرسى إشبيلية يذخر بحركة تجارية دائبة، حيث إن موقعها الجغرافى على الوادى الكبير ساعد على دخول السفن التجارية القادمة من بلاد الفرنج ورسوها بإشبيلية(٢١٩) ، ثم تعود تلك السفن محملة بمنتجات إشبيلية خاصة الزيوت التى كانت تصدر إلى كل البلدان المسيحية والإسلامية(٢٢٠). ولهذا كانت إشبيلية سوقًا تجارية هامة فى هذا العصر(٢٢١).

(د) مرسية: كانت مرسية فى عصر الموحدين- كما ذكر الشقندى- حاضرة شرق الأندلس، واشتهرت بوفرة منتجاتها الزراعية . ولقيت بضاعتها رواجًا كبيرًا فى مختلف الأنحاء خاصة الحلل الموشية والبسط والحصر التى تغلف بها الحيطان(٢٢٢). وكان لمرسيه مرسيان تعتمد عليهما فى حركة الصادر والوارد، أحدهما قرطاجنة الحلفاء وكان مرسى ترسو به السفن الكبيرة والصغيرة، والآخر مرسى لقنت الذى يجوز منه التجار إلى أفريقية، كما كان يتجهز منه بالحلفاء إلى مختلف البلدان على سواحل البحر المتوسط(٢٢٣).

من خلال هذا العرض يتضح لنا أن سياسة الدولة الموحدية الداخلية والخارجية شجعت على ازدهار حركة التجارة بصفة عامة والتجارة الخارجية بصفة خاصة وذلك نتيجة اتساع أرجاء الدولة وتوافر أغلب المواد الخام الزراعية والمعدنية وازدهار الصناعة مما أتاح السبيل لازدهار حركة التبادل التجارى مع العالم الخارجى ولاسيما عبر البحر المتوسط.

الهوامش

١- انظر : ابن غالب الأندلسى (أبو عبدالله محمد بن غالب البلنسى) ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية ، المجلد الأول، الجزء الثانى، نوفمبر ١٩٥٥م، ص٢٨٨؛ الإدريسى (الشريف أبو عبدالله محمد ابن محمد بن عبدالله إدريس الحموى) ، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، المجلد الثانى ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، د.ت ، ص٥٤١، ٥٥١، ٥٧٩؛ ابن صاحب الصلاة (عبدالملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجى) ، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، السفر الثانى، تحقيق الدكتور عبد الهادى التازى، الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٧م، ص١٦٦-١٦٧ ، ٤١٥؛ كذلك راجع : السيد عبد العزيز سالم، العمارة المدنية بالأندلس، دائرة معارف الشعب، العدد (٦٤) ١٩٥٩م ، ص١٤٨-١٥٠ .

٢- البيذق (أبوبكر على الصنهاجى) ، كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال ، بولس كتنر الكتبى، باريس ١٩٢٨م، ص١١٣ ؛ ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة ، ص٣٥٨-٣٥٩؛ الزهرى (أبو عبدالله محمد بن أبى بكر) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق الأستاذ محمد الحاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، د.ت ، ص١١٥-١١٦؛ ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبدالله الفاسى)، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر كارل يوحن تورنبرج ، طبع فى مدينة أويسالة بدار الطباعة المدرسية ، ١٨٤٣م، ص١٢٥، ١٧٦؛ ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى) ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، السفر الرابع طبع بالتصوير عن مخطوطة رقم ٢٧٩٧ / ٢: أحمد الثالث، طوبقا بوسراى، استانبول ، أصدره فؤاد سزكين، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية فى إطار جامعة فرانكفورت ، ألمانيا الاتحادية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص٨٨ .

٣- مؤلف مجهول ، كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الاسكندرية، ١٩٥٨م، ص١٣٧ ، ١٤٠ ، ١٨٠؛ ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص٤٠، ٤١ .

٤- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٧٧ ، ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين ، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتانى، ومحمد بن تاويت ، ومحمد بن زنيبر، وعبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامى ، بيروت لبنان ، ١٩٨٥م، ص١٦٥؛ سالم ، العمارة المدنية بالأندلس ، ص١٤٨ .

٥- انظر : ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي) ، رسالة في القضاء والحسبة نشرها الأستاذ ليفي بروفنسال ضمن كتاب بعنوان «ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب» ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م، ص٣٥-٣٦ .

٦- ابن أبي زرع ، روض القرطاس، ص١٧ .

٧- راجع : عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي ، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣م، ص١٨٤ .

٨- ابن القطان (أبو الحسن علي بن محمد بن عبدالملك) جزء من كتاب «نظم الجمان في أخبار الزمان» تحقيق الدكتور محمد علي مكي بمساهمة من المركز الجامعي للبحث العلمي، إشراف مولاي الحسن للبحوث، جامعة محمد الخامس، الرباط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، د.ت ، ص١٧٥ .

٩- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢١٠؛ ابن عذاري، البيان ، قسم الموحدين ، ص٩٩؛ ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص١٤٣ .

١٠- أحمد محمد إسماعيل الجمال، دولة الموحدين في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٦٣-١١٨٤م) ، رسالة دكتوراه (غير منشورة) الإسكندرية، ١٩٩٨م، ص٣١٠ .

١١- الإدريسي : نزهة المشتاق، ص٢٢٨؛ الحميري (أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م، ص٢٣١ .

١٢- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤١؛ ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى) كتاب الجغرافيا ، تحقيق الأستاذ إسماعيل العربي، الطبعة الأولي ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٠م، ص١٣٧ .

١٣- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٤٢ .

١٤- الإدريسي، نفسه، ص٢٤٣ ، وما بعدها ؛ مجهول الاستبصار، ص١٨٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص٤٣٤ .

١٥- الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٣٩ ؛ مجهول، الاستبصار، ص١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

١٦- الإدريسي: المصدر السابق، ص٢٢٦؛ مجهول، الاستبصار ، ص٢٠١؛ الحميري، الروض المعطار ، ص٣٠٥ .

١٧- الإدريسي، المصدر السابق، ص٢٣٩ ، ٢٤٠، ٢٤١؛ ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص٢٣٧؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥٧ .

١٨- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢٨؛ مجهول ، الاستبصار ، ص٢١٢ ؛ ابن القطان ، نظم الجمان، ص٢١٢؛ ابن سعيد كتاب الجغرافيا، ص١٢٣ الحميرى ، الروض المعطار، ص٣٢٩ .

١٩- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٢٩؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص١٢٧ .

٢٠- الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص٥٢٨ .

٢١- الإدريسي: نفسه، ص٢٢٧، ٢٣٠ ؛ مجهول ، الاستبصار ، ص٢١٢؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٢٣٠ .

Abdel- Hamid (Saad Zaghloui), Abou Yosuf Yaqub Almansur l' Almohade (1184-1199), These Doctorat , Faculté des lettres , Université Paris , 1951 , p. 165 .

٢٢- الحميرى ، المصدر السابق ، ص٥٩ .

٢٣- انظر : ياقوت (شهاب الدين أبوعبدالله الحموى) ، معجم البلدان، المجلد الأول ، طبعة بيروت، ١٩٥٥م، ص١٩٥؛ العذرى (أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس المعروف بأبى الدلائى) ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار فى غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى، مدريد ١٩٥م، ص٩٦؛ ابن غالب ، فرحة الأنفس، ص٢٩٣؛ مؤلف مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، نشر وتحقيق لويس مولينا، مدريد، ١٩٨٣م، ص٦٢ .

٢٤- الإدريسى ، نزهة المشتاق ص٥٦٩ ؛ ابن غالب، ص٢٨٤ ؛ ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) ؛ المغرب فى حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٧١؛ أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر)، تقويم البلدان، تحقيق دى سلان ، باريس ١٨٤٠م، ص١٧٧؛ الحميرى، الروض المعطار، ص١٢١؛ المقرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى)، نفطح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الجزء الرابع، ص٢٠٤ .

٢٥- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، مجموعة رسائل، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣م، ص٨٦ ؛ مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٦؛ القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، الجزء الخامس، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص٢٢١ .

٢٦- ابن غالب ، فرحة الأنفس، ص٢٨٣ ؛ المقرى ، نفح الطيب، ج١ ، ص١٤٢ .

٢٧- العذرى ، ص١٧؛ ياقوت الحموى ، معجم البلدان، مجلد١ ، ص٤٩٠؛ القزوينى (زكريا بن محمد بن

محمد) ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٩، ص١٥٣؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٣؛ المقرى، نفح الطيب ، ج١، ص١٦٨ .

٢٨- مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٢ .

٢٩- مجهول ، نفسه، ص٤٧ .

٣٠- انظر : ابن فضل الله العمرى، مسالك الأمصار، السفر الرابع، ص١١٠؛

Heyd, Histoire du Commerce de Levante au Moyen Age, T. II, Amestesdam, 1967 , pp. 668-669;

كمال السيد محمد أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادى فى عصر دولتى المرابطين والموحدين ، مركز الإسكندرية للكتاب، د.ت، ص١٢٧-١٢٨ .

٣١- انظر: الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص٥٤٣، ٥٥٥ ؛ ابن غالب، ص٢٨٦ ؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٤ ؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٢٤٤،٢٤٧، ٣٤٨ ، ٤٧٧ .

٣٢- انظر : ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ٥ ، ص٤٢٤؛ الحميرى، المصدر السابق، ص٦١٦؛ الأمير شكيب أرسلان، الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية ، الطبعة الأولى، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٥٥-١٣٥٨هـ، الجزء الثالث، ص١٨ :

Imamuddin (S.M) The Economic History of Spain Under the Umayyads. Dacca, 1963, p. 128 .

٣٣- انظر : الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٥٥٨؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٥١١ .

٣٤- البكرى (أبو عبيد الله عبدالله بن عبد العزيز) ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، من كتاب «المسالك والممالك» نشر دى سلان De Slane بعنوان : Description de L'Afrique Septentrion-al، الجزائر ١٩١١م، ص١٠٧، ١٠٩، ١٤٧؛ الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٢٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ؛ مجهول، الاستبصار، ص١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٩٠؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ، ص١٢٥؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٤٣٤ ، ٥٤٤ .

٣٥- الإدريسى : نزهة المشتاق، ص٢٣٩ ، ٢٤٠، عز الدين موسى، النشاط الاقتصادى، ١٩٨-١٩٩ .

٣٦- البكرى، المغرب ، ص١٥٩ ؛ العمرى، مسالك الابصار، السفر الرابع، ص٩٤ .

٣٧- عن سجلماسة يقول العمرى نقلاً عن ابن سعيد: «وأهلها مياسير ولهم متاجر إلى بلاد السودان، قال ولقد رأيت صكًا فيه حق على رجل من سجلماسة لآخر من أهلها باثنين وأربعين ألف دينار، ومدينة

سجلماسة آخر العمران ليس قبليها عمران بل منها يدخل التجار إلى بلاد السودان بالملح والنحاس والودع ويعودون بالذهب». (العمرى، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص٩٤) .

٣٨- العمرى ، نفسه ، ص٩٢؛ وانظر : المقدسى (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البشارى)، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تحقيق دى غويه، مكتبة المثنى ببغداد، ليدن، ١٩٠٦م ص٢٣١ .

٣٩- المراكشى: المعجب ، ص٣٦١-٣٦٢؛ الاستبصار ، ص١٨٥؛ ابن الأبار (أبو عبدالله محمد القضاعى البلنسى)، كتاب التكملة لكتاب الصلة ، طبعة عزت العطار الحسينى، الجزء الثانى، القاهرة، ١٩٥٦م، ص٥٦٠؛ ابن عذارى، البيان، قسم الموحدين، ص١٤٧؛ ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص١٢٩ .

٤٠- الاصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى) ، كتاب المسالك والممالك ، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٧م، ص٣٦؛ العذرى ، نصوص من ترصيع الأخبار، ص٢؛ البكرى، جغرافية الأندلس، ص١٢٩؛ الإدريسى م نزهة المشتاق، ص٥٧٤؛ مجهول ، ذكر بلاد الأندلس ، ص٣٠ ، ٤٢ ، ٥٦؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٤٤٠؛ المقرى، نفح الطيب، ج١ ، ص١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٩ ، ٤٥٥ .

٤١- البكرى ، المغرب ، ص٥٦؛ المراكشى ، المعجب، ص٣٦٢ .

٤٢- الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١١٦، ١١٧ ؛ الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٤١ ؛ المراكشى، المعجب ، ص٣٦٣ .

٤٣- الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٤١ .

٤٤- الإدريسى، نفسه، ص٢٤١ ؛ الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١١٦، ١١٧ .

٤٥- البكرى ، المغرب، ص١٧١ .

٤٦- البكرى، نفسه، ص١٧١؛ العمرى، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص٩٤ .

٤٧- ابن أبى زرع ، روض القرطاس، ص١٧؛ الجزنائى (أبو الحسن على) زهرة الآس فى بناء مدينة فاس، طبعة الفرد بل، الجزائر، ١٩٢٢م، ص٣٥ .

٤٨- ابن عذارى ، البيان ، قسم الموحدين، ص٥٨؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادى، ص٢٤٩ .

٤٩- انظر : العذرى، ص٢٢؛ ابن غالب ، فرحة الأنفس ، ص٢٨٧؛ المقرى، نفح الطيب ، ج١، ص١٥٠ .

٥٠- مشاهدات ابن الخطيب ، ص٩٢ .

٥١- مشاهدات ابن الخطيب ، ص٨٢ .

٥٢- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان) ، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود على مكى، بيروت، ١٩٧٣م، هامش ٥٩٩، ص٦٤٦-٦٤٧؛ الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٥٤٤ .

٥٣- راجع : المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص٢٣٩؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٢٩؛ ابن غالب، ص٢٩١؛ ياقوت، معجم البلدان، مجلد١، ص١٩٥ ، ٢٤٠؛ القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد، ص٥٥٥؛ ابن سعيد المغرب ، ج١، ص٣٨٠ ؛ ابن أبي ذرع، روض القرطاس، ص١٧؛ الجزنائي، جنى زهرة الآس، ص٣٤؛ الحميري، الروض المعطار، ص٢٣٩، ٣٤٧ .

٥٤- انظر: القلقشندي ، صبح الأعشى، ج٢، ص١١٨-١١٩ .

٥٥- الزهري ، *كتاب الجغرافية*، ص١١٧ .

٥٦- العذري، ص١١٠ ؛ ابن غالب ، ص٢٩١؛ الحميري، الروض المعطار، ٥٠٧؛

Imamudin (S.M.), The Economic Hisotry , p. 167-168 .

٥٧- العذري، ص١١٠؛ ابن غالب ، ص٢٩١؛ القزويني، ص٥٥٥؛ ابن سعيد ، *المغرب*، ج١، ص٢٣٩ ؛ مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس ، ص٥٩؛ المقري، نفح الطيب ، ج١، ص٢٠١ .

58- Villvé, La Industria, p. 216, 217 .

٥٩- العذري، ص٢ ؛ ابن غالب، ص٢٨٣؛ المراكشي (عبد الواحد بن علي) ، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م ص٣٦٣؛ *القزويني*، ص٥٠٢؛ *ابن سعيد المغرب*، ج٢ ، ص٢٢٨؛ ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد)، *الإحاطة في أخبار غرناطة*، تحقيق الأستاذ محمد عبدالله عنان، المجلد الأول، القاهرة، ١٩٧٣م، ص٩٨؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٥٠ .

٦٠- السيد عبد العزيز سالم ، *قرطبة حاضرة الخلافة: دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية في العصور الوسطى*، الجزء الأول، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧١- ١٩٧٢م ، ص١٨٨ .

٦١- السقطي المالقي (أبو عبدالله محمد بن أبي محمد)، كتاب في آداب الحسبة، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، والأستاذ ج.س. كولان، المطبعة الدولية، باريس، ١٩٣١، ص١٢ .

٦٢- الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٥٨١ ؛ الحميري ، الروض المعطار، ص٦ ؛

Lévi Provençal (E.V.), España Musulmana Traducción por Garcia Gomez en (Historia de España) T.V, Madrid 1957 , p. 174'

سالم ، قرطبة ، حاضرة الخلافة، ج٢، ص١٤١ .

٦٣- البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، ص١٢٩-١٣٠ ؛ الزهري، ص٩٦؛ القزويني، ص٥٠٥، ٥٤٥ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص١١٣؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٣٨ .

٦٤- أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١٦٧؛ المقرى، نفح الطيب ، ج١، ص١٦٧ .

٦٥- حسن على حسن، الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٨٠م، ص٢٦٦ .

٦٦- ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص١٣٥ .

٦٧- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص١٦٦؛ ابن عذارى، البيان: قسم الموحدين، ص١٦٥ .

٦٨- المن بالإمامة، ص٢٦٦ .

٦٩- ابن القطان، نظم الجمان ، ص١٣٧-١٣٨ ؛ ابن عذارى، البيان ، قسم الموحدين، ص٨١ .

٧٠- مؤلف مجهول ، الاستبصار ، ص١٨٩ ؛ سالم ، العمارة المدنية، ص١٤٣ ؛ السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية، قاعدة الأسطول الأندلسى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص١٦٩ .

٧١- ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص٢٥٢-٣٥٦؛ ابن أبى زرع ، روض القرطاس، ص١٤٣ .

٧٢- انظر : ابن عذارى ، البيان، ج٤، ص٤٦؛ حسن على حسن ، الحضارة الإسلامية، ص٢٧٥ .

٧٣- حسن على حسن، الحضارة الإسلامية، ص٢٨٦؛ كمال أبو مصطفى، تاريخ الأندلس الاقتصادى، ص٢٣٧ .

٧٤- سالم، تاريخ مدينة المرية، ٤٩-٥٠ ؛ أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الإسكندرية، ١٩٦٨م، ص٣٢١ ؛ حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين «صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧م، ص٤٠١ .

٧٥- ياقوت ، معجم البلدان، ص١٩٢ .

Saad Zaghloul, Abou Yusof Yaqub Almansur, p. 186 .

يذكر ديفيس أن الذهب من أهم المواد التجارية السودانية التى احتاج إليها الغرب الإسلامى فى خلال العصور الوسطى ، نظراً لعلاقته بالمجال النقدى، ويعتبر أن الذهب هو المحرك الفعلى فى العلاقات التجارية بين الشمال الأفريقى وغرب أفريقيا.

J. Devisse, les Route de Commerce et échanges en Afrique Occidentale en Relation avec la Méditerranée Essai sur le Commerce Africain Médievval du XV. au XVI Siécle. Revue d'Histoire Economique et Social, 1972, p. 49 .

٧٦- البكرى ، المغـرب ، ص١٨٤؛ ياقـوت مـعـجم البلدان، المجلد الثـانى، ص١٢-١٣، والمجلد الرابع، ص١٨٤؛ مجهول ، الاستبصار ، ص٢١٩-٢٢٦ .

٧٧- الإدريسى، نزهة المشتاق ، ص١٨، ٢٣، ٢٤ ، ٢٥، ٢٩٦ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، سعد زغلول عبد الحميد، أحمد مختار العبادى، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، الكويت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ص٣٦٩م؛

Manny (Raymond), Tableau Geographique de l' ouest Africain au moyen âge. I.F.A.N., No. 61 , 1961 , p. 300 .

٧٨- الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٣ ؛ الحميرى، الروض المعطار ص٤٢٥ .

٧٩- ياقوت ، معجم البلدان، ج٢، ص١٢-١٣ .

٨٠- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى) ، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت ، ص٦٥ .

٨١- البكرى ، المغرب، ص٨٦ ، ١٧٦؛ ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص٩٣؛ الاستبصار، ص٢٢١ ؛ الحميرى ، الروض المعطار، ص٤٢٦ ؛ محمد زنيبر، تجارة القوافل فى المغرب ، مجلة المناهل، العدد ٣٨ ، سنة ١٩٨٩ ، ص١٢٧؛ موريس لومبار، الإسلام فى مجده الأول من القرن ٢ إلى القرن ٥ هـ (٨-١١م) ترجمة وتعليق إسماعيل العربى، الطبعة الثالثة، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، ص٢٣٦

٨٢- ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص٩٠؛ وانظر : البكرى، المغرب، ص١٧١؛ حسن حافظى علوى، التبادل التجارى بين المغرب الأقصى والسودان الغربى فى العصر الوسيط، مجلة المناهل، تصدرها وزارة الشئون الثقافية ، الرباط، المغرب، العدد التاسع والثلاثون ، السنة السادسة عشرة، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، ص٢٦٤ ، ٢٦٥ .

٨٣- البكرى، المصدر السابق، ص١٦٩؛ مجهول، الاستبصار ، ص٢١٦ .

٨٤- الاستبصار ، ص١٤؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٤٢٧ .

٨٥- البكرى، المصدر السابق، ص١٧١؛ الإدريسى، نزهة المشتاق ، ص٢٢٤؛ الاستبصار ص٢١٤ .

٨٦- البكرى ، المصدر السابق، ص١٥٨؛ علوى، المرجع السابق، ص٢٦٦ ؛

Saad Zagloul, Op. cit., pp. 186-187 .

٨٧- ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص١١٤؛ الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١١٧ .

٨٨- البكرى، المغرب، ص١٨٣؛ الاستبصار، ص٢٢٥؛ ابن سعيد كتاب الجغرافية، ص١١٧ .

٨٩- ابن سعيد ، نفسه، ص١١٤؛ الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١١٧ .

٩٠- البكرى، المغرب، ص١٧١؛ الاستبصار، ص٢١٤؛ علوى ، التبادل التجارى بين المغرب الأقصى والسودان الغربى، ص٢٥٦-٢٦٢ .

٩١- ابن حوقل ، صورة الأرض، ص٩٠ .

92- Devisse (Jean), Tegdaoust I, Recherches sur Aoudoghost , Paris, 1970, p. 112 .

٩٣- محمد زنيبر ، تجارة القوافل في المغرب ص١٢٦ .

٩٤- البكرى ، المغرب، ص١٥٨ ؛ الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص٢٣٢؛ الزهرى، كتاب الجغرافية، ص١١٨، ١٢٤ ، ١٢٧؛ الحميرى، الروض، ص٤٦ ، ١٣٤ ؛ علوى، التبادل التجارى، ص٢٥٧ ، ٢٦٣ .

٩٥- موريس لومبار، الإسلام فى مجده الأول (من القرن الثانى إلى القرن الخامس الهجرى/ الثامن إلى الحادى عشر الميلادى) ترجمة وتعليق: اسماعيل العربى، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، ص٢٢٧ .

96- Martinez (Pedro) Islam y cristianidad en la economia mediterranea de la baja edad media, Moscu, 1970,p.8;

أمين الطيبى، النقود العربية، المجلة الفرنسية للعلوم الاجتماعية ، العدد ٦٧لسنة ١٩٨١م.

٩٧- الزهرى ، ص١١٧-١١٨ ؛ الاستبصار ، ص٢١٢-٢١٣، ٢١٦ .

٩٨- الزهرى، كتاب الجغرافيا، ص١١٧ .

٩٩- العمرى، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص٩٣ .

١٠٠- الزهرى، ص١١٧ .

١٠١- الزهرى، ص١١٣-١١٤؛ ابن سعيد ، المغرب، ج٢ ، ص٢٤٦ .

١٠٢- الاستبصار ، ص١٧٩ .

١٠٣- البكرى ، المغرب ، ص١٥٨ .

١٠٤- الزهرى ، ص١١٣-١١٤ .

١٠٥- الزهرى ، كتاب الجغرافيا ، ص٩٣؛ العمرى ، مسالك الأبصار ، *السفر الرابع*، ص١٠٨ .

١٠٦- المقرى، نفح الطيب، ج٣ ، ص٢١٣ .

١٠٧- المقرى، نفح الطيب، ج١ ، ص٢٠١ ؛ العمرى، مسالك الأبصار، السفر الرابع ، ص١٠٨ ؛ القلقشندى، صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٢١٩ .

١٠٨- المقرى، نفح الطيب ، ج١، ص٢٠١ .

١٠٩- الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص٥٥٦؛ ياقوت ، معجم البلدان، ج٣، ص٣٠٩ .

١١٠- الإدريسى، نزهة المشتاق ، ص٢٣٩ .

١١١- العمرى ، مسالك الأبصار ، السفر الرابع، ص١١٠؛ المقرى، نفسه، ج١، ص١٤١؛ هايد (ج)، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ج٤، ص١١٠ .

١١٢- الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص٥٤٢، ٥٦٥ ؛ العمرى، نفسه، ص١٠٨ ؛ الزهرى، كتاب الجغرافيا، ص٩٤ .

Robles (F.Guillen), Malaga Musulmana, Malaga, 1947 , p. 292 .

وانظر أيضا الرازى : وصف الأندلس؛

Lévi Provençal (E.V) La description de L'Espagne, d'Ahmed Al- Razi , Al- Andalus, vol XVII, Fasc I , Madrid, 1953 , p. 68 .

١١٣- العذرى ، ص٩٦؛ ابن غالب الأندلسى ، ص٢٩٢؛ ياقوت معجم البلدان، مجلد١، ص١٩٥ .

١١٤- انظر: الرازى ، وصف الأندلس فى : Lévi Provençal, Description, p. 68

١١٥- الإدريسى: نزهة المشتاق ، ص٥٥٨ ؛ العميرى، الروض المعطار، ص٥١١ .

١١٦- مجهول، ذكر بلاد الأندلس، ص٧٥ .

١١٧- الزهرى، كتاب الجغرافية ، ص١٢٨ .

١١٨- الإدريسى، المصدر السابق، ص٥٨١؛ ابن غالب، ص٢٨٩؛ الزهرى، كتاب الجغرافية، ص٣١، ٨٧ .

١١٩- ياقوت ، معجم البلدان، مجلد ٢، ص٣٦٠ .

١٢٠- الزهرى، كتاب الجغرافية ، ص٩٩؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادى، ص٣٢٣ .

١٢١- كمال أبومصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادى، ص٣٤٢ ، ٣٤٣، ٣٤٤ .

122- Mas- Latrie (L.), Traité de paix et de commerce et documents divers concernant les relations des Chrétiens avec des Arabes de l' Afrique Septentrionale au Moyen- Age, Paris , 1965 , pp. 37-49 .

١٢٣- هايد (ج)، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة: أحمد محمد رضا، مراجعة وتقديم دكتور عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩٩١م، ص٤٨ ؛

Saad Zaghloul, Abou Yusof- Yaqub Almansur, p. 189 .

124- Mas- Latrie, Op. cit., pp. 47, 49 , 89 , 108 .

125- Kruger, (Hilmar C.), Genoese Trade with North Monnier in the Twelfth Century , Speculum, A Journal of Medieval Studies, vol . VIII, n..9, July, 1933, p. 379 ;

عبد الهادي التازي ، الموجز في العلاقات الدولية، الرباط، ١٩٨٤، ص٥١ .

126- Mas- Latrie, Op. cit., p. 47 , 49, 89 , 108 .

١٢٧- التازي، الموجز في العلاقات الدولية، ص٥١ .

128- Mas- Latrie , Op. cit., p. 52 .

١٢٩- ناصح محمد، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب في العصر الوسيط القرن ٦هـ / ١٢م نموذجا ، بحث لنيل درجة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ، جامعة محمد الخامس ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط، ١٩٨٧-١٩٨٨م، ص٥٠٠، ٥٠١ ، ٥٠٢ .

130-Amari (M.), Diplomi Arabi del Archivo fiorentio , v. I, Firenze, Le African 1863, p. 76; kruger (H.C.), The Wares of Exchange in the Genoese- African Trafic of the Twelfth Century , Speculum 1937, XII, n. I, pp. 68 , 71 ; Kruger (H.C.), Genose Trade..., p. 385 .

131- Amari (M.), Diplomi Arabi, p. 48; kruger (H.C.), The Wares of Exchange, p. 72 .

١٣٢- الزهري، كتاب الجغرافية ، ص١١٧ ؛ هايد (ج) تاريخ التجارة في الشرقي أدنى في العصور الوسطى، ج٤، ص٦٢ .

١٣٣- البكري، المغرب ، ص٢٠ ؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٢٨١؛ الاستبصار، ص١١٦-١١٧ .

١٣٤- الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٢٢٦؛ الزهري، كتاب الجغرافية، ص١١٩ .

١٣٥- الزهري ، نفسه ، ص١١٧-١١٨؛ . Kruger (H.C.), The Wares of ...., p. 70

١٣٦- انظر : الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٥٥٢، ٥٦٩ : الحميري، الروض المعطار ، ص٦٠٦؛ المقري، نفح الطيب، ج٤ ، ص١٧٩ .

١٣٧- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٤٣ ، ٥٦٥ ؛ الحميري ، المصدر السابق، ص٥١٧ ؛ العمري، مسالك الأبصار، السفر الرابع، ص١٠٨ ؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص١٥١؛

Robles Malaga Musulmana, p. 292 .

١٣٨- القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٥، ص٢١٨ .

١٣٩- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٥٤١ ؛ الزهري، كتاب الجغرافية ، ص٨٩، ٩٣ ، ١٣٢ ؛ المقري، نفح الطيب، ج٣، ص٢١٣ .

١٤٠- ياقوت ، معجم البلدان، م٣ ، ص٣٦٠ .

١٤١- الزهري ، كتاب الجغرافية ، ص٣١ ، ٩٦ ، ٩٩ .

١٤٢- ابن حوقل ، صورة الأرض، ص١١٤ .

١٤٣- الإدريسي ، ص٥٦٢ ؛ الزهري، ص٣١ ؛ المقري، نفح الطيب، ج١، ص٢٠١ .

١٤٤- المقري، نفسه،ج١، ص٢٠١ ، ج٣، ص٢٢١ .

١٤٥- نفسه ج١، ص٢٠٢؛

Dunning (G.C), A Group of English and Imported Medieval Pottery , Lesnes Abbey , Kent : and the Trade in Early Hispano - Moresque Pottery to England Antiquaries Journal, 1961, v. 41 , p. 1-12 .

١٤٦- انظر الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٥٥٦؛ ياقوت ، معجم البلدان ، م٣ ، ص٣٠٩؛ كمال أبو مصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص٣٤٤، ٣٤٥ .

١٤٧- الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٣٢٨؛ الزهري، كتاب الجغرافية، ص٥٠ .

١٤٨- كتاب الجغرافية، ص١١٤ .

١٤٩- نفسه، ص٦٠ .

١٥٠- نفسه ، ص١١٤ .

١٥١- نفسه، ص١٣١ .

١٥٢- نفسه، ص٧٨ .

١٥٣- نفسه، ص٧٨ ؛ . Mas Latrie , Traité de paix, p. 48

١٥٤- كتاب الجغرافية ، ص٧٨ ؛

Kruger , The Wares of Exchange..., p. 60; kruger, Genoese Trade..., p. 386 ,388 .

١٥٥- الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٥٥٢؛ كتاب الجغرافيا، ص٧٨ .

156- Kruger (H.C.), The Wares of Exchange..., p. 66 .

١٥٧- انظر: الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص٢٢؛ الاستبصار ، ص٢١٥-٢١٦؛ عز الدين موسى، النشاط الاقتصادي، ص٣٢٩ .

١٥٨- الزهري، كتاب الجغرافية، ص١٠٤ .

١٥٩- الزهري، نفسه، ص٥٠؛ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية ، ١٩٨٢م، ص٢٥٨ .

١٦٠- الزهري ، ص١٢٢، ١٢٤؛ أرشيبالد لويس ، القوى البحرية التجارية في حوض البحر المتوسط، ترجمة : الأستاذ أحمد محمد عيسى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٢٦٠ .

161- Pedro Martinez, Islam, Y Cristianidad en la Economia Meditierranea de la Baja Edad Media Moscu , 1970 , p. 8'

كمال أبو مصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص٣٤٧ .

١٦٢- الزهري، ص١٩، ٢٠، ٢١ ، ٢٦ ، ٣٩؛

Kruger (H.C), Genoese Trade, pp. 385-388 .

١٦٣- «وهي ثياب حسنة العمل من الصوف غير أنهم- أي الفلنليين- يتقنون صنعها حتى تباهى ثياب الخز» (الزهري ، كتاب الجغرافية، ص٧٦) .

١٦٤- الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٢٣٣، ٢٣٤ ، ٢٣٥؛ الاستبصار، ص٢٠٨-٢٠٩، ٢١٠ ؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥٤٠، ٥٤١ .

١٦٥- البكري ، المغرب ، ص١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق، ص٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ؛ الاستبصار، ص٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .

١٦٦- عن تلك المسالك التجارية ومحطاتها راجع : حسن حافظي علوي، التبادل التجاري بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في العصر الوسيط، مجلة المناهل ، تصدرها وزارة الشئون الثقافية ، الرباط المغرب، العدد التاسع والثلاثون، السنة السادسة عشرة، مطبعة فضالة المحمدية ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، ص٢٢٥-٢٥٥؛ عبد الرحمان التليلي، وصف المدن المغربية من كتاب صورة الأرض لابن حوقل ، الكراسات التونسية ، مجلد ٣٤، عدد ١٣٧-١٣٨ ، الثالثة والرابعة لسنة ١٩٨٦، عدد خاص «المدن ومجتمعات الحضر في المغرب»، ص٢٠ .

١٦٧- البكري ، المغرب ، ص١٤٦ وما بعدها ؛ الاستبصار ، ص١٩٣؛ الحبيب الجنحاني ، المغرب الإسلامي: الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣-٤هـ/ ٩-١٠م) الدار التونسية للنشر، ١٩٧٧م، ص١٧٩ .

١٦٨- البكرى، المغرب ، ص٨٨؛ الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص٢٤٩ ؛ الإستبصار، ص١٣٩ .

١٦٩- البكرى، المغرب، ص١٥٦ وما بعدها .

١٧٠- البكرى، نفسه، ص١٦٢ وما بعدها .

١٧١- نفسه، ص٧٧ .

١٧٢- نفسه، ص١٦٠-١٦٤؛ الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٢٦-٢٣٣ ؛ الاستبصار، ص٢١١، ٢١٢ ، ٢١٣ ؛ الحميرى الروض المعطار، ص١٢٨ .

١٧٣- البكرى، المغرب، ١٧١، ١٧٢ ؛ الاستبصار ، ص٢١٤ ، ٢١٥ .

١٧٤- البكرى ، المغرب ، ص١٥٦ وما بعدها ؛ الاستبصار، ص٢١٣ .

١٧٥- البكرى ، المغرب ، ص١٥٤ ، ١٥٥ ؛ الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٤١، ٢٤٢ .

١٧٦- الإدريسى ، نفسه، ص٢٣٦-٢٣٩ .

١٧٧- نفسه، ص٢٣٩ ؛ الاستبصار ، ص١٤٠-١٤١؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٣١٩ .

١٧٨- الإدريسى ، نفسه ، ص٢٣٦-٢٣٩ .

١٧٩- نفسه، ص٢٤١-٢٤٢ .

١٨٠- نفسه، ص٢٤٢ .

١٨١- نفسه، ص٢٣٩، ٥٣٠، ٥٣١؛ الاستبصار ، ص١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ، ص١٣٨ .

١٨٢- البكرى، المغرب، ص٨٨؛ الإدريسى، نزهة المشتاق ، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٨ ؛ الاستبصار ، ص١٨٦ .

١٨٣- الاستبصار، ص١٨٦ .

١٨٤- البكرى ، المغرب، ص١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ؛ الإدريسى، نزهة المشتاق ، ص٥٢٢ .

١٨٥- البكرى، المغرب، ص١٠٩ وما بعدها ؛ الإدريسى، نزهة المشتاق، ص٢٤٤، ٢٤٥، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠؛ الاستبصار، ص١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

١٨٦- البكرى ، المغرب، ص٨٨؛ الإدريسى، المصدر السابق، ص٢٤٧، ٢٤٨ .

١٨٧- كان ميناء تابجريت على شاطئ البحر المتوسط من الموانئ الشهيرة التى استعملت فى تصدير البضائع الواردة من سجلماسة ، يقول عنها الحميرى : «وهى محط السفن ، ومقاصد لقوافل سجلماسة وغيرها» (الحميرى، الروض المعطار، ص١٢٧) .

١٨٨- البكرى، المغرب ، ص٨٠، ٨٢، ٨٦، ٨٩، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥ ؛ الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص٥٢٧-٥٣٤؛ الاستبصار، ص١٣٥، ١٣٦ ، ١٣٧، ١٣٨؛ ابن سعيد كتاب الجغرافيا، ص١٣٩، ١٤٠ .

١٨٩- البكرى، المصدر السابق، نفس الصفحات الإدريسي، نزهة المشتاق ، ص٥٢٧ ، ٥٢٨، ٥٢٩ ؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا ، ص١٣٩-١٤٠، جاك كانى، دراسات عن منطقة الشمال المغربي، مجلة البحث العلمي، الأعداد ١٩ (٢٠،٢١) ، ٢٢، ٢٣، ٢٤) .

١٩٠- البكرى، المغرب، ص٨٦، ٨٧ ؛ الإدريسى ، نزهة المشتاق ، ص٢٣٨-٢٣٩، ٢٤٠،٢٤١، ٥٣٠، ٥٣١؛ الاستبصار، ص١٣٨، ١٣٩ ، ١٤٠، ١٤١؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص١٣٧، ١٣٨، ١٣٩ .

١٩١- الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص٥٢٨ ، ٥٢٩ ؛ الاستبصار، ص١٣٧ ، ١٣٨ ؛ ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص١٣٩ ؛ ابن عذارى، البيان ، قسم الموحدين، ص٥٥، ٦١؛ الحميرى، الروض المعطار ، ص٣٠٣ .

١٩٢- الإدريسى ، نزهة المشتاق، ص٢٣٩ ؛ الاستبصار، ص١٤٠، ١٤١ ؛ الحميرى، الروض المعطار، ص٣١٩ .

١٩٣- الإدريسى، المصدر السابق، ص٢٣٩ .

١٩٤- نفسه، ص٢٤٠ .

١٩٥- نفس المصدر والصفحة؛ ابن سعيد كتاب الجغرافيا، ص١٣٧ .

١٩٦- مجموعة رسائل موحدية، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، الرباط، ١٩٤١م، ص٥،٦ .

١٩٧- الإدريسى، المصدر السابق، ص٢٣٥، ٢٣٦ .

١٩٨- الإدريسى، نفسه ، ص٥٢٩ .

١٩٩- ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص٨٣، ٨٩، ١١٧ ، ١١٩؛ الإدريسى، المصدر السابق، ص٢٣٩ ، ٢٤٠، ٥٢٧ وما بعدها .

٢٠٠- الإدريسى، نفسه، ص٥٢٧ وما بعدها .

٢٠١- نفسه، ص٥٢٧ وما بعدها؛ ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص١٢٨-١٣٩ .

٢٠٢- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) ، رحلة ابن جبير ، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٨،٩ .

٢٠٣- الإدريسى ، المصدر السابق، ص٥٢٧ وما بعدها ؛ رحلة ابن جبير، ص٨، ٩ .

٢٠٤- ابن سعيد ، كتاب الجغرافيا ، ص١٣٩؛ ناصح محمد، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب فى العصر الوسيط ، ص٤٧٢ ، ٤٧٣ .

٢٠٥- انظر: الإدريسى ، المصدر السابق، ص٥٢٩ .

٢٠٦- انظر : الاصطخرى، المسالك والممالك، ص٣٧ ؛
Lévi Provençal, España Musulmana , T. V, p. 193; Imamaudin , The Economic History , p. 266 .

٢٠٧- انظر : رحلة ابن جبير ، ص٨-١٢ ، ٤٩ ؛ خوان بيرنيت ، هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط الملاحية، دكتور أحمد مختار العبادي، مجلة المعهد المصري بمدريد ، العدد الأول، ١٩٥٣م، ص٧٥ .

٢٠٨- الأوسي المراكشي (أبو عبدالله محمد بن عبد الملك الأنصاري) ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس ، القسم الثاني، تحقيق الدكتور إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٥ ك، ص٦٨٩-٦٩٠، ترجمة رقم ١٢٩٨ .

٢٠٩- انظر: أحمد مختار العبادي، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض التوسط، البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، الجزء الثاني، مؤسسة شباب الجامعة ، د.ت ص٦٠-٦١ .

٢١٠- بيرنيت ، المرجع السابق ، ص٧٥ ؛ سالم، تاريخ مدينة المرية، ص٨٩ .

٢١١- بيرنيت ، نفس الصفحة ؛ كمال أبو مصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادي، ص٣٤٩-٣٥٠، ٣٥١ .

٢١٢- هايد (ف) ، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، الجزء الأول، ص١٠٩-١١٢ .

٢١٣- انظر: ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج٢ ، ص١٩٣؛ أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١٧٧ .

٢١٤- الإدريسي، المصدر السابق، ص٥٦٢؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص٢٨ ، ٧٣؛ العميري، الروض المعطار، ص٥٨٣ .

٢١٥- المقرى ، نفح الطيب، ج١، ص١٦٢-١٦٣، ج٣ ، ص٢٢٠ .

٢١٦- ياقوت ، معجم البلدان ، م٥ ، ص١١٩؛ المقرى، المصدر السابق، ج١، ص٢٠١ ، ٢٠٢ ؛ سالم تاريخ مدينة المرية، ص٨٩،١٧١ .

٢١٧- القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٥، ص١١٩؛ كمال أبو مصطفى، المرجع السابق، ص٣٥٢-٣٥٣، ٣٥٤ .

218- Robles, Malaga, p. 337 .

٢١٩- ياقوت ، معجم البلدان، م١، ص١٩٥ .

٢٢٠- الإدريسي ، المصدر السابق، ص٥٤١ ؛ العميري، ص٥٩، ٣٣٩-٣٤٠؛ المقرى، ج١، ص١٥٩ .

٢٢١- كمال أبو مصطفى، المرجع السابق ، ص٣٥٥ .

٢٢٢- انظر : المقرى، نفح الطيب، ج٣، ص٢٢١ .

٢٢٣- الإدريسي، نزهة المشتاق، ص٥٥٨ .

قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية

(أ) المصادر العربية:

١- أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر) ، تقويم البلدان، تحقيق دى سلان، باريس، ١٨٤٠م.

٢- ابن أبى زرع (أبو الحسن على بن عبد الله الفاسى) ، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر كارل يوحن تورنبرج، طبع فى مدينة أوبسالة بدار الطباعة المدرسية ، ١٨٤٣م .

٣- ابن الأبار (أبو عبدالله محمد القضاعى البلنسى) ، كتاب التكملة لكتاب الصلة طبعة، عزت العطار الحسينى، الجزء الثانى، القاهرة ، ١٩٥٦م.

٤- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد) ، الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان، المجلد الأول، القاهرة ١٩٧٣م.

٥- ابن الخطيب (لسان الدين أبو عبدالله محمد) ، مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس، مجموعة رسائل ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣م.

٦- ابن القطان (أبو الحسن على بن محمد بن عبد الملك) ، جزء من كتاب «نظم الجمان فى أخبار الزمان» تحقيق الدكتور محمود على مكى بمساهمة من المركز الجامعى للبحث العلمى، إشراف مولاى الحسن للبحوث، جامعة محمد الخامس، الرباط ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، د.ت.

٧- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد) رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، د.ت.

٨- ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن على البغدادى النصيبى) ، كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

٩- ابن حيان (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان) ، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود على مكى، بيروت، ١٩٧٣م.

١٠- ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق الأستاذ إسماعيل العربى، الطبعة الأولى، منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت، ١٩٧٠م.

١١- ابن سعيد (أبو الحسن على بن موسى) المغرب فى حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقى ضيف، الجزء الأول، الطبعة الثالثة، دار المعارف ، القاهرة،

١٩٨٠م.

١٢- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجى) ، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، السفر الثانى، تحقيق الدكتور عبد الهادى التازى، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٧م.

١٣- ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبى) ، رسالة فى القضاء والحسبة، نشرها الأستاذ ليفى بروفنسال ضمن كتاب بعنوان «ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٥٥م.

١٤- ابن عذارى المراكشى (أبو العباس أحمد بن محمد) ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين ، تحقيق الأساتذة محمد إبراهيم الكتانى، ومحمد بن تاويت، ومحمد بن زنيبر، وعبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

١٥- ابن غالب الأندلسى (أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى) ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس، تحقيق الدكتور لطفى عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية ، المجلد الأول، الجزء الثانى، نوفمبر ١٩٥٥م.

١٦- ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، السفر الرابع ، طبع بالتصوير عن مخطوطة رقم ٢٧٩٧ / ٢ أحمد الثالث، طوبقا بوسراى، استانبول ، أصدره فؤاد سزكين ، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية فى إطار جامعة فرانكفورت، ألمانيا الاتحادية، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

١٧- الإدريسى (الشريف أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله إدريس الحموى) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، المجلد الثانى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

١٨- الأوسى المراكشى (أبو عبدالله محمد بن عبد الملك الأنصارى) ، الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة، السفر الخامس، القسم الثانى، تحقيق الدكتور إحسان عباس، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت، لبنان ، ١٩٦٥م.

١٩- الاصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى) ، كتاب المسالك والممالك،

مطبعة بريل، ليدن ١٩٢٧م.

٢٠- البكرى (أبو عبدالله عبدالله بن عبد العزيز) ، المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ، من كتاب «المسالك والممالك» نشر دى سلان De Slane بعنوان Description de L'Afrique Septentrional، الجزائر، ١٩١١م.

٢١- البيذق (أبو بكر على الصنهاجي) ، كتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال ، بولس كتنر الكتبى، باريس ١٩٢٨م.

٢٢- الجزنائى (أبو الحسن على) زهرة الآس فى بناء مدينة فاس، طبعة الفرد بل، الجزائر، ١٩٢٢م.

٢٣- الحميرى (أبو عبدالله محمد بن عبد المنعم) الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م.

٢٤- الزهرى (أبو عبدالله محمد بن أبى بكر) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق الأستاذ محمد الحاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.

٢٥- السقطى المالقى (أبو عبدالله محمد بن أبى محمد) كتاب فى آداب الحسبة، تحقيق الأستاذ ليفى بروفنسال والأستاذ ج.س . كولان، المطبعة الدولية، باريس ، ١٩٣١ .

٢٦- العذرى (أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس المعروف بأبى الدلائى) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار فى غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى، مدريد، ١٩٦٥م.

٢٧- القزوينى (زكريا بن محمد بن محمد)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت، ١٩٧٩م.

٢٨- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، الجزء الخامس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م .

٢٩- المراكشى (عبد الواحد بن على) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربى العلمى، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، الطبعة الأولى، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩م.

٣٠- المقدسى (شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البشارى) ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، تحقيق دى غويه، مكتبة المثنى ببغداد، ليدن، ١٩٠٦م.

٣١- المقرى (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى) نفح الطيب من غصن

الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الأجزاء الأول والثالث والرابع .

٣٢- مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس ، نشر وتحقيق لويس مولينا، مدريد ١٩٨٣م.

٣٣- مؤلف مجهول كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لكاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، الإسكندرية، ١٩٥٨م.

٣٤- مجموع رسائل موحدية، نشر الأستاذ ليفى بروفنسال ، الرباط، ١٩٤١م.

٣٥- ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله الحموى) معجم البلدان، المجلد الأول، طبعة بيروت، ١٩٥٥م.

(ب) المراجع العربية والمعربة :

١- أحمد محمد إسماعيل الجمال، دولة الموحدين فى عهد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٦٣-١١٨٤م) رسالة دكتوراه (غير منشورة)، الإسكندرية ، ١٩٩٨م.

٢- أحمد مختار العبادى، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس، الجزء الثانى، مؤسسة شباب الجامعة، د.ت.

٣- أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، الإسكندرية ، ١٩٦٨م.

٤- أرشيبالد لويس، القوى البحرية التجارية فى حوض البحر المتوسط ، ترجمة : الأستاذ أحمد محمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ١٩٦٠م.

٥- أمين الطيبى ، النقود العربية ، المجلة الفرنسية للعلوم الاجتماعية ، العدد ٦٧ لسنة ١٩٨١م.

٦- الأميرشكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الطبعة الأولى، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٥٥-١٣٥٨هـ، الجزء الثالث.

٧- الحبيب الجنجانى، المغرب الإسلامى: الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣-٤هـ / ٩-١٠م) الدار التونسية للنشر ١٩٧٧م.

٨- السيد عبد العزيز سالم ، العمارة المدنية بالأندلس، دائرة معارف الشعب ، العدد (٦٤)، ١٩٥٩م.

٩- السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الاسكندرية، ١٩٨٢م.

١٠- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، قاعدة الأسطول الأندلسى، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية، ١٩٨٤م.

١١- السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية فى العصور الوسطى، الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١-١٩٧٢م.

١٢- جاك كانى، دراسات عن منطقة الشمال المغربى، مجلة البحث العلمى، الأعداد ١٩ (٢٠، ٢١) ، ٢٢، ٢٣، ٢٤ .

١٣- حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين «صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى» ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ١٩٥٧م.

١٤- حسن حافظى علوى : التبادل التجارى بين المغرب الأقصى والسودان الغربى فى العصر الوسيط، مجلة المناهل ، تصدرها وزارة الشئون الثقافية ، الرباط، المغرب ، العدد التاسع والثلاثون ، السنة السادسة عشرة، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

١٥- حسن على حسن، الحضارة الإسلامية فى المغرب الأندلسى ، الطبعة الأولى، نشر مكتبة الخانجى بمصر، ١٩٨٠م.

١٦- خوان بيرنيت ، هل هناك أصل عربى إسبانى لفن الخراط الملاحية، دكتور أحمد مختار العبادى ، مجلة المعهد المصرى بمدريد، العدد الأول، ١٩٥٣م.

١٧- سعيد عبد الفتاح عاشور : سعد زغلول عبد الحميد، أحمد مختار العبادى ، دراسات فى تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، منشورات ذات السلاسل للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، الكويت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٨- عبد الرحمن التليلى ، وصف المدن المغربية من كتاب صورة الأرض لابن حوقل، الكراسات التونسية ، مجلد ٣٤ ، عدد ١٣٧-١٣٨ ، الثالثة والرابعة لسنة ١٩٨٦، عدد خاص «المدن ومجتمعات الحضر فى المغرب».

١٩- عبد الهادى التازى، الموجز فى العلاقات الدولية، الرباط ١٩٨٤ .

٢٠- عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادى فى المغرب الإسلامى، دار الشروق، بيروت ، ١٩٨٣م.

٢١- كمال السيد محمد أبومصطفى ، تاريخ الأندلس الاقتصادى فى عصر دولتى المرابطين والموحدين، مركز الاسكندرية للكتاب، د.ت .

٢٢- محمد نزبير ، تجارة القوافل فى المغرب، مجلة المناهل ، العدد ٣٨ ، سنة ١٩٨٩ .

٢٣- موريس لومبار، الإسلام في مجده الأول (عن القرن الثانى إلى القرن الخامس الهجرى/ الثامن إلى الحادى عشر الميلادى) ترجمة وتعليق : إسماعيل العربى، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، الطبعة الثالثة ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

٢٤- ناصح محمد، جوانب من الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمغرب فى العصر الوسيط القرن ٦هـ / ١٢م نموذجا، بحث لنيل درجة دبلوم الدراسات العليا فى التارخ ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الرباط ، ١٩٨٧-١٩٨٨م.

٢٥- نعيم زكى فهيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب فى أواخر العصور الوسطى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

٢٦- هايد (ع) تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، ترجمة : أحمد محمد رضا، مراجعة وتقديم دكتور عز الدين فودة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الثاني، القاهرة ١٩٩١م.

(ج) المراجع الأجنبية:

1- Abdel- Hamid (Saad Zaghloul) Abou Yusof Yaqub Almansur l'Almohade (1184-1199) . These Doctorat , Faculté des Lettres, Université de Paris , 1951 .

2- Amari (M.) Diplomi Arabi del Archivo fiorentio, v. I , Firenze, Le Monnier 1863 .

3- Devisse (Jean), Tegdaoust I, Recherches sur Aoudoghost , Paris , 1970 .

4- Dunning (G.C.), A Group of English and Imported Medieval Pottery , Lesnes Abbey, Kent: and the Trade in Early Hispano - Moresque Pottery to England , Antiquaries Journal, 1961, v.41 .

4- Heyd (W.), Histoire du Commerce de Levante au Moyen age .T. II, Ansterdam , 967 .

6- Imamuddin (S.M), The Economic History of Spain Under the Umayyades. Dacca, 1963 .

7- J. Devisse, Les Route de Commerce échanges en Afrique Occidentale en Relation Avec la Médiiterranée , Essai sur le Commerce Africain Médieval du XV , au XVI e.s. Revue d'Hitoire Economique et Social, 1972 .

8- kruger (H.C.) The Wares of Exchange in the Genoese- African Traffice of the Twelfth Century Century . Speculum 1937, XII, n.I.

د. كرم الصاوى باز (*)

الحركة التجارية فى العصر المملوكى وأهميتها كحلقة وصل بين مراكز البحر الأحمر ومدغشقر وجزر القمر

فى الفترة من (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)

مقدمة :

تشير هذه الدراسة إلى ازدهار الحركة التجارية فى العصر المملوكى كحلقة وصل واتصال بين مراكز البحر الأحمر وساحل أفريقيا الشرقى (١)، خلال الفترة من منتصف القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر الميلادى تفتحت فيها الثقافة البحرية السواحلية بتأثير القوى الاقتصادية الإسلامية على ساحل شرق أفريقيا وجزر القمر ومدغشقر (٢). إذ أفرزت هذه العلاقة حركة واسعة من التبادل على هذه الجزر وطول ساحل سفاله (٣).

لقد استقرت جاليات إسلامية فى أرخبيل القمر وبعض المناطق من مدغشقر؛ لتؤثر فى قيام الوكالات التجارية السواحلية مع احتفاظ القمريون بالتقاليد الثقافية لبلادهم الأصلية(٤).

أما أهل مدغشقر ، فعلى الجنوب الشرقى وهو أبعد المناطق من مراكز إشعاع الحضارة السواحلية . فقد قسم ضمن المجموعة الملجاشية ، وهى التى احتفظت بسماتها المتميزة ، وبالمقابل فى الشمال الغربى اتخذت هذه الجماعات طابعًا إسلاميًا متأثرين

* مدرس بقسم التاريخ معهد البحوث والدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة .

بعلاقتهم مع مراكز البحر الأحمر، إخوانهم فى الدين : لتسهم هذه العلاقة فى إفراز وكالات تجارية على نفس الأصالة، تؤكدها طبيعة أنسابهم وشيمهم وتقاليدهم(٥).

وتبرز هذه الدراسة تشابه وكالات البحر الأحمر مع وكالات الشمال الغربى الملجاشى ووكالات جزر القمر سواء فى ملامحها أو فى نمط عيش سكانها؛ وهذا ما أكدته الدراسة الأركيولوجيه للأطلال المتبقية من القلاع المحصنة والمساجد والدور العتيقة التى لاتزال موجودة فى أنجوان بأبوابها المزدانة بزخارفها ذات الطابع الإسلامى؛ كما تشهد مؤثرات وكالات البحر الأحمر الحضارية فى المحطات التجارية فى موتسامودو ، وأوانى ودومونى ، وسيما(٦).

أن وكالات مدغشقر وجزر القمر هى حالة من الترابط والتكامل بين مراكز البحر الأحمر وشرق أفريقيا. فهى مثال واضح من الامتزاج البيولوجى والثقافى .

والحقيقة أن هناك عدداً من الدراسات التى تناولت الحركة التجارية لدى مراكز البحر الأحمر، وخاصة مصر خلال فترة العصور الوسطى سواء الأركيولوجيه والتاريخية على سبيل المثال:

أ.د. آمال العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى «جامعة القاهرة» كلية الآثار ١٩٧٤ (٧).

أ.د. مجاهد توفيق الجندى: أهم الوكالات فى مدينة القاهرة ودورها الحضارى وهى دراسة بالغة الأهمية (٨).

وهناك دراسة شاملة لتجارة التوابل فى مصر فى العصر المملوكى أ.د. محمد عبد الغنى الأشقر ، صادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب وهى دراسة وثائقية (٩).

وهناك دراسة للمستشرق شتيك (Chittic . N.) تبرز انتشار الأنشطة التجارية من ساحل مقدشيو إلى ساحل سفاله منذ القرن العاشر الميلادى؛ وهذا ما أكدته هذه الدراسة من أثر وكالات البحر الأحمر فى بمبا وزنجبار ومدغشقر وجزر القمر(١٠).

CF : Chittick , H.N. (1974) Kilwa : an islamix trading city on the east african coast , 2 vol (Nairobi: British institute in eastern africa .

وقد تناولت هذه الدراسة النقاط التالية :

أولاً : الحركة التجارية فى البحر الأحمر وانتقالها إلى ساحل شرق أفريقية ؛ وجزر القمر ومدغشقر .

ثانيًا : دور التجار المسلمين الاقتصادى والثقافى على ساحل شرق أفريقة ، ومدغشقر وجزر القمر.

ثالثا: أثر الحركة التجارية فى انتقال التأثيرات السياسية والاقتصادية على ساحل شرق أفريقية.

رابعًا : انتقال التأثيرات عبر ساحل شرق أفريقيا إلى مدغشقر وجزر القمر.

الخاتمة .

أولا : الحركة التجارية في البحر الأحمر وانتقالها إلى ساحل شرق أفريقية ؛ جزر القمر ومدغشقر :

إن عصر دولة سلاطين المماليك فى مصر ، الذى امتد إلى أكثر من ثلاثة قرون. من الأيوبيين إلى العثمانيين، أى من ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م إبراز لدور مصر الريادى دائمًا (١١)؛ فالمماليك أوجدوا فى مصر حكما يعتبر أقوى حكم فى العالم كله فى وقتهم، إذا قورن بحكم أى دولة إسلامية أخرى فى أفريقيا أو أسيا أو أوربا(١٢)، فقد أصبحت مصر فى عهدهم دولة عظمى ، احتلت الصدارة فى حكم العالم الإسلامى أجمع ، وجعلوا القاهرة قاعدة لإمبراطوريتهم الواسعة ، كما أن مصر فى عهدهم أصبح لها أيضًا الريادة الحضارية العظمى فى الإسلام، التى هى امتداد لريادة مصر الحضارية عبر العصور ، الممتدة إلى الاف السنين قبلهم ؛ وإن اتخذت فى عهدهم الطابعين العربى والإسلامى، مما يجعلنا نقرر أن الحضارة الإسلامية منذ ظهورها لم تبلغ أوج ازدهارها إلا فى مصر، فى عهد دولة سلاطين المماليك بالذات. فيقول المؤرخ الكبير ابن خلدون فى مقدمته؛ عن عصر دولتهم فى مصر: «وليس أوفر اليوم فى الحضارة من مصر ، فهى أم العالم. وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم والصنائع»(١٣).

حقًا ليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية فى أيام المماليك، من وجود كلمات كثيرة تدل على اتساع نشاطها التجارى والصناعى فى مصر، مثل : دكاكين (١٤)، وحوانيت ، ومخازن ، وقياسر (أو قيساريات) . وخانات (١٥) . ووكالات (١٦)، وفنادق (١٧)، وهذه الأخيرة كانت أكثرها . وتتكون من عدة طوابق ؛ عبارة عن غرف مختلفة ومخازن (١٨). لها فناء داخلى، يحتوى على البضائع والدواب ؛ يسكنها غالبًا التجار الأجانب(١٩) يرأسهم القناصلة – مفردها

قتصل – وهم كبار الفرنج (٢٠). فكانت الفنادق توجد فى كل إنحاء المدن المصرية ، من الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى أسوان (٢١). كذلك كانت شون القاهرة (٢٢)؛ اعتبرت من أغرب الغرائب ؛ فهى مخروطية الشكل: أكثر ارتفاعًا من برج اشبيلية بالأندلس. ولا تزال بعض المبانى التجارية المملوكية باقية إلى الآن وبأسمائها ، تزينها النقوش العربية ، والرسوم الهندسية . والقوالب الخشبية . وحتى نشاطها التجارى لايزال مستمرا إلى وقتنا الحاضر. مثل : خان الخليلى (٢٣). وهو سوق ظهر من أيام المماليك .

وقد ترتب على الازدهار الاقتصادى أن القاهرة عاصمة البلاد: وبجوارها الفسطاط (٢٤). اتسعتا اتساعًا كبيرًا. حيث كانت تجمعها أسوار مشتركة، ولاسيما بعد إنشاء حى القلعة أيضًا ، بحيث تخصص للكتابة عن القاهرة مؤرخون كبار؛ آخرهم فى عصر المماليك آق بغا الخاصكى، كاتب السلطان قنصوه الغورى ، الذى ألف كتابه(٢٥) : التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة ؛ بعد خمسين سنة من كتاب المقريزى المشهور باسم الخطط والآثار، الذى لم يعرف قبله كتاب فى قيمته، لما يشتمل عيه من معلومات مفصلة عن تاريخ : حارتها، وخططها– أى الأحياء– وأزقتها، ودروبها ، وخوخها ؛ ورحابها– أى ميادينها– وأسواقها ، وسويقاتها، وظواهرها – أى ضواحيها وأحكارها . وهذه الأخيرة هى الميادين المقفولة(٢٦).

ولدينا وصف مسهب من قبل الرحالين والجغرافيين للقاهرة، فالرحالة ابن بطوطة يرى أن القاهرة كثيرة الحيوية ؛ بالنسبة لمدن أخرى . فيذكر ثلاثين ألف ركوبة للتأجير وأن بها مطاعم كثيرة؛ ومن الأقمشة ما هو ليس فقط من صنع مصر والشرق ، وإنما من إيطاليا والسند(٢٧). كذلك الرحالة طافور يقول إن أروع ما فى القاهرة سوقها ، الذى تعرض فيه أكداس هائلة ، وكميات ضخمة ، من شتى البضائع الواردة من الهند، ولا سيما اللآلى والأحجار الكريمة والتوابل والبضائع . وكل مشموم طيب الرائحة ؛ إذ ليس فى القدرة تعداد جميع السلع التى يؤتى بها إلى هنا من الهند، ثم توزع فى أنحاء العالم؛ فالقاهرة هى السوق الرئيسى لجميع تلك الأنواع (٢٨).

ومن المحقق أنه كان يوجد غير القاهرة ومصر– وهى من أكبر المدن التارية والصناعية– مدن أخرى فى طول البلاد وعرضها ؛ تعتبر وكالات ومراكز اقتصادية نشطة . فنذكر الإسكندرية العظمى(٢٩) ودمياط ؛ وقد أصبحتا أكثر موانئ البحر الأبيض حيوية . وكذا البرلس ورشيد(٣٠)، حيث كان يصلها التجار الأجانب أيضًا؛ وعيذاب أعظم موانئ ساحل

البحر الأحمر[٣١]، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها البضائع. ونذكر في الصعيد قوص [٣٢]؛ قرب أسوان التي أصبحت قصبة ، ووصفت على أنها مدينة عظيمة بسبب ورود تجار أفريقيا إليها[٣٣]، وأهلها أرباب ثروة واسعة ، وأنها محط التجار القادمين من عدن ، كما نذكر أخميم مدينة هامة فى الصعيد بعد قوص ؛ وقد بلغت عمارة الصعيد . فى وقت المماليك أن من يمر من القاهرة إلى أسوان يجد فى كل بلدة دور الضيافة[٣٤].

هذا المال المتدفق نتيجة للفهم الواعى لمسائل الاقتصاد وقتذاك . قد مهد للرخاء والبذخ الذى عاشته الطبقة المملوكية بالذات؛ وعلى رأسها السلطان حتى أنه من كثرة الأموال كانت له خزانه خاصة. عرفت بخزانة الخاص[٣٥].

فقد أصبحت القلعة مقر حكمهم تتكون من قصور عظيمة ، شبهت بأجنحة تطل على القاهرة ؛ بنيت فى عهد سلاطين مختلفين. نذكر منها: القصر الكبير[٣٦] والقصر الأسود [٣٧]؛ والقصر الأبيض [٣٨]، والقصور الجوانية[٣٩] وعددها ثلاثة ؛ والقصر الأبلق [٤٠]. الذى به ثلاثة قصور ، والقصر المعروف بالأشرفية [٤١]. كما يوجد فيها دور خاصة بالحريم ومساكن المماليك السلطانية وأمرائهم بنسائهم وأولادهم ولعلها كانت فى أبراجها ، التى سميت بأسماء منها البرج الأحمر[٤٢].

كذلك وجدت فى القلعة أبنية متعددة لخزن ما يحتاج إليه سكانها وأبهة السلاطين، ففيها خزائن واسعة أو خانات [٤٣]. استخدمت فى خزن البضائع أو فى صنع الأشياء. وقد تأكد ثراؤها من وصف المؤرخين المسهب لمحتوياتها الثمينة التى جلبت من جميع بقاع الدنيا أو صنعت فى مصر، وفيها حوانيت وأسواق وميادين ووكالات ضخمة كثيرة ؛ بحيث أصبحت القاهرة درة فى جبين الشرق ، فهى المدينة ذات الألف مئذنة . فكان لهذه المبانى موظف خاص يشرف عليها اسمه : شاد العمائر [٤٤]. ومعظمها تحمل علامات «رنك»[٤٥] السلاطين : أو من بنوها من أمراء المماليك.

وترجع أهمية الوكالات فى العصور الوسطى إلى طبيعة القاطنين فيها فى تجارة الكارم. فقد كانت بمثابة مراكز للتخزين والبيع والشراء، لذلك انتشرت الوكالات فى مصر وعلى طول شواطئ البحر الأحمر[٤٦]. أما بالنسبة لوكالات الأجانب فقد تطورت إلى أبنية تؤدى معنى الحى ؛ حيث أصبح لكل جالية حى خاص بها يضم وكالتها. فقد كان لجاليات البنادقة حى فى الإسكندرية يضم وكالتهم، يحتفظ فيها التجار بسلعهم ويدفعون عنها رسوما للدولة ويمارسوون حياتهم بحرية أوسع [٤٧].

وقد ترتب على انتعاش الحركة التجارية فى مصر بظهور تجارة التوابل لتعنى تاجر البهار، مصر نفسها، فكان يطلق عليهم عمومًا اسم: الكارم أو الكاريمى[٤٨] أو الكارمية– جمع كارمى– فكانوا أشبه بنقابة تجارية لهم رئيس اسمه : رئيس الكارمية أو وكيل التجار؛ أو حتى شهبندار التجار؛ حيث كانت هذه الرياسة فى أسر معينة [٤٩]. ولعل اللفظ «كارم» قد أتى من اسم «كانم» الواقعة فى السودان الأوسط ؛ بسبب أن تجارًا من هذا البلد عاشوا فى مصر، وتمصروا على مر الأجيال وتخصصوا بهذه التجارة ، فكانوا يبيعونها للتجار الأجانب [٥٠]؛ وأصبحت الكارم تطلق على أى تاجر يشتغل بتجارة التوابل بما فيهم النصارى واليهود[٥١]. ممن عاشوا فى مصر، حيث لدينا وثائق الجنيزة الخاصة باليهود، التى تشتمل على أسماء عائلات يهودية مغربية عاشت فى مصر واشتغلت بهذه التجارة[٥٢].

وفى أول أمر: فرض المماليك الضرائب الباهظة على هذه التجارة؛ فكان الموظف الذى يشرف على جبايتها فى مصر سمي : ناظر تجار الكاريمى [٥٣]؛ أو مستوفى البهار والكارم، بل ولأهمية هذه التجارة؛ قد تضاف إلى تخصصات الوزير [٥٤]. الذى هو على رأس الإدارة ، بما فيها شئون المال. كذلك عمد بعض السلاطين إلى احتكار هذه التجارة عن طريق هؤلاء التجار[٥٥] ؛ أو عن طريق متخصصين ؛ يقيمون فى موانئ مصر الكبرى مثل : الإسكندرية العظمى أو دمياط والبرلس ورشيد وعيذاب؛ وهذه الأخيرة كانت أعظم موانئ ساحل البحر الأحمر ؛ بسبب أن مراكب الهند تحط فيها البضائع [٥٦]. أما فى خارج مصر فى الإمبراطورية المملوكية. فقد كانت عدن؛ هى المرسى العظيمة من بلاد اليمن لهذه التجارة [٥٧]، ووجد فيها موظف مملوكي كبير اسمه : شاد الكريمى [٥٨]؛ ولقد وصف المؤرخ ابن فضل الله العمرى؛ حركتها التجارية حيث كان يأتيها التجار من الصين والهند والسند والعراق والبحرين ومصر والزنج والحبشة؛ فيحمل منها حمل الفلفل الذى يساوى خمسين دينارًا فى القاهرة ويباع فى الاسكندرية بثلاثين ومائة دينارًا. فقد كان سلاطين المماليك يحكمون اليمن بطريق مباشر، إذ كان همهم الأول أن يسيطروا على باب المندب [٦٠]؛ وساعد على ذلك أن طبيعة بلاد اليمن، انقسم بين حكام محليين متعددين، فكانوا يرسلون أسطولهم إلى زبيد، إحدى موانئ اليمن التجارية الهامة للمرابطة فيها، ولكن ظهر لحكام اليمن المحليين ميل للاستقلال عن سلطة المماليك؛ بحيث أصبحوا يكاتبون ملوك الصين [٦١]، ويتاجرون فى الفلفل لحسابهم [٦٢]. ومع ذلك فلدينا رسالة بتاريخ ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م من أمير سيلان– السيلان– إلى قلاوون، يبين

فيها أنه رفض أن يتاجر مع أمير من اليمن ليحجز كل تجارته لسلطان مصر ، ويطلب منه ارسال التجار المصريين وحدهم (٦٣).

وعلى كل حال، لما انحسر تدريجيا نفوذ دولة سلاطين المماليك فى اليمن فإن برسباى جعل ميناء جدة يحل محل عدن (٦٤)، وأصبحت أعظم مراسى الدنيا فى تجارة البهار(٦٥)، ووجدت فيها حامية مملوكية عسكرية وناظر وشاد لهذه التجارة. وأصبح متوليها يعرف بنائب جدة، ولقبه : نائب السلطنة الشريفة بالأقطار الحجازية ، يقيم فى مكان اسمه : دار النيابة وله سلطة مكاتبة ملوك الهند وغيرهم(٦٦). ولأن حركة الملاحة فى المحيط الهندى ارتبطت بحركة الرياح الموسمية(٦٧) فقد أقيمت الفنادق لمبيت التجار فى الموانئ التى كان بها كثير من زوجات وعائلات تجار الكارم.

انتقلت الحركة التجارية من مصر ذات الرصيد الحضارى إلى موانئ الساحل الأفريقى، فكانت مقدشيو تعد من الموانئ المهمة على بحر الهند كما يسميه المقريزى وعندها تجارات الصومال والحبشة والسودان وشرق افريقيا (٦٨). لذا وصفها ابن بطوطة بأنها مدينة أهلها تجار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها(٦٩). ومنها تحمل إلى مصر وغيرها على يد تجار الكارم(٧٠) وإلى الجنوب من مقدشيو، كانت توجد مالندى وهى فى تنزانيا الآن؛ وكان أهلها مسلمين وكثر فيها تجار الكارم الوافدون عليها لأنها كانت مركزاً تجارياً لسلع داخل القارة التى كانت ترد إليها لتتولى هى القيام ببيعها إلى تجار الكارم من مصر (٧١). وبالقرب من لندى وجدت أيضًا ممبسه وهى التى تحوى ميناء ضخم ترسو فيه السفن لجلب الحديد والنحاس والفضة على يد تجار الكارم(٧٢). أما عن كلوة التى أصبحت بمثابة المركز الرئيسى لتجارة الذهب الذى كانت تحصل عليه بمبادلته بالأقمشة، فقد لعبت كلوة بمؤسساتها التجارية دور الوسيط التجارى بين منتجات داخل القارة وبين تجار الكارم الوافدين إليها (٧٣).

وإذا تركنا الساحل الشرقى لأفريقيا نجد قبالته إلى الشرق جزيرة مدغشقر (٧٤)؛ وهى حلقة من حلقات الاتصال لمكانتها التجارية وخاصة أشجار الصندل ووفرة العنبر فكانت مقصدا لسفن الكارم(٧٥) وعند مدخل خليج عدن جزيرة سقطرى التى عرفت بالعنبر (٧٦)، لذلك ازدهر الساحل الأفريقى ونمت تجارته بفضل تأثيرات الوكالات التجارية عبر البحر الأحمر، التى تمتعت بمعاملة حسنة؛ وكان لتحول التجارة عبر البحر الأحمر بعد سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م أثر فى بزوغ ظفار كميناء مهم، حيث تحتل موقعًا يساعد على الاستفادة

من الطريق التجارى للبحر الأحمر. فهى ميناء داخل المحيط الهندى، يصلح لرسو السفن فى طريقها للبحر الأحمر وهى قادمة من الشرق[٧٧].

أما عن مراكز البحر الأحمر الشرقية [٧٨]. فإذا عبرنا بحر «بربره- خليج عدن [٧٩]؛ نجد أن عدن هى الميناء الواقع بالقرب من مدخل الخليج ، وقد أطلق اسمها على الخليج فيما بعد[٨٠]؛ فهى مجمع تجارات عالمى للمحيط الهندى والبحر المتوسط، وأن كان ذلك لم يمنع بعض السفن الضخمة من المرور فى البحر الأحمر حاملة سلع الكارم لتصل إلى جدة[٨١].

واحتوت مدينة زبيد (شمال عدن) على تجار من الحبشة والحجاز والعراق ومصر، تعمرها فنادقها ووكالتها التجارية. كما كان لموقع بلاد الحجاز على البحر الأحمر واتصاله ببلاد الشام شمالاً واليمن جنوبًا وبمصر براً وبحراً أثر فى نشاط تجارة الكارم من اليمن وعبر بلاد الحجاز حتى وصلت إلى أراضى الشام ومصر والعراق واليمن والحبشة[٨٢].

ومن المراكز التى خدمت تجارة الكارم جدة التى تعتبر من أشهر الموانئ الحجازية وقد اشتهرت بأنها ميناء مكة على البحر الأحمر [٨٣]. واستمرت الصلة التجارية قوية بين مصر وميناء ينبع حتى أن بعضًا من سكان هذا الميناء كانوا من الأسر المصرية الكارمية التي انتقلت إليه من صعيد مصر للتجارة[٨٤] كما خصصت السلطات المملوكية ميناء ايله (العقبة الآن) لمرور سلع الكارم القاصدة إلى الشام بعد سقوط القسطنطينية فى سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م واقتصر ميناء الطور على سلع القاهرة[٨٥].

وإذا انتقلنا إلى مراكز البحر الأحمر الغربية نجد زيلع ، التى يروى ابن بطوطه أنها «مدينة البرابرة» ، وهم طائفة من السودان ، وأهلها تجار أقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها ومنها تحمل إلى مصر على يد تجار الكارم[٨٦].

وكذلك كان ميناء زيلع مركز تجمع تجارة الحبشة والنوبة، وهناك أيضًا ميناء بربره القريب من زيلع الذى كان يتردد عليه فى مواسم تجارة الكارم حوالى ١٥٠٠٠ تاجر وكانت تتبع حاكم الحبشة [٨٧]، وكانت دهلك وهى قبالة مصوع بالقرب من ساحل البحر الأحمر الغربى وغرب مدينة حلى من بلاد اليمن- وكانت تعد من مملكة الحبشة المسلمة التى يدارى ملكها صاحب اليمن [٨٨].

ولعب ميناء سواكن دوراً مهماً لتجارة الكارم (٨٩)، وهو الميناء المعد لتصريف منتجات الحبشة وبلاد النوبة والسودان . وكان من نتائج حملة السلطان بيبرس سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٣م انهيار نفوذ سواكن وكثر تردد المسلمين فيها لدرجة أوجبت على السلطان استخراج الزكاة منهم. كما ورد ذكر ميناء سواكن فى أثناء الصراع بين مينائى عدن وجدة فكانت سوء معاملة الرسول باليمن سبباً فى توجه سفن الكارم إلى جدة، فتوجهت السفن إلى ميناء سواكن ودهلك غير أن المعاملة التى لقيها التجار لم تكن خيراً مما لقيها التجار فى عدن وجدة فتوجهت السفن إلى ينبع . وكانت تصل متاجر سواكن إلى مصر بطريق البحر الأحمر(٩٠).

ولقد ارتبط ظهور عيذاب فى العصر الفاطمي كميناء لتجارة الكارم بتطور الملاحة فى البحر الأحمر في الفترة من سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م إلي عصر السلطان برسباى فى سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م أى السنة التى خربت فيها ، وحلت محلها ميناء جدة(٩١).

ثانياً : دور التجار المسلمين الاقتصادى والثقافى على ساحل شرق أفريقية، ومدغشقر وجزر القمر:

التقت سفن البحر الأحمر مع سفن المحيط الهندى، في رابطة تجارية متناسقة متداخلة منتظمة مكملة لبعضهما البعض (٩٢)، تصل مرافئها بمدنها، وبرز العرب المسلمون سادة التجارة البحرية فى هذا المحيط ، بحيث كانوا تجار ومتجر عالم المحيط الهندى فى تلك العصور، مارسوا التجارة فى حرية الانتقال واستقرار. ولم يد المحيط أمانه واستقراره إلا بوصول البرتغاليين وما تلاهم من شرار المستعمرين (٩٣).

ويذكر دافيدسون "Davidson" أن إنتاج إقليم الزنج بأفريقيا يتركز فى سن الفيل والذهب وخشب الصندل الأصفر ، وفى كل عام تأتي سفن التجار العرب إلي ساحل شرق أفريقيا للتجارة فى هذه السلع (٩٤)، وإن كان د. طرخان يرى أن المجتمع الذى نشأ حول المستعمرات الحربية في ساحل شرق أفريقية لم يكن عربياً بحتاً. فقد ظل العرب كغيرهم من المستعمرين فى أفريقيا وغيرها من القارات يكونون طبقة أرستقراطية . وتعيش بجوار الهنود الذين كان لهم نشاط ملحوظ فى الأعمال المالية والتجارية (٩٥).

ومنذ حوالى ٥٤٥هـ / ١١٥٠م أبحر العرب العمانيون والهنود والشيرازيون على طول الشاطئ الأفريقي (٩٦). كما حظى الوافدون من الديبل فى الهند بأهمية سياسية فى زنجبار

وبمبا(٩٧). والأرجح أن الهنود كانوا يقومون بدور الصيارفة والملاحين (٩٨)، وقد وجد فاسكو داجاما في شرق أفريقيا بحارة من كمباى بالهند يرشدون أنفسهم بنجوم فى الشمال والجنوب (٩٩). كما كان لهم أجهزتهم الملاحية التى ابتكروها بأنفسهم وكان ذلك عام ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م(١٠٠). إن سيادة العرب الملاحية على المحيط الهندى ومعرفتهم بأسرار الملاحة، ومواكبة ذلك لانتشار الإسلام على سواحل وجزر المحيط الهندى، ووجود الجاليات الإسلامية فى أغلب مدن وموانئ المحيط «وكان دورها الرئيسى فى تلك المناطق هو الوكالات التجارية(١٠١)» جعلت الهنود وغيرهم ينسحبون من الميدان تاركين لفارسه الأوحد الذى تحمل عناء ومخاطر التجارة العالمية عن الهنود الذين جاءتهم بضائع العالم إلى بلادهم كما حملت سلعهم دون ركوب البحر ومكابدة المخاطر (١٠٢). والمأثورات الشفاهية لها دلالتها (١٠٣)، ويمكنها أن تسد بعض الثغرات فى التاريخ عندما تنعدم الوثائق وتسكت المصادر؛ بالإضافة إلى دلالات المأثورات الشفاهية فإن التأثير الثقافى فى اللغة السواحلية يدل على مدى عمق الصلة بين دول المحيط (١٠٤)، ففى كثير من مفردات اللغة السواحلية دليل على تلك الصلة. فنجد على سبيل المثال فى إحدى حكايات الحب الشهيرة فى زيلع مركزًا تجاريًا هامًا فى العصور الوسطى- أن الخط الأساسى فى الحكاية يرتبط بالتجارة ومخاطرها فتصف تلك الحكاية أهوال المحيط التى يقابلها البحارة ومدى ما يتعرضون له من مخاطر ولهفة أحبائهم عليهم كذلك نجد صدى لمخاطر التجارة والملاحة في المحيط الهندى فى الأغنيات الشعبية وتقول كلماتها :

قد عادت السفن التجارية التى أبحرت .

من سوريا وزنزبار

أين السفن التى أبحرت إلى بومباى

هل تحطمت أم غرقت ؟

ويغنى الفتى أغنية تشير إلى الدور الذى تلعبه الرياح فى التجارة:

أنا مثلك أريد العودة فى الوقت المحدد، ولكن رياح الشتاء الشريرة.

قد سجنتنى بعيدًا (١٠٥).

ويصور المقطعان التاليان من أغانى البحر حالة التجارة فى المحيط أفضل تصوير. لايستطيع الذاهب من شرق أفريقيا العودة فى موعد محدد ويعود التاجر من الهند بثروة وخبرة عظيمة(١٠٦).

وعلى الرغم من عدم وجود قوى ملاحية أفريقية تشارك فى تجارة المحيط، إذ لم تشر المصادر إلى سفن أو تجار أفريقية . إلا أن السواحل الأفريقية استمدت حيويتها ونشاطها وازدهارها بمشاركتها فى حركة التجارة العالمية باعتبارها المكان الذى تخرج منه المنتجات الأفريقية . ولم يقتصر دورها على التصدير فقط بل استوردت أيضًا كثير من المنتجات العالمية. وفضلا عن هذا كله كانت وسيطًا فى كل هذا بين الساحل والداخل . وبرزت المدن على الشاطئ الأفريقى متميزة بحضارة سواحلية تعكس مزيجًا من الحضارة العربية والفارسية والأفريقية وقد ساعدت تلك المدن التى تعددت ككيلوة وماليندى ومقدشيو وغيرها على ازدهار تجارة ما وراء البحار ونحوها ، على أن السمة الغالبة على تلك المدن كانت سمة الوسيط التجارى. فلم تشارك فى عملية النقل التجارى، كما لم تقم بعمليات البيع والشراء فى الموانئ الأخرى؛ واقتصر دورها فقط علي استقبال المنتجات أو السلع التجارية من أسواق وموانئ المحيط ، وأيضًا من وكالات مصر وغالبًا ما كان يقوم تجار من مختلف البلدان بالعمليات التجارية؛ وكان الدور الرئيسى فى عملية التجارة التى قامت به تلك المدن هو جلب منتجات داخل القارة إلى الساحل وأهمها : العاج وأصداف السلاحف والذهب وغيرها (١٠٧).

وكان ازدهار الحركة التجارية فى شرق أفريقية مع استقرار العديد من العناصر العربية بهدف تنشيط الرواج التجارى بدليل ما عثرنا عليه من نقوش دهلك التى وصلتنا منها أعداد كبيرة؛ إذ أن بعض النقوش عبارة عن آيات قرآنية شريفة وحكم وأدعية وبعضها الآخر غير مؤرخ (١٠٨)، ومنها نقش يتضمن اسم عبدالله بن سلام ، وبعضها نقوش مؤرخة ومنها نقش باسم شــهــرة (ت ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م) ونقش باسم الســيــد نعــيم (ت ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م)(١٠٩).

وهناك نقوش أخرى تشير أسماء أصحابها إلى أنهم من ذوى الأصول المسيحية وأنهم اعتنقوا الإسلام ومنها نقش باسم إبراهيم (كذا) بن يعقوب (ت ٦٢٢هـ / ١٢٦٤م) (١١٠).

ومما لاشك فيه أن وجود هذه النقوش إنما يؤكد وجود جماعات إسلامية مستقرة فيها بدليل وجود هذه الجبانة التى اكتشفت فيها تلك القبور فضلاً عن اكتشاف بعض المساجد فى تلك المنطقة ومنها مسجد Manakllou (١١١).

كذلك اكتشف عدة قبور بها نقوش شاهدية فى جنوب «تجرى» ومنها نقش مؤرخ ب ٨ ذى القعدة عام ٣٩٦هـ / ١٠٠٥م، مما يشير إلى وجود جماعات إسلامية مستقرة فى تلك

المنطقة(١١٢).

أما عن الهجرة الشيرازية فقد اختلف حول تاريخ وصولها إلى شرق أفريقيا فيرى البعض أنها كانت فى النصف الثانى من القرن ٤هـ / ١٠م وبالتحديد فى عام ٣٦٥هـ / ٩٧٥م(١١٣). ويرى هتشنز استنادًا إلى بعض التواريخ المحلية أنه كانت فيما بين عامى ٤٤٧-٤٩٤هـ / ١٠٥٥-١١٠٠م (١١٤)، بينما يرى فريق ثالث أن تلك الهجرة لم تحدث إلا فى أواخر القرن ٦هـ/ ١٢م(١١٥).

والحق أن الأدلة المستمدة من النقوش الأثارية وبخاصة النقوش الإنشائية تثبت وتؤكد رأى هتشنز ومنها النقش الإنشائى لمسجد كيزمكازى الواقعة جنوب زنجبار، ويتضمن هذا النقش الصيغة التالية «بأمر الشيخ السيد ابن عمران مقوم الحسن بن محمد اطال الله حياته المديدة، اللهم اقض على اعدائه، تم بناء هذا المسجد فى يوم الأحد من شهرى ذى القعدة سنة خمسمائة من الهجرة(١١٦) ويدل تاريخ هذا النقش المهم وهو سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م – على وجود سلطنة كلوة الشيرازية خلال النصف الثانى من القرن ٥هـ / ١١م، وهو ما يتفق مع الروايات التاريخية؛ إذ تشير هذه الأخيرة إلى العلاقات الوثيقة بين كلوة وزنجبار فى تلك الفترة.

فبعد أن هاجرت الجماعة الشيرازية إلى شرق أفريقيا وأسست سلطنة كلوة فى الربع الثالث من القرن ٥هـ / ١١م، حدث أن أغارت على كلوة قبائل البانتو الوثنية مما اضطر السلطان الشيرازى- الحسن ابن على أو ابنه على بن الحسن إلى الفرار والهروب إلى زنجبار، لكنه سرعان ما عاد إلى كلوة ثانية بعد فترة قصيرة ، وأخذ يعمل على توسيع قاعدة ملكة ودائرة نفوذه على حساب جيرانه فى الساحل الشرقى لأفريقيا (١١٧)، وعلى ضوء ذلك فمن المرجح أن منشئ هذا المسجد كان نائبًا عن سلطان كلوة فى حكم زنجبار وهو ما يؤيده ورود كلمة مقوم فى النقش وهى تعنى فى اللغة السواحلية ملك أى ملك زنجبار التابع لسلطان كلوة فى ذلك الوقت وهو الحسن بن محمد ومن المرجح أنه أحد أحفاد الحسن بن على أو ابنه على بن الحسن والذى يبدو أن عهده لم يكن مستقراً بدرجة كبيرة بدليل ورود عبارة «اللهم أقض على اعدائه» فى النقش الانشائى للمسجد. ومهما يكن من أمر فإنه قدر لسلطنة كلوة هذه أن تزدهر ازدهاراً كبيراً ولاسيما خلال القرنين ٧-٨هـ / ١٣-١٤م وهو ما تتفق عليه المصادر التاريخية والأثارية على السواء(١١٨).

كذلك تغلغل التجار المسلمون إلى داخل موزمبيق الحالية وزيمبابوى وقد أكدت ذلك المصادر الأثارية وبخاصة الخزفية الفارسية والصينية التى عثر عليها فى زيمبابوى مما يشير إلى وجود علاقات تجارية خلال القرنين ٧-٨ هـ / ١٣-١٤م مع المدن الساحلية وخاصة مع كلوة ومراكزها الأمامية فى الجنوب مثل سفاله(١١٩).

وإذا كانت النقوش الأثارية المتوافرة لدينا حتى الآن تعد قليلة بالنسبة لغالبية شرق أفريقيا كما سبق القول، إلا أنها ليست كذلك بالنسبة لأرخبيل دهلك حيث عثر على أعداد كبيرة من النقوش وبخاصة النقوش الشاهدية فى جبانة دهلك كبير وهى محفوظة حالياً فى العديد من المتاحف مثل المتحف الوطنى فى مودان بإيطاليا، ومتحف فرديناندو ومارتينى فى أسمرة بإرتريا ، ومتحف الفن الإسلامى بالقاهرة ، ومتحف تريفيزو بإيطاليا ، ومتحف بارلوبوك بفرنسا، ومتحف السودان القومى بالخرطوم ، ومتحف الجمعية الأسيوية بالبنغال ، ويرجع تاريخ أقدم النقوش المؤرخة إلى عام ٢٩٩هـ/ ٩١١م وأحدثها إلى عام ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م، وهى مكتوبة بلغة عربية سليمة من الناحية النحوية وتتضمن عدة آيات قرآنية شريفة وفقاً للصيغ والمضامين المعروفة فى الأقاليم العربية الإسلامية المجاورة ، كما تتيح لنا هذه النقوش أن نعيد بصورة جزئية تكوين سلالة سلاطين دهلك وأسماءهم خاصة منذ القرن ٥هـ / ١١م(١٢٠) ومن المعروف أن دهلك كانت أول رأس جسر يقيمه المسلمون على الساحل الشرقى لأفريقيا، وتفصيل ذلك أن قراصنة البحر من الأحباش كانوا يغيرون على جدة، وقيل أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعث فى عام ٢٠هـ / ٦٤٠م علقمة بن مجزز المدلجى فى مائتى رجل حملهم فى أربعة مراكب لتأديب القراصنة ، وقيل أنها كانت فى عام ٣١هـ / ٦٥١م أى فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه وقد عرفت باسم غزوة الأساودة ، ومن الواضح أن الغرض من ذلك كان يتمثل فى تأمين البحر الأحمر حيث أن هذه الغزوة لم تسيطر على أى بقعة أفريقية (١٢١)، وعاود هؤلاء الأحباش الإغارة مرة ثانية على جدة فى خلافة عبد الملك بن مروان وبالتحديد عام ٨٣هـ / ٧٠٢م فما كان من الخليفة إلا أن أرسل حملة قوية نجحت فى السيطرة على أرخبيل دهلك على مقربة من مصوع ، وبذلك نجح المسلمون فى أن تكون لهم فى البحر قاعدة مهمة قامت بدور كبيرة سواء فى انتشار الإسلام أو فى الحركة التجارية.

كذلك اتخذت دهلك كمنفى خلال العصرين الأموى والعباسى حيث نفى إليها الأحوص الشاعر فى خلافة سليمان بن عبدالملك (٩٧-٩٩هـ / ٧١٥-٧١٧م) بسبب قصائده الهجائية

والفقيه عراك بن مالك فى خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ / ٧١٩-٧٢٣م)، كما نفى إليها الخليفة هشام بن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ / ٧٢٣-٧٤٢م) فى أواخر عهده بعض الشخصيات التى لم تذكر المصادر أسماؤها وقيل أنهم ما كانوا يضعون أقدامهم على الجزيرة حتى توفى هشام وبويع الوليد الثانى، وفى العصر العباسى الأول نفى إليها ولد عبد الجبار والي خراسان فى عام ١٤١هـ / ٧٥٨م أى فى خلافة المنصور، وكانت دهلك على علاقة وثيقة بالدول الإسلامية المستقلة فى اليمن وبصفة خاصة الدولة الزيادية والدولة النجاحية ، وفى بداية ق ٤هـ / ١٠ قامت فى جزر دهلك دولة إسلامية مستقلة اضطلعت بدور بالغ الأهمية فى انتشار الإسلام فى تلك المنطقة عامة وفى الحركة التجارية خاصة وتشير إحدى وثائق الجنيزة القاهرية إلى أن أحد التجار من منطقة طرابلس بليبيا وكان يسمى اللبيدى- نسبة إلى لبيدة- توقف فى دهلك لأغراض التجارة وهو فى طريقه من مصر إلى الهند وذلك قبل عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م [١٢٢]. وليس أدل على كثرة الوافدين من العرب المهاجرة إلى دهلك، واستقرارهم بها من تلك النقوش الشاهدية الكثيرة التى عثر عليها فى دهلك والمحفوظة فى العديد من المتاحف كما سبق القول.

وبعض هذه النقوش غير مؤرخة، ولكن يمكن حصر تاريخها فيما بين القرنين ٢-٤هـ / ٨-١٠م، وقد انتسب الأشخاص المنقوشة أسماؤهم على هذه النقوش إما إلى القبيلة أو الموطن أو المهنة كما أن بعضهم لم ينتسب إلى هذا أو ذاك ، وحسبنا أن نذكر من بين هؤلاء وأولئك كل من فاطمة ابنة أحمد بن سعد المكى (ق ٢هـ / ٨م) ، وأم أبو العباس محمد بن أحمد بن سعد المكى (ق٢ هـ / ٨م) ، وعبيد بن يحيى بن عبيد الصائغ (ق ٢-٣هـ / ٨-٩م) وإبراهيم بن محمد بن سعد البغدادى (أواخر ق٢ هـ / ٨م) ، وحمدونة ابنة المتوكل بن زيد (ق ٣هـ / ٩م) ، ويعقوب بن يوسف بن إبراهيم المزنى (أواخر ق ٣هـ / ٩م) ومحمد بن يعقوب بن يوسف المزنى (ق ٤ هـ / ١٠م) ، وإسماعيل بن أحمد المزنى (أواخر ق٣ هـ / ٩م) ، وعيسى بن محمد بن عيسى المزنى (أواخر ق٣ هـ / ٩م)، وسداد بن عثمان بن عبدالله (ق ٣هـ / ٩م)، وعلى بن بشر زاد الفارسى (ق ٣هـ / ٩م) ، أو أوائل ق٤ هـ/ ١٠م) ، وأم خديجة ابنة أحمد بن عبد الرحمن (ق٣هـ / ٩م) ، ورقية ابنة محمد ابن أحمد عبد الرحمن (ق٣هـ / ٩م) ، وأم الزنجى محمد بن على بن الحسين ابن على الصفار (أواخر ق٣ هـ/ ٩م) ، وأم أبى العباس بن فضل بن العباس بن الوليد (ق٤ هـ / ١٠م) ، وأحمد بن أيوب محمد بن سليمان (ق٤ هـ / ١٠م) ، وعائشة ابنة أحمد بن عبيد (ق ٤ هـ / ١٠م) ، وأم إبراهيم ولد محمد بن

عثمان بن يحيى (ق٤هـ / ١٠م) وأم أحمد الرومى بن على بن الحسين الصفار (ق٤هـ / ١٠م) وأم حرمية مولاة إسحاق بن إبراهيم البلاقى (ق٤ هـ / ١٠م) ، ويحيى بن الحسين المطرنى (ق ٤ هـ / ١٠م) ويونس وقاسم ابنى إدريس بن يعلوم (ق٤ هـ / ١٠م) ورقية ابنة عبد الرحمن بن محمد (ق ٤ هـ / ١٠م) ويحيى بن زكريا المدنى (ق٤ هـ / ١٠م) وصفية ابنة ابراهيم بن غسان (ق٤ هـ / ١٠م) وأحمد بن عبيد البصرى (ق٤هـ / ١٠م) ، ويوسف بن اسماعيل (ق٤ هـ / ١٠م) وأبى عبيدالله مصعب الزبيرى (ق٤ هـ / ١٠م) ، و... بن مسلم القيسى (ق٤هـ / ١٠م)وأبى الحسن على بن وصيف مولى يوسف بن اسحاق النجار (ق٤ هـ / ١٠م) وأم شعلان مولاة أحمد بن سعد الملكى (ق٤ هـ / ١٠م) ، ويحيى بن الحسين المصرى (ق ٤ هـ / ١٠م) ، وفاطمة ابنة الحسن بن عيلان (ق٤ هـ / ١٠م) وأبى على الحسن بن أحمد بن شكر (ق ٤ هـ / ١٠م) .

أما النقوش المؤرخة ، والتى تنحصر فيما بين عامى (٢٩٩-٩٤٦هـ / ٩١١-١٥٣٩م) كما سبق القول، فلا تختلف دلالات نسبة الأشخاص عن نفس الدلالات المشار إليها فى النقوش غير المؤرخة وحسبنا أن نذكر منها كل من : يحيى بن عثمان بن عبدالله (ت ٢٩٩هـ / ٩١١م)، وأبو محمد عبدالله بن عباس (ت ٣٠٨هـ / ٩٢٠م) ، وأبى زكريا يحيى بن يعقوب بن يوسف المزنى (ت ٣٢٢هـ / ٩٣٣م) ، وأبى سعيد عثمان بن يحيى بن عثمان (ت ٣٢٣هـ / ٩٣٤م) وأم فاطمة أم ولد يحيى بن عثمان بن عبدالله (ت ٣٢٦هـ / ٩٣٧م) ، وفاطمة ابنة يحيى بن عثمان بن عبدالله (٣٢٦هـ / ٩٣٧م)، وفاطمة ابنة إسماعيل بن إبراهيم المزنى (ت ٣٢٦هـ / ٩٣٧م)، وإسماعيل بن محمد بن أحمد الشامى القرشى (ت ٣٣٣هـ / ٩٤٤م)، وأبو عبدالله محمد ابن إسماعيل بن محمد بن أحمد الشامى القرشى (ت ٣٤٠هـ / ٩٥١م) ، ووالدة محمد بن القاسم الوبار (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م)، وعبدالله بن يحيى (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م)، وحسناة ابنة حفص بن عمر بن حفص بن عمر اليمانى (ت٣٦٩هـ / ٩٧٩م) و ... بن السرافى (ت ٣٨٩هـ / ٩٩٨م، وعبد الواحد بن الحسين الزيات (ت ٤٠٠هـ / ١٠٠٩م) ، وخديجة ابنة الحرمى (ت٤٠٧هـ / ١٠١٦م)، ويحيى بن عبدالعزيز بن عمر البصرى (ت ٤١٠هـ / ١٠١٩م) ، أم الخير ابنة العباس بن الفضل الحجازى (ت ٤١٦هـ / ١٠٢٥م) ومحمد بن موسى بن محمد القيسى (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، وكعب بن خليفة بن عبدالله بن محمد القيسى (ت ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م) وخديجة ابنة عبدالله إبراهيم بن أحمد العثمانى (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) ، وأبو محمد إسماعيل بن الحسين محمد بن هرون البصرى (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م) وحسناء ابنة عبد

الواحد بن الحسين ابن على الزيات (ت ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م) ، أحمد بن عبدالله بن أحمد النجار (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) ومحمد بن اسحق بن جيدا (ت ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م) والحسين بن خليفة بن عبيدالله بن محمد القيسى (٤٣٨هـ / ١٠٤٦م)، وفاطمة ابنة محمد الخياط (ت ٤٣٩هـ / ١٠٤٧م)، وعيسى بن على الغسانى (ت ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م) ، وأم شعيب مولاة الحسين بن عبدالله بن أحمد الكندى (ت ٤٦٤هـ / ١٠٧١م)، والمبارك مولى عبدالواحد البغدادى (ت ٤٧٠هـ / ١٠٧٧م) وأم محمد بن إقبال مولى أحمد بن محمد التفليسى (ت ٤٧٢هـ / ١٠٧٩م)، وعثمان بن عاصم البسطامى (ت ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م)، وعثمان بن غانم البسطامى(ت ٤٧٦هـ / ١٠٨٣م)، وعبدالملك بن عيسى الأغماتى (ت ٤٧٧هـ / ١٠٨٤م) ، والوليد مفرج مولى خلف بن البناء (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) وزينب ابنة الحسين بن إسماعيل بن عبدالله الجبيلى (ت ٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) ومحمد بن حسن بن عبد الرحمن بن محمد بن راشد الأندلسى البلنسى (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) ، وعلى بن الحسين بن على بن شعيب (ت ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) ، وعنبر مولى عبد الكريم بن إبراهيم بن محمد الملكى (ت ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) ، ومحمد ابن الحسين بن محمد بن الحسين الشعرانى (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م)، وولد بن سلامة بن سعيد الحرانى (ت ٤٨١هـ / ١٠٨٨م) وفاطمة ابنة مفرج مولى خلف بن مرزوق البناء (ت ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م)، وسليمان بن محمد ... القيسى (ت ٤٨٤هـ / ١٠٩١م)، وأحمد بن محمد... المزنى (ت ٤٨٤هـ / ١٠٩١م) و ... بن على الجبلى (أو الجبلى) العكى (ت ٥١٤هـ / ١١٢٠م) والعريف محمد ابن منبه بن سبيث الدهلكى (ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م) ، والفقيه مسلم بن عيسى بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد بن يحيى العكى (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) والشيخ سالم بن محمد بن حسن بن عبدالله الشحرى (ت ٦٠٧هـ / ١٢١٠م)، والناخذا رزق الله بن عبدالله الحبشى القرواشى (ت ٦١١هـ / ١٢١٤م) ، وأم ... حسن مولاة محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن يوسف بن حامد يحيى العكى (ت ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م)، والشاب التلميذ الزاهد أبى عبدالله محمد بن الشيخ سليمان بن نصر الكاتب بدهلك (ت ٦٣٢هـ / ١٢٤٣م) والشيخ الكبير أبو الحسن على ابن عيسى المدينى (ت ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) ، والشيخ سليمان بن نصر الكاتب بجزيرة دهلك (ت ٦٥٣هـ / ١٢٥٥م)، وصفية ابنة على بن عيسى المدنى (ت ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م)، وجمال الدين محمد بن سعيد التهامى (ت ٨١١هـ / ١٤٠٨م) وغيرهم [١٢٣].

هذا فضلا عن أسماء سلاطين دهلك وأمهاتهم وأولادهم وأسماء بعض الوزراء والقواد والموالى.

وهكذا، وعلى ضوء تلك النقوش الشاهدية، نستطيع أن نرسم صورة صادقة للمجتمع العربى الإسلامى بجزيرة دهلك فمن حيث تركيبته السكانية، كان هذا المجتمع يتكون فى أغلب عناصره من أبناء القبائل العربية المهاجرة إليه من الجزيرة العربية وهو ما يتضح من نسبة هؤلاء إلى القبيلة أو الموطن مثل المزنى والمكى والمدنى أو المدينى والحجازى والقيسى واليمانى والقرشى والحرمى والكندى والعكى والشحرى والتهامى. وقد جذبت الجزيرة إليها أنظار الكثيرين من أبناء الأقطار العربية والإسلامية الأخرى الذين وفدوا إليها من مختلف تلك الأقطار، ومن المرجح أنه كان وراء ذلك ازدهار الحركة التجارية بجزيرة دهلك مما دفع هؤلاء إلى القدوم إليها والاستقرار فيها، وهو ما يتضح من نسبة هؤلاء إلى مواطنهم الأصلية التى وفدوا منها مثل المصرى من مصر والغسانى والحرانى والشامى من بلاد الشام والبصرى والبغدادى من العراق والفارسى والسيرافى والبسطامى والتفليسى من إيران وآسيا الوسطى والسوسيى (إما من السوس بإقليم خوزستان أو عربستان الفارسى أو من إقليم السوس بالغرب الأقصى سواء السوس الأدنى أو السوس الأقصى وكان بينهما مسيرة شهرين على حد قول ياقوت الحموى فى معجمه أو من سوسة فى تونس وهو ما رجحته شنايدر) . والأغماتى من المغرب الأقصى والبلنسى من بلنسة بالأندلس وغير ذلك.

ومن حيث الحرف والوظائف المختلفة تطالعنا هذه النقوش بأسماء الكثير منها مثل الصفار والصائغ والنجار والبحار والوبار والخياط والزيات والبناء والكاتب والعريف والفقيه وغير ذلك ، وهو ما يدل على أن الجزيرة كانت تتمتع بقدر كاف من الاكتفاء الذاتى فيما يتعلق بالحرف والصناعات المرتبطة بالحياة اليومية لسكانها .

هكذا ساهم العرب بحركتهم التجارية فى الملاحة عبر ساحل شرق أفريقيا ووصولاً إلى مدغشقر وجزر القمر فى منظمة مشتركة مع العناصر الوطنية من الأفارقة.

ثالثًا : أثر الحركة التجارية فى انتقال التأثيرات السياسية والاقتصادية على ساحل شرق أفريقية:

شجعت الحركة التجارية التى وصل تأثيرها ساحل شرق أفريقيا والجزر الحيوية فى مدغشقر وجزر القمر على زيادة الاتصال بين سكان هذه المناطق التى تنامى اقتصادها بشكل فعال [١٢٤]، فبرزت هذه العلاقات التجارية تشكل جزءا من عملية عالمية . وتكون فى واقع الأمر فرعًا من الطريق التجارى الكبير الذى يربط الشرق بالغرب ، وعلى هذا الطريق لم تكن الموانئ

الأفريقية الشرقية تمثل نقاطاً نهائية. فقد كان الطريق مستمراً إلى مدغشقر [١٢٥]؛ ولاجدال في أنه كانت هناك علاقات بين الساحل وبين الأقاليم المحتوية على الذهب في الداخل قرب بحيرة نياسا، فمن هناك كان يأتي الذهب الذي ينقل إلى كيلوه [١٢٦].

وابتداء من القرن الرابع عشر ، خضعت بعض المناطق التي تحتوي على الذهب في سوفاله لسلطة سلاطين كيلوه الذين كانوا يعينون حكامها [١٢٧] وتشهد الاكتشافات الأثرية في منطقة الساحل على قدم هذه الصلات التي تمثلها الوكالات التجارية، ولاشك أن المناطق الحاوية للذهب قرب الزمبيزي (في أراضي زامبيا) كانت هي الأولى التي أقيمت معها علاقات تجارية، وهو الأمر الذي يدل عليه اكتشاف أصداف الودع (الغوري) التي كانت تبادل بالذهب والعاج في غوكوميرا وكولومو[١٢٨].

وفي أراضي كينيا الحالية في منطقة أنغاروكا دلت الحفريات على وفرة أصداف الودع الغوري في قرية تجارية بالإضافة إلى الحلي الزجاجية (القرنين الخامس عشر والسادس عشر من نفس النمط الذي وجد في كيلوه وفي مدن الساحل الأخرى[١٢٩].

وهناك شاهد مباشر على وجود حركة تجارية لها صلة مع المناطق الداخلية؛ فيخبرنا الإدريسي (الذي يرجع إلى القرن الثاني عشر) بقوله : «نظرا لأنه ليس لديهم دواب فإنهم كانوا ينقلون حمولاتهم بأنفسهم، فقد كانوا يحملون بضائعهم على رؤوسهم أو على ظهورهم حتى يبلغوا مدينتي ممباسا وماليندي وهناك يبيعون ويشترون [١٣٠].

لعبت أصداف الودع (الغوري) دوراً في عملية التبادل كنقود في هذه العلاقات التجارية، وهذا ما يؤكده عمليات الحفائر الأركيولوجية حتى في داخل القارة الأفريقية[١٣١] ومثلما عثر على الخرز الزجاجية والبلورسلين الصيني، واكتشف أنواع جديدة من القطع المعدنية في المناطق التي كانت منها التجارة أشد كثافة وأكثر تعاملا : ويرى شتيك "Chittick" أن صناعة النقود عرفتها كيلوه ومقدشيو إذ ظهرت في كيلوه مع وصول الأسرة الشيرازية إلى السلطة والتي يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثاني عشر: وكانت قطع النقود هذه من البرونز ومن الفضة . وحمل المثال الوحيد من النقود التي عثر عليها في مقدشيو عكس قطع النقود التي وجدت في كيلوه تاريخا هو ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م[١٣٢] وعثر على قطع من النقود في كثير من المراكز التجارية الكبيرة في كيلوه كيسواني ومافيا وفي كيلوه في جزيرة جواني وفي جزر زنجبار ويمبا ، كما نجد بضعة نماذج لها في كينيا مما تعكس هذه القطع النقدية صورة الوكالات التجارية في الساحل وفي الجزر المجاورة لها ؛ وتوضح كبر حجم العمليات

التجارية(١٣٣).

لقد كانت التجارة وهى أكبر مصدر للربح هى سبب ثروة مدن شرق أفريقيا وأساس التطور الاجتماعى والثقافى للمجتمع السواحيلى، وقد أتاحت التجارة بحكم طبيعتها ذاتها للسواحليين الاتصال بحضارات مختلفة والاقتباس منها ونعنى بذلك الحضارات العربية والفارسية والهندية(١٣٤).

كانت سلع التجارة التى تجذب مجتمعات البحر الأحمر من المدن الساحلية كثيرة ومتنوعة؛ ولكن أهمها العاج وأصداف السلاحف والعنبر والبخور والتوابل والذهب والحديد(١٣٥).

وكانت موانئ شرق أفريقيا تعرف منذ بواكر تاريخها بصادراتها التى كان معظمها يتألف من المنتجات الطبيعية كالعاج الذى وصلت صادرته حتى الصين(١٣٦) والعنبر وجلود الفهود، وأصداف السلاحف . وقد بدأ تصدير الذهب من المناطق الجنوبية فى القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى؛ واشتهر ساحل بندار بصادراته من البخور والعطور والزيوت العطرية مثل البلسم والمر(١٣٧).

ومع نزول الهجرات العربية إلى مدغشقر وجزر القمر أخذوا يصدرون الأوانى المصنوعة من الحجر إلى كيلوه وماندا وما وراءهما (١٣٨).

وكان الفلفل والزنجبيل والقرفة من التوابل المطلوبة فى الأسواق العالمية هذا بالإضافة إلى الهيل والخولنجان والاهليلج وكلها دخلت بصفة أساسية فى صناعة العقاقير الطبية وفى الأغذية والمشروبات (١٣٩) . ومن الأخشاب ذات الرائحة الذكية والتى شاع استعمالها بكثرة خشب الصندل الذى كثر فى جزر المحيط الهندى بمدغشقر وجزر القمر؛ بالإضافة إلى اللؤلؤ والجواهر (١٤٠)؛ وما يزال عدد كبير من الأسئلة مطروحًا على بساط البحث كيف كانت تجمع المنتجات التى تصدرها المناطق الساحلية والجزر نحو مجتمعات البحر الأحمر، وكيف كان يتم طوال تلك القرون تنظيم تجارة العاج؛ وتجارة جلود الحيوانات فهل كانت توجد وكالات تجارية مترابطة لنقل تلك المنتجات ومن هم الوسطاء الذين كانت تمر عبرهم، وما هى المنتجات التى كانت فى مقابل ذلك تصل إلى داخل القارة انطلاقا من الساحل الشرقى وجزر القمر ومدغشقر .

أكدت الدراسات الحديثة حول نشاط الحركة التجارية فيما بين مدغشقر وجزر القمر والساحل الشرقى من القارة بوصول العديد من التأثيرات إلى هذه الجزر، وقيام مدغشقر والقمر بتوزيع الأدوات المصنوعة من حجر الصوان إلى ساحل كيلوه (١٤١).

رابعا : انتقال التأثيرات عبر ساحل شرق أفريقيا إلى مدغشقر وجزر القمر:

مع ازدهار التجارة بساحل شرق أفريقيا ، وتفتح الثقافة البحرية السواحلية، ترددت جماعات من المسلمين القادمين من هذا الساحل الشرقي من أفريقيا على جزر القمر ومدغشقر وأقيمت حركة من التبادل بين ضفتي قنال الموزمبيق (١٤٢). كما أوضحنا سابقًا، وكانت هذه العلاقات على أحسن ما يرام، ومع استقرار الجاليات من السكان المسلمين في أرخبيل القمر وفي بعض المناطق من مدغشقر والقمر (١٤٣). وهم يحتلون جزرًا بمثابة مراحل بين الحركة التجارية السواحلية القائمة على ساحل أفريقيا الشرقي، وبين مدغشقر ، محافظة على تقاليدها الثقافية المحلية، أما في مدغشقر ذاتها فلابد من التنبه إلى وجود فوارق جزئية ، فالجنوب الشرقي، وهو أبعد المناطق عن مراكز إشعاع الحضارة السواحلية ، قد أدمج تدريجيًا ضمن المجموعة الملجاشية مع احتفاظه ببعض السمات المتميزة ، وبالمقابل في الشمال الغربي استمر سليلو الجماعات التي اتخذت الطابع الإسلامي ؛ وهم الذين بقوا على صلة وثيقة بإخوانهم في الدين تجار جزر القمر ووكالات أفريقيا ، ما زالوا يحافظون حتى الآن على أصالة حقيقية تضفيها عليهم أنسابهم وشيمهم وتقاليدهم بصفتهم من مرتادي البحار(١٤٤).

وتتحدث روايات قمرية وملجاشية عن وصول أجدادهم الأوائل وهم المنتسبون إلى أصول عربية . هاجروا نتيجة الضغط السياسي والعقائدي. وتشير رواية قمرية أن مسلمين سينين وصلوا إلى جزيرة أنجوان حوالي القرن الرابع عشر ؛ بفعل الهجرة من بلاد فارس هربًا من هيمنة الزيديين (١٤٥). وتعكس هذه الروايات تعلق هذه الأطراف بالانتساب إلى أشهر مراكز الإسلام بغية التمكن من فرض نفسها وإبراز أصالتها العربية والإسلامية في آن واحد(١٤٦).

ولئن كانت الروايات الشفاهية تلح على الأسباب الدينية في تفسيرها لرحيل جماعات من العرب فسرعان ما كان لجاذبية جزر القمر ومدغشقر تأثير قوي جدًا على استقطاب العديد من المهتمين بتجارة العالم السواحيلي . بيد أن دراسة الرحلات البحرية العربية في غرب المحيط الهندي، ومعرفة وكالات الشرق الأفريقي ووجود تقاليد ثقافية في جزر القمر، وفي شمال غرب مدغشقر وهي ما تتشابه مع تقاليد العالم السواحيلي ، وما تم اكتشافه في مواقع شرق الجزيرة وجنوب شرقها من آثار تشهد شهادة ساطعة على وجود علاقات تجارية بين

البلد والموانئ الأفريقية(١٤٧).

لقد عرفت المدن والجزر الموزعة على الساحل الأفريقى الممتد من مقدشيو إلى سفالة حركة تجارية حتى من قبل استقرار جاليات إسلامية. وهذه الموانئ المتجهة نحو البحر أكثر من اتجاهها نحو الداخل . والتى أخذ ازدهارها يبرز بداية من القرنين الثانى عشر والثالث عشر. وقد لعبت الوكالات التجارية دور محطات بين الجزيرة العربية- بل بين الهند- من ناحية، ومدغشقر وجزر القمر من ناحية أخرى، زد على ذلك أن العديد من النازحين المسلمين الذين كانوا يقدمون إلى هذه البلاد كانوا متشبعين كثيراً بالثقافة السواحلية؛ وكان دورهم أساسياً فى نشر الإسلام فى الجزيرة(١٤٨).

وتتشابه وكالات الشمال الغربى الملجاشى ووكالات القمر مع مدن الساحل لشرق أفريقيا، سواء فى ملامحها أو فى نمط عيش سكانها ، والأطلال المتبقية مع القلاع المحصنة وآثار الجوامع والدور العتيقة التى لا تزال موجودة فى أنجوان بأبوابها المزدانة بزخارفها ؛ لتشهد كلها بحياة طبعها الإسلام بعمق . كما تشهد بالحضارة العربية فى المحطات التجارية فى موتسامودو، وأوانى ودوموونى وسيما (١٤٩). وقد خلف البرتغاليون على الرغم من أرائهم الاستعمارية ، أوصافًا مهمة لحياة موانئ شمال غرب مدغشقر فى بداية القرن السادس عشر من ذلك أنهم كتبوا فى حديثهم عن محطة نوزى لانجانى، إحدى المحطات التجارية الأكثر أهمية : «إن سكانها (سكان لولانجانة) يتألفون من مسلمين هم أكثر تمدنًا وأكثر ثراء من الذين يقطنون كل النقط الأخرى من الساحل ، لأن مساجدهم وجل منازلهم كانت مبنية من الحجر الجيرى ولها سطوح على طريقة كيلوة وممبسة(١٥٠) وقد اكتشف فى موقع ماهيلاكا بقايا من تحصينات شبيهة بتحصينات الساحل الشرقى من أفريقيا. وقامت بالخلجان العميقة التى تكثر فى الشاطئ الشمالى من الجزيرة مثل خلجان امبازيندافا ، وما هاجيمبا. وبونيا سلسلة من الوكالات التجارية (ماهيلاكا ، وسادا، ونوزى، ولانجانى، ونوزى بونيا) لها علاقات متينة بجزر القمر وبأفريقيا وتساهم فى الثقافة البحرية السواحلية(١٥١).

وعلى الرغم من المنافسة الأوروبية بداية من القرن السادس عشر فقد ظلت الجاليات الإسلامية تمارس دورها فى نشاط مدغشقر .

أما عن جزر القمر وبخاصة جزيرة أنجوان فقد استقبلت إندونسيين وبانتو، فإن هؤلاء قد اكتسحتهم موجات متعاقبة من الداخلين فى الإسلام. أصلهم من ساحل شرق أفريقيا (١٥٢).

وتؤلف جاليات المسلمين فى شمال غرب مدغشقر جماعة الأنتالاوتسيه وهى جماعة

والخلاصة :

تشهد هذه الفترة المنوطة بالدراسة أن ساحل شرق أفريقيا وجزر القمر ومدغشقر قد بلغا مرحلة من الازدهار بد أن أرسيت الوكالات التجارية وهى التي انتقلت من موانئ البحر الأحمر خلال فترة الرواج الاقتصادى عصر دولة سلاطين المماليك؛ وهى التى احتضنت التجارة الكارمية خلال فترة ثلاث عقود من الهيمنة الاقتصادية ؛ انعكست علي موانئ الساحل الغربى فى البحر الأحمر فى سواكن ومصوع وعصب . وأصبح ميناء عيذاب واحدا من أعظم موانئ العالم من حيث عدد المترددين عليه، وهو ما جعل دولة سلاطين المماليك تولى الاهتمام بالتوجه المصري نحو الجنوب وأقصد به أمن البحر الأحمر من النظرة الإقليمية واحتواء مملكة المقرة المسيحية فى سياسة الردع العسكرى دون موادعة أو أمان فى بقط لا جدوى منه .

وتنشط الحركة التجارية عبر ساحل عدن ومنطقة شرق أفريقيا وصولاً إلى ذهب سفاله فقد كان لذهب سوفاله الذى تشرف عليه كيلوه الصدارة فى تلك التجارة؛ حيث قدر الإنتاج طيلة هذه القرون بعشرة أطنان سنوياً؛ وكانت المراكب تحمل إلى الساحل منتجات شتى تؤكد المصادر أهميتها ومن ضمنها الودع الغورى والملابس والحلى المصنوعة من الزجاج إذ كانت تباع للأفارقة بأثمان مرتفعة .

إذا كان عصر دولة سلاطين المماليك يمثل أوج الازدهار لتجارة الشرق الإسلامى فقد مثلته هذه الحركة التجارية التى أرست القواعد والأسس التى قامت عليها وكالات المحيط الهندى التى أرسيت فيها أسس ثقافة أفريقية، بنيت عليها بعد ذلك الثقافة السواحلية الغنية. لقد بدأ التطور السياسى والاجتماعى لشعوب الساحل الناطقة بالبانتو يتأثر بقيام التجارة الدولية فى المحيط الهندى؛ وقد تجلى القدر الأكبر من هذا التأثير فى المجال الاقتصادى، حيث أخذت الحياة السياسية والثقافية والدينية تتشرب الأفكار والقيم التى جاء بها المهاجرون من البلدان الإسلامية.

أثبتت الدراسة أنه فى عصر دولة سلاطين المماليك حافظت على إحكام قبضتها على شبكة الطرق البحرية الحيوية فى البحر الأحمر إلى مناطق الساحل الشرقى من القارة وجزر المحيط الهندى وبقدر نجاحها فى الهيمنة الاقتصادية واحتواء تجارة الكارم، فقد أسهمت فى وجود طبقة من التجار الأفارقة مسلمين كانوا أو غير مسلمين لعبوا دوراً فى أسباب التواصل بين

منطقة المحيط الندى ومجتمعات ساحل البحر الأحمر ؛ حتى وصول البرتغاليين واحتكارهم لتجارة التوابل .

وتبرز أهمية جزر القمر ومدغشقر في أنها مزيج من الأفارقة والعرب ، فإن الثقافة المحلية توحد بينهم بفضل الدين الإسلامي .

كما اعتبرت تلك الجزر بمثابة وكالة تجارية لعبت دوراً اقتصادياً فى الوساطة التجارية بين تجارة المحيط الهندى ومراكز البحر الأحمر وخاصة مصر وشبه الجزيرة العربية.

ملاحق البحث

الخرائط والأشكال التوضيحية

شكل رقم (١) : التجارة الداخلية وعبر المحيط للمدن الساحلية بشرق أفريقيا بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر

المصدر : ف . ف . ماتفييف : ص ٤٦٦

شكل رقم (٣)

مدغشــقر : اتجاهات الهجرة والاستيطان . المصدر : ف . ليزوالفيلومانديروزو ، بمعاونة ت . راجاونا وباستخدام أطلس

مدغشقر . س . أياش وأطلس شعوب مدغشقر (ف . رلميانددرازوا) .

ملاحظــات : وصلت آخر موجات الأندونيسيين بين القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وكانت القــاعدة الرئيسية للشعوب المسلمة (سواحيلى وعرب) فى جزر القمر ومنها داروا حول الجزيرة عن طريق الشمال .

عــن : ايزوالفــيلو مــاندروز : مدغشــقر والجزر المجاوره ، م. الرابع ، اليونسكو ١٩٨٨ ، ص ٥٩٦

شكل (٤) الجماعات الإثنية فى مدغشقر

المصــدر : أخــذت هــذه الخريطة عن خريطة مدغشقر الوارده فى Early Kingdoms in Madagascar, 1500 - 1700

ك . كينت : مدغشقر وجزر المحيط الهندى . اليونسكو ١٩٩٧ م . الخامس ، ص ٩٣٩

هوامش البحث

١- يحتل البحر الأحمر الشقة المائية الضيقة التي تفصل بين آسيا وأفريقية، ويقع في أخدود ممتد من جنوبي سورية إلى تنجانيقا ؛ ويمتد مسافة طولها ١٥٠٠ ميل، ويتراوح عرضه ١٩٠ ميل عند مصوع و١٤ ميلا في منطقة باب المندب ويصل عمقه في بعض المواضع أكثر من ٦٠٠٠ قدم انظر: المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ، ج١ ، ص١٦ ؛ علية القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، دار النهضة بالقاهرة ، ١٩٧٦، ص١٠ ، ١١ ؛ محمد حسين الزبيدي : هجرة العرب والمسلمين إلى شرق أفريقيا، بدايتها الأولى، مجلة المؤرخ العربي ، العدد الثالث والعشرون، ١٩٨٣، ص١٠٤ ؛ انظر تعريف أرض الزنج ومنطقة ساحل شرق أفريقية السر سيد أحمد العراقي : أرض الزنج الإسلامية في العصور الوسطى، مجلة كلية الآداب، جامعة أم درمان الإسلامية، العدد الثاني ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤ م، أم درمان، ص٢٥؛ المؤلف نفسه : معالم الحضارة الإسلامية في ساحل شرق أفريقيا في العصور الوسطى، مجلة دراسات أفريقية ، المركز الإسلامي الأفريقي بالخرطوم، العدد الثاني، ١٩٨٦ ، ص٨٣ .

٢- من المرجح أن العرب هم أصحاب تسمية جزر القمر، فيذكر ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» أن «القمر بالضم ثم السكون: جمع أقمر ، وهو الأبيض الشديد البياض، ومنه سمي القمري من الطير.. وقمر بلد بمصر والقمر أيضاً جزيرة في وسط الزنج ، وليس في ذلك البحر جزيرة أكبر منها، فيها عدة مدن وملوك ، كل واحد يخالف الآخر. انظر : الحموي : معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، ج٤ ، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠ ، ص٤٥٠؛ السيد فليفل : التطور التاريخي لجزر القمر، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ٢٠٠٢، ص٤٧ ؛ وجزيرة قنبلو أو مدغشقر هي نفسها جزيرة الأقجية التي أشار إليها الإدريسي الذي عاش في القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد وقال إن «أهلها أخلاط وإن الإسلام غلب عليها» انظر : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نسخة مصورة بجامعة القاهرة بدون تاريخ، ص٣٤ .

٣- يذكر أن ابن فاطمه بلغ ساحل سفالة الزنج، وعرف جيداً جزيرة مدغشقر انظر:

Ferraud, G., Relation de voyages et textls Geographigues Arabes, Persans et turks relatifs a l'Extreme - Orieut du XIII siscles paris 1914, pp. 217-320 .

أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب، العدد ١٣، ط . عالم المعرفة الكويت، ١٩٧٩، ص٧٤ .

٤- أن سكان جزر القمر الأربعة : نجازيجا (أنجزيجة) وأنجوان ومايوت وموهيلي ، مزيج من العرب والجاويين والشيرازيين والأفارقة ، وقد نزلها عرب المنانرة وغيرهم من قبائل عمان، وحضرموت واليمن؛ انظر : سعيد المغيري: جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر ، مصر ١٩٧٩ ، ص٢٠٤ -٣٠٥ ؛ انظر الخريطة شكل رقم (٢) .

٥- انظر : ف. ايزوافيلو ماندروزو : مدغشقر والجزر المجاورة من القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر ، المجلد الرابع اليونسكو. دراسات ووثائق ، ط بيروت ١٩٨٨ ، ص ص٦٠٢-٦٠٣ ؛ وانظر أيضا : ماساو وهنرى و. موتورو : ساحل أفريقيا الشرقى وجزر القمر ، اليونسكو، المجلد الثالث، الطبعة الثانية ١٩٩٧، فى ٦٧٦ .

٦- انظر الخريطة شكل رقم (٤،٢) بملاحق البحث ؛

Verin, P., : les antiquites de l'ile d' Anjauan, B AM (1967 a) v 45, I, pp. 69-80.

٧- أمال العمرى : المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى. جامعة القاهرة، كلية الآثار ١٩٧٤، (مخطوط رسالة دكتوراه) ؛ أبى حامد المقدسى الشافعى: الفوائد النفيسة الباهرة فى بيان حكم شوارع القاهرة فى مذاهب الأئمة الأربعة الزاهرة، تحقيق آمل العمرى، ط . هيئة الآثار ١٩٨٨، ص١١-٢٧ .

٨- مجاهد توفيق الجندى: أهم الوكالات فى مدينة القاهرة ودورها الحضارى، مجلة المؤرخ العربى، العدد التاسع، المجلد الأول مارس ٢٠٠١م، ص٤٤٩ .

٩- محمد عبد الغنى الأشقر : تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

١٠- Chittick, H.N. (1974), kilwa an Islamix trading city on the East African coast, 2 vol (Nairobi : British Institute in Eastern Africa.

١١- قامت دولة سلاطين المماليك نتيجة لهزيمة حملة لويس التاسع على مصر فى منتصف القرن الثالث عشر، ثم تدعم وجودها نتيجة للانتصار على المغول فى معركة عين جالوت بعد ذلك بعشر سنوات ؛ ومنذ ذلك الحين بدأت تفرض سيادتها على المنطقة العربية لقتال الصليبيين ثم اكتسبت مكانتها بعد إحياء الخلافة العباسية فى القاهرة انظر: قاسم عبده قاسم: علاقة مصر بالحبشه فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م) ؛ (العرب فى أفريقيا الجذور التاريخية والواقع المعاصر)، دار الثقافة ١٩٨٧، ص٥٨ .

١٢- قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك . الطبعة الثانية ١٩٨٣، ص١٦-١٧ .

١٣- ابن خلدون: المقدمة، ط. القاهرة ١٣٢٢ / ١٩٠٤ ، ص٤٥٢ .

١٤- عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، دراسة شاملة للنظم السياسية، ج١ ، الأنجلو المصرية ١٩٧٩، ص١٢٣ .

١٥- القيساريات من الأبنية التى شاع استعمالها فى مصر فى العصر المملوكى للأغراض التجارية . إذ أن قياسر التجار للكسب واستثمار الأموال، وتعلوها الرباع للتجار والصناع . كما أنها مسقوفه . وهى غير السوق الذى لايشترط فيه أن يكون مسقوفًا : وفى القياسر تنتشر المصانع الصغيرة ، وإن كانت كذلك تعرض السلع للبيع بالجملة ولكل فئة من التجار أو الصناع مكان معين، وقد ظهرت فى الشام قبل مصر ولعلها مأخوذة من كلمة قيصرية Cesaire ومن أشهر القيساريات: قيسارية الشرب وقيسارية الفاضل وقيسارية بيبرس وقيسارية بكتمر . نعيم زكى فهمى: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣، ص٢٩٥-٢٩٦ ؛ صالح لمعى مصطفى: التراث الإسلامى المعمارى فى مصر بيروت ١٩٧٥، ص٧٥ ؛ كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية فى مصر . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠، ص٥٤ ؛ سعد زغلول عبد الحميد: العمارة والفنون فى دولة الإسلام، الإسكندرية، منشأة المعارف ١٩٨٦، ص٢٠٩ ؛ مجاهد توفيق الجندى: أهم الوكالات فى مدينة القاهرة ودورها الحضارى، مجلة المؤرخ العربى ، العدد التاسع، المجلد الأول ٢٠٠١، ص٤٩٧ (حاشية ١٧) . ويشير المقريزى أن القياسر لابد أن تكون مسقوفة أما التى لايبنى فوقها مساكن لتكون مكشوفة . الخطط ج٢ ، ص٨٨ ، ٨٩ ؛ محمد عبد الغنى الأشقر : مرجع سابق، ص٢١٢ .

١٦- «الوكالات» ظهرت مبانيها لأول مرة فى عهد الفاطميين لتعنى أماكن للتجار الشرقيين ، وكثرت فى أيام المماليك وإحداها كانت تشتمل على ثلاثمائة وستين حجرة للنوم فوق المخازن، والأسواق مجموعة من حوانيت قد احتوى إحداها على اثنى عشر ألف حانوت . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٣٢٢ ؛ ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر. ج١ ، الانجلو المصرية ١٩٧٣، ص١٧١؛ نفسه : نظم دولة سلاطين المماليك ، ج١ ص١٢٣ ؛ رفعت موسى محمد: الوكالات والبيوت الإسلامية فى مصر العثمانية، الدار المصرية اللبنانية ، ط. أولى ١٩٩٣، ص٥٢ وما بعدها ، انظر شكل رقم (٥) بملحق البحث .

١٧- اسم الفندق مأخوذ من الكلمة اليونانية Pandnkeium نقلت إلى اللغة الإيطالية لتدل على المبنى الذى أسفله مخازن وأعلاه حجرات نوم لسكنى الأجانب . انظر: الخطط، ٢ ، ص١٤٩ وما بعدها ؛ نعيم زكى: مرجع سابق ، ص٢٩٠؛ صبحى لبيب : التجارة الكارمية المجلة التاريخية المصرية، المجلد، ١٤ ، ١٩٦٨ ، ص١٢ .

١٨- أما الأجانب من العرب والشرقيين فكانت لهم فنادق فى القاهرة وأهمها : فندق الملك السعيد بدار الرمان وتعلوه رباع واسعة، وفندق عمارة حيث نزل تجار الشام، وفندق دار التفاح لتجارة التجزئة فى سلع الفاكهة الواردة من الشام والتى تصله من وكالة قوصون وحوانيت الفنادق مسقوفة ، وكذلك فندق مسرور ظل باقيًا حتى أواخر العصور الوسطى، وللتجار الكارمية فندق بالقاهرة على شاطئ

النيل تجاه الفسطاط، وقد أوقف الفندق لسكناهم انظر: المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص١٥٢؛ ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ط. بولاق ١٨٩٣ ، ج٤ ص٤٠ ؛ محمد جمال الدين سرور: دولة بنى قلاوون، القاهرة ١٩٤٧، ص٣٢٦ ؛ نعيم زكى : مرجع سابق، ص٢٩٣ .

١٩- لم يكن للأجانب فنادق بالقاهرة ، والحالة الوحيدة التى سمح فيها بإقامة فندق كان لتجار بيزا عام ١١٥٤، كما كان للسياح والحجاج المسيحيين المارين بالقاهرة وكذلك التجار خان خاص لمبيتهم وليس فندقًا بالمعنى المعروف بالإسكندرية وبه مكان لأمتعتهم وسلعهم وقلة هذه الأبنية للأجانب بالقاهرة ترجع إلى أن السلاطين كانوا يحرمون عليهم شراء التوابل والسلع الشرقية من أسواق القاهرة لذا لم يكن هناك داع لوجودهم فترة طويلة بالقاهرة . انظر : بيبرس المنصورى الدوادارى : التحفة المملوكية فى تاريخ الهجرة؛ نشر Pomer ١٩٦٠ ، وتوجد نسخة خطية وهى الجزء التاسع بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٨، ٢٤، وحققته زبيدة محمد عطا، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٧٢، ص٤١؛ ماجد: التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص٢٩٢ .

٢٠- ابن بطوطة : الرحلة، ط. القاهرة ١٩٦٦، ص١٣١ .

٢١- انظر ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، ص٢٩٣ .

٢٢- زبدة، ص٢٨ .

٢٣- نسبة إلى الأمير جهاركس الخليلى ات ٧٩١ / ١٣٣٩ أحد أمراء برقوق : الخطط، ٢، ص٩٤ ، ١٥٠؛ نعيم زكى : طرق التجارة ، ص٢٩٥ .

٢٤- انظر Guest and Richmond Miesr in the fifteent century , J.R.S; 1903 , p. 79 .

ابن بطوطة : الرحلة ، ص١٦ ، ص٢٤ ؛ وانظر أيضا ما ذكره عن مدينة القاهرة ص٢١-٢٥ .

٢٥- انظر : آق بغا الخاسكى (كاتب السلطان الغورى) : التحفة الفاخرة فى ذكر رسوم خطط القاهرة ، مخطوط (فى B.N) برقم ٢٢٦٥ .

٢٦- يصف بيلوتى الكريتى Pilote de crete مدينة القاهرة بأنها أكبر مدينة فى الدنيا، انظر : Dopp (P.H) L'Egypt au commencement du quanzieme siede (le Caire 1650), p. 3 .

٢٧- ابن بطوطة : الرحلة ، ص٢١-٢٥ .

٢٨- طافور : رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى ، دار المعارف ١٩٦٨ ، ص٩٧ ؛ قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، ص٣٢ .

٢٩- رحلة ابن بطوطة ، ص٣١ ؛ المقريزى: الخطط ، ج١ ، ص١٦٢ .

٣٠- انظر : ابن دُقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ج٥ ، صفحات ٢٥-٢٦ ، ٣٠ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٧١ ، ٨١-٨٢ ، ٩٩-١٠١ .

٣١- أحمد السيد دراج: عيذاب ، مجلة نهضة أفريقيا، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٥٨ ، العدد التاسع والعاشر، ص٥٥ ؛ بشير إبراهيم بشير: الفاطميون والبحر الأحمر مجلة كلية الآداب ، جامعة الخرطوم، العدد الأول ١٩٧٢ ، ص١٤٩ ، ١٥٠؛ كرم الصاوى باز: ممالك النوبة فى العصر المملوكى اضمحلالها وسقوطها وأثره فى انتشار الإسلام فى سودان وادى النيل ٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٦م؛ رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد الدراسات الأفريقية جامعة القاهرة ١٩٩١، ص١٤ ، ٤٧ .

٣٢- إقليم قوص فى العصر الإسلامى مترامى الأطراف تبلغ مساحته فى الطول كما يقول الادفوى - مسيرة اثنى عشر يومًا سير الجمال السير المعتاد، وأما عرضه فثلاث ساعات وأكثر وأقل بحسب العامر من الأماكن ويمتد شرقًا حتى يصل إلى البحر الأحمر ، وغربًا حتى الواح أى (الواحات) ويتجه شمالاً حتى مرج بنى هميم المتصل بأراضى جرجا من عمل أخميم وينتهى جنوبًا بمدينة أسوان. انظر: الادفوى: الطالع السعيد - الجامع لأسماء نجباء الصعيد . نشر سعد محمد حسن القاهرة ١٩٦٦، ص٧-٩ ؛ ابن مماتى : قوانين الدواوين ، تحقيق جورج سوريال عطية، القاهرة ١٩٤٣ ، ص١٠٨ ، ١٠٩؛ عبدالله كامل مرسى عبده: المنشآت التجارية والصناعية بمدينة قوص منذ العصر العثمانى حتى نهاية القرن ١٣هـ / ١٩م مجلة المؤرخ العربى العدد ٩ المجلد الأول ٢٠٠١ ، ص٣١٧ ؛ محمد عبده العجاجى : قوص فى التاريخ الإسلامى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص١٥ .

٣٣- رحلة ابن بطوطة ، ص٣١؛ ياقوت الحموى : معجم البلدان ، ج١ ، بيروت ١٩٥٧ ، ص١٩١ .

٣٤- ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، ص٢٩٦ .

٣٥- ابن حبيب : درة الأسلاك فى دولة الأتراك مخطوط فى (BN) برقم ٤٨٦٠، ١ ورقة ٩٠ ب .

٣٦- انظر: ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج٢ ، بولاق ١٣١٢هـ، ص٢٤ .

٣٧- الخطط، ٢ ، ص١٣٣ ، ١٤١ .

٣٨- ماجد : مرجع سابق، ص٢٩٦ .

٣٩- الخطط ، ٣ ، ص١٣٣ .

٤٠- بنى فى ٧١٣ / ١٣١٣ ، وانتهى من بنائه فى ٧١٤ / ١٣١٤ نفسه، ٢ ص٢٣٢ ، ٢٤٠-٢٤١ .

٤١- الخطط ، ٣ ص٢٤٣ بناه الأشرف خليل فى عام ٦٩٢ / ١٢٩٣ .

٤٢- نفسه، ٣ ، ص٢٣١ ؛ القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الانشاء ط. القاهرة ١٩١٣ ، ج٢، ٣٦٨؛ زبدة ، ص١٢١ .

٤٣- الخطط، ٣ ، ص٢٣٢ ؛ جمع خاناه وهو اسم فارسى غلب عليها نفسه، ٣ ص٢٣٣ .

صبح ٤، ص٩ ، وبتفصيل انظر دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر ، ٢ ، ص١٥ وما بعدها مثل الشراب خاناه ، والطشت خاناه، والسلاح خاناه ، والطبلخاناه، والشكار خاناه والحوائج خاناه .

٤٤- الخالدى: بهاء المقصد الرفيع المنشأ الهادى لصناعة الإنشا، مخطوط(B.N) ، برقم ٤٣٩ ؛ ونسخة مصورة، دار الكتب المصرية برقمى ٢١٠٣١ ، ٢٤٠٤٥ ، ورقة ١٢٩ أ.

٤٥- الرنك : وجمعه رنوك وهو الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له . ويقول القلقشندى: «ومن عادة كل أمير كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه بحسب ما يختاره ويؤثره ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطابخ السكر وشئون الغلال والأملاك والمراكب وغير ذلك : صبح الأعشى ، ص ، ص٦١ ، ٦٢ ؛ محمود نديم: الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى البحرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣ ، ص٢١٦ .

٤٦- انظر: عطية القوصى : وثائق الجنيزة وأهميتها فى دراسة تاريخ مصر الإسلامية ، مقال بمجلة جامعة القاهرة ، بالخرطوم العدد ٥ ، ١٩٧٤ ، ص١٨٥-١٩٠ ؛ نفسه : أضواء جديدة على تجارة الكارم، المجلة التاريخية المصرية المجلد السادس ١٩٥٧ ، ص٣٣ ؛ أيمن فؤاد سيد : عرض كتاب مجتمع البحر الأحمر المتوسط لجواتين، مجلة المؤرخ المصرى، كلية الآداب- جامعة القاهرة العدد ١، ١٩٨٨ ، ص٣٤٥-٣٤٩ .

٤٧- انظر : نعيم زكى: طرق التجارة الدولية ، ص٢٨٧ ؛ صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، ص١٢ .

٤٨- تسميهم الكتابات بالتعميم التجار المسلمين وبالتخصيص التجار المصريين . الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ أهل الزمان، تحقيق حسن حبشى، القاهرة ١٩٧٠، ٢٥ ، ص٢٢٥ ، ابن حجر : ابناء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن حبشى القاهرة ١٩٦٩، ج٣ ، ص٤٢ .

٤٩- شوقى ضيف : العلاقات التجارية بين مصر والدول الأفريقية فى عصر سلاطين المماليك، ماجستير ، جامعة القاهرة ١٩٧٥ ، ص١٤٥؛ أحمد عبد الحميد خفاجى : طبقة التجار فى مصر المملوكية، مجلة كلية الآداب ، جامعة طنطا ، العدد ١٩٨٢ ، ص٦٥ .

٥٠- زين العابدين عبد الحميد السراج : دولة كانم الإسلامية، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٧٥ ، ص١٦٤ ؛ سعيد عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص٢٠٩ ؛ Lewis B: The Fatimids and the Raute to india, RFSE unin, Istambul , 1949 x 1 p. 53 .

ماجد : طومان باى آخر سلاطين المماليك فى مصر، القاهرة ١٩٧٨ ، ص٧٣ .

٥١- عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب، ترجمة فيليب صابر سيف ، القاهرة ١٩٧٢، ص١٥٣-١٨٠ .

٥٢- ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، لندن ١٨٨٩، هـ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ويذكر أنهم فى العصور الوسطى كانوا يركبون البحر الشرقى (البحر الأحمر) من القلزم إلى الجار وجده ثم يمضون إلى السند والهند ؛ Goitein : Jews and Arabs their Contacts through the Ages, New York , 1955 , p. 115 .

انظر عطية القوصى : مرجع سابق، ص٣٥ .

٥٣- صبح ، ص ص٣٢ .

٥٤- نفسه .

٥٥- . A.S. Atiya, the Crusades in later Middle Ages London 1938 , pp. 115 , 174 كرم حسن العلى: نيابة دمشق فى نهاية عهد المماليك ، رسالة ماجستير معهد البحوث والدراسات العربية، ١٧٨، ص٢٢٥ .

٥٦- القلقشندى: صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٦٨ : المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص٣٢٧ ؛ ماجد : التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر، ص٢٨٤ .

٥٧- صبح ، ص٥ ، ص١٠ ، ١١ ، المقريزى: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشه ، ص٣٥ : ابن الديبع : بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد ، تحقيق عبدالله الحبشى، اليمن ١٩٧٩، ص٣ .

٥٨- صبح ، ١١ ، ص٣٢٠ .

٥٩- ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار فى أخبار ملوك مالك الأمصار، ج٥ ، ورقة ٩٨ .

٦٠- صبح ، ٨ ، ص٧٦ ، ٧٧ ، يحيى بن الحسين : غاية الأمانى فى أخبر القطر اليمانى، ج٢ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

٦١- نقولا زيادة : الرحالة العرب ، القاهرة ١٩٥٦، ص١٨١ ؛ محمد زيتون: الصين والعرب، القاهرة ١٩٦٤، ص١٢٠ .

٦٢- انظر : محمد عبد الغنى الأشقر : مرجع سابق، ص٣٦٢ ؛ ماجد : المرجع نفسه، ص٢٨٥ .

٦٣- صبح ، ٨ ، ص٧٦ ، ٧٧ .

٦٤- الخطط، ١ ، ص٣٢٧ .

٦٥- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٧٠، ج١٤ ص٣٦٧ ، ٣٦٩ .

٦٦- يستدل على ذلك من نقش على جامع جانى بك الذى تولاها فى الفترة من ٨٤٦-٨٤٩، ١٤٤٢-١٥٤٥ . انظر : ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المعروف بتاريخ

المستبصر نشرة أوسكار لوفجرين، ١٩٥٤، ص٥١، القلقشندي : صبح الأعشى، ج٤ ص٢٥٨؛ عبد القادر الجدي: السلاح والعدة في تاريخ جده ، ١٩٧٧، ص٧٨ .

٦٧- أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص١٥٩؛ شوقي عثمان : تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، ص٩١، ٩٢ وما بعدها .

٦٨- المقريزي : الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص٣٥؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٨، ص١٢٨ .

٦٩- الرحلة، ص١٦٩، ١٧٠ ، بدر الدين الصيني: العلاقات بين العرب والصين، ص٢٤١ .

٧٠- زين العابدين عبد الحميد السراج : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مدن الساحل الصومالي فيما بين القرنين ٦-٨هـ / ١٢-١٤م، رسالة دكتوراه جامعة القاهرة، ١٩٨٦، ص٩٦-٩٧ .

٧١- المغيري: جهينة الأخبار، ص٨٦ ؛ محمود العويري: ساحل شرق أفريقيا في فجر الإسلام حتى الغزو البرتغالي دار المعارف، ط. ١٩٨٦، ص١١٨ .

٧٢- ممبسة أو ممباسة كانت في العصر الوسيط تعرف باسم غنفويا، وهو اسم سواحيلي، وكانت تسمى أيضا باسم امفتيا ومعناها حرب، وربما لكثرة حروبها مع المدن الأخرى، وذكر أن الذي سماها ممباسة البرتغاليون على اسم قائد من قوادهم ، انظر سعيدي المغيري، ص٨٤ ووردت في وثيقة كلوة العربية ص٢٧، ٣٠، ٣٤ باسم منفسة.

٧٣- لمزيد من الدراسة انظر : كرم الصاوي باز : كلوة مركز الثقافة العربية عهد أسرة المهدلي العربية، بحث قدم ضمن ندوة المراكز الثقافية والعلمية في العالم العربي عبر العصور ٢٠٠١م.

٧٤- ماركو بولو : رحلات ماركو بولو، ترجمة عبد العزيز جاويد ، مصر ١٩٧٧، ص٣٢٩ ؛ أنور عبد العليم، مرجع سابق، ص٧٣ .

٧٥- ابن البيطار : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية القاهرة ١٢٩١هـ، ج٣ ، ص ١٣٤؛ نعيم زكي: مرجع سابق، ص٢٣٠ .

٧٦- ماركوبولو : مصدر سابق، ص٣٢٧ ، المغيري: جهينة الأخبار، ص١٥؛ الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، ص١٦٢ .

٧٧- CF: Cuest . R " Zufarin in the Middle ages in Islamic culture 1935 , vol , p. 407 .

٧٨- انظر : أنور عبد العليم : الملاحة وعلوم البحار، ص٨٢-٨٤ .

٧٩- انظر: المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١ ط ١٢٨٣ هـ، ص٨٧ ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة ، ص٣٥ ؛ ياقوت : معجم البلدان، ج٨ ، ص١٢٨ .

٨٠- أبو مخرمة : تاريخ ثغر عدن، ط ليدن ١٩٣٦ ، ج١ ، ص٥٦-٥٧ .

٨١- العمرى: مسالك الأبصار، ج٥ ، ورقة ٩٨ .

٨٢- القلقشندى : صبح الأعشى، ج٥ ، ص٩، ١٠؛ ابن الديبع: بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبدالله الحبشى ، اليمن ١٩٧٩ ، ص٢ .

٨٣- ابن المجاور : صفة بلاط اليمن، ص٥١ ، القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٧٥ ، ٤٧٦ ؛ محمد عبد الغنى: مرجع سابق، ص٣١٢ .

٨٤- صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٧٥، ٤٧٦ .

٨٥- القلقشندى: صبح الأعشى، ج٢ ، ص٣٩٢ .

٨٦- ابن بطوطة: الرحلة ، ص١٩٦ .

٨٧- نعيم زكى : طرق التجارة ، ص١٤٢ ، محمد محمد أمين: العرب والدعوة الإسلامية فى الصومال فى العصور الوسطى، مقال بمجلة الدارة، العدد٢ ، ١٩٨٤ ، ص٢١٤؛ محمد عبد الغنى : مرجع سابق، ص٣١٦ .

٨٨- أبى الفدا: تقويم البلدان، باريس ١٨٤٠، ص٢٧٠ ، القلقشندى: صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٣٣٦ .

٨٩- CF: Y.Kanal, Ed , Monumenta cartpgraphica Africa et Aegyptie tome, LV, Fax1, p. 108 .

٩٠- المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ، ص٥٥٠، ٥٥٨ ؛ صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص٢١؛ بشير إبراهيم بشير : عيذاب حياتها الدينية والأدبية مجلة الدراسات السودانية ، العدد ٢، يوليو ١٩٧٩، ص٥٩ .

٩١- رحلة ابن جبير ، ص٤٣-٤٤ ؛ خطط المقريزى: ج١ ، ص٢٠٤ ؛ صبحى لبيب : التجارة الكارمية ، ص١٩ ؛ نفس المؤلف: سياسة مصر التجارية ص١٣٩؛ توفيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط، المجلة التاريخية المصرية، العدد السادس ١٩٥٧ ، ص١٩ .

٩٢- طافور : رحلة طافور فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى، ترجمة حسن حبشى، مصر ١٩٦٨٧، ص٩٧ ؛ شوقى عثمان : مرجع سابق، ص٢٠٦ .

٩٣- انظر: فاروق عثمان أباظه : أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، الاسكندرية ١٩٨٨، ص١١٣ .

٩٤- بازل دافيد سون: أفريقيا تحت أضواء جديدة. ترجمة جمال أحمد ، بيروت، ص ٢٦٣، ٢٦٤ ، جورج

فاضلو حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة ١٩٥٨، ص٢٢١ ، Basil Davidson, the lost cities of Africa, USA, 1959, p. 190 .

٩٥- أخذ د. طرخان هذه الفقرة كوبلاند فى كتابه East Africa and its invaders ولم يحاول الرد عليها، فالعرب لم يكونوا غزاه لشرق أفريقيا، حيث لم نجد فى المصادر التاريخية ما يفيد وصول قوة حربية عربية إلى الساحل الشرقى، كما لم نجد بها ما يدل على انعزال العرب الذين استقروا بالشاطئ عن الأفريقيين. بل تخبرنا تلك المصادر بأنه حدث تزاوج بين العرب وأهل الساحل، كما اعتنقوا ديانة العرب واستعاروا خطهم رسما لهم، فالإسلام يوحد بين الأمم والأجناس لايفرق بينهما، كما يذيب الفوارق بين الطبقات فالأفضلية فى الإسلام للتقوى لا للجاه والسلطة.

انظر: إبراهيم طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية فى الحبشة، مجلة الجمعية التاريخية، عدد ٨، سنة ١٩٥٩، ص٤٤؛ شوقى عثمان : مرجع سابق، ص٦٣ .

٩٦- Richard W. Hull, Munyakare African civilization before the Batururee New York , p. 66 .

٩٧- زنجبار : كلمة عربية محرفة أصلها بر الزنج، ويقال لها باللغة السواحلية (أنفوجاء) وهى كلمة مركبة من كلمتين أنفو ومعناها بالعربية (المنسف) و (وجاء بمعنى امتلأ وهى جزيرة تبعد عن البر الأفريقى بمسافة خمسة وعشرين ميلاً، وجنوب الجزيرة الخضراء (بمبا) بحوالى ٣٢ إلى ٣٥ ميلاً ، وشمال دار السلام بمسافة ٢٩ ميلاً، ويبلغ طولها ٥٢٤ ميلاً وعرضها ٢٤ ميلاً، ومساحتها ٦٤٠٠ ميلاً مربعًا، وكانت تسمى فى القرون الوسطى، منشونيا أو منشونياسى ولايعرف معنى هذا الاسم انظر: سعيد المغيرى: جهينة الأخبار، ص١٥ ، ١٦؛ سليمان الشيبانى : مملكة زنجبار ، بدون تاريخ ، ص١٨ ، ٥٩؛ انظر الخريطة شكل رقم (٢) .

٩٨- انظر : ما تفيف : تطور الحضارة السواحلية ، اليونسكو، المجلد الرابع ، ١٩٨٨، ص٤٥٢ .

٩٩- انظر : بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ط ص٣٧ ؛ Radah kunud Indian Shipping , Bombay , ND, p. 143 .

١٠٠- انظر : شوقى عثمان : مرجع سابق، ص٦٥ .

١٠١- سليمان عبد الغنى المالكى : دور العرب وتأثيرهم فى شرق أفريقيا ، (ندوة العرب فى أفريقيا) القاهرة ١٩٨٧، ص١٣٠؛ حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية فى أفريقيا، ط. دار الفكر العربى، ص٣٥٩ .

١٠٢- شوقي عثمان : مرجع سابق ص٦٨ .

١٠٣- يان فانسنيا: المأثورات الشفاهية، ترجمة أحمد مرسي، القاهرة ١٩٨١، ص٤٥ .

١٠٤- Musa H.L. Galaal, Histarical Relations between the Horn of Africe and the Persian Gulf and the Indian ocean islans through islam, in histarical Relations across the Insian ocean, unesco 1980, pp. 26-30 .

١٠٥- يان فانسنيا : المأثورات الشفاهية، ص٢٩، ٣٠ .

١٠٦- Musa H.L. : Ibid, pp. 25-26 .

١٠٧- انظر : ف ف ناتفييف : تطور الحضارة السواحلية، ص٤٥٣ ، ٤٥٤ .

١٠٨- انظر : محمد حمزة إسماعيل : النقوش الاثارية مصدراً للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، المجلد الأول، مكتبة زاهر الشرق ٢٠٠٢ م، ص١٣٥ . انظر ملحق بحث شكل (٦)، (٧) .

١٠٩- نفسه ، ص١٣٦ . انظر شكل (٨) بملحق البحث .

١١٠- Ravaisse , P., Steles et inscriptions Arabe du Harrar in, Azais, Cinq Annees, pp. 288-292 , 296-297 , 300 , 303 , 707 , Pis , xxv - xxix ; Trimingham in Ethiopia , oxford (1952), p. 63 .

انظر شكل (٩) بملحق البحث .

١١١- Azais , p., Cinq Annees de Recherches Archeologiques en Ethiopie, Paris , 1931 , pp. 283-309 .

١١٢- محمد حمزة : مرجع سابق، ج١ ، ص١٣٦ .

١١٣- رأى المؤرخ البرتغالي دي باروس عن جيان: وثائق تاريخية وجغرافية من أفريقية الشرقية، ترجمة يوسف كمال القاهرة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٧ م، ص ص٨٤-٨٦ ، ٩٤ .

١١٤- Hichens, W., Islam in East Africa in Islam to day , London 1962 , p. 117 .

وانظر : المغيري : جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٧٩، ص٤٠ .

١١٥- Marsh , Z, Kingsnorth , G.W, A history of East Africa, An introductory Survery 4ed combridge (1972), pp. 21-22 .

١١٦- محمود الحويري: ساحل شرق أفريقية في فجر الإسلام حتى النزو البرتغالي، القاهرة، دار المعارف ١٩٨٦، ص٢٨ : محمد حمزة : نفسه ، ص١٣٦-١٣٧ .

١١٧- المقيري: جهينة الأخبار، ص ص٠٤-٤٢ ، الحويري : ساحل شرق أفريقية، ص١١٥ .

١١٨- ابن بطوطه : الرحلة ، ج٢، ص١٢١-١٢٣ ، محمد حمزة : نفسه، ص١٣٧ ،

Garlake, P.S. the Early Islamix Architecture of the east African Coast Nairobi , London 1966, pp . 15-112 .

Chittick , N., Kilwa , an Islamic trading city of the East African Coast , 2 vols Nairobi , (1974), vol, 1, pp. 27-254 , vol 11, pp. 259-296 ; the Coast of East Africa, in : The African Iron Age Edited by , P.L., Shinnie , oxford , clarendon 1971 , pp. 108-141 .

١١٩- الفاسى ، محمد هريك ، إيقان، مراحل تطور الإسلام وانتشاره فى أفريقيا ، تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو المجلد الثالث ، ١٩٩٤ ، ص١١٠ .

١٢٠- انظر : تشيرى: العلاقات بين أثيوبيا (الحبشة) والعالم الاسلامى، مجلد ٣، ص٢٦٨ (تاريخ أفريقيا العام) : محمد حمزة ، نفسه، ص١٣٩ .

١٢١- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، ج٤ القاهرة ١٩٦٤ ، ص١١٢-١١٣ : ابن الجوزى: المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، ج٦ ، بيروت ١٩٩٢ ، ص٢٩٥-٢٩٦ : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، مجلد ٢ ، بيروت ١٩٨٧ ، ص٥٦٦ : محمد حمزة : نفسه، ص١٣٨ .

١٢٢- ابراهيم طرخان : الإسلام والممالك الإسلامية فى الحبشة، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٨، القاهرة ١٩٥٩ ، ص٢٢٨-٢٩١ .

١٢٣- Combe, Repertoire , Tome 1, No 2526 , 2528 , 2554 , 2615 , 2633 , 2634 , 2660 , 2667 , 2676 , 2695 , 2696 , 2697 , 2770 , 2771 , 2782 , 2786 , 2747 , 2754 , 2759 , 2763 , 2766 , 2768 .

وعن إقليم السوس ومواضعه فى شرق وغرب العالم الإسلامى انظر كل من مادة السوس ومادة السوس الأقصى فى دائرة المعارف الإسلامية المصرية.

انظر الأشكال رقم (١٠ ، ١١) (١٢، ١٣) بملحق البحث .

١٢٤- انظر: عبد الفتاح مقلد الغنيمى: الإسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا، ١٩٩٨ ، ص٢٢٦ وما بعدها، انظر الخريطة شكل رقم (١) .

١٢٥- كينت : مدغشقر وجزر المحيط الهندى اليونسكو ، المجلد الخامس ١٩٩٧ ، ص٩٢٧ ، ٩٢٨ .

١٢٦- CF: Reusch R.: History of East Africa, New York 1961 , p. 125 Freeman : The history of the African Oxford 1962 , p. .88.

١٢٧- ترمنجهام : الإسلام فى شرق أفريقيا، الانجلو المصرية، ط١ ، ١٩٧٢ ، ص٩، محمود الحويرى: مرجع سابق ، ص١١٨ ؛ ف.ف ماتفييف : مرجع سابق، ص٤٦٤ .

١٢٨- ماتفييف: مرجع سابق، ص٤٦٤ .

١٢٩- CF. Kirkman , J.S. (1954) , the Arab city of Gedi : excavations at the great Mosque architecture and finds, London , oup , pp. 72-79 .

١٣٠- الإدريسى : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ط. بيروت ١٩٨٩، ص٦٠ ، ٦١ ، ريتشارد هول : إمبراطوريات الرياح الموسمية ، ترجمة كامل يوسف حسين، الطبعة الأولى ١٩٩٩، ص٥٩ .

١٣١- Chittick, H.N. (1965)) , the Shirazi colonisation of East Africa, J A H. 6,3, pp. 275-94 .

١٣٢- CF. Chittick H.N (1974) Kilwa an Islamic trading city on the East of African coast , p. 131 .

١٣٣- انظر : ف ف . ما تفييف : مرجع سابق، ص٤٦٤ .

١٣٤- تيشارد هول : مرجع سابق، ص٦٦ ، ٦٧ .

١٣٥- المقريزى : السلوك ، ج١ ص٨٩٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٣، ص٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ج٤ ص٣٢ ، ج٥ ص٢٨٠ ، ٢٨١ .

١٣٦- تشانغ زون بان : الاتصالات الودية المتبادلة بين الصين وعمان عبر التاريخ، مسقط ١٩٨١، ص١٢-١٣ .

١٣٧- ابن المجاور: تاريخ المستنصر ، ج١ ، ص١١٦ ١١٧ .

زين العابدين: مرجع سابق، ص١٠٠ ، ١٠١ .

١٣٨- ر. ك كينت : مدغشقر وجزر المحيط الهندى، ص٩٣٦ ، ٩٣٧ .

١٣٩- نعيم زكى : مرجع سابق، ص٢٠٠،٢٠١ .

١٤٠- زين العابدين : مرجع سابق، ص١٢٢ .

١٤١- ج. ديفيس .، لبيب : أفريقيا من خلال العلاقات بين القارات، اليونسكو المجلد الرابع، ص٦٥٤ ، ٦٥٥ .

١٤٢- انظر : Chittick : Op. cit, p. 21-38 .

١٤٣- ايزوافيلو ماندروزو : مدغشقر والجزر المجاوره ، من القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر، اليونسكو ١٩٨٨ المجلد الرابع ص٦٠٢ .

١٤٤- المرجع نفسه ، ص٦٠٢ ، انظر الخريطة شكل رقم (٤) .

Robineau , C (1962) " L, Islamaux Comors : Une etude culturelle de' l;ile d' An- -١٤٥
jougn " in p. Verin , Arabes et islamises a Madagascar et dans l'ocean indien (Tra-
nanrive , Revue de Madagascar , pp. 39-56 .

١٤٦- نلاحظ أن الميل إلى الانتساب إلى أصل عربي شريف ظاهرة عند جل الأسر الحاكمة التي أسلمت في أفريقيا الشرقية ، وبلاد السودان.

١٤٧- انظر: باكولي دومينيكيني- راميارمانانا : مدغشقر اليونسكو، المجلد الثالث ١٩٩٧، ص٧٧١، ٧٩٩ .

١٤٨- انظر ايزوافيلو ماندروزو : مرجع سابق، ص٦٠٤ .

Poirier C. (1954) : Terre d' Islam en mer malgache B.A.M., pp. 71-116 .-١٤٩

١٥٠- ايزوافيلو ماندروزو : مرجع سابق، ص٦٠٤ .

١٥١- انظر : ب فيرين، في اليونسكو، «تاريخ أفريقيا» العام دراسات ووثائق ، رقم ٣، ١٩٨٠ .

١٥٢- كينت : مدغشقر وجزر المحيط الهندي، ص٩٢٨ وما بعدها: انظر الخريطة شكل رقم (٣) .

Mollat, M (1980) Histarical Cantacts of Africa and Madagascar with south and -١٥٣
south east Asia : The role of the Indian Ocean , in unesco (1980) pp. 45-60 , G.S.P.
FREEMAN - GRENVILLE: The Medieval History of the Coast of tanganyika, London oxford university press 1962, p. 80-98 .

د. كرم حلمى فرحات(*)

الكتابة التاريخية والنقد التاريخى فى مخطوطة

التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان

للقاضى محمد بن يحيى الأندلسى ت ٧٤١هـ

مقدمة :

إن التاريخ الإسلامى هو تاريخ هذا الدين الواحد وهو الإسلام ، بل هو تاريخ تطبيق هذا الدين، ومن هنا تأتى العلاقة بين التاريخ والدين وهى علاقة وثيقة ... فالتاريخ الإسلامى يروى لنا تاريخ العقيدة الصحيحة.

إن الذين يكتبون ويدرسون التاريخ بمعزل عن العلوم الشرعية الإسلامية يجردون الدراسات التاريخية من التصور العقدى الإسلامى ، بل ويقطعون الصلة الوثيقة بين التاريخ والدين، رغم أن التاريخ هو خادم للدين وعلومه الشرعية.

فالتاريخ الإسلامى هو تاريخ تطبيق الشريعة الإسلامية التطبيق الواقعى طالما كان بها الالتزام ، إنه تاريخ الأمم والشعوب التى كانت تعيش بالإسلام وعلى الإسلام ، وكل انحراف عن الطريق السوى أصاب هذا التاريخ كان نتيجة للانحراف عن تلك الشريعة الربانية فدراسة التاريخ هى دراسة للإسلام من الناحية التطبيقية ، وهى دراسة للذين أحسنوا له؛ وللذين أساءوا إليه من داخل الأمة أو خارجها .

نحن بصدد كتاب التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان «رضى الله عنه» للقاضى محمد بن يحيى الأندلسى، صنفه فى سيرة الخليفة الثالث عثمان بن عفان «رضى الله عنه»،

---

* مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية معهد الدراسات والبحوث الآسيوية جامعة الزقازيق.

في وقت غابت فيه الأقلام التى تكتب عن سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، وما حاك بفترته من فتن، ليس فى وقت المؤلف فحسب ، ولكن فيما كان قبله وبعده. حيث عاش هذا المؤلف فى القرن الثامن الهجرى.

إن المسلمين- بل الإنسانية كلها- فى أشد الحاجة اليوم إلى معرفة فضائل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكرم معدنهم ، وأثر تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وما كانوا عليه عن علوّ المنزلة التى كانوا بها الجيل المثالى الفذ فى تاريخ البشر.

لقد سارع للدفاع عن الصحابى الجليل عثمان بن عفان رضى الله عنه القاضى محمد ابن يحيى فى كتابه «التمهيد والبيان» ليكشف به عن نور الحق وخذل الباطل ، فأضاء المصباح بعد ما كاد يخبو.

لقد جهل كثير من الناس الحقيقة التى تنبع على مائدة الخونة والمتآمرين على الإسلام والمسلمين ، فسعى هؤلاء المتآمرون ليضللوا الجيل المسلم وينفروه من سيرة الإسلام الأولى .

إن الفتنة التى أدت إلى قتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، قد أدت إلى نتائج وخيمة، أدت إلى انقسام المسلمين، وسفك الدماء والتحزب والتشيع ، وتفرقة الكلمة بعد قتله ، فاقتتل المسلمون للأخذ بثأره حتى قُتل من المسلمين الألوف .

جاء موقف المؤلف من الأحداث التاريخية موقفًا مشرفًا ، حيث وقف موقف المؤرخ ، وتحمل مسئوليته وساعده على ذلك أنه قاضى، وحاز شرفًا كثيراً من العلوم الشرعية واللغوية ، ويضرب المثل بالمؤرخ الذى يسير فى منهجه التاريخى بروح وعقل القاضى ، فما بالنا والمؤلف محمد بن يحيى يشغل منصب القضاء ، وقد أرّخ سيرة للخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

تلك الفترة العصيبة فى أحداثها وقف كثير من المؤرخين حيالها فى حيرة وتردد أما القاضى محمد بن يحيى فقد استعرض الأحداث واستنتج منها ما يبنى حكمه عليه كقاضٍ نزيه يملك القوة العلمية والقدرة العقلية .

لعل هذا الكتاب من أنفس المصادر بين أيدينا ، حيث يصور لنا حقيقة تلك الفترة، فى وقت كاد أعداء الإسلام أن يصوروها صورة مشينة تعكس تشويهًا وتشويشًا على الإسلام والمسلمين ، وتظهر الخليفة عثمان بن عفان فى صورة تجعل المسلم يصدّ عنه .

لكن المؤلف عرض لنا مـادة تاريخيـة استنفرها من بين بطون الكتب ، ستتيح لكثيـر من المؤرخين فرصـة ذهبية كى يعودوا إلى ما كتبوه فيراجعوه ويصححوا فيه، ويضمـوا إليه ما يمدهم به من معلومات جديدة عن الأحداث التى أحاطت بخلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه، ونحن نعرف أن أحداث هذه الفترة لاتزال غامضة فى كثير من جوانبها ، لقلة ما نشر من الكتب عن سيدنا عثمان وقتله .

لقد بدى لى من خلال الدرس والتحقيق أهمية هذا الكتاب وطريقة المؤلف فى الكتابة التاريخية والنقد التاريخى، وكيف أنها بالمقام الأول تتعلق بالناحية العقائدية والناحية العملية، لا الناحية النظرية ، ومن هنا تبدو أهمية هذا الكتاب فى بيان كثير من أوجه الحق ودحض الباطل وإبطال تدابير أهل السوء، وبيان تبرئة سيدنا عثمان رضى الله عنه مما دبرته يد الإثم والفساد من اليهود وأعوانهم .

يعتبر هذا الكتاب محاولة لتحليل الأحداث التاريخية التى دس فيها المتآمرون سمهم وشرهم، ومعرفة الأسباب التى نتج عنها مقتل الشهيد عثمان رضى الله عنه.

وقد اشتمل هذا البحث على بيان مدى أهميته، ودراسة عصر المؤلف محمد بن يحيى الأندلسى سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو العلمية، ومدى مشاركته فى الحياة السياسية والعلمية، كما اشتمل على دراسة المؤلف ومكانته العلمية والاجتماعية ومنصبه القضائى، وكذلك اشتمل على مجهوداته فى الكتابة التاريخية ، والداعى إلى تأليف الكتاب، ومحتوى الكتاب وتنظيمه، والنسق التعبيرى للكتاب ، ومدى أهميته، والمصادر التى اعتمد عليها المؤلف فى كتابة المخطوط من حيث نوعها والإسناد إليها وطريقة النقل منها.

كما اشتمل على النقد التاريخى للمؤلف من ناحية الكشف عن العامل الرئيسى فى توجيه الأحداث، ووصف الأحداث ، واستحسان التصرف ، والإفصاح عن عاطفته، والسخرية من التصرف ، ومواطن العبر والعظات، والتعليل والترجيح .

ثم اشتمل هذا البحث أيضا على وصف دقيق للمخطوطة.

عصر المؤلف

الحياة السياسية :

عاش القاضي محمد بن يحيى بين عامي (٦٧٤هـ - ٧٤١هـ) بالأندلس، بولاية «مالقة» في ظل مملكة «غرناطة» تحت سيطرة الدولة النصرية، التي تنسب إلى أبي عبدالله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس الخزرجي المعروف بابن الأحمر.

استطاع محمد بن الأحمر أن يُنْشِىءَ مملكة، ويحتفظ بها مع نفير من رجال الأندلس، تحت شعار « لاغالب إلا الله»، واستمرت مملكة غرناطة هذه مدة تبلغ قرنين ونصف رغم صغرها وقلة عدد سكانها، محافظة على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي ووجود حضاري معطاء.

وهذه المدة كانت مملوءة بالصراع مع دول أسبانيا النصرانية، ورغم ذلك فكانت ثابتة ومواجهة للقوة العددية النصرانية، وبإمكانياتها المحدودة واجهت الإمكانيات الواسعة ، مما جعل ذلك مثاراً للاستغراب والتعجب .

في الوقت الذي كانت فيه مملكة غرناطة تمثل جانبا إسلاميا قويا يحكمها بنو الأحمر، كانت دول أسبانيا النصرانية تمثل جانبا مضاداً لها، متمثلة في مملكة «قشتالة» و «نبارة» و«ليون» و«أرغون» و«البرتغال» .

ففي عهد «فرغانة» كانت ثلاث ممالك في أسبانيا النصرانية «البرتغال» و«أرغون» و«قشتالة» ، وكانت قشتالة أقواهم ، فبجيوشها وملكها «فرِّانده» الثالث ومن معهم كان سقوط قرطبة سنة ٦٣٢هـ ، وأشبيلية سنة ٦٤٦هـ وجباية سنة ٦٤٣هـ ، وانتقلت عاصمة «قشتالة» من «طليطلة» إلى «إشبيلية» وبجيوش ملك «أرغون» جايمش الأول كان سقوط بلنسية ٦٣٦هـ .
كانت هاتان الدولتان «قشتالة» و«أرغون» تتعاونان في مهاجمة الأندلس والقضاء على الدولة الإسلامية، في حين أن البرتغال كانت تعمل على ضم الأراضي الأندلسية الواقعة جنوبها في ولاية الغرب (١).

الصراع بين بني الأحمر وسلطات أسبانيا النصرانية:

كانت سلطات أسبانيا «النصرانية بعد قيام مملكة غرناطة أكثر عنفًا في مصارعتها بالنسبة لمسلمي «غرناطة»، وإن كانت الأحداث الداخلية فيها تشغلها لوقت ما، لكن «غرناطة» لم تكن تخلو من هذا المظهر ، ورغم ذلك فإن أية دولة من دول أسبانيا النصرانية منفردة كانت أقوى من مملكة غرناطة نظراً لإمكانيتها العسكرية في العدة العدد والمورد.

كان محمد بن الأحمر - مؤسس مملكة «غرناطة» - يحاول تجنب الاصطدام بأسبانيا النصرانية ، وقد أوغل فى ذلك أحياناً إلى درجة شاذة ومهينة فى سنة ٦٦٠هـ ، حيث قامت قوات أسبانيا النصرانية باعتدائها على مملكة غرناطة أيام محمد بن الأحمر، استطاعت قوتها بمساعدة المجاهدين من الغرب ردّها وهزيمتها .

لكن هذه البادرة أثارت «الفونس العاشر » ملك «قشتالة» إلى مضاعفة الجهد، فقام بهجمات عديدة أسقط من خلالها بعض الحصون، فتجدد طلب الغوث من عدوة المغرب ومناطق إفريقية أخرى حتى تونس، ثم عقدت سنة ٦٦٥هـ المسالمة بين «غرناطة» والفونس العاشر، تنازل ابن الأحمر له عن عديد من المناطق والحصون(٢). هكذا ذهبت المناطق الأندلسية فى فترة وجيزة- حوالى ثلث قرن- ساقطة بيد جيوش أسبانيا النصرانية .

وفى سنة ٦٧١هـ عاد الفونس العاشر إلى مهاجمة الأراضى الأندلسية ، فوجه ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان المرينى أبى يوسف يعقوب بن عبد الخالق الملقب بالمنصور يطلب النجدة ، لكن النجدة لم تصل إلا بعد وفاة ابن الأحمر أيام ولده محمد الثانى المعروف بالفقيه، وكان هذا السلطان أوحد الملوك جلالة وصرامة وحزمًا ، قام بالأمر بعد أبيه وباشره الوزير أيام حياته مجرى على سنن من اصطناع أجناسه ومداراة عدوّه وإجراء صدقاته، وفى عهده طما عليه بحر من الفتنة ، وتكاثر عليه الثوار، وارتجت الأندلس فثبت لزلزالها وبذل من الدهاء والاحتيال ما أظفره بخلو جوه (٣).

فى هذا العهد كان عصر القاضى محمد بن يحيى المالقى صاحب هذه الدراسة، ففى عهده وصل الجيش المرينى للنجدة، وقوامه خمسة آلاف، عبر إلى جزيرة «طريف» فى ذى الحجة سنة ٦٧٣هـ ، ثم لحق به السلطان فى صفر من السنة التالية، وجرت لهم أحداث مع جيوش «قشتالة» فكانت المعركة الهائلة فى يوم السبت الخامس من ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ عند مدينة «إستّجة» جنوب غرب «قرطبة» ، وكان جيش «قشتالة» يفوق جيش المسلمين تحت إمرة القائد القشتالى الشهير «ألدون نونيو دى لارا» صهر ملك «قشتالة» الفونس العاشر (٤)، وكان استعداد هذا الجيش القشتالى كبيرًا فى العدد والعدة ، مقبلاً على الحرب بقوة وأمل وقيادة مجربة مهرة فى الحرب وخططها وما عرفت الهزيمة قبل ذلك (٥)، ولكن المسلمين جاهدوا صابرين محتسبين وباشر أمير المسلمين المرينى القتال بنفسه ومعه ابنه يوسف على المقدمة، وقد نزل الأمير أبو يوسف عن فرسه وتوضأ وأسبغ الوضوء وصلى ركعتين ، ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه ، ولما فرغ من دعائه قام فاستوى على جواده

واستعد للقتال ونادى على المسلمين فقال: يا معشر المسلمين وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين، الذابون عن حماه ، والمقاتلون عداه، وهذا يوم عظيم ومشهد جسيم ، له ما بعده، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها وجدّوا فى طلابها، وأنزلوا النفاس فى أثمانها ، ألا إن الجنة تحت ظلال السيوف ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾[٦] ، فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة، وشمروا عن ساعد الجد فى جهاد أعداء الله الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيدًا، ومن عاش رجع إلى أهله سالمًا غانمًا مأجورًا حميدًا ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[٧] فلما سمعوا منه هذه المقالة تاقت أنفسهم للشهادة ، وعانق بعضهم بعضا للوداع ، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع ، وكلهم قد طابت نفسه بالموت، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير، وكلهم يقول : عباد الله، إياكم والتقصير فتسابقت أبطال المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحى القيوم[٨].

لقد حازت الجيوش الإسلامية المغربية والأندلسية نصرًا حاسمًا فى هذه المعركة ، وتشتت شمل الجيش القشتالى، وقتل قائده ، وترك القائد المرينى بالأندلس ثلاثة آلاف فارس لمعاونة إخوانهم الأندلسيين فى رد اعتداء جند «قشتالة» ومن معهم[٩].

وفى سنة ٦٧٧هـ عبر السلطان يعقوب المنصور إلى الأندلس للمرة الثانية، وتوغل بجيشه فى أراضى «قشتالة» والتقى بابن الأحمر ، ثم عاد السلطان يعقوب المنصور إلى المغرب، ولكن ابن الأحمر كان يتوجس من السلطان المرينى فتصرف تصرفًا شاذًا حيث تحالف مع ملك «قشتالة» الذى أنزل قواته فى الجزيرة الخضراء تبعًا لذلك، مما جعل السلطان المرينى المنصور يرسل ابن الأمير أبا يعقوب فى أسطول ضخم فى أوائل عام ٦٧٨هـ ويلتقى مع الأسطول البحرى القشتالى ويهزمه ، واضطرت القوات القشتالية إلى ترك الجزيرة الخضراء[١٠].

أرسل السلطان المنصور إلى ابن الأحمر فى وجوب التفاهم خشية على مصير المسلمين فى الأندلس من هذا المسلك ، ثم التفاهم وعقد التحالف وصفا الجوُّ ، وبموجب هذا الوفاق أصبحت «مالقة» لبنى مرين لتكون محطة وقاعدة للقوات المرينية التى تعبر إلى الأندلس للجهاد فيه، كما نزحت مجموعة من المجاهدين إلى الأندلس للإقامة فيها ، وقد عُرفت هذه المجموعة بمشيخة الغزاة [١١].

وفى سنة ٦٨١هـ خرج «شايخة» على أبيه «الفونس العاشر» الذى عرف عنه ميله للعلم

وفي سنة ٦٨١هـ خرج «شايخة» على أبيه «الفونس العاشر» الذى عرف عنه ميله للعلم وكانت له صلات مع علماء الأندلس، مما أثار السخط على ولده فى مملكته[١٢]. ولكن السلطان المنصور المرينى لم يهدأ حتى عبر إلى الأندلس لمعاونة «ألفونس» ، ولكن «ألفونس» هرع للقائه فرهن تاجه عند السلطان وأمره بالمال والجيش [١٣]، ثم توفى «ألفونس» المرينى فى سنة ٦٨٤هـ ، وكان عبور السلطان المنصور إلى بلاد الأندلس للمرة الرابعة فى سنة ٦٨٤هـ واشتبك مع جيوش «قشتالة» فى البر والبحر، ورغب القشتاليون فى السلم فوفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء وفد وعقد معه السلم[١٤].

وفى سنة ٦٨٥هـ توفى أبو يوسف يعقوب المرينى المنصور قبل أن يعود إلى المغرب بعد حياة حافلة بالجهاد فى المغرب والأندلس وورث حكم المرينيين ابنه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب، وأصبح له شأن فى الجهاد فى الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمى غرناطة تحت زعامة محمد ابن الأحمر الفقيه الذى كان ذا نشاط واضح فى هذا الميدان ومهتما به[١٥].

وفى ليلة الأحد ثامن شعبان من عام ٧٠١هـ توفى محمد بن الأحمر الفقيه وهو على مصلاه متوجها لأداء فريضته على أتم الأحوال [١٦]. وخلفه ولده أبو عبدالله محمد الملقب بالمخلوع ، لأنه خُلع فى سنة ٧٠٨هـ ليتولى الحكم أخوه نصر، وفى عهده ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة ، وما فيه من إبداع وجمال وظرف وتنجيد وترقيش ، وغزى الجيش لأول مرة مدينة «المنظر» فاستولى عليها عنوة فتملك من اشتملت عليه، ومن جملتهم العلجة صاحب المدينة من أفراد عقائل الروم ، فقدمت الحضرة فى جملة من السبى، وكان هذا الفتح عظيماً والصيت لأجله بعيداً .

وفى يوم عيد الفطر من عام ٧٠٨هـ تمت الحيلة عليه، أحيط به وهو زمن مصاب بعينه، حيث جاءت طائفة من كبار الدولة ففتكت بوزير أبى عبدالله محمد المخلوع وأتوا بأخى السلطان واسمه «نصر» ونصبوه للسلطنة ، ثم هاجموا منزل السلطان محمد المخلوع وجعلوا عليه الحرس، وسال من الغوغاء البحر، فتعلقوا بالحمراء يسألون عن الحادثة ، فشغلوا بنهب دور الوزير الكائنة بالريض وبها من مال وذخيرة وكتب وأثواب وسلاح وفرش وآنية وخرثى[١٧]، ما يفوق الوصف فكانت الفجيعة فى إضاعته على المسلمين عظيمة ، وانطلقت عليه الأيدى الخبيثة وفى آخر اليوم المذكور أدخل على السلطان قوم من الفقهاء، أشهدهم بخلع نفسه ونقل إلى القصر المنسوب إلى السيد بخارج الحضرة، أقام به يسيراً، ثم إلى مدينة «المنكب»[١٨].

وتولى الحكم أخوه نصر الذى فى عهده ساءت العلاقات مع بنى مرين وجرت الأحداث الداخلية فى مملكة غرناطة ، ثم أرغم «نصر» على التنازل فى سنة ٧١٣هـ ليتولى الحكم أبو الوليد إسماعيل بن مزج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد، وكان هذا السلطان وافر العزم، وطّد الأمن وأشاع الاستقرار وأعاد عهد الجهاد، وحين عاد القشتاليون إلى مهاجمة الأراضى الإسلامية استنجد أبو الوليد بالسلطان المرينى الذى رفض المساعدة نتيجة لعدم استجابة أبى الوليد لمطالب معينة. ولكن المواجهة كانت حاسمة بين الجيش الإسلامى والجيش القشتالى الذى حركته نزعة صليبية ، وذلك فى ربيع الثانى سنة ٧١٨هـ حيث حدثت معركة قرب مدينة غرناطة فى حرب غير متكافئة تماماً، لكن المسلمين الموجودين فى الصفوف ، كانوا الصفوة المختارة بقيادة شيخ الغزاة أبى سعيد عثمان بن أبى العلاء الذى أخلص وجنده النية لله مجاهدين مستشهدين ، فكان نصراً حاسماً(١٩).

وفى سنة ٧٢٥هـ اغتيل أبو الوليد إسماعيل الغالب بالله سلطان غرناطة، فخلفه ولده أبوعبدالله محمد بن إسماعيل بن فرج، وكان معدوداً فى نبلاء الملوك وأبناء الملوك، صرامة وعزّة وشهامة وجمالاً وخصلاً ، وأخذت له البيعة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب عام ٧٢٥هـ (٢٠). وفى عهده استطاع المسلمون استعادة جبل طارق بمساعدة بنى مرين سنة ٧٣٣هـ بعد أن احتله القشتاليون أيام «فرانده» الرابع منذ سنة ٧٠٩هـ (٢١).

وفى عهد أبى عبدالله محمد بن إسماعيل بن فرج تولى الأحكام الشرعية شيخنا الإمام العلم الأوحد خاتم الفقهاء وصدر القضاة العلماء محمد بن يحيى المالقى موضوع هذه الدراسة ، وقد استمر له الحكم إلى تمام مدة هذا السلطان وصدراً من أيام أخيه بعده(٢٢)، إلاّ أن سلطان غرناطة أغتيل عندما توغرت عليه صدور رؤساء جنده المغاربة ، وكانت وفاته يوم الأربعاء الثالث عشر من ذى الحجة عام ٧٣٣هـ (٢٣). فورثه أخوه أبو الحجاج يوسف الأول أبو الوليد إسماعيل الذى كان من أبرع ملوك بنى الأحمر بعيد الهمة ، عالى الخلال شاعراً عالمًا وحامياً للعلوم والفنون، وهو الذى أضاف إلى قصر الحمراء منشآت كثيرة(٢٤).

وقعة «طريف» التى مات فيها المؤلف :

حدثت هذه الوقعة فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف الأول بالقرب من «طريف» ولذا سميت بوقعة «طريف» تجهز على إثرها المسلمون لرد القشتاليين ومن معهم ، وكان المرينيون بقيادة سلطانهم أبى الحسن على بن عثمان بن أبى يعقوب ، والأندلسيون بقيادة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف الأول(٢٥). نشبت المعركة بين الطرفين فى سابع جمادى الأول سنة

٧٤١هـ . واستعمل فيها نوعاً من المدافع تقذف النيران [٢٦]، وقد نما هذا النوع من السلاح مستعملا فيما بعد [٢٧]، لكن المسلمين خسروا هذه المعركة ، وارتكب القشتاليون المناكر فى المعسكر الإسلامى وغنموا ما فيه.

وقد حضر هذه المعركة عدد من العلماء الأكابر والأعلام، واستشهد بعضهم ، من بين هؤلاء العلماء القاضى محمد بن يحيى المالقى صاحب هذه الدراسة ، الذى فُقد فى مصافها وتحت لواء جهادها ، رابط الجأش مجتمع القوى إلى أن نال الشهادة [٢٨]. وذلك ضحى الاثنين السابع من جمادى الأول عام سبعمائة وواحد وأربعين من الهجرة من غير عقب من الذكور[٢٩]. ومن هؤلاء أيضا: أبو محمد عبدالله بن سعيد السلمانى والد الوزير والأديب لسان الدين ابن الخطيب ، وقد فُقد يوم الوقيعة الكبرى بظاهر «طريف»[٣٠] .

وأبو القاسم محمد بن جزى ، وهو أحد شيوخ ابن الخطيب ، وصاحب «المؤلفات»، وكان فقيهًا حافظًا ، قائما على التدريس مشاركا فى فنون كثيرة فى العربية والفقه والأصول والقراءات والأدب والحديث، وكان حسن المجلس ، ممتع المحاضرة ، قريب الغور صحيح الباطن، فُقد وهو يحرض الناس ويشحذ بصائرهم ويثبتهم يوم «طريف»[٣١].

كذلك ابن مرزوق أحد شيوخ لسان الدين بن الخطيب [٣٢]، وصديق ابن خلدون[٣٣]، وهو عالم فاضل، غاص المنزل بالطلبة ، منقاد للدعوة، بارع الخط أنيقه، عذب التلاوة متسع الرواية، مشارك فى فنون من أصول وفروع وتفسير، يكتب ويقول شعراً، ويقيد ويؤلف ، فلا يعدو السداد فى ذلك، فارس منبر غير جزوع و لا هياب[٣٤].

. أثر القاضى محمد بن يحيى فى أحداث عصره:

رغم هذه الأحداث والاضطرابات السياسية فى عهد القاضى محمد بن يحيى، إلا إنه لم يكن سلبيًا تجاهها، بل كان إيجابيا متفاعلاً معها ، متأثرًا بها ومؤثرًا فيها.

فمن تأثره بها أنها كشفت عن معدنه الأصيل، وأبرزت لنا معالم شخصيته فى نصرة الحق وتفريق مجتمعات أرباب البدع، وشدد على أهل الأهواء بالسجن والأدب على سبيل فى ذلك كله، من إتباع السّنة وإطراح الأهواء وخفض الجناح لأهل الخير، وملازمة للاقراء مع التعليم وعقد مجالس الحديث شرحاً وسماعًا[٣٥].

وأما أثره فى الأحداث، فقد استمر على عمله من الاجتهاد، ورغبته فى الجهاد حيث كان بين المسلمين المجاهدين يوم وقعة «طريف» يشحذ البصائر، ويشير على الأمير أن يكثر من

قول «حسبنا الله ونعم الوكيل» وهو رابط الجأش مجتمع القوى غير هياب إلى أن استشهد فى تلك الموقعة(٣٦).

الحياة الاجتماعية :

عاش القاضى محمد بن يحيى فى ولاية «مالقة» بالأندلس تحت حكم بنى الأحمر فى مملكة غرناطة، فى منطقة تتسم من قبل مجئ محمد بن يحيى هذا، بعدم الاستقرار ؛ نظراً للصراع المتمثل فى الحروب الصليبية، وشدة ضغط النصارى على المسلمين وزيادة عن ذلك تفرق المسلمين أنفسهم. غير أن قدوم بنى الأحمر ومحاولتهم جمع الشمل ، وتوحيد أكبر قدر من مدن الأندلس لإنشاء دولة قوية وإيجاد مجتمع مترابط ، يقف الجميع فى وجه العدو الصليبى، كل ذلك كان أمراً واجباً ولا بد وأن يحدث ، وقد تحقق ذلك لمدة تفوق عصر المؤلف إلى ما بعد وفاته بكثير من السنوات، ورغم ذلك فإن المجتمع لم يخلُ من الصراع والاضطراب والاستعداد للحروب وتحمل الهزيمة وغير ذلك من الأمور التى تعطى المجتمع صبغة المجتمع غير المستقر .

وهذا المجتمع يضم بين جنبيه أصحاب ديانات مختلفة، منهم المسلمون ومنهم النصارى وهاتان الفئتان لايخفى أمرهما على أحد لما بينهما من الصراع. كما يوجد أيضاً اليهود، وقد أخذ السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل أمير المؤمنين بالأندلس يهدد الدونمة بالتزام سمة تشهرهم ، وشارة تميزهم ، وليوفى حقهم فى المعاملة التى أمر بها الشارع فى الخطاب والطرق، وهى شواشى صفر (٣٧).

لقد حفل مجتمع الدولة النصرية بعدد من الفئات والطوائف المختلفة التى تمثل المجتمع كله بشتى جوانبه.

أما عن مظاهر الحياة الحياة الاجتماعية فكانت تعكس صورة المجتمع أو جانبا كبيراً من حياته فوجود مجالس الطرب والغناء والشراب تعد ظاهرة اجتماعية ، ولكن القائمين على أمر البلاد لا بد وأن يكون لهم موقفا إيجابيا من مثل هذه المظاهر ، حتى تسود المجتمع روح الجدية والاستقامة ، وهذا ما كان موجوداً فى عصر القاضى محمد بن يحيى المالقى ، فقد أشفق السلطان إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف الخزرجى ت ٧٢٥هـ على هذه الظاهرة ، واشتد فى إقامة الحدود وإراقة المسكرات ، وحظر تجلى القينات للرجال فى الولائم، وقصر طربهم على أجناسهم من الناس (٣٨).

كما كان لأهل البدع وجود فى تلك الفترة ، فاشتد السلطان إسماعيل بن فرج عليهم، وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة(٣٩).

إن أحوال المجتمع الذى عاش فيه القاضى محمد بن يحيى المالقى من حيث الدين وصلاح العقائد ، أحوال سيئة، والنحل فيه معروفة ، ومذاهبهم على مذهب الإمام مالك بن أنس، وطاعتهم للأمراء محكمة، وأخلاقهم أبية فى معانى المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البربر والمهاجرة كثير، وقوتهم البر الطيب عامة العام، وربما اقتات فى فصل الشتاء الضعفة والبوادى والفعلة الفلاحة الذرة الرفيعة. كما يدخرون العنب سليماً من الفساد إلى شطر العام إلى غير ذلك من التين والزبيب والتفاح والرّمان والقسطل والبلوط والجوز واللوز إلى غير ذلك(٤٠).

والمرأة فى ذلك العصر عُرف عنها الهيئة الطيبة وجمالها العظيم وطيب النشر، وخفة الحركات ونبل الكلام وحسن المحاورة(٤١).

وامتزاج العرب بالبربر بالأندلسيين أدى إلى امتزاج حضارى، هذا الامتزاج أدى إلى تبادل كثير من التقاليد والعادات الاجتماعية .

ووجه العرب فى بلاد الأندلس نشاطهم إلى كل فرع من فروع العلوم والصناعة والفنون فاكثروا من إنشاء الطرق والجسور والفنادق والمشافى والمساجد فى كل مكان. كما كان تأثير الفن المعمارى العربى فى فن عمارة النصارى الذى حل محله فى أسبانيا عظيما إلى الغاية ، وكان النصارى يستخدمون العرب قبل إجلائهم فى إقامة المبانى أو الاصلاح ، فنشأ عن نماذج الفنيين ظهور الفن الجديد(٤٢).

وكانت الإمامة الثقافية للعرب فى البلاد، وأما العوام فكانوا من البربر ومن سكان البلاد القدماء، وكان باب المناصب مفتوحًا للنصارى، وكان النصارى يستخدمون فى الجيش غالبًا ، ولم يكن توالد المسلمين والنصارى غير قليل (٤٣).

الحياة العلمية :

اتضح من الحديث عن الحالة السياسية فى عصر القاضى محمد بن يحيى مدى الاضطراب السياسى والصراع بين المسلمين ونصارى الأندلس، ورغم هذا، فإن الحياة العلمية كان لها كيانها ومكانتها فى بلاد الأندلس ، وبخاصة مدينة «مالقة» «وغرناطة» هاتان المدينتان اللتان عاش فيهما القاضى محمد بن يحيى، وتولى منصب القضاء فيهما.

اهتمام كبار الدولة بالحياة العلمية :

كان الاهتمام بالناحية العلمية أمراً ملموساً من جانب كبار الدولة ، كالسلطان نصر بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧٢٢هـ ، فقد كان محبًا للعلم وأهله (٤٤)، آخذًا بحظ وافر من

علم الفلك ، وله باع فى خط التقاويم الحسنة والجداول الصحيحة وصناعة الآلات العجيبة(٤٥).

وقد اهتم أيضا السلطان يوسف بن اسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف ت ٧٥٥هـ ببناء المدارس العجيبة التى يعدها الناس بكر المدارس (٤٦).

ومما يدل على مدى الاهتمام بالناحية العلمية، أن السلطان محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧٠١هـ كان يؤثر العلماء على شتى مناحى تخصصاتهم من الأطباء والمنجمين والحكماء والكتاب والشعراء(٤٧). وكان السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر ت ٧١٠هـ يصغى إلى الشعر ويثب عليه الشعراء، وكان يعرف مقادير العلماء(٤٨). وكذلك السلطان أبو الحجاج يوسف الأول أبو الوليد إسماعيل، الذى كان من أبرع ملوك الدولة النصرية، كان بعيد الهمة عالى الخلال، شاعراً عالمًا وحاميا للعلوم والفنون (٤٩).

كما كان العلماء يحتلون مكانة عظيمة يحظون بها عند أمير المسلمين بالأندلس، فقد كان الفقيه الجليل أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ت ٦٩٩هـ يحتل خطوة لطيفة عند أمير المسلمين(٥٠).

وكذلك اهتم أصحاب الأموال المترفين بالعلم والعلماء ، فبنى محمد بن محمد بن عبد الرحمن الأنصارى، ت ٧٥٤هـ مدرسة عظيمة غرب المسجد الأعظم ووقف عليها الرباع، وابتنى غيرها من المساجد (٥١).

طائفة من العلماء:

عاش القاضى محمد بن يحيى فى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى، وكانت هذه الفترة بالنسبة للأندلس- - وخاصة غرناطة- من حيث التفكير والأدب فترة نضج وازدهار، حيث ظهرت طائفة من كبار المفكرين والشعراء الذين أعادوا روعة الأدب الأندلسى فى أعظم صوره(٥٢).

كان الاهتمام بالعلم فى هذا العصر أمراً ملموسًا، وكان انتشار العلوم بأنواعها يحتل مكانة مرموقة فى بلاد الأندلس، فكان العصر عصر رواج للعلم، سواء العلوم الدينية أو اللغوية أو العقلية، وكانت الحركة العلمية نشطة ترعرع فى ظلها العلم، ووجدت طائفة من جهابذة العلماء، امتلأت بأخبارهم ومآثرهم المصادر والمراجع الأندلسية.

ففى اللغة والأدب والشريعة مثل أبو عبدالله الفخار، شيخ النحاة فى عصره، وأبو القاسم محمد بن على الحسينى، والمحدث شمس الدين بن جابر الوادى آشى، وأبو عبدالله مرزوق،

والقاضى أبى البركات بن الحاج البلفيقى. وكذلك فى الأدب والشعر، أبى عبدالله بن الحكيم اللخمى، وأبى الحسن بن الجياب. وفى الطب والفلسفة ، حكيم العصر الشيخ أبو زكريا يحيى بن هذيل.

وفى التاريخ لسان الدين بن الخطيب وغيرهم ، كثير ، ومن بين هؤلاء العلماء الذين أضاؤا بعلمهم الأندلس وغير الأندلس ، القاضى محمد بن يحيى المالقى صاحب هذه الدراسة ، الذى استفاد من العلماء، وتكونت شخصيته العلمية التى جعلته يحتل مكانة رفيعة بين أقرانه من العلماء، وأصبح عارفاً بالأحكام والقراءات والحديث والأنساب، والعربية واللغة والعروض والفرائض والحساب(٥٣).

لقد راجت العلوم الشرعية واللغوية والعقلية فى عصر القاضى محمد بن يحيى المالقى ببلاد الأندلس، مما كان لها أكبر الأثر فى حياته العلمية، وقد شارك فيها وأسهم بنصيب كبير بمجالسه العلمية فى علوم مختلفة وبتأليفه كتاب «التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان بن عفان» الذى نحن بصدد الحديث عنه وعن منهج المؤلف فيه.

الموسوعية فى العلم:

كثير من العلماء خلال القرنين السابع والثامن الهجريين اللذين عاش فيهما القاضى محمد ابن يحيى لم يكتفوا بعلم واحد أو اثنين، بل حازوا شرف كثير من العلوم والفنون، مثل : ابن جزى أحمد بن محمد بن أحمد بن جزى الكلبى ت ٧١٥هـ ، كان له مشاركة حسنة فى فنون متنوعة من فقه وعربية وأدب وحفظ وشعر تسمو ببعضه الإجادة إلى غاية بعيدة (٥٤). وكذلك أحمد بن محمد بن أحمد بن سعدة العامرى ت ٦٩٩هـ ، كان مشاركًا فى كثير من الفنون، جزلاً مهمًا ريان من العربية ، وقد قرأ الفقه وأصوله، وكان صدراً فى الفرائض والحساب، وألف فى التاريخ كتاباً عن تاريخ قومه (٥٥). وأحمد بن عبد الحق بن محمد بن يحيى الجزلى ت٧٦٥هـ ، كان من صدور أهل العلم والتفنن تضلع بصناعة العربية، عارفًا بالفروع والأحكام ، والطب، والأدب، قائم على العربية والقراءة ، حسن الخط(٥٦). وأحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان المالقى ت ٧٦٣هـ، بقية الأعلام أديب من الأدباء ، ناظم ناثر عارف ثاقب المذهب ، إمام الفرائض والحساب والأدب والتوثيق ، ذاكراً للتاريخ واللغة ، شارك فى الفلسفة والتصوف، كلف بالعلوم الإلهية(٥٧). والحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبى الأحوض القرشى ت ٦٩٩هـ، كان متفننًا فى عدة معارف، أخذ من كل علم سنى بحظ وافر ، حافظًا للحديث والتفسير ، ذاكراً للأدب واللغة والتواريخ ، شديد العناية بالعلم، حسن اللقاء لطلبة العلم(٥٨).

ويُعد القاضى محمد بن يحيى المالقى، صاحب هذه الدراسة من الموسوعيين أيضا ، فقد كان من صدور العلماء عارفًا بالأحكام والقراءات عرافًا بالحديث تاريخًا وإسنادًا وجرحًا وتعديلاً ، حافظًا للأنساب والكنى، قائمًا على العربية، مشاركًا فى الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب (٥٩).

دراســة المؤلف

اسمه ونسبه (٦٠):

هو أبو عبدالله محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد بن أبى بكر(٦١) بن سعيد الأشعرى المالقى (٦٢). ويعرف بابن أبى بكر، من ذرية بلج بن يحيى بن خالد بن عبد الرحمن بن يزيد بن أبى بردة، واسمه عامر بن أبى عامر بن أبى موسى، واسمه عبدالله بن قيس صاحب رسول الله ﷺ ، وقد ذكره الإمام ابن حزم(٦٣) فى جملة من دخل الأندلس من العرب (٦٤).

ولادته ونشأته :

ولد محمد بن يحيى فى أواخر ذى الحجة من عام أربعة وسبعين وستمائة(٦٥). وقد لازم - قبل سن التكليف- صهره الشيخ الفقيه الوزير أبا القاسم بن محمد بن الحسن، وقد قرأ عليه بمنزله القرآن الكريم وتأدب معه (٦٦). إن هذا كله يعطينا تصويرًا عن نشأته بين أحضان العلم والعلماء فأول ما سمعت أذنيه كتاب الله عز وجل ، وأول ما شبّ تأدب فى بيت علم وسلطان ، وشمله أهل العلم بعنايتهم ورعايتهم .

رحلاته وشيوخه :

منذ نعومة أظفاره قرأ ببلدة «مالقة» القرآن الكريم على الوزير أبى القاسم بن محمد بن الحسن وتأدب معه وكان يقرأ بمنزله ثم أخذ عن الراوية أبى عبدالله محمد بن عباس الخزرجى، والخطيب الولى أبى الحسن بن فضيلة ، والأستاذ أبى الحسن بن اللباد المدنى، ورحل إلى مدينة «سبتة» فأخذ بها عن أبى على بن أبى التقى طاهر بن ربيع، وأبى فارس عبد العزيز الهوارى، وأبى إسحاق التلمسانى وأبى عبدالله بن الخضار والمقرئ أبى القاسم بن عبد الرحيم، والأستاذ أبى بكر بن عبيدة، كما رحل إلى أهل المشرق فأجازه الإمام شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى بمصر، كما سمع الراوية المحدث أبا المعالى أحمد بن إسحاق القوصى بمصر مع جماعة من المصريين والشاميين وغيرهم.

ثم رحل وعاد إلى بلده «مالقة» وقد سار سباق الحلبات معرفة بالأصول والفروع العربية واللغة والتفسير والقراءات(٦٧).

مكانته العلمية:

مما لاشك فيه أن المنزلة العلمية والمكانة الاجتماعية التى تبوأها الوزير أبو القاسم بن محمد بن الحسين من جهة، وعنايته بالقاضى محمد بن يحيى ورعايته منذ البداية وتأديبه له من جهة أخرى، كان لها أكبر الأثر وأوضحه فى تكوين شخصية القاضى محمد بن يحيى المالقى العلمية، ونبوغه مبكراً ، مما جعله يحتل مكانة رفيعة بين أقرانه من العلماء فى العصر الذى عاش فيه مما يدل على مدى اتساع ثقافته ونبوغه فى فنون العلم المختلفة والمتعددة، التى برع فيها ، فنال بها إعجاب شيوخه والمتعلمين والمستمعين وغيرهم، فهو عارف بالأحكام والقراءات ، وفى الحديث تاريخا وإسناداً وتعديلاً وتجريحاً حافظاً للأنساب والأسماء والكنى.

وكان قائما على العربية مشاركًا فى الأصول والفروع، واللغة والعروض والفرائض والحساب، وكان مخفوض الجناح ، حسن التخلق، عطوفا على الطلبة ، محبا للعلم والعلماء، مجلاً لأهله (٦٨).

تصدر فى فنون العلم، وكان حريصًا على الاستفادة فنفع وأدب وخرج وهذّب ، لم يزل ملازمًا أيام قضائه للإقراء مع التعليم. وكان لايتكلم بغير العلم إلا عن ضرورة ، وبقى كذلك زمانا، ويدرِّس بالمسجد القريب من منزله احتسابًا ، ثم تقدم ببلاده للوزارة ناظراً فى أمور العقد والحل ، ومصالح الكافة(٦٩).

مكانته الاجتماعية:

إلى جانب المكانة العلمية التى تمتع بها القاضى محمد بن يحيى المالقى، كانت له مكانته الاجتماعية المرموقة فى نفوس معاصريه ، وكل من عرفه أو ارتبط معه بوشيجة من علم أو عمل، فقد أثنى عليه مترجموه ، ووصفوه بكثير من عبارات المدح والثناء والتخلق بجميل الصفات ، والإكثار من النصح للآخرين، والصبر على الإسماع من غير ملل ولاضجر، هذا، بجانب الإشادة بأخلاقه وفضله وزهده وورعه وديانته، والحق كذلك ، فقد كان - رحمه الله- قاضيا وعالمًا فاضلاً ، فقد ذكره القاضى المؤرخ أبو الحسن بن الحسين فقال: كان أبو عبدالله بن أبى بكر صاحب عزم ومضاء، وحكم صادع وقضاء.

كان له مع كل قرار صولة ، وعلى كل رابع لايعرف ذرة، فأحرق قلوب الحسدة والصب، وأعز الخطة بما أزال عنها من الشوائب ، وذهب وفضفض كواكب الحق بمعارفه ، ونفذ فى المشكلات، وثبت فى المؤهلات واحتجَّ وبكتَّ وتفقَّه ونكَّت (٧٠).

تولية القضاء:

تولى محمد بن يحيى الأحكام الشرعية ، وهو ملقب بكلمة الإمام العلم الأوحد، خاتمة الفقهاء ، وصدر القضاة العلماء، فاستمر فى منصبه طيلة تولى الأمير محمد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد فى الدولة النصرية بالأندلس، واستمر له الحكم إلى تمام مدته، وصدراً من أيام أخيه بعده، يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف(٧١) .

لقد ولى القضاء ببلده «مالقة» فأعز الخطة، وترك العداوة وإنفاد الحق (٧٢). ملازمًا للقراءة محافظًا للأوقاف ، حريصا على الإفادة.

ثم ولى القضاء والخطابة بغرناطة ، فى العشر الأول لمحرم عام سبعة وثلاثين وسبعمائة ، فقام بالوظائف وصدع بالحق وجرح الشهود فزيف منهم ما ينيف على السبعين عددا، واستهدف بذلك إلى معاداة ومناضلة خاص ثبجها وصارم تيارها، غير مبال بالمغبة ، ولاحافل بالتبعة، فناله لذلك من المشقة والكيد العظيم ما نال مثله.

وربما نحا فى بعض أحكامه أنحاء مصعب بن عمران، أحد القضاة قديما بقرطبة ، فكان لايقلد مذهبًا ، ويقضى بما يراه صوابا، وإذا قلنا عن القاضى محمد بن يحيى المالقى إنه كان فى شدائد أحكامه أشبه علماء وقته بسحنون بن سعيد، لم يكن فى ذلك ببعيد، فإنه أدب الناس على الحلف بالأيمان اللازمة ، وأنكر سوء الحال فى الملابس، وفرق مجتمعات أرباب البدع، وشدد على أهل الأهواء بالسجن والأدب ، على سبيل فى ذلك كله من اتباع السنة وإطراح الهوى له، وخفض الجناح لأهل الخير(٧٣).

وفاته :

فُقد القاضى محمد بن يحيى فى مصاب المسلمين يوم المناجزة «بطريف» شهيداً محرضاً(٧٤). تلك الموقعة العظيمة التى نشبت بين الجيوش الأسبانية المتحدة بقيادة الفونس الحادى عشر ملك «قشتالة» وبين الجيوش المغربية بقيادة السلطان أبى الحجاج يوسف الأول سلطان غرناطة بالقرب من «طريف» وعلى ضفاف نهر «سالادو» الصغير(٧٥). وقد زعموا(٧٦) أن بغلة كان عليها كبَّت به، وأفاق رابط الجأش ، مجتمع القوى، وأشار عليه بعض المنهزمين بالركوب فلم يكن عنده قوة عليه . وقال: انصرف هذا يوم الفرح، إشارة إلى قول الله عز وجل، فى الشهداء: «فرحين بما أتاهم الله من فضله»(٧٧)، وذلك ضحى يوم الاثنين السابع من جمادى الأول عام واحد وأربعين وسبعمائة(٧٨).

مجهودات القاضي محمد بن يحيى في الكتابة التاريخية

يعتبر كتاب «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان» من أعظم مجهودات القاضي محمد ابن يحيي المالقي، حيث قصد بهذا الجهد وجه الله عز وجل دفاعًا عن الصحابي الجليل عثمان ابن عفان رضى الله عنه ، ورد كيد الكائدين وحقد الحاقدين في نحورهم ، وإبطال كل افتراءاتهم.

فرغ القاضي محمد بن يحيى من جمع هذا الكتاب وتأليفه في يوم الثلاثاء خامس عشر ذى القعدة من سنة تسع وتسعين وستمائة(٧٩).

فكلمة «التمهيد» تعنى التهيئة للحديث عن مقتل الشهيد عثمان بن عفان رضى الله عنه وبسط الأمور المحيطة به ، وذلك بذكر أبواب عدة عن حياة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، متمثلة في ستة أبواب، ويأتي الحديث عن مقتله في الباب السابع. أما كلمة «البيان» فتعني إظهار الحق وكشف حقائق الأمور حول مقتل الشهيد عثمان بن عفان رضى الله عنه.

وقد جاء التصريح في مقدمة المخطوطة بموضوعها ، فقال المؤلف : فهذا كتاب أذكر فيه مصرع الإمام عثمان بن عفان ، وأحواله وبعض سيرته، وقد جاء التصريح في الصفحة الأخيرة من المخطوطة بيان باسم الكتاب بنصه المعروف المثبوت وهو «التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان » وهذه هي النسخة الوحيدة للمخطوطة ، وهي مزيدة، وليس بها صفحة العنوان، ولكن فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية قد اعتمد على هذا الاسم وذكره(٨٠).

وبعد الاطلاع على مصادر ومراجع متعددة تبيّن صحة نسب كتاب «التمهيد والبيان» للقاضي محمد بن يحيى، فقد ذكره البغدادي، «صاحب هدية العارفين»(٨١). والزركلي صاحب كتاب «الأعلام» (٨٢). كما ذكره عمر رضا كحالة في كتابه «معجم المؤلفين»(٨٣) والبغدادي في كتابه «إيضاح المكنون» (٨٤)، وكارل بروكلمان في تاريخه (٨٥).

الدّاعي إلى تأليف الكتاب:

أوضح المؤلف في مقدمة الكتاب أنه ألف هذا الكتاب لكي يذكر مصرع الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وأحواله وسيرته، بمنهج يتوخى فيه العدل من غير ميل أو تعصب (٨٦). خاصة أن هذا الموضوع يمس خليفة من الخلفاء الراشدين، وصحابيًا جليلاً من العشرة المبشرين بالجنة ، وصحابيًا عظيمًا تزوج اثنتين من بنات النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وصحابيًا من الصحابة الذين اعتمد عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم في كتابة الوحي.

إن كثيراً من البحوث قد تردد خلافات عفى عليها الزمن، وتوجه اتهامات باطلة تجاه الخليفة عثمان بن عفان ، فى حين أن الصحابة الكرام أسمى أخلاقًا وأصدق إخلاصًا لله، وترفعًا عن خسائس الدنيا من أن يختلفوا للدنيا . خاصة وأن الأيد الخبيثة فى العصر الأول قد عملت على إيجاد الخلاف وتوسيعه ، وهذه الأيد الخبيثة ما زالت فيما بعد تصور الوقائع بغير صورتها الحقيقية، بل تلبسها ثوبا غير ثوبها الحقيقى، مما يشوه صورة هؤلاء الأنجم فى سماء العظمة والشموخ والقدوة الحسنة التى قال عنها النبى صلى الله عليه وسلم : «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

لقد كتب المؤلف كتابه هذا- وكأنى به- ليكون بيانًا لما كان عليه هذا الصحابى الجليل من صفات الكمال، وادحاضا لما ألصق به ، وليكون صيحة مدوية من صيحات الحق، توقظ المسلمين إلى هذه الدسيسة التى دسها عليه أعداؤه ومبغضوه من اليهود ومن الذين ضلوا الطريق وساروا خلفهم.

محتوى الكتاب وتنظيمه :

تعتبر المادة العلمية لكتاب « التمهيد البيان» سيرة للخليفة عثمان بن عفان، وعرض للاتهامات التي ألصقت به ، ومناقشتها وبيان وجه الحق والصواب والتعرض لمصرعه وقوى الشر التي دبرت المؤامرات فأودت بحياة الخليفة عثمان رضى الله عنه . وقد سار المؤلف فى عرض مادة الكتاب متوخيًا العدل ، كما قال وكما اشترط فى مقدمة الكتاب بلا ميل أو تعصب ، وكانت مادته على النحو التالى:

اشتملت مادة الكتاب على نقول من المصادر والمراجع التى سبقت المؤلف، وأحيانا من ثقافته بدون مصدر، ويظهر ذلك فى كثير من عرضه لمادته ، حيث عرض بابًا موجزًا تحدث فيه عن نسب الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وذكر أولاده وزوجاته ، ونسب كل أبنائه وبناته إلى كل أم ينسبون لها.

كما تعرض لبعض المواقف التى صحبته فى زواجه من ابنتى النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر بعض الآيات التى نزلت فى ذلك، مثل قوله عز وجل: «تبت يدا أبى لهب وَتَبَّ»(٨٧)، وذكر أخباراً عن إسلامه رضى الله عنه وعن هجرته، أحيانا يذكرها بسندها عن الكتاب الذى نقل منه، وأحيانًا بدون سند، كما ذكر كيف تمت له البيعة بالخلافة، وقصة الشورى التى أعدها سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد مهد لذلك بالحديث عن مقتل سيدنا عمر بن

الخطاب رضى الله عنه، من بين روايات كتب الحديث الستة الصحيحة خاصة صحيح البخارى ذاكراً خبر قتله على يد أبى لؤلؤة المجوسى ، غلام المغيرة بن شعبة واسمه «فيروز» .

كما أنه أتى بمادة علمية فى هذا الأمر من بعض المصادر التى أصبحت فى هذه الأيام بعيدة عن أيدى الباحثين، بسبب فقدها ، مثل كتاب الفتوح الكبير لسيف بن عمر التميمى.

ولم ينس المؤلف أن يذكر لنا مادة علمية تحتوى على فضائل سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، من أصح الكتب كالبخارى ومسلم. فذكر بشارة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالشهادة ، وقد بشره بذلك كعب الأحبار ، ولاينسى أن يزين مادته بأبيات الشعر، كما زينها من قبل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة ، والأقوال المأثورة عن الصحابة الكرام.

كما ذكر ما قد صنعه سيدنا عثمان رضى الله عنه حين ولى أمر الخلافة معتمداً فى ذلك على المادة العلمية التى ذكرها سيف بن عمر فى كتابه «الفتوح الكبير» من ذكر للولاة فى الكوفة وخراسان وما وراء النهر وغير ذلك. وتعرض أيضا لذكر الكتب التى كتبها سيدنا عثمان رضى الله عنه إلى عمّاله فى أول خلافته ، وكذلك إلى أمراء الجنود، وإلى عمال الخراج، وإلى العامة. وذكر أيضا من الأمور التى اتخذها عثمان رضى الله عنه- وكان أول من فعل ذلك- دور الضيافة بالكوفة.

كما اشتمل الكتاب الذى بأيدينا على الأمور التى خاض فيها أصحاب النفوس المريضة، والتى نقموا بها على سيدنا عثمان رضى الله عنه كاستعمال عبدالله بن أبى سرح على مصر، وإتمام سيدنا عثمان رضى الله عنه الصلاة «بمنى» والزيارة فى مسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم ، والمنافرة بين سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن مسعود، وولاية الوليد بن عقبة على الكوفة، وتعرض أيضا لمن قدح فى أمر الوليد بن عقبة ، وحديث المصاحف وتحريفها ، وغير ذلك من الأمور التى نقمها هؤلاء المغرضون على الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

واشتمل هذا الكتاب أيضا على مادة علمية تعدّ من أهم ما يكون، وهى التحرك الأول لقوى الشر فى شأن سيدنا عثمان رضى الله عنه من بين أفرادها: مالك الأشتر، والأسود بن يزيد ، وعلقمة بن قيس، وصعصعة وعبدالله بن سبأ اليهودى وأصحابه ، وبداية نشر فكره اليهودى الذى هو بمثابة الشرارة الأولى فى إحداث الفتنة الكبرى، التى حصدت أعداداً كبيرة من المسلمين وعلى رأسها مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، والحديث عن خبر بعض هؤلاء الفسقة الفجرة كخبر يزيد بن قيس ، والأشتر والكميل بن زياد وعسير بن ضابئ ،

وحكيم بن جبلة وحمران بن أبان. ثم تحدث عن أبى ذر رضى الله عنه وخروجه إلى الربذة، وما دار حوله من أقوال مختلفة وما دار من نقاش حول بعض الآيات القرآنية وبيان وجه الصواب فيها.

وتحدث أيضا عن الفتنة التى طلت برأسها ونشبت فى مصر بقدوم ابن السوداء – عليه لعنة الله– إلى مصر وبث سُمه الناقع فيها. ثم ذكر بعض الأخبار عن انحراف محمد بن أبى حذيفة ، وعمار بن ياسر، ومحمد بن أبى بكر من الخليفة عثمان رضى الله عنه.

ومن المادة العلمية المهمة أيضا فى هذا الكتاب ما ذكره المؤلف حول الذين ساروا إلى سيدنا عثمان رضى الله عنه وحاصروه ، نتيجة لما بعثه ابن السوداء من دعاة الفساد إلى البلد، وقلب بهم الرّعية وبث فيهم الحقد والضغينة.

وذكر أيضا مكاتبة السبئية لأشياعهم من أهل الأمصار بالثورة والتمرد على أمرائهم ، ثم ذكر ما كتبه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى الأمصار من كتب تحثهم على السمع والطاعة، وذكر المؤلف فى ذلك ثلاثة كتب .

كما احتوى الكتاب أيضا على خبر حصار سيدنا عثمان رضى الله عنه، وخروج أهل مصر، وخروج أهل الكوفة ، وخروج أهل البصرة، وما دار بين الخليفة عثمان رضى الله عنه وبين الثوار الخارجين على الشرعية والمفارقين للجماعة والشاقين عصى الأمة. كما تعرّض للأحداث التى تمت أثناء حصار سيدنا عثمان رضى الله عنه كمنع الماء عنه، وتعرض أيضًا لذكر الاختيار الصعب الذى اختاره سيدنا عثمان رضى الله عنه وهو بذل نفسه دون دماء المسلمين ، ثم تعرض بعد ذلك لحادث القتل وما دار حوله من أقوال وما دار حوله من خلاف حول من قتل الخليفة ومن اشترك فى قتله، والصلاة عليه ودفنه، والتعرض لذكر من قُتل معه من العبيد ، وما أصاب الناس من ندم بعد قتله .

كما احتوت المادة العلمية الحديث عن عمره ومقدار خلافته، وبيان الوجه الصحيح فى ذلك، وولاة البلاد فى زمانه ، والحديث عن صفته ولباسه وخضابه وتختمه، يث يستطرد المؤلف الحديث عن سيرته وفضائله، والمواقف التى تشهد له بالصلاح وعمل الخير، وبذل ما فى وسعه لخدمة الإسلام والمسلمين كتزويجه من ابنتى النبى صلى الله عليه وسلم، وشرائه بئر رومة للمسلمين، ومبايعة النبى عنه يوم بيعة الرضوان، وبيان السبب فى تخلفه عن هذه البيعة .

ثم تحدث عن حياته واحترام النبى صلى الله عليه وسلم إياه، ومناشدة الخليفة رضى الله عنه طلحة والزبير وهو محصور ، ومحاورة الخليفة لابن مسعود وعمار رضى الله عنهم جميعاً.

كما تحدث عن بشارة النبى صلى الله عليه وسلم لعثمان رضي الله عنه بالجنة والحديث عن فضل عثمان بعد أبى بكر وعمر رضى الله عنهم، وذكر مصاهرة عثمان رضى الله عنه للنبى صلى الله عليه وسلم، والحديث عن تجهيزه رضى الله عنه لجيش العسرة، والحديث عن أن عثمان رضى الله عنه برئ من الفتن وأنه يُقتل مظلوماً .

يتناول الحديث أيضا ذكر الخلاف فى أمر قتلة سيدنا عثمان وخاذلته ، وينقل لنا هذا الأخبار عن الجاحظ مستنداً إلى كثير من أبيات الشعر لمختلف الشعراء، ويتناول عذر سيدنا عثمان رضى الله عنه عند أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كما تحتوى المادة العلمية لهذا الكتاب على أمور قلّ من سبق المؤلف فى ذكرها ، وهى الجواب على الأسباب التى نقمها المفسدون على سيدنا عثمان رضى الله عنه، والاعتذار لسيدنا عثمان – عليه رضوان الله .

تناول القاضى محمد بن يحيى فى مادته الحديث عن الأخذ بثأر عثمان رضى الله عنه ، ممن باشر قتله أو أعان عليه، فذكر لنا مقتل مالك بن الأشتر ومقتل محمد بن أبى بكر، وكنانة ابن بشر التجيبى.

تعرض المؤلف لمقتل طلحة بن عبيدالله ، والزبير بن العوام رضى الله عنهما وقتل عمار بن ياسر ومقتل عمرو بن الحمق الخزاعى ، وعمير بن ضابئ، وكميل بن زياد ، وجماعة ممن غزا عثمان رضي الله عنه ، وقتل حرقوص بن زهير.

وذكر أيضا تعظيم شأن قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه، وما روى فى ذم قتلة عثمان رضى الله عنه.

كما تناول فى حديثه عن موقف الرافضة من قتل سيدنا عثمان ، وجعل يوم قتله عيداً لعنهم الله. ثم ختم مادته العلمية بالحديث عن الرافضة ومعايبهم والرّد على الغلاة منهم، وبيان إفراطهم فى على بن أبى طالب رضى الله عنه. كما ذكر أقوال كثير من العلماء فى كفر الرافضة من وجوه كثيرة، وأنهم يتعاطون أشياء خارجة عن الشريعة ، كما ذكر أقوال العلماء فى أن الرافضة يشبهون اليهود في كثير من الأعمال والأقوال. وذكر بابا فى معايب الرافضة، وقبح مذهبهم، مستعيناً فى ذلك بكتب الجاحظ ، وكذلك مكابرتهم وادعائهم التقية ، وغلوهم فى على بن أبى طالب رضى الله عنه وفى ذريته، وقولهم بتناسخ الأرواح وغيره، وكذبهم على أهل البيت وتحريفهم للقرآن، وتفسيرهم له بآرائهم الفاسدة وخرافاتهم ، وذكر أمثلة من تفسيرهم

لآياتِ الله عز وجل واستخدام آرائهم المنحرفة . ثم ذكر أيضا مناظرة الرافضة واختلافهم فى الإمام، وختم كتابه بقوله «إن هواهم كله كفر بالله العظيم وغلوهم وإفراطهم».

هذه هى مادة الكتاب التي صنفها القاضى محمد بن يحيى في مجملها ، أما عن حيث المحتوى فقد احتوت على مادة تاريخية من أقوال المؤرخين المشهورين ، ومادة حديثية من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن أقوال الصحابة والتابعين رضى الله عنهم وأبيات ليست بالقليلة من الشعر العربى ، وزين ذلك كله بذكر آيات كريمات من كتاب الله عز وجل فى كثير من صفحات الكتاب .

النسق التعبيرى للكتاب :

لم يبتدع القاضى محمد بن يحيى أسلوبًا خاصًا للكتابة، وإنما جرى التدوين ضمن الأسلوب المرسل الأدبى فى عرض الأخبار والروايات والتعليقات، وتحليلاته للمواقف التى تحتاج إلى تدخل منصف منه، فاختار العبارة المناسبة للتعبير وتميز عرضه بالسهولة واليسر، ولم يعن بالصنعة البيانية والألفاظ الصعبة ، وقد تذوق الشعر وأورد منه، عدداً كثيراً من الأبيات.

قد يختلف القاضى محمد بن يحيى فى عرض مادته عن الموارد التى نقل منها وقد دفعه هذا الأمر فى أغلب الأحيان إلى إعادة صياغة المادة التاريخية المنقولة عن المؤلفات السابقة عليه بأسلوبه الخاص ، ولم ير فى ذلك ضيراً طالما قد توخى الدقة والأمانة فى نقل معانى الأقوال لاسيما تلك التى تؤثر فى قيمتها إعادة الصياغة. ألزم المؤلف نفسه بنقل النصوص بألفاظها فى الحالات التى تستحق ذلك وتتطلبها كالفوائد الحديثية فى أواخر الأحاديث مثل: أخرجه مسلم فى صحيحه ، أو أخرجاه البخاري ومسلم، أو هذا حديث قريب من هذا الوجه[٨٨] .

كما نقل الرسائل التى بعث بها الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى عماله فى أول خلافته ، وكذلك إلى أمراء الجنود، وإلى عمال الخراج وإلى العامة[٨٩]. وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة ، وبعض القطع النثرية التى هى من أقوال الصحابة رضى الله عنهم ، والقصائد الشعرية كما فى رثاء سيدنا عثمان رضى الله عنه . وكذلك المناقشات والحوار الذى دار بين سيدنا عثمان وبين الثائرين عليه من أهل مصر والكوفة والبصرة. والروايات المسندة التى نقلها عن ابن سعد، والتى نقلها عن الآجرى من كتاب الشريعة.

وكذلك في أبيات الشعر ودورها يذكر أصحاب الأبيات كأن يقول : قال حسان بن ثابت(٩٠). أو روى كعب بن مالك الأنصاري، أو قال الوليد بن عقبة (٩١). وقليلاً ما يمتنع عن ذكر صاحب الأبيات ولكن يذكر المتمثل بها، وقليلاً ما يسوق أبياتًا على لسان الهاتف أو الجن أو صوت الجن(٩٢). كما أتى بشعر على لسان بعض النساء مثل: عاتكة بنت زيد (٩٣). في رثائها للزبير بن العوام رضي الله عنه.

قليلاً ما نجد من العلماء من صنّف كتابًا في سيرة سيدنا عثمان رضي الله عنه منفردة دون أن يشركه مع باقي الخلفاء أو يشرك باقي الخلفاء معه فتكون سيرة ذاتية محيطة به من شتى الجوانب، ورغم قلة من كتبوا- وأنهم لم يتجاوزوا أصابع اليد الواحدة- إلا أن أكثر مصنفاتهم قد فقدت وكلهم سابقون على المؤلف ، ومعظم من كتب عن سيدنا عثمان ، كتب عنه ضمن شخصيات الخلفاء أو الصحابة رضوان الله عليهم.

يعتبر هذا الكتاب سجلاً خالدًا يخلد سيرة سيدنا عثمان رضي الله في المجتمع الإسلامي، التي قد ضاعت عند كثير من أفراد هذا المجتمع ، بسبب ما أحدثه اليهود من فتنة كان سيدنا عثمان رضي الله عنه هو ضحيتها ، فالكتاب يعطي القارئ الحقيقة الناصعة حول موقف اليهود من الإسلام والمسلمين ، ويظهر حقيقة هذه الفتنة ويوضح الصواب في كثير من الأمور التي غمضت على كثير من المسلمين وغيرهم، فيما يقرب من اثنتي عشرة نقطة ، أو فرية قد ألصقها اليهود بسيدنا عثمان رضي الله عنه، وتبعهم في ذلك ضعاف النفوس وضعاف الإيمان من المسلمين .

وقد ألزم المؤلف نفسه في كثير من المواضع بتعريف أسماء البلدان، أو تفسير بعض معاني الكلمات أو بيان المقصود من بعض الكلمات مثل كلمة «السبئية» فيقول : هم قوم يسبون عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وينسبون إلى عبدالله بن سبأ (٩٤)، كما يذكر معنى كلمة «نهابير» أي شدائد، وذلك داخل المتن وليس آخره(٩٥). كما ألزم القاضي محمد بن يحيى نفسه في بعض المواضع أن يُعَرِّف لنا ألقابًا لأعلام وردت في النص الذي نقله أو في أبيات الشعر التي نقلها ، كما ورد في بيت كعب بن مالك الذي يقول فيه:

ورفاعة العمري وابن معاذهم   وأخو المشاهد من بني العجلانا

فيقول محمد بن يحيى القاضي : والعمري: رفاعة بن عبد المنذر، وابن معاذ أسعد بن معاذ، وأخو المشاهد معن بن عدي(٩٦). كما فسّر لنا بعض الأماكن مثل: «حش كوكب» فيقول : وهو حائط لرجل من أهل المدينة اسمه «كوكب»(٩٧).

أهمية المخطوطة :

إن إخراج أى مخطوطة إلى حيِّز الطباعة والدراسة والتحقيق من كتب العلماء السابقين، الذين هم على قدر وافر من العلم، يُعد فى ذاته هدفاً يجب أن يحرص عليه من يسَّر الله له أن يعمل فى مثل هذا المجال، كما يُعتبر إيجاداً للصلة بين حاضرنا المتوثب وماضينا التليد.

إن دراسة مثل هذه الكتب وتحقيقها واستخراجها ، هو استخراج لفوائد عديدة، تلقي الضوء على ماضى الأمة، أو تنير السبيل أمام مستقبلها ومستقبل أبنائها ، وخاصة إذا كان موضوعها من الموضوعات التى لاكتها الألسنة وشوهها المغرضون ، ووضعوا فيها سُمهم ليضللوا شباب الأمة .

هذه المخطوطة تعتبر وعاءً لبعض الكتب والمصادر التى نقل منها القاضى محمد بن يحيى، واستمد منها مادة كتابه، وهذه الكتب قد أضاعتها يد الحدثان مثل كتاب الفتوح الكبير لسيف ابن عمر التميمى (٩٨)، وكتاب تاريخ الجورقانى (٩٩)، وكتاب المقتل لعبد الرزاق الرسعنى(١٠٠). وكتاب السنة لمحمد بن نصر المروزى(١٠١). فإن وجود نصوص هذه الكتب بين دفتيّ كتاب «التمهيد والبيان» يعطيه الأهمية من حيث المحافظة على نصوص كتب مفقودة.

تكمن أهمية هذه المخطوطة فى أنها تعكس حالة من حالات الإفك والافتراء التى وجهها اليهود وعلى رأسهم عبدالله بن سبأ تجاه الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، وتعدد المطاعن التى وجهت إليه، ومدى الردود التى ردّ بها المؤلف على كل فرية قدمها اليهود افتراء على سيدنا عثمان رضى الله عنه (١٠٢). إنها ردود مقنعة مستندة على أدلة ومستنبطة بعقل واع وبقلب عامر بالإيمان، محب لصحابة النبى صلى الله عليه وسلم، لا يقوم بمثلها إلا قاض عُرضت عليه الأقوال المتضاربة ، ثم يأتى هو فيبين بعلمه وحسه الحقيقة من الزيف والصواب من الخطأ.

تأتى أهمية هذه المخطوطة ومكانتها الفريدة فى أن مؤلفها قاض مسلم لديه القدرة على بيان الغث من السمين ، عارف بالأحكام والقراءات وفى الحديث تاريخا وإسناداً ونقادة من أهل الجرح والتعديل، حافظا للأنساب والكنى، مشاركًا فى الأصول والفروع واللغة والعروض والفرائض والحساب (١٠٣).

توخى المؤلف فى كتابه هذا العدل والإنصاف من غير ميل ولاتعصب ذاكرًا ما نقله الأئمة والعلماء فى كتبهم وتواريخهم، ولم ينته الأمر على ذلك بل أنه تدخل بعد ذلك فى بيان الصحيح

من غيره، وبيان ما هو حق وما هو باطل ، مما يصح أن يُقال وما لايصح ، وقد التزم بما ألزم به نفسه في مقدمة الكتاب من توخي كل أمر فيه عدل وإنصاف من غيره(١٠٤).

ومما يزيد هذا الكتاب أهمية، أن من تناول أمر سيدنا عثمان بن عفان وقتله كالقاضى أبى بكر بن العربى، لم يفرد له كتاباً بذاته وإنما جعله ضمن ردوده على أفعال اليهود ومؤامراتهم ضد الإسلام منذ خلافة الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه، وأن القاضى ابن العربى لم يقنعه الرد المستفيض فى إبطال مزاعم اليهود وإفكهم تجاه سيدنا عثمان رضى الله عنه، أما القاضى محمد بن يحيى صاحب كتاب التمهيد والبيان فقد استفاض فى ردوده على الطاعنين فى سيدنا عثمان رضى الله عنه .

كما تظهر أهميته أيضا فى أن القراء يجدون فيه مُثلاً عُليا يعزّ وجودها فى دنيا الواقع، لأن الإنسان يجب أن يعيش ولو لمدة يسيرة فى مستوى رفيع من الخلق والإيمان، وإن لم يتيسر له ذلك، فهو حريص على أن يقرأ أخبار سيدنا عثمان رضى الله عنه، ويصغى إلى كلماته ويتبصر أفعاله، وينهل من بحر حلمه وكرمه وتضحياته فى سبيل الله.

أما من حيث ردّ القاضى محمد بن يحيى على الأسباب التى نقمها الرافضة والملحدون قال: اعلم رحمك الله أن الرافضة والملحدة قد طعنوا على عثمان رضى الله عنه وتعللوا عليه بأشياء فعلها لا تثبت لهم عليه بها حجة ، مثل افترائهم أن ابن مسعود رضى الله عنه أنكر على عثمان رضى الله عنه فى أمر المصاحف وتحريفها، فالجواب : أن ابن مسعود دونه فى الفضل والمرتبة ، فكان عثمان رضى الله عنه أعلم بما فعل، ولأن الرجل كان يقول للرجل، قراءتنا خير من قراءتك ، فأزال عثمان رضى الله عنه هذا الخلاف وجمعهم على قراءة واحدة، وكان زيد بن ثابت قد تولى أمر المصاحف ، ولو كان ذلك متوجهًا إلى عثمان رضى الله عنه لكان ذلك طعنًا على من قبله من الصحابة.

وقد روى أن عليًا رضى الله عنه قال : عن ملأ منا– أصحاب رسول الله – فعل ذلك عثمان– ولو كان هذا الفعل منكراً ، لكان الإمام علىٌّ قد غيره وما صار الأمر إليه، فلما لم يغيره علم أن عثمان رضى الله عنه، كان مصيباً فيما فعل . فإن قيل : إنه اعتدى بتوليه الوليد بن عقبة ، وإن الوليد سكر فصلى بالناس الفجر ركعتين ثم التفت فقال: أزيدكم؟ فالجواب : أنه قد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض الناس على الصدقة ففسق فأنزل الله «إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا» فليس يلحق عثمان رضى الله عنه إلا ما لحق رسول الله صلي الله عليه وسلم.

وولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدامة بن مظعون «البحرين» فشرب الخمر متأولا ، فجلده عمر رضى الله عنه وقدامة بدرى من أولى السابقة والفصل وكذلك عثمان رضى الله عنه.

وولى علىٌّ رضى الله عنه المختار بن أبى عبيد «المدائن» فأتاه بصرة، فقال : هذه من أجور المومسات ، فقال على رضى الله عنه: قاتله الله ، لو شق عن قلبه لو جد ملء حب اللات والعُزى، وهو أفسق من الوليد فأخذ المختار المال ولحق بمعاوية رضى الله عنه . وكان الإمام على رضى الله عنه يلقى من ولاته وعماله الأمر الشديد فكان يقول : وليت فلانا فأخذ المال، ووليت فلانا فخانني إلى غير ذلك ذكر . هذا الكلام أبو نعيم فى «كتاب الإمامة».

فإن قيل أن عثمان أتم الصلاة أربعًا بمنى وأنكر ذلك ابن مسعود وأبو ذر ، فالجواب أنه قد اعتذر عن ذلك ، قال : ذاك رأى رأيته ، ثم لو كان فعله خلاف الحق لما تبعاه ووافقاه ، فقيل لهما فى ذلك، فقالا: الخلاف شر. وقد روى عن جماعة من الصحابة إتمام الصلاة فى السفر، منهم عائشة وسلمان وأربعة عشر من الصحابة رضوان الله عليهم. والذى حمل عثمان على إتمام الصلاة أنه بلغه أن قومًا من الأعراب شهدوا الصلاة معه بمنى فرجعوا إلى قومهم ، فقالوا: الصلاة ركعتان كذلك صليناها مع عثمان بمنى، فلأجل ذلك صلاها أربعًا ليعلمهم ما بتوا به الخلاف والاشتباه .

وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أمر الحج، وأن يجمعوا بين الحج والعمرة فى أشهر الحج، وخالفه ابنه عبدالله وقال: سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن تتبع ، وتابعه أبوموسى وجماعة من الصحابة على ترك الجمع بين الحج والعمرة مع علمهم بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقامته على الإحرام حتى دخل مكة معتمرًا حتى فرغ من المناسك ، ولم ينكروا ذلك على عمر رضى الله عنه، ولو كان منكرًا لما تابعوه على رأيه .

فإن قيل : إن عثمان رضى الله عنه أعطى من مال الصدقة و وفر أقرباءه، فالجواب : أن عثمان رضى الله عنه أعلم ممن أنكر عليه، والإمام إذا رأى المصلحة فى فعل شئ فعله، فلا يكون إنكار من جهل المصلحة فى ذلك حجة على من عرفها ، فإنه لا يخلو زمان من قوم يجهلون وينكرون الحق من حيث لا يعرفونه، فقد فرق الرسول صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر فى المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة وترك الأنصار لما رأى فى ذلك من المصلحة، حتى قالوا: تقسم غنائمنا فى الناس وسيوفنا تقطر من دمائهم، وجهلوا ما رآه النبى صلى الله عليه وسلم من

المصلحة وذلك أعظم مما فعله عثمان رضى الله عنه، ولأن مال المؤلفة قلوبهم من الغنيمة. فلا يلزم عثمان رضى الله عنه من أنكر عليه إلا ما لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإن قيل الذى أعطى رسول الله كان من الخمس ، قيل له : لو كان من الخمس لما أنكرت الأنصار ذلك، ولما قالت : غنائمنا ، ولقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أعطيتهم من مال الله.

ألا تراه استمال قلوبهم بقوله : ألا ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون برسول الله إلي بيوتكم ؟ قالوا رضينا والحديث مشهور .

فإن قيل : بأن عثمان رضى الله عنه ضرب عمّاراً ، قيل : هذا لايثبت ولو ثبت فإن للإمام أن يؤدب بعض رعيته بما يراه وإن كان خطأ .

ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم اقتص من نفسه وأقاد، وكذلك أبوبكر وعمر رضى الله عنهما أدّبا رعيتهما باللطم والدّرة وأقادا من أنفسهما وذلك لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بطن رجل بخشبة فجرحه ، فرفع قميصه وقال : تعال فاقتص ، فعفا عنه .

وجاء رجل إلى أبى بكر رضى الله عنه يستحمله فلطمه ، فأنكر ذلك الناس فقال أبوبكر رضى الله عنه، إنه استحملنى فحملته ، فبلغنى أنه باعه ، ثم قال له: دونك فاستقد ، فعفا عنه. وضرب عمر رضي الله عنه جارية لسعد بالدّرة فساء ذلك سعداً فناوله عمر رضى الله عنه الدرة وقال له : اقتص فعفا .

فإن قيل عثمان رضى الله عنه لم يقد من نفسه، قيل له : كيف ذلك، وقد بذل من نفسه مالم يبذله أحد خصوصا يوم الدار، فإنه قال : يا قوم ، إن وجدتم فى كتاب الله أن تضعوا رجلىَّ فى قيد فضعوهما ، وقد ذكرنا أن عماراً تقاذف هو ورجل آخر فجلدهما عثمان رضى الله عنه حد القذف. فإن قيل : أعطى عثمان رضى لله عنه من بيت المال من ليس له فيه حق ، قيل : لايثبت ذلك عنه . وكيف نقبل هذا وعثمان رضى الله عنه من أكثر الناس مالاً، وأكثرهم عطية ومعروفًا ، مع أن العصر لايخلو من جُهَّال يقولون مالايعلمون ، فقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا قسماً ، فقال له رجل : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم فغضب ثم قال : رحم الله موسى، لقد أوذى بأكثر من ذلك فصبر.

وقسم صلى الله عليه وسلم يوم حنين تبراً ، فقال له رجل: أعدل يا محمد فقال له : ويحك ومن يعدل إذا لم أعدل! فهذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلقى من الجُهال هذا، فكيف بعثمان رضى الله عنه ؟ .

فإن قيل : إنه ولى أقوامًا لايستحقون الولاية ، منهم الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص وعبدالله بن عامر وغيرهم، قيل : فمن أين لكم أن هؤلاء لم يعدلوا ؟ ولئن جاز لكم ادعاء الفسق فى ولاة عثمان رضى الله عنه لجاز ذلك فى ولاة عمر وعلى رضى الله عنهما . فقد ولى عمر رضى الله عنه المغيرة بن شعبة البصرة فرمى بما لايثبت وولى أبا هريرة البحرين، فقالوا : خان مال الله ، وولى قدامة البحرين فشرب الخمر متأولا ، وولى على الأشتر وأمره ظاهر ، وولى أبا مخنف فأخذ المال وهرب .

فلم خصصتم عثمان رضى الله بالطعن مع أن النبى صلى الله عليه وسلم ولى زيد بن حارثة فطعن الناس فيه حتى قام خطيبًا منكرًا عليهم فيما طعنوا عليه، وقالوا فيه وفى أسامة ابنه ، والحديث مشهور.

وإنما طعن الناس على عثمان على أنه لَيِّن وحَيِيّ، وكثر فى أيامه من لم يصطحب النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن جهل فضل الصحابة . فإن قيل : فقد نفى أبا ذر إلى الربذة فردًا، قيل لم يكن ذلك نفيًا ، وإنما كان ذلك تخييراً له ، لأنه كان كثير الخشونة ، ولم يكن يدارى من الناس ما يدارى غيره، فخيَّره عثمان رضى الله عنه، بعد استئذانه فى الخروج من المدينة ، فاختار الربذة ليبعد عن الناس ومعاشرتهم، وذلك أنه كان بالشام، فجرى بينه وبين معاوية مناظرة فى هذه الآية : «والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله ، فقال معاوية : هى فى أهل الكتاب، وقال أبو ذر : هى فيهم وفينا، فكتب معاوية رضى الله عنه إلى عثمان رضى الله عنه فى ذلك، فكتب إلى أبى ذر : أن أقدم على، قال فقدمت عليه فانثال على الناس كأنهم لم يعرفونى. فشكا ذلك إلى عثمان رضى الله عنه، واستأذنه فى الخروج من المدينة فخيره ، فاختار نزول الربذة لما يلقى من الناس واجتماعهم عليه، فخاف الافتتان بهم، وهذ هو الصحيح.

فأما الرافضة فيضعون عليه أشياء لا أصل لها ، فإن جُعل إشخاص أبى ذر رضى الله عنه من الشام وحبسه بالمدينة طعنًا على عثمان رضى الله عنه ، قيل : الأئمة إذا حثوا الفتنة والاختلاف فلهم أن يبادروا على حسمه.

وقد فعل عمر رضى الله عنه مثل ذلك ، فقد حبس جماعة من الصحابة عنده بالمدينة لأجل أحاديث حدثوا بها الناس، ومنعهم من الخروج ، ومنعهم من لبس أشياء كانت لهم مباحة خوفًا أن يتأسى بهم من لا علم له ولا ورع عنده، فيرتكب بذلك ما ليس له ، مع أن للإمام أن ينفى أقوامًا إذا خاف الافتتان بهم، فقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نفى نصر بن حجاج لما خاف أن يفتتن به النساء لحسن صورته وقصته مع أم الحجاج بن يوسف مشهورة ، حين قالت : هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

ونفى الإمام على رضى الله عنه النعمان عن ملأ من الصحابة ، ونفى حسان أيضا والله أعلم.

فإن قيل: إن جماعة وافقوا على حصره وقتله ، فقد روى أن حذيفة وعمارًا قالا : قتلناه كافرًا ، وأن طلحة كان فيمن حصر، وأن عليًا أعان على قتله، وأن الناس خذلوه وأسلموه ، إلى غير ذلك من الأمور ، قيل : هذا لايصح عن حذيفة ، وإنما المنقول عنه خلاف ذلك، وإنما هذا من كلام الرافضة وإن نقل ذلك فإنه لايخلو أحد من الصحابة من حاسد وممن يبغضه ، فكيف بعثمان رضى الله عنه وهو من أهل السابقة والفضل والكمال !

والطعن على عثمان طعن على من تقدمه ، وأما طلحة فإنه كان يقول يوم الجمل: اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى .

وأما علىّ رضى الله عنه فإنه قال غير مرة : اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان . وقال : والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله. ولما بلغه قتله قال : اللهم إنى لم أرض بقتله ولم آمر به .

وقال فيه : كان عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين .

وسئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن عثمان رضى الله عنه فقالت : قُتل مظلومًا ، لعن الله قاتله، أقاد الله من ابن أبى بكر، وساق الله إلى أغر بنى تميم هوانا، وأهرق الله دماء ابن بديل ، وساق الله إلى الأشتر سهما من سهامه ، فوالله ما من القوم أحد إلا أصابته دعوتها.

وأما ترك الصحابة الإنكار على من حصره ، فلقد ناصحوا عنه ولم يظنوا أن الأمر يبلغ إلى قتله ، وإنما ظنوا أنها تكون معتبة، ومع ذلك فإن عثمان رضى الله عنه كان يعزم عليهم

ليكفوا عن القتال ، ولقد ، أنكروا وبالغوا فى الإنكار، منهم على، وزيد بن ثابت ، وعبدالله بن سلام، وابن عمر، وأبو هريرة، والمغيرة والزبير، وابن عامر، وحمل الحسن بن على يومئذ جريحًا ، ولبس ابن الزبير الدرع مرتين، رضى الله عنهم أجمعين.

وعن أبى عون: لقد قتل عثمان رضى الله عنه وإن فى الدار لسبعمائة رجل منهم، والحسن وابن الزبير رضى الله عنهما، ولو أذن لهم لضربوهم حتى أخرجوهم من المدينة، وأما طلحة بن عبيد الله، فإنه انصرف ولم يكن فيمن حصره ، كيف وهو يلعن قاتله مع عائشة رضى الله عنها صباحًا ومساءً ، وكان هو والزبير وعائشة ومعاوية يطلبون بدمه، فكيف يعينون عليه ويطلبون بدمه ! هذا خلف . ومع هذا فينبغى الكف عما شجر بين الصحابة ، والاستغفار لهم والإمساك عما نسب إليه من الرذائل، وكذلك أتباع الأنبياء، إنما تذكر محاسنهم التى مدحوا عليها ويمسك عما سواها .

فإن قيل : إن عثمان رضى الله عنه حمى الحمى ومنع منه الناس.

قيل : إن المصريين جاءوا إلى عثمان رضى الله عنه، فقالوا : ادع بالمصحف فدعا به ففتحوا سورة يونس هذه الآية (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حرامًا وحلالا) فقالوا له : أرأيت ما حميت من الحمى ، الله أذن لك؟ أم على الله تفترى؟ فقال : هذه الآية نزلت فى كذا وكذا، وأما الحمى فقد حمى الأئمة قبلى لإبل الصدقة ، فلما زادت إبل الصدقة زدت فى الحمى ، فجعلوا لا يأخذونه بآية إلا قال : نزلت فى كذا وكذا حتى أخذ عليهم ألا يشقوا عصا المسلمين، فأقبلوا راجعين إلى بلادهم راضين، فرأوا فى الطريق غلامًا معه كتاب فرجعوا إليه، فقال : إنى لم آمر به ولاشعرت به فحاصروه باغين عليه ظالمين له.

وقد حمى النبى صلى الله عليه وسلم نقيع الخضمات لخيل المسلمين . وقال البخارى: بلغنا أن النبى صلى الله عليه وسلم حمى النقيع ، وحمى عمر رضى الله عنه السَّرف والربذة، واستعمل على الحمي مولى له يُدعى هنيئًا فلم يبثت على عثمان رضى الله عنه ذنب ، ولو ثبت لما استحق بذلك القتل وانتهاك الحريم وشق العصا وتفريق الجماعة ، ولكن الله أكرمه بالشهادة وألحقه بالنبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فى الجنة، حافظا لوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى خلع القميص.

لقد حظى قاتلوه بالخزى واللعنة وانتهاك حرمة المدينة فى الشهر الحرام ، فإن قيل: فقد رويتم عن النبى أنه ذكر فتنة تكون بعده، وقال فى عثمان رضى الله عنه : فاتبعوا هذا

وأصحابه فإنهم على هدى، فأخبرنا من أصحابه . قيل: أصحابه أصحاب رسول الله المشهود لهم بالجنة، المذكور بعضهم فى التوراة والإنجيل، الذين من أحبهم سَعِدَ ومن أبغضهم شقى، مثل على بن أبى طالب، وطلحة والزبير، وسعد وسعيد وغيرهم، من الصحابة ممن كان فى وقتهم رضى الله عنهم ، فإنهم كلهم أنكر قتله، وكلهم استعظم ما جرى على عثمان رضى الله عنه، وشهدوا على قتلته أنهم فى النار، وهم الذين تجمعوا وتألبوا عليه مثل عبدالله بن سبأ وأصحابه الذين أشقاهم الله بقتله ، حسداً منهم له، وبغيًا عليه وإرادة الفتنة، وأن يوقعوا الضغائن بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لما سبق عليهم من الشقاء فى الدنيا وما لهم فى الآخرة من العذاب الأليم.

واجتهد الصحابة فى نصرته والذب عنه، وبذلوا أنفسهم دونه ، فأمرهم بالكف عن القتال، وقال : إنى أحب أن ألقى الله سالمًا مظلوما ولو أذن لهم لقاتلوا عنه.

مصادر الكتاب

أولاً أنواع المصادر:

تعدّ المؤلفات السابقة على المؤلف البنية الأساسية والمورد الرئيسى لمادة الكتاب، خاصة وأن المؤلف لم يعاصر الأحداث، مما يدل على مدى تأثره بالسابقين ومدى استفادته منهم. فعند الحديث عن مصادر المؤلف نستشعر سعة اطلاعه وكثرة علومه ، ونلاحظ أن هذه المصادر تتمثل فى نوع معروف متداول بين أيدى الباحثين على مدى العصور.

ونوع آخر يتمثل فى المصادر أو الكتب السابقة منها ما هو عام ومنها ما هو خاص . أما النوع المعروف المتداول على مر العصور ، كصحيح البخارى وصحيح مسلم[١٠٥] وقد نقل عنهما المؤلف فى عدة مواضع، وهما أصبح كتابين بعد كتاب الله عز وجل وينقل عنهما المؤلف دون أن يتصرف أو زيادة أو نقصان ، وهذا أمر مُسلم به عند الأخذ من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : «من جهّز جيش العسرة فله الجنة»[١٠٦]. وأمثال هذين الكتابين من كتب السنة مثل كتاب المسند للإمام أحمد بن حنبل [١٠٧]، وكتاب السنن لأبى داود [١٠٨]، وجامع الترمذى [١٠٩]، وكتاب السنن للنسائى[١١٠].

فقد نقل المؤلف على سبيل المثال من كتاب المسند للإمام أحمد بن حنبل حديث ذكره سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لايحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : رجل كفر بعد إسلامه، وأو زنى بعد إحصانه، أو قتل نفساً فيقتل بها، فوالله ما أحببت أن لى بدينى بدلاً بعد أن هدانى الله، ولا زنيت فى جاهلية ولا إسلام قط، ولا قتلت نفساً، فبم تقتلوننى؟»[١١١].

أما النوع المتمثل فى الكتب السابقة التى تتصل بموضوع الكتاب منها ما هو متداول، ومنها ما ليس متداولاً، ومنها ما هو متخصص في نفس الموضوع، ومنها ما هو شامل للموضوع وموضوعات أخرى شتى ، وكثيراً ما أثبت المصادر التى نقل منها فى متن الكتاب، وتعد طريقة من طرق تسجيل المصادر المنقول منها. فقد صرح فى نقله من تلك المصادر، مثل كتاب الفتوح لسيف بن عمر مصرحًا بهذا النقل حتى وصل عددها إلى أربعة عشر موضعاً، وذلك غير الروايات والأخبار التى نقلها منه دون أن يصرح بذلك.

ومثل كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد حيث نقل منه فى سبعة عشر موضعًا ، وذلك على سبيل المثال لا الحصر. وقد صرح أيضا فى نقله من مصادر عامة أخرى ضمت فى طياتها الحديث عن سيدنا عثمان رضى الله عنه وعن سيرته وخلافته وقتله، وغير ذلك مثل : كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير الجزرى، وكتاب الإرشاد لأبى عبدالله محمد بن محمد بن المعروف بالمفيد فيه الشيعة، وقد نقل منه ليقيم على الشيعة – من كتابهم- الحجة ويدحضهم بمنطوقهم».

وقد صرح أيضا فى نقله من كتاب البيان والتبيين فى عدة مواضع متفرقة . أما الكتب المتخصصة فى الكتابة حول الخليفة عثمان بن عفان وحول قتله تكاد تكون ناقصة ولم يصرح بالنقل منها إلا من خلال كتابين اثنين وهما: كتاب المقتل لعمر بن شبة النميرى ٢٦٢هـ ، وكتاب المقتل لعبد الرزاق الرسعنى ت ٦٦٠هـ، وقد نقل منها فى عدة مواضع.

فالناظر فى مصادر القاضى محمد بن يحيى التى استفاد منها يجد بالفعل مدى هذه الاستفادة ، خاصة وإن منها ما ضاع ولم يعد بين أيدينا الآن، فقد استفاد القاضى محمد بن يحيى من المصادر الآتية:

كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد [١١٢]، والفتوح الكبير لسيف بن عمر[١١٣] ، وكتاب الشريعة للأجرى [١١٤]، وتاريخ الجورقانى[١١٥] وتاريخ الطبرى ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير[١١٦] وكتاب الإرشاد لابن عقيل [١١٧]، وتفسير الزمخشرى [١١٨]، وكتب الجاحظ[١١٩] وكتاب الأمة لأبى نعيم[١٢٠] وصحيح البخارى وصحيح مسلم[١٢١] وجامع الترمذى [١٢٢]، وسنن أبى داود[١٢٣] وسنن النسائى [١٢٤] والجمع بين الصحيحين للحميدى[١٢٥] ومسند الإمام أحمد بن حنبل[١٢٦] وجامع المسانيد لابن الجوزى [١٢٧] وكتاب الأطراف لأبى مسعود الثقافى[١٢٨]، وكتاب المقتل للرسغى[١٢٩] وكتاب المقتل لابن شبة [١٣٠]، وكتاب السنن للالكائى[١٣١] وكتاب السنة للمروزى[١٣٢].

ثانيا : الإسناد إلى المصادر:

لم تكن طريقة القاضى محمد بن يحيى فى الإسناد إلى المصادر واحدة، وإنما كانت متنوعة ، كأن يصرح بعنوان الكتاب واسم مؤلفه، أو يصرح باسم المؤلف دون عنوان الكتاب، أو يصرح بعنوان الكتاب دون اسم المؤلف ، أو يهمل الإسناد إلى المصدر وينقل متتابعًا دون أن يُصرح ، وذلك على النحو التالى:

أ- الإسناد إلى المصدر مصرحًا بعنوان الكتاب واسم مؤلفه : كأن يقول : ذكر سيف بن عمر فى كتاب الفتوح [١٣٣]، وروى محمد بن سعد فى كتاب الطبقات[١٣٤]، وروى أبوبكر محمد بن الحسين الآجرى فى كتاب الشريعة [١٣٥]، وذكر الإمام أحمد فى المسند[١٣٦]، وذكر عمر بن شبة فى مقتله [١٣٧]، وروى الإمام البخارى فى صحيحه[١٣٨] وروى مسلم فى صحيحه[١٣٩]، وذكر ابن الأثير فى تاريخه [١٤٠]، وذكر الحافظ ابن الجوزى فى جامع المسانيد[١٤١]، قال ابن عقيل فى كتاب الإرشاد[١٤٢]، وذكر الحميدي فى الجمع بين الصحيحين[١٤٣]، وذكر أبو نعيم فى كتاب الأمة [١٤٤].

ب- الإسناد إلى المصدر مصرحًا باسم المؤلف دون ذكر الكتاب كأن يقول : روى سيف بن عمر التميمى [١٤٥]، وروى ابن سعد ، أو قال ابن سعد [١٤٦]، وروى أبوبكر الآجرى، أو قال محمد بن الحسين الآجرى[١٤٧]، وروى الإمام أحمد بإسناده [١٤٨]، وروى البخارى بإسناده[١٤٩] وقال الجاحظ[١٥٠].

ج- الإسناد إلى المصدر مصرحًا بعنوان الكتاب دون اسم مؤلفه ويمثله قوله : روى صاحب «الفتوح» عن خليد بن زفر ومجالد قالا : استخلف عثمان رضى الله عنه لثلاث مضين من المحرم سنة أربع وعشرين [١٥١]. وقوله أيضا : «هكذا ذكر صاحب الفتوح»، فالمؤلف يذكر قولته السابقة هذه بعد الانتهاء من ذكر الرواية [١٥٢]، فيتضح لنا أن هذه الطريقة فى الإسناد إما أن يذكر اسم الكتاب فى أول الرواية أو يذكره فى آخرها .

د- وفى إسناده إلى المصدر أيضا نجد أنه يهمل الإسناد إلى المصدر فلم يصرح فى مواضع كثيرة بالنقل عن مصدر معين ، وإنما نجده ينقل فى كثير من المواضع عن مصدر معين نقلا متتابعًا ، وذلك من خلال متابعته فى المادة العلمية نلاحظ ذلك جيداً، فلا يذكر اسم الكتاب ولا اسم المؤلف وإنما ينقل دون التنويه عن ذلك كما حدث في نقله من كتاب تاريخ الطبرى، حيث وجدت كثيراً من الروايات التى قال بها القاضى محمد ابن يحيي قد نقلها من الطبرى[١٥٣]، وكذلك نقل من كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد[١٥٤] وكتاب الشريعة للآجرى[١٥٥].

ثالثًا : طرق النقل من المصادر :

١- سلك المؤلف طريقة ذكر الخبر أو الأثر أو الحديث بأسانيده فى كثير من الأحيان ، وقد يذكر تخريجه كأن يقول : رواه مسلم فى صحيحه[١٥٦]، أو أخرجاه يقصد بذلك الإمام

مسلم والإمام البخارى فى صحيحيهما ، أو أخرجه البخارى فى صحيحه [١٥٧]، وفى بعض الأحيان ينكر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم دون ذكر درجته.

٢- كما أنه ينقل عن الكتب السابقة عليه نقلاً إذا أردنا وصفه نقول: إنه ينقل الخبر أو الرواية بسندها إلى صاحب الكتاب الذى نقل منه أو إنه ينقل الخبر أو الرواية من غير سند، وقد جعل له بصمة واضحة فى كتابه حيث شارك برأيه فى المقارنة بين الأحداث والأخبار واختلاف الروايات والتواريخ، ولهذا ليس بصعب عليه كرجل ممارس لمنصب القضاء عنده القدرة على فحص الآراء واستنباط الحقائق والوصول إلى رأى صائب صحيح.

٣- من طريقته فى النقل عن الكتب السابقة عليه والتى صرح بالنقل منها، فبالمقارنة بين النص الأصلى والنص الذى نقله نلاحظ أنه أحيانا يسقط من النص الأصلى بعض الكلمات، وأحيانا يزيد عليه ، فنص ابن الأثير فى تاريخه الكامل فى التاريخ[١٥٨] يقول: «وأقبل علىّ وطلحة والزبير فدخلوا على عثمان رضى الله عنه يعودونه من صرعته ويشكون إليه ما يجدون ، وكان عند عثمان رضى الله عنه نفر من بنى أميّة فيهم مروان ابن الحكم، فقالوا: كلهم لعلىّ : أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع ، والله لئن بلغت الذى تريد لتمرن عليك الدنيا فقام مغضبًا وعاد هو والجماعة إلى منازلهم ، وصلى عثمان بالناس بعدما نزلوا به فى المسجد ثلاثين يوما، ثم منعوه الصلاة، وصلى بالناس أميرهم الغافقى، وتفرق أهل المدينة فى حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يجلس أحد ولا يخرج إلا بسيفه ليتمنع به ، وكان الحصار أربعين يومًا ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح».

أما نص المؤلف الذى نقله عن ابن الأثير هو : «وذكر ابن الأثير فى تاريخه أنه لما جاء علىّ وطلحة والزبير إلى عثمان رضى الله عنه يعودونه من صرعته ويشكون إليه ما يجدون ، وكان عنده نفر من بنى أمية ، فقال كلهم لعلىّ رضى الله عنه: أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع ، فقام مغضبًا ، وعاد هو والجماعة إلى منازلهم، وصلى عثمان رضى الله عنه ثلاثين يوما ثم منعوه الصلاة، وصلى بالناس أميرهم الغافقى وتفرق أهل المدينة ولزموا بيوتهم ودام الحصار أربعين يوما، ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح ومنعوه الماء[١٥٩].

فبمقارنة النصين نلاحظ أن المؤلف فى الأسطر الأولى حاول أن يصوغ لنا معنى نص ابن الأثير ودون أن ينقل نقلاً حرفيًا، ثم حذف جملة كاملة وهى: «والله لئن بلغت الذى تريد لتمرن عليك الدنيا»، ثم حذف بعد ذلك: « بالناس بعد ما نزلوا به فى المسجد»، ثم فى نهاية النص حاول اختصاره أيضا كما حدث فى أوله وفى نهاية نصه نجد أنه أضاف «ومنعوه الماء» وهى لم تكن فى النص الأصلى لابن الأثير.

٤- وفى نقله من طبقات ابن سعد لم يكن مطابقًا للأصل، بل تصرف فى بعض الكلمات، وذلك على النحو التالى: جاء فى نص ابن سعد(١٦٠): «فجاء رويجل كأنه ذئب ، فاطلع من باب ثم رجع ، فجاء محمد بن أبى بكر فى ثلاثة عشر رجلاً حتى انتهى إلى عثمان فأخذ بلحيته ، فقال بها حتى سمع وقع أضراسه فقال: ما أغنى عنك معاوية، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك، فقال: أرسل لى لحيتى يا ابن أخى، أرسل لى لحيتى يا ابن أخى، قال: فأنا رأيت استعداء رجل من القوم بعينه، فقام إليه بمشقص حتى وجأ به فى رأسه، قال : ثم قلت : ثم مه ؟ قال: ثم تغاووا والله عليه حتى قتلوه «رحمه الله» .

وجاء فى نص القاضى محمد بن يحيى (١٦١): «إنهم لما دخلوا على عثمان رضى الله عنه جاء رويجل كأنه ذئب، فاطلع فى الباب ثم رجع فجاء محمد بن أبى بكر فى ثلاثة عشر رجلاً حتى انتهى إلى عثمان رضى الله عنه، فأخذ بلحيته فقال بها حتى سُمعت وقع أضراسه ، فقال:

ما أغنى معاوية ، ما أغنى عنك ابن عامر، ما أغنت عنك كتبك ، فقال: أرسل لى لحيتى يا ابن أخى، أرسل لحيتى يا ابن أخى، قال : فاستعدى عليه رجل من القوم بعينه فقام إليه بمشقص حتى وجأ به فى رأسه، ثم اعتوروا عليه فقتلوه».

بالنظر فى النصين السابقين نلاحظ مدى تصرف القاضى محمد بن يحيى وعدم دقته فى النقل كما فى كلمة « من باب » عند ابن سعد، ومقابلها عند القاضى محمد بن يحيى «فى الباب» وفى كلمة «سمع وقع أضراسه» عند ابن سعد، ومقابلها عند القاضى «سمعت وقع أضراسه» وفى كلمة «فأنا رأيت استعداء رجل» عند ابن سعد، ومقابلها عند القاضى محمد بن يحيى «فاستعدى عليه»، وفى كلمة «ثم تغاوو والله عليه حتى قتلوه» ومقابلها عند القاضى «ثم اعتوروا عليه فقتلوه».

٥- وفى نقله من كتاب الشريعة للآجرى يختصر النص بما لايخل بمعناه أو ترتيبه ، فقد جاء فى نص الآجرى [١٦٢]: «لما قُتل عثمان رضى الله عنه، بكى عليه كثير من الصحابة ، ورثاه كعب بن مالك الأنصارى، وقد تقدم ذكرنا له ولزم قوم بيوتهم ، فما خرجوا إلا إلى قبورهم ، وبكت الجن، وناحت عليه».

وجاء فى نص القاضى محمد بن يحيى[١٦٣] : «لما قُتل عثمان رضى الله عنه، بكى عليه كثير من الصحابة ولزم قوم بيوتهم، فما خرجوا إلا إلى قبورهم» .

وبالنظر فى النصين نجد القاضى محمد بن يحيى فى نقله لم يلتزم الدقة بل اختصر النص من الآجرى فحذف منه : «ورثاه كعب بن مالك الأنصارى» وحذف أيضا «وبكت الجن وناحت عليه».

٦- وفى بعض نقوله التزم القاضى محمد بن يحيى الدقة فى النقل دون نقص أو زيادة أو تغيير فى اللفظ واختلاف فى الترتيب من كتاب الشريعة للآجرى، فقد جاء فى نص الآجرى[١٦٤] : «عن ابن المبارك عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال : بلغنى أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان رضى الله عنه جنّوا ، قال ابن المبارك: وكان الجنون لهم قليلاً . وفى نص القاضى محمد بن يحيى[١٦٥] : «عن ابن المبارك عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال : بلغنى أن عامة الركب الذين ساروا إلى عثمان رضى الله عنه جنّوا ، قال ابن المبارك : وكان الجنون لهم قليلا». فبالنظر فى النصين نجد أن القاضى محمد بن يحيى التزم الدقة فى النقل.

النقد التأريخى عند القاضى محمد بن يحيى

القارئ لكتاب التمهيد والبيان للقاضى محمد بن يحيى يرى أنه مؤرخ على درجة كبيرة من الوعى لما يثبته فى مؤلفه عن مصادره ، وإنه رُزق من الله عز وجل حساً تأريخياً مرهفا ، كانت له انعكاساته النقدية فى ثنايا ما عالجه فى كتابه من موضوعات والكشف عن مواطن العبرة والعظة، ونقد الاتهامات التى وجهت للخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وبيان سبب هذه الاتهامات ، كما تظهر معالجاته فى وصف الحوادث واستحسانه لبعض التصرفات والإفصاح عن مدى عاطفته تجاه الصحابة الكرام خاصة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه، كما يظهر حسه التأريخى من خلال بيان مواطن العبرة والعظة من خلال كتاباته، وكذلك بيان

مواطن السخرية من بعض التصرفات التى لاتتفق ومنهج الإسلام، بحيث يمكن تصنيف النقد التاريخى على النحو التالى:

١- الكشف عن العامل الرئيسى فى توجيه الحوادث : فعلى سبيل المثال يمثله قوله(١٦٦) : «اعلم رحمك الله ، أن الرافضة والملحدة قد طعنوا على عثمان رضى الله عنه، وتعللوا عليه بأشياء ، أن الرافضة لهم عليه بها حجة ، تنكر منها طرفًا ونذكر الجواب عنها بحسب الإمكان فنقول : فإن قيل : إن ابن مسعود أنكر على عثمان رضى الله عنه فى أمر المصاحف وتحريقها.

فالجواب : أن ابن مسعود دونه فى الفضل والمرتبة ، فكان عثمان رضى الله عنه أعلم بما فعل ، ولأن الرجل كان يقول للرجل : قراءتنا خير من قراءتك، فأزال عثمان رضى الله عنه هذا، ولو كان ذلك متوجها إلى عثمان رضى الله عنه لكن ذلك طعنا على من قبله من الصحابة.

وقد رُوى أيضا : أن عليًا رضى الله عنه قال : فعل ذلك عثمان. ولو كان مُنكرًا لكان علىّ غيّره لما صار الأمر إليه ، فلما لم يغيره علم أن عثمان رضى الله عنه كان مصيبًا فيما فعل.

وهكذا فإن القاضى محمد بن يحيى قد كشف وجه الحق فيما وُجِّه إلى الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه من تهمة باطلة ، وكشف النقاب عن العامل الرئيسى وراء هذه التهمة وغيرها ، وهو الطعن الموجه من الرافضة والملاحدة. وعلى سبيل المثال أيضا: يكشف لنا القاضى محمد بن يحيى الطعن الموجه من الرافضة ضد الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه، يمثله فى ذلك قوله الرافضة (١٦٧): إن إشخاص أبى ذر رضى الله عنه من الشام وحبسه بالمدينة طعنًا على عثمان رضى الله عنه .

والجواب فى ذلك : الأئمة إذا خشوا الفتنة والاختلاف فلهم أن يبادروا إلى حسمه ، وقد فعل مثل ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه، حين حبس جماعة من الصحابة عنده بالمدينة لأجل أحاديث حدثوا بها الناس، ومنعهم من الخروج ، ومنعهم من لبس أشياء كانت لهم مباحة خوفًا أن يتأسى بهم من لا علم له ولا ورع عنده، فيرتكب بذلك ما ليس له ، مع أن للإمام أن ينفى أقوامًا إذا خاف الافتتان بهم ، فقد نفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، نصر بن حجاج لما خاف أن يفتتن به النساء لحسن صورته .

وعلى سبيل المثال أيضا: يكشف لنا القاضى محمد بن يحيى عن نقده التاريخى فى كشف العامل الرئيسى فى توجيه الأحداث حيث قال: اعلم رحمك الله أن شأن قتل عثمان عظيم ،

وأساس الفتنة التى جرت من بعده من الحرب بين على رضى الله عنه وبين عائشة وطلحة والزبير رضى الله عنهم، وما بين على رضى الله عنه وبين معاوية بن أبى سفيان إلى غير ذلك من الفتن والاختلاف [١٦٨].

٢- وصف الحوادث : يتمثل ذلك فى وصف الحوادث بأمانة مطلقة رغم تزييف الروافض لها، ولكنه بعد عرضها يقوم ببيان مدى البهتان والتزييف فى تلك الحوادث والرد عليها، ويمثل ذلك: ما نقموه على عثمان رضى الله عنه من الأمور التى حدثت فى خلافته مثل: استعمال عبدالله بن أبى سرح على مصر [١٦٩]، وإتمام عثمان رضى الله عنه الصلاة «بمنى»[١٧٠] وذكر المناقرة بين سعد وابن مسعود [١٧١]. وذكر ولاية الوليد بن عقبة «الكوفة»[١٧٢] وحديث المصاحف وتحريفها[١٧٣] وغيرها من الافتراءات كثير.

٣- استحسان التصرف : ويتمثل هذا الاستحسان على سبيل المثال فى جواب القاضى محمد بن يحيى الذى ردّ به على الطاعنين فى عثمان رضى الله عنه، عندما أنكروا عليه أمر المصاحف وتحريفها .

فقال: إذا كان ابن مسعود أنكر على عثمان رضى الله عنه فى أمر المصاحف، فإن ابن مسعود دون عثمان رضى الله عنه فى الفضل والمرتبة فكان عثمان رضى الله عنه أعلم بما فعل[١٧٤] ولما جاء على فى مركز الخلافة ولم يغير ما فعله عثمان ، عُلم أن عثمان رضى الله عنه كان مصيبًا فيما فعل [١٧٥].

ويتمثل هذا الاستحسان فى ردّه على منْ أنكر إعطاء عثمان من مال الصدقة ووفر أقرباءه، فقال القاضى محمد بن يحيى[١٧٦]، إن عثمان رضى الله عنه أعلم ممن أنكر عليه ، والإمام إذا رأى المصلحة فى فعل شئ فعله، فلا يكون إنكار من جهل المصلحة فى ذلك حجة على من عرفها فقد فرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر، فى المؤلفة قلوبهم يوم الجعرانة ، وترك الأنصار لما رأى فى ذلك من المصلحة ، فلا يلزم عثمان رضى الله عنه من أنكر عليه إلا ما لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى المصلحة فيما فعل اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤- الافصاح عن عاطفته : وهى عاطفة دينية قوية ، تقف وراءها عقيدة إيمانية سليمة، تقدر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأسف لما يُلصق بهؤلاء الصحابة الكرام من اتهامات وافتراءات ، ولكنه لايتوانى فى أن يرد كيد الكائدين . ومن ذلك : رده على من قال إن عثمان أعطى من بيت المال منْ ليس له فيه حق ، فقال : لايثبت ذلك . وكيف نقبل هذا وعثمان رضى الله عنه من أكثر الناس مالاً، وأكثرهم عطية ومعروفًا؟[١٧٧].

وتتمثل العاطفة الدينية عند القاضي محمد بن يحيى في الدفاع عن مقتل سيدنا عثمان رضى الله عنه متهمًا أصحاب الفتنة وعلى رأسهم عبدالله بن سبأ حيث قال: وهم الذين تجمعوا وتألبوا عليه مثل عبدالله بن سبأ وأصحابه الذين أشقاهم الله بقتله حسداً منهم له، وبغياً عليه وإرادة الفتنة، وأن يوقعوا الضغائن بين أمة محمد صلى الله عليه وسلم (١٧٨)..

كما تتجلى عاطفته الدينية في إيمانه بأن السمع والطاعة لأمير المؤمنين وظيفة المسلمين أمر واجب ، وذلك عندما يدافع عن المسلمين الذين منعهم عثمان رضى الله عنه من أن يدافعوا عنه، يقول القاضي محمد بن يحيى في ذلك: إن القوم كانوا أهل طاعة لإمامهم، وقد وفقهم الله تعالى للصواب من القول والعمل، وقد فعلوا ما يجب عليهم بقلوبهم وألسنتهم ، وعرضهم لنصرته على حساب طاقتهم، فلما منعهم من نصرته علموا أن الواجب عليهم السمع والطاعة له ولايسعهم مخالفته، وكان الحق عندهم فيما رآه عثمان رضى الله عنه(١٧٩).

إن عاطفة القاضي محمد بن يحيى لتقوده إلى الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن صحابته الكرام، حيث تقول الرافضة عن اليوم الذى قُتل فيه عثمان رضى الله عنه هو يوم عيد الغدير الذى آخى فيه النبي بين الصحابة وآخى بين نفسه وبين على رضى الله عنه، فردَّ القاضي محمد بن يحيى ذلك بقوله ، قلت : ليس الأمر كما زعموا ، فإن اليوم الذى آخى النبي صلى الله وسلم فيه بين الصحابة كان حين قدم المدينة مهاجراً في صدر الإسلام ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ليؤلف بينهم فيتحابوا (١٨٠).

كما تتمثل عاطفته الدينية في قوله : اعلم رحمك الله إنه يجب على كل مسلم أن يحب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ويترحم عليهم ويستغفر لهم، ويتوسل إلى الله تعالى بهم، ويشكر الله على توفيقه لذلك، ويمسك عما شجر بينهم فإنه لايبحث عن ذلك إلا مبتدع جاهل منكب عن طريق الرشاد(١٨١).

٥- السخرية من التصرف : يتمثل ذلك في قول القاضي محمد بن يحيى عن الثوار الذين ثاروا على الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه : هؤلاء القوم كانوا بغاة»(١٨٢).

كما يسخر القاضي محمد بن يحيى من الرافضة عندما ذكروا أموراً شنيعة في سبب خروج أبي ذر الغفارى من المدينة إلي الربذة ، يقول القاضي محمد بن يحيى: كل ما قاله الرافضة في ذلك هو من أكاذيبهم ، قبحهم الله تعالى(١٨٣). ويرد القاضي محمد ابن يحيى على بعض أقوال الشيعة : «بأن علياً رضى الله عنه ضرب البحر بقضيب في يده ففاض الماء حتى بدت الحيتان في قعر الفرات». فيقول القاضي محمد بن يحيى: وهذا خبر كذب محال

قط، ما جرى [١٨٤]. ويقول القاضى محمد بن يحيى: وهذا خبر كذب محال قط، ما جرى[١٨٤].

ويقول القاضى محمد بن يحيى : اعلم أن الغالية من الرافضة ينتحلون أشياء يخالفون فيها إجماع الأمة فى الأصول والفروع وينسبونها إلى أهل البيت، ويحرفون الكلم عن مواضعه، ويفسرون بما تهوى أنفسهم وإنهم فى ذلك كاليهود الذين بدلوا التوراة ، وحرفوها واشتروا بها ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون[١٨٥].

٦- مواطن العبر والعظات : يأتى على رأس مواطن العبر والعظات قول القاضى محمد بن يحيى: ينبغى الكف عما شجر بين الصحابة ، والاستغفار لهم والإمساك عما نسب إليه من الرذائل ، وكذلك أتباع الأنبياء ، وإنما نذكر محاسنهم التى مدحوا عليها ويمسك عما سواها. ومن بين هذه العبر أيضا قول القاضى محمد بن يحيى فى أمر الصلاة خلف المصريين الذين ثاروا على الخليفة عثمان رضى الله عنه، فقد كره الناس الصلاة خلفهم ما خلا سيدنا عثمان رضى الله عنه، وقد ذكر أكثر من خبر فى ذلك، وهذه الأخبار تدل على جواز الصلاة خلف البغاة والمتغلبين ، لأن هؤلاء القوم كانوا بغاة»[١٨٦]. ومن بين العبر والعظات أيضا: أنه يجوز انتفاع الواقف بوقفه لأن سيدنا عثمان رضى الله عنه كان يستقى من بئر دومة ويشرب منها وهو الذى أوقفها للمسلمين»[١٨٧].

٧- التعليل والترجيح : ويتمثل ذلك فى ترجيح الأمور وذكر الصحيح منها، واستنباط الأحكام ، كما ذكر القاضى محمد بن يحيى فى قضية قتل الهرمزان فقال: والصحيح أن عبيدالله بن عمر لم يقد منه[١٨٨]. كما يتمثل ذلك فى قول القاضى محمد بن يحيى أمام اختلاف الروايات كالاختلاف الذى حدث حول تاريخ مقتل سيدنا عثمان رضى الله عنه، فقال: قتل عثمان رضى الله عنه يوم الجمعة بعد العصر، ودفن ليلة السبت هذا هو الصحيح[١٨٩].

وفى نهاية الخبر الذى يتحدث عن مقتل كنانة بشر الذى كان ممن دخل على عثمان رضى الله عنه وباشر قتله ، فرأى يقول : إنه قتل يوم لقاء جيش محمد بن أبى بكر وعلى مقدمته كنانة بن بشر، وجيش عمرو بن العاص ، ورأى آخر يقول : إنه قتل يوم الدار، والقاضى محمد بن يحيى يرجح الرأى الأول على الثانى فيقول : والأول أصح[١٩٠].

وصف المخطوطة

توجد نسخة واحدة لهذه المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٣ تاريخ م ، فى ٢٤٨ صفحة، ولم يصل لعلمنا أى خبر عن وجود نسخة أخرى. وهى نسخة قديمة فى مجلد بقلم معتاد قديم ليس عليها تاريخ نسخ، ولكن من ورقها ونوع خطها يبدو أنها قديمة فى

مجلد، كتبت منذ أكثر من مائتى سنة عن النسخة الأصلية وقد تم مراجعتها وتصحيحها على الأصل وقد صرح بذلك من راجع النسخة التى بين يدى فى هامش الصفحة ٩٨، حيث قال : بلغ سماعا ومقابلة وتصحيحاً بنسخة الأصل نفعنا الله تعالى، وكذلك فى هامش الصفحة ١٤٢ حيث قال : بلغ مقابلة وتصحيحاً بنسخة الأصل.

النسخة كاملة من المقدمة إلى الخاتمة، جاء فى الصفحة قبل الأولى ختم كبير فى وسط الصفحة مكتوب فيه: الكتبخانة الخديوية المصرية، وفى أسفل الصفحة استصحاب الكتاب حيث مكتوب : استصحبه الحقير عقب ... الله له . ومكتوب بأسفل الصفحة من جهة الشمال: ثم انتقل إلى ... العبد الفقير إلى الله السيد ... سعد ... عفى الله عنه .

وبأعلى من جهة اليمين مكتوب ثمانية أسطر تحوز على نصف الصفحة من الجهة اليمنى مكتوب فيها : عن ابن أخى عبدالله بن سلام، فقال عثمان رضى الله عنه : ما جاء بك ؟ قال : جئت فى نصرك قال: «أخرج إلى الناس، فقال «أيها الناس إن لله سيفًا مغموراً وإن الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم بهذا الذى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالله الله فى هذا الرجل، إن تقتلوه ، فوالله إن قتلتموه ليطيرون جيرانكم الملائكة وليسلّن الله سيفه المغمور عليكم فلا يغمدنه إلى يوم القيامة، قالوا : «اقتلوا اليهودى فقتلوه» أخرجه الترمذى.

فما قتل نبى قط إلا قتل به سبعون ألفًا، ولاخليفة إلا قتل به خمسة وثلاثون ألفًا ... تفسير ... فى سورة النور.

أما الورقة الأولى فقد بدأت بالبسملة دون العنوان أو ذكر له أو للمؤلف ، ولكن العنوان والمؤلف ذكرا فى الصفحة الأخيرة.

كتبت النسخة بخط قديم معظمه معجم يسير على الرسم الإملائى العثمانى (فالهمزة) يكتبها (ياء) كما فى كلمة «عائشة» يكتبها «عايشة» وأحيانا يحذف الألف الزائدة كما فى كلمة «معاوية» يكتبها «معوية» كما أنه يكتب الاسم المقصور الذى نهايته ألف لازمة فى النطق وتكتب ياء يكتبها ألفًا كما فى كلمة «الأذى» يكتبها «الأذا» .

ضُبط الكتاب بالنقط فى الفصل بين الأقوال، وبالشكل لبعض الكلمات المشكلة وغيرها ، كما نجد ما يلتبس من الأعلام والبلدان.

العناوين وأسماء الأبواب والفصول بقلم معتاد بنفس درجة قلم باقى الكتاب غير أنه بالمداد الأحمر.

على هامش المخطوطة تعليقات ومعانى كلمات واستدراكات واستكمال لبعض الكلمات الساقطة من المتن وهى بمداد يخالف مداد المتن من حيث نوع الخط وجودته، ويضع المصحح فوق تلك الكلمات رمز (صح)، كما فى هامش الصفحة ١٦، ٣٨، ٤٤، ٤٧ ، ٧٧ وذلك على سبيل المثال.

كما يوجد شطب لبعض الكلمات داخل المتن سواء كانت مكررة أو خطأ أو حدث بها سبق قلم فنجد المصحح يتداركها فيشطبها ويكتب الصحيح فوقها كما فى الصفحة ١٨، ١٩، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ١٠٣ .

فى معالجة السقط من أصل الكتاب من بين السطور فيكتبه المصحح فى الهامش سواء كان السقط فى أول السطر أو وسطه أو آخره، فيكتب خطًا بموضع النقص صاعداً إلى تحت السطر الذى فوقه ثم ينعطف جهة الهامش المسجل عليه السقط، وبعد أن يذكر السقط سواء كان كلمة أو مجموعة كلمات فإنه يكتب بعده كلمة (صح) كرمز للتصحيح .

وفى نهاية الكتاب بالصفحة رقم ٢٤٨ يقول المؤلف : آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته وأتباعه وسلم تسليما دائمًا كثيرًا كثيراً.

ومكتوب بأسفل الصفحة : «وفرغ من جمعه وتأليفه الفقير إلى الله محمد بن يحيى بن أبى بكر، غفر الله له ولوالديه ، ولجميع المسلمين، وذلك فى يوم الثلاثاء خامس عشر ذى القعدة من سنة تسع وتسعين وستمائة ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

أما السطر الأخير فمكتوب فيه عنوان الكتاب وهو «نجز كتاب التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان بن عفان رضى الله عنه.

الخاتمة

تمخض هذا البحث عن نتائج كشفت النقاب عن الكتابة التاريخية والنقد التأريخى عند القاضى محمد بن يحيى الأندلسى من خلال كتاب التمهيد والبيان فى مقتل الشهيد عثمان بن عفان ، وهذه النتائج من الممكن أن تنقسم إلى قسمين : قسم يتعلق بالجانب المنهجى عند المؤلف، وقسم يتعلق بالمادة العلمية التى تحتوى عليها المخطوطة.

القسم الأول: يتضح لنا أن المؤلف قد ألزم نفسه بمنهج عادل يتوخى فيه العدل من غير ميل أو تعصب أو هوى وقد صدق مع نفسه فى التزامه بالمنهج الذى صرّح به.

استطاع المؤلف أن يعرض مادته العلمية بعبارة مناسبة ، وسهولة فى العرض ولم يكن صاحب اهتمام بالصنعة البيانية أو الألفاظ الصعبة.

استطاع هذا المؤلف أن يخلد سيرة سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه حيث يعطى حقيقة ناصعة لحياة الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه.

نوّع المؤلف فى مصادره فجاءت مصادر معروفة ومشهورة ككتب الحديث الشريف ، ومصادر تتمثل فى الكتب السابقة عليه، ومصادر عامة.

كما أن المؤلف استطاع أن يستفيد بمصادر كثيرة تحت يده فجاء الإسناد عنده متنوع كأن يصرح باسم الكتاب دون ذكر مؤلفه ، أو ينقل من المصادر السابقة دون أن يصرّح مع إهمال الإسناد.

أما طرق النقل فقد توصلنا إلى أن المؤلف قد نقل مادته العلمية بعدة طرق كأن يذكر الحديث أو الأثر بأسانيده ، وأحيانًا يذكر تخريج الحديث. كما ينقل عن الكتب السابقة مصرحًا به أحيانا وخافيًا له أحيانا أخرى. وأما من حيث النص المنقول فأحيانا ينقله بأكمله دون نقص أو زيادة ، وأحيانا أخري يتصرف فى النص عن طريق الحذف أو الاختصار.

لقد استطاع المؤلف أن يكشف عن العامل الرئيسى فى توجيه الأحداث الصعبة التى أدت إلى قتل الخليفة عثمان رضى الله عنه فكانت الرافضة وراء الأحداث .

وصف الأحداث وبيّن الحقيقى منها والمزيف على يد ولسان الرافضة. كما كان حسن التصرف فى الرد على الروافض والملاحدة وهم يطعنون فى سيرة الخليفة عثمان بن عفان .

كان المؤلف فى بعض المواقف يظهر سخرية من تصرف الرافضة وأقوالهم الآثمة الموجهة ضد الخليفة عثمان رضى الله عنه.

كما استطاع أن يظهر لنا مجموعة من العبر والعظات من خلال هذا الكتاب. كذلك استطاع المؤلف أن يعلل ويرجح فى كثير من الأمور، ويستنبط الأحكام.

القسم الثانى: ويتناول العديد من النتائج التى ظهرت من خلال الحديث عن كتاب التمهيد والبيان ومن خلال معايشتى له وقراءته قراءة جيدة والقيام على تحقيقه وهى:

إن هذه الفتنة التى قتل فيها سيدنا عثمان بن عفان قد صح الإخبار بها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه دعا الناس إلى أن يكونوا مع الخليفة عثمان بن عفان ، وذكر أن عثمان على الهدى والحق هو وأصحابه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم بيّن أن عثمان رضى الله عنه مقتول فيها، وهو وقتها على الحق صابراً على القتل الذى هو قضاء الله وقدره.

إن ما تناقلته المصادر من معايب الصقت بعثمان ، ما صح صدوره من الخارجين عليه ومنها مالم يصح، ومنها ما اشتهر.

إن شخصية عبدالله بن سبأ شخصية حقيقة دلت على وجودها الروايات الصحيحة.

إن عقيدة أهل السنة والجماعة عدم الخوض فى أحداث هذه الفتنة ويجب الدفاع عن الصحابة الكرام بالحق والعدل .

إن سيدنا عثمان بذل أقصى ما وسعه حتى يقنعهم ويرجعهم عما كانوا يصرون عليه، وكذلك الصحابة بذلوا الكثير والكثير للدفاع عن عثمان رضى الله عنه .

إن محمد بن أبى بكر لم يشترك في التحريض وأنه لم يقتل عثمان رضى الله عنه وكل ما روى في اتهامه باطل لا صحة له .

قد ترتب على قتل عثمان رضى الله عنه فتن ومحن كثيرة، وأن الخروج على إمام المسلمين مضارة كثيرة ويترتب عليها الكثير من المفاسد.

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر بعونك الحمد لله رب العالمين
وصلى الله على محمد خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى أصحابه
المنتخبين وأزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين وسلم تسليما كثيرا إلى
أما بعد فهذا كتاب أذكر فيه مقتل الإمام الشهيد ذي النورين
عثمان بن عفان وأحواله وبعض سيرته مستوجبا للعذل له
ذلك من غير ميل وتعصب بل ذكر ما نقله الأئمة العلماء في
كتبهم وتواريخهم مثل طبقات أبي عبد الله محمد بن سعد وكتاب الفتوح
لسيف بن عمر التميمي وكتاب الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري
وكتاب المقتل لعمر بن شبة النميري وكتاب التاريخ للشيخ
عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري وغيرهم من الكتب المشهورة
الموثوق بصحتها وبالله تعالى أستمد المعونة فيما قصدته إنه
حسبي ونعم الوكيل وقد جعلته اثني عشر بابا الباب الأول
في ذكر نسبه ومولده وأزواجه الباب الثاني في ذكر إسلامه
وهجرته الباب الثالث في ذكر بيعته وتفصيل الشورى الباب
الرابع في ذكر الخوض في أمره وما نقموه عليه من الأمور التي حدثت
في خلافته الباب الخامس في ذكر من سار إليه وحصره الباب
السادس في ذكر ما قيل له في الخلع وما قال لهم الباب السابع في
ذكر قتله وموضع قبره الباب الثامن في مبلغ سنه ومدة خلافته
الباب التاسع في ذكر صفته ولباسه الباب العاشر في

الصفحة الأولى من المخطوطة

معك قال محمد [illegible] ثنا داود بن محمد [illegible] الى [illegible]

[illegible] منهم كله لعزة بالله العظيم [illegible]

نعوذ بالله من الكافر [illegible]

... آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين

والسلام على خير خلقه محمد وآله وأصحابه

وأزواجه وذرياته وأتباعه وسلم

تسليما دائما كثيرا طيبا.

وفرغ من جمعه وتأليفه العبد الفقير إلى الله محمد بن يحيى بن أبي بكر غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وذلك في يوم الاثنين خامس عشر ذي القعدة من سنة تسع وستين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم عدد

٦٦٩ هـ

بخط كتاب التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه

الصفحة الأخيرة من المخطوطة

الهوامش

١- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص٨٧-٨٨ .

٢- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص٤٩ .

٣- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٣٨ .

٤- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٦٥ ؛ والمقرى : نفح الطيب ١ / ٤٤٩ ، ٤ / ٣٨٥ .

٥- الفاسى : على بن أبى زرع : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ص١٤٨ .

٦- سورة التوبة: من الآية (١١١) .

٧- سورة آل عمران: من الآية (٢٠٠) .

٨- الفاسى على بن أبى زرع : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ص١٤٩ ، ١٥٠ .

٩- الفاسى على بن أبى زرع: الذخيرة السنية ص١٥٩ .

١٠- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٤٥ .

١١- المقرى: نفح الطيب ٤ / ٣٨٥ ؛ ولسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٦ ، ٣٨ ، وابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ٧ / ٧٧١ .

١٢- محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص١٠٤ .

١٣- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ٤ / ٣٩٣ ؛ ولسان الدين بن الخطيب: الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٦٤ .

١٤- ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ٤ / ٣٩٣ ، ولسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٦٣ ؛ ومحمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص١٠٦ .

١٥- عبد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص٥٤١ .

١٦- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٤٥ .

١٧- الخرشى : متاع البيت .

١٨- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٥٠، ٥٤ .

١٩- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص١١٨ ، ١٧١ .

٢٠- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٧٧ .

٢١- عبد الرحمن الحجى: التاريخ الأندلسى ص٥٤٣ .

٢٢- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٨٢ .

٢٣- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٨٤ .

٢٤- محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص١٢٥ .

٢٥- محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص١٢٥ ؛ ولسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام ٢ / ٣٠٤ . ٣٠٦ ؛ والإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٤١، والمقرى : نفح الطيب ٥ / ٨٠ .

٢٦- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص١٢٧ .

٢٧- محمد عبدالله عنان : الآثار الأندلسية ص٢٨٢ .

٢٨- النباهى: تاريخ قضاة الأندلس ص١٨٣،١٨٤ .

٢٩- النباهى : المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ص١٤٦، ١٤٧ .

٣٠- المقرّى : نفح الطيب ٥ / ١٧ .

٣١- المقرى : نفح الطيب ٥ / ٥١٦ ، ٥٢٦ ، وأزهار الرياض ٣ / ١٨٧ .

٣٢- المقرى : نفح الطيب ٥ / ٣٩٠ .

٣٣- ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته ص٤٩ .

٣٤- المقرى : نفح الطيب ٥ / ٣٩١ .

٣٥- النباهى : تاريخ قضاة الأندلس، ص١٧٩ .

٣٦- النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص١٨٣-١٨٤ .

٣٧- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٣٨٨ .

٣٨- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٣٨٨ .

٣٩- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ص٧١ .

٤٠- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة /١ ١٣٤ - ١٣٧ .

٤١- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ١٣٩ .

٤٢- غرستاف لوبون : حضارة العرب، ص٢٧٤ ، ٥٤٣ .

٤٣- غوستاف لوبون: حضارة العرب ص٢٧٦ .

٤٤- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٣ / ٢٣٤ .

٤٥- لسان الدين بن الخطيب : الدولة النصرية ٥٧ .

٤٦- لسان الدين بن الخطيب: الدولة النصرية ص٩٦ .

٤٧- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٥٧ .

٤٨- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ٥٤٥ .

٤٩- محمد عبدالله عنان : نهاية الأندلس ص١٢٥ .

٥٠- لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ١٦٤ .

٥١- لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٣ / ١٩١ .

٥٢- محمد عبدالله عنان: مقدمة الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ١٧ .

٥٣- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦ .

٥٤- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ١ / ١٥٧ ، ١٥٨ .

٥٥- المصدر السابق : ١ / ١٦٤ .

٥٦- المصدر السابق ١ / ١٨٠ .

٥٧- المصدر السابق ١ / ٢٢٢ .

٥٨- المصدر السابق ١ / ٤٦٤ .

٥٩- المصدر السابق ٢ / ١٧٦ .

٦٠- انظر ترجمته عند: لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦-١٨٠؛ واللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص٨٢ ، ٩١ ؛ وابن حجر العسقلانى: الدرر الكامنة ٤ / ٢٨٤ ، وأبو الحسن النباهى الأندلسى : تاريخ قضاة الأندلس ص١٧٧-١٨٤ ؛ والتنبكتى أحمد بن بابا: نيل الابتهاج ص٢٣٤ ، وابن فرحون المالكى: الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ص٢٣٤ ؛ والسيوطى: بغية الوعاة ص١١٤ ؛ وابن العماد: شذرات الذهب ٦ / ١٣٢ ؛ والزركلى: الأعلام ٨ / ٩؛ والبغدادى : هدية العارفين ٢ / ١٥٠ ؛ وعمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ٣ / ٧٧٠ .

٦١- عند النباهى : فى تاريخ قضاة الأندلس «محمد بن بكر» ص١٧٨ .

٦٢- نسبة إلى بلدة «مالقة» وهى مدينة بالأندلس عامرة ، من أعمال «مريّة» سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٥ / ٤٣ .

٦٣- ابن حزم الأندلس : جمهرة أنساب العرب ص٣٩٨ .

٦٤- لسان الدين ابن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦ .

٦٥- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٨٠ .

٦٦- النباهى: تاريخ قضاة الأندلس ص١٧٨ .

٦٧- النباهى: تاريخ قضاة الأندلس ص١٧٨ ، ١٧٩ .

٦٨- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦ .

٦٩- النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص١٧٨ ، ١٧٩ .

٧٠- لسان الدين ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٧ ، ١٧٨ .

٧١- لسان الدين بن الخطيب: اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ص٨٢ ، ٩١ .

٧٢- المقصود : ترك إهدار الحق، أو بعبارة أخرى: الحرص على إقامته.

٧٣- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦، ١٧٧ .

٧٤- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٨٠ .

٧٥- بد الرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ص٥٤٣، ٥٤٤ .

٧٦- المقرى : نفح الطيب ٥ / ٢٨٧ .

٧٧- سورة آل عمران ، من الآية (١٧٠) .

٧٨- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٨٠ .

٧٩- المخطوطة : الصفحة الأخيرة جاء بها هذا التاريخ الذى يثبت الوقت الذى فرغ فيه المؤلف من كتابة هذه المخطوطة.

٨٠- فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية رقم ٢٣ / م تاريخ .

٨١- البغدادى : هدية العارفين ٢ / ١٥٠ .

٨٢- الزركلى: الأعلام ٨ / ٩ .

٨٣ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ٢ / ٧٧٠ .

٤- البغدادى : ايضاح المكنون ١ / ٣٢٢ .

٨٥- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ٢ / ٢٥٩ ، ٢٩٠ .

٦- انظر الصفحة الأولى من المخطوطة.

٧- سورة المسد: من الآية الأولى.

٨٨- انظر المخطوطة ص١٠، ١١، ١٥ .

٨٩- المخطوطة ص٢٣، ٢٤ .

٩٠- المخطوطة، ص٢٠٢ ، ٢٠٣ .

٩١- المخطوطة ص١٩٣-١٩٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢، ٢٠٣ .

٩٢- المخطوطة : ص٢٠٤ .

٩٣- المخطوطة ، ص٢١٠ ، ٢١١ .

٩٤- المخطوطة ص٦١ .

٩٥- المخطوطة ص١١٧ .

٩٦- المخطوطة ص١١٢ .

٩٧- المخطوطة ص١٤٠ .

٩٨- المخطوطة ص٧، ١٧، ١٩، ٢١، ٤٣، ٦٢، ٦٨، ١٠٧، ١١٧ ، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٣ .

٩٩- المخطوطة ص٢٢٠ .

١٠٠- المخطوطة ص١١ ، ٢٢٤ .

١٠١- المخطوطة، ص١٦٢ ، ١٦٤ .

١٠٢- المخطوطة ص١٧٥ ، ١٩٢ .

١٠٣- لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة ٢ / ١٧٦ .

١٠٤- المخطوطة الصفحة الأولى.

١٠٥- المخطوطة ص ٣٥ ، ١٤٩ ، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٨٢ .

١٠٦- الحديث رواه البخارى فى صحيحه باب فضائل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

١٠٧- المخطوطة ص٣٥ ، ٣٦، ١٣٧، ١٤٩-١٥١، ١٥٣-١٥٦، ١٥٩-١٦٤ ، ٢٢٢، ٢٤٠ .

١٠٨- المخطوطة ص١٦١ .

١٠٩- المخطوطة ص١٤٩ .

١١٠- المخطوطة ص١٤٨ .

١١١- الحديث رواه الإمام أحمد فى المسند ١ / ٦١ ، ٦٥ .

١١٢- المخطوطة ص٤، ٥ ، ١٠٥، ١١٤، ١٢٢-١٢٥، ١٣٢-١٣٧ .

١١٣- المخطوطة ص٧، ١٧، ١٩، ٢١، ٤٣، ٦٢، ٦٨، ١٠٧، ١١٧، ١٣٤ .

١١٤- المخطوطة ص١٢-١٦، ١٤٧، ١٦٢ ، ٢٠٣، ٢١٨-٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٦ .

١١٥- المخطوطة ص٢٢٠ .

١١٦- المخطوطة ص١٠٥، ١٣٧ .

١١٧- المخطوطة ص٢٢١ .

١١٨- المخطوطة ص٢٤٥ .

١١٩- المخطوط ص١٦٩، ٢١٢، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤١-٢٤٤ ، ٢٤٦، ٢٤٧ .

١٢٠- المخطوطة ص١٧٦ .

١٢١- المخطوط ص١٠ ، ١٤٩ ، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٠، ١٨٢ .

١٢٢- المخطوطة ص١٤٩ .

١٢٣- المخطوطة ص١٦١ .

١٢٤- المخطوطة ص١٤٨ .

١٢٥- المخطوطة ص١٧٤ .

١٢٦- المخطوطة ص٢٦، ٣٥، ١٣٧، ١٤٩، ١٥٠-١٥٥، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١-١٦٤، ٢٢٢ .

١٢٧- المخطوطة ص٢٦ .

١٢٨- المخطوطة ص١٧٤ .

١٢٩- المخطوطة ص١١، ٢٢٤ .

١٣٠- المخطوطة ص٢٠٣ .

١٣١- المخطوطة ص٢٢٩، ٢٣٣ .

١٣٢- المخطوطة ص١٦٢، ١٦٤ .

١٣٣- المخطوطة ص١٩ .

١٣٤- المخطوطة ص١٠٥، ١٣٢، ١٣٦ .

١٣٥- المخطوطة ص١٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٨، ٢٢٦ .

١٣٦- المخطوطة ص٣٥ ، ١٣٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٣، ١٥٥، ١٥٦، ٢٢٢، ٢٤٠ .

١٣٧- المخطوطة ص٢٠٣ .

١٣٨- المخطوطة ص١٥١ ، ١٥٣، ١٥٧، ١٦٠ .

١٣٩- المخطوطة ص٣٥ .

١٤٠- المخطوطة ص١٠٥ ، ١٣٧ .

١٤١- المخطوطة ص٢٦ .

١٤٢- المخطوطة ص٢١١ .

١٤٣- المخطوطة ص١٧٤ .

١٤٤- المخطوطة ص١٧٦ .

١٤٥- المخطوطة ص٧، ١٧، ٤٣، ٦٢، ١٠٧، ١١٧، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٣ .

١٤٦- المخطوطة ص٤، ١٢٢، ١٣، ١٢٥، ١٣٧ .

١٤٧- المخطوطة ص١٣، ١٤، ١٦، ١٤٧، ٢٠٤، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٥، ٢٢٦ .

١٤٨- المخطوطة ص٢٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٤، ١٥٥ .

١٤٩- المخطوطة ص١٤٩ ، ١٥٢، ١٥٨، ١٥٩، ١٨٢ .

١٥٠- المخطوطة ص٢١٢، ٢٢٩، ٢٣٥، ٢٤٠-٢٤٧ .

١٥١- المخطوطة ص٢١ .

١٥٢- المخطوطة ص٢٥ .

١٥٣- المخطوطة ص٢٦، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣٣، ٣٤، ٣٦، ٣٧ .

١٥٤- المخطوطة ص٦ ، ٧، ١٠ ، ١١ .

١٥٥- المخطوطة ص١٢، ١٣، ١٤ .

١٥٦- المخطوطة ص٢٥، ١٥١ .

١٥٧- المخطوطة ص١٠، ١١، ١٥ .

١٥٨- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٣ / ١٦١ .

١٥٩- المخطوط ص١٠٤- ١٠٥ .

١٦٠- ابن سعد : الطبقات الكبرى ٣ / ١ / ٥١ .

١٦١- المخطوطة ص١٣٢ .

١٦٢- الآجري : كتاب الشريعة ٣ / ١٧٦ .

١٦٣- المخطوطة ص٢٠٣ .

١٦٤- الآجري: كتاب الشريعة ٣ / ١٧٧ .

١٦٥- المخطوطة ، ص٢١٨، ٢١٩ .

١٦٦- المخطوطة ص١٧٥-١٧٦ .

١٦٧- المخطوطة ص١٨٠ .

١٦٨- المخطوطة ص٢١٧ .

١٦٩- المخطوطة ص٢٦ .

١٧٠- المخطوطة ص٢٦، ٢٧ .

١٧١- المخطوطة ص٢٧، ٢٨ .

١٧٢- المخطوطة ص٢٩ .

١٧٣- المخطوطة ص٤٢، ٤٣ .

١٧٤- المخطوطة ص١٧٥ .

١٧٥- المخطوطة ص١٧٦ .

١٧٦- المخطوطة ص١٧٧ .

١٧٧- المخطوطة ص١٧٨، ١٧٩ .

١٧٨- المخطوطة ص١٨٣ .

١٧٩- المخطوطة ص١٨٥ .

١٨٠- المخطوطة ص٢٢٢ .

١٨١- المخطوطة ص٢٢٧ .

١٨٢ المخطوطة ص١١٣ .

١٨٣- المخطوطة ص٦٨ .

١٨٤- المخطوطة ص٢٣٣ .

١٨٥ المخطوطة ص٢٤٣ .

١٨٦- المخطوطة ص١١٣ .

١٨٧- المخطوط\ ص١٤٩ .

١٨٨- المخطوطة ص١٩ .

١٨٩- المخطوطة ص١٣٧ .

١٩٠- المخطوطة ص٢٠٦ .

قائمة المصادر والمراجع

١- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير ت٦٣٠هـ: الكامل فى التاريخ، دار صادر، بيروت ١٩٨٢م.

٢- الإدريسي : أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس الحمودى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة بدون تاريخ.

٣ بروكلمان : كارل تاريخ الأدب العربى، ترجمة د. عبد الحليم النجار، طبعة دار المعارف سنة ١٩٨٣ .

٤- البغدادى: إسماعيل باشا ١٣٣٩هـ : هدية العارفين ، طبعة وكالة المعارف الجلية، استامبول ط٣، سنة ١٩٥١م.

٥- التنبكتي : أبو العباس سيدي أحمد : بهامش كتاب الديباج المذهب لبرهان الدين اليعمرى المدنى المالكى ، طبعة الفحامين ، مصر ت ١٣٥١هـ .

٦- ابن حجر العسقلانى: أحمد بن على بن محمد بن على ت ٨٥٢هـ : الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة، طبعة حيدر آباد، الهند، ت ١٣٥٠هـ .

٧- الحجى: د. عبد الرحمن على: التاريخ الأندلسى، طبعة دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨٣ .

٨- ابن حزم : أبو محمد على بن أحمد بن سعيد ت ٤٥٦هـ : جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف سنة ١٩٨٢ .

٩- ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبدالله بن سعيد ت ٧٧٦هـ : الإحاطة فى أخبار غرناطة ، حققه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبدالله عنان، طبعة مكتبة الخانجى، القاهرة، ١٩٧٤ .

وأعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام القسم الثانى، تحقيق الأستاذ إ. ليفى بروفنسال ، طبعة دار المكشوف ، بيروت ١٩٥٦ .

واللمحة البدرية فى الدولة النصرية، تصحيح محب الدين الخطيب، طبعة القاهرة ت ١٣٤٧هـ .

١٠- ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر، طبعة دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨١ .

١١- الزركلي : خير الدين ت ١٣٩٧هـ : الأعلام، طبعة دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠ .

١٢- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ: بغية الوعاة، طبعة القاهرة ١٣٢٦هـ .

١٣- د. شاكر مصطفى : التاريخ العربي والمؤرخون ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٧٨ .

١٤- عنان : محمد عبدالله : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، القاهرة ١٩٦٦م.

١٥- غوستاف لوبون : حضارة العرب ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، طبع ، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ.

١٦ الفاسي: علي بن أبي زرع : الذخيرة السنية في تاريخ الدول المرينية، طبعة الرباط، ١٩٧٢ .

١٧- ابن فرحون : برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد ت ٧٩٩هـ : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، طبعة مصر، ١٣٥١هـ .

١٨- كحالة : عمر رضا : معجم المؤلفين ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣ .

١٩- المقري: أحمد بن محمد المقري التلمساني ١٠٤١هـ: أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٠-١٩٤٢ .

ونفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت ، ١٩٦٨ .

٢٠- النباهي: علي بن عبدالله بن محمد بن محمد الجزامي المالقي أبو الحسن ت ٧٩٣هـ:

تاريخ قضاة الأندلس، ضبط وشرح وتعليق الدكتورة مريم قاسم طويل، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٩٩٥ .

والمرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

٢١- ابن النديم : محمد بن إسحاق البغدادي ت ٣٨٥هـ : الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت سنة ١٩٧٨ .

٢٢- ياقوت : شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي ت ٦٢٦هـ : معجم البلدان، طبعة دار الفكر، دار صادر ، بيروت بدون تاريخ .

د. خليفة بن عبد الرحمن المسعود(*)

نظرة خادم الحرمين الشريفين ودعمه لمجلس التعاون الخليجي

(١٤٠٢-١٤٢٢هـ/١٩٨٢-٢٠٠٢م)

مقدمة :

أنهى مجلس التعاون لدول الخليج العربية عشرين عاماً من مسيرته الحافلة بالأحداث والمنجزات حظى خلالها بدعم كبير من قبل خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، مما ساهم بشكل كبير فى مواصلة المجلس لمسيرته ووصوله إلى درجة كبيرة من النمو والعطاء. ولم يكن ذلك الدعم إلا وليد النظرة التفاؤلية للملك فهد تجاه المجلس والأهداف المتوخاة منه؛ من هنا فقد حاولت إبراز تلك النظرة وذلك الدعم من خلال موضوع هذا البحث.

وقد بدأت البحث بإعطاء لمحة سريعة عن ظروف إنشاء المجلس والعوامل التى أدت وساهمت بذلك ، ومن ثم حاولت إبراز نظرة الملك فهد تجاه المجلس والأهداف المؤمل تحقيقها لدول الخليج بل والأمة العربية بأسرها وتتضح تلك النظرة عبر أقواله وتصريحاته المتعلقة بالمجلس منذ تأسيسه حيث تم الحديث عن هذه النظرة عبر جوانبها المختلفة سياسياً وأمنياً وعسكرياً واقتصادياً .

وبعد ذلك تحدثت عن دعم الملك فهد للمجلس عبر عقدين من الزمن؛ هذا الدعم الذى كان له الأثر الأكبر فى مسيرة المجلس جاء من خلال محاور متنوعة منها المبادى والسياسى والأمنى والعسكرى والاقتصادى وخدمة الإنسان وبيئته بالإضافة إلى المحور الثقافى.

---

* أستاذ التاريخ الحديث المساعد ورئيس قسم العلوم الاجتماعية بكلية المعلمين فى الرس.

ثم تناول البحث بعد ذلك النظرة المستقبلية للملك فهد تجاه المجلس وهى نظرة دقيقة صادقة شاملة قوامها النقد والتقييم المتجرد من الأهواء سعيًا للوصول بالمجلس إلى درجة أكبر من النمو والتكامل .

نبذة تاريخية عن ظروف إنشاء المجلس:

مجلس التعاون لدول الخليج العربية تجمع عربى إقليمى وجد فى عالم اتسم بالمتغيرات الحادة، وجاء ليضاهى تجمعات مماثلة سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا ، ومما ساهم بإيجاد هذه المنظومة وجود مسيرة وحدوية لدى دول المجلس تعود فى جذورها إلى الفترة التى أعقبت استقلال دول الخليج العربية وبداية مواجهتها المعترك السياسى العالمى.

ومن هنا فقد أدركت دول الخليج العربى أهمية وحدتها كسبيل لبقائها ومواجهة التحديات المحيطة بها من كافة الجوانب لاسيما السياسية والعسكرية والاقتصادية ولاشك أن وجود تشابه فى التكوين الاجتماعى لدول الخليج العربى وصلات القربى بين الغالبية العظمى من قبائلها وأسرها قد زاد من الشعور بالرغبة الملحة للوحدة، وفوق ذلك وجود رابطة الدين واللغة والعادات والتقاليد والمصير المشترك.

ومن المؤكد أن الظروف السياسية التى شهدتها منطقة الخليج العربى فى مطلع الثمانينيات من القرن العشرين حيث ظهرت المتغيرات السياسية فى إيران وما سبق ذلك من الغزو الروسى لأفغانستان ؛ بالإضافة إلى اشتعال فتيل الحرب العراقية الإيرانية كان لذلك كله دورٌ مهمٌ فى مسارعة دول الخليج العربية لإتمام الوحدة، كما أن وجود اتفاقيات ثنائية بين هذه الدول خلال الفترة السابقة لقيام المجلس قد سهل من مهمة قيامه، وذلك بتحويل الاتفاقيات الثنائية إلى جماعية بين تلك الدول، بالإضافة إلى أن وجود بعض المؤسسات والمنظمات الاقتصادية والإعلامية والثقافية المشتركة قد زاد من الروابط بين دول المنطقة وسهل من وحدتها (١).

وحين أسهمت العوامل الداخلية والخارجية عربية وإقليمية فى تدعيم تلك الوحدة بدأت بوادر ظهور منظومة تضم تحت لوائها دول الخليج العربى فجاءت خطوات متتابعة أبرزها احتضان مدينة الرياض مؤتمرًا ضم وزراء خارجية المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين وعُمان ، وذلك فى رجب ١٤٠١هـ / فبراير ١٩٨١م، تم خلاله الاتفاق على قيام مجلس التعاون الخليجى، وبعد ما يقارب ثلاثة أشهر من ذلك الحدث شهدت مدينة أبو ظبى عاصمة دولة الإمارات العربية المتحدة ميلاد المجلس وذلك بتوقيع قادة

دول الخليج العربي الست على النظام الأساسي للمجلس ؛ فكان ذلك بداية فعلية لقيامه ؛ خاصة أن البيان الختامي للمؤتمر المنعقد في أبوظبي قد أوضح ما يربط دول المجلس من روابط تجعل وحدتها أمرًا حتميًا، وقد تكون النظام الأساسي للمجلس من اثنتين وعشرين مادة، كما تم تشكيل أجهزة المجلس ومؤسساته الإشرافية والتنفيذية ، وصاحب ذلك إصدار النظام الداخلي للمجلس الأعلى الذي تكون من تسع عشرة مادة، وتكون النظام الداخلي للمجلس الوزاري من تسع وثلاثين مادة، كما تم عقد اتفاقية اقتصادية موحدة؛ وبذلك ظهر مجلس التعاون لدول الخليج العربي كنموذج من نماذج العمل العربي المشترك على المستوى الإقليمي، ومنذ ذلك الوقت أصبح المجلس تنظيمًا دوليًا رسميًا حيث تم إيداع وتسجيل نسخ من نظامه لدى الجامعة العربية والأمم المتحدة بقرار من المجلس الوزاري أحد أجهزة مجلس التعاون لدول الخليج العربي(٢).

نظرة خادم الحرمين الشريفين تجاه المجلس والأهداف المنوطة به:

كانت المملكة العربية السعودية من أبرز الدول التي دعمت إنشاء المجلس ورعت المؤتمر الذي شهد بوادر ظهوره لحيز الوجود، وكان للملك فهد الذي كان آنذاك وليًا للعهد دور مهم في تذليل الصعاب التي لازمت ظهور المجلس ، وحين تولى مقاليد الحكم حرص على ترؤس وفد بلاده لاجتماعات دول المجلس وإثراء جلساته بالنقاش الصريح والحوار البناء وذلك تأكيداً لنظرته تجاه المجلس وفكرة إنشائه والأهداف المؤملة منها والتي أوجزها بقوله : «لقد جاء إنشاء هذا المجلس ترجمة صادقة وأمينة لتعاون حقيقي قائم بارز بين الدول الست تجسيداً للروابط العميقة والوثيقة بين هذه الدول استجابة لرغبات وتطلعات شعوبها نحو التعاون والتكاتف والتعاضد، والعوامل الكفيلة بنجاح التعاون بين هذه الدول هي عوامل راسخة ومتأصلة في التربة الخليجية فالأصول الدينية والحضارية والثقافية واحدة، والامتداد الجغرافي والتاريخي واللغوي واحد ، كل ذلك يجعل من التعاون والتنسيق منطلقًا أساسيًا نحو تحقيق الأهداف النبيلة التي وضعها المجلس، وأن استمرار الدول الست في السير على هذا الطريق بخطى واثقة سيحقق في النهاية وبمشيئة الله الوحدة الحقيقية المترسخة في وجدان كل مواطن في هذه المنطقة ...». كما أدرك أهمية المرحلة والظروف التي دعت لتكوين المجلس ليكون مصدر قوة ودعم للدفاع عن البلاد العربية بأسرها حيث قال: «إن صحة وسلامة هذا العضو من الجسم العربي الواحد هي مصدر قوة وعزة ومنعة لذلك الجسم ولاسيما في هذه المرحلة

الحرجة التى تمر بها أمتنا العربية وقد أحاطت بها التحديات من كل جانب وتقاذفتها أمواج المخاطر من كل حدب وصوب ...»[٣].

وقد ركز الملك فهد على مسألة أمن دول المجلس باعتباره الوسيلة الحقيقية لتوفير الرخاء لشعوب دوله، والأمن فى مفهوم الملك فهد أمن شامل للجوانب الاجتماعية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية ويتضح ذلك بقوله :

«ومما لاشك فيه أن تحقيق رخاء شعوب المنطقة يتطلب من دولها توفير عناصر أساسية أخرى لابد منها وهى الأمن والاستقرار والسلام للمنطقة كلها مع ما يتطلبه ذلك من حرص مستمر على إيجاد الوسائل الكفيلة بالدفاع عن منجزاتها ومكتسباتها وفق سلم الأولويات التى تتطلبها أهمية المرحلة التى تم التوصل إليها على هذه الأصعدة جميعها تشكل إضافة قيمة من أجل تحقيق الأهداف المنشودة ..»[٤]. ثم يعود ليؤكد أن المجلس ليس بمعزل عن وحدة العالمين العربى والإسلامى : «إننا نعمل مع أشقائنا فى الخليج العربى وفى العالمين الإسلامى والعربى من منطلق حرصنا الدائم على أن تظل هذه المنطقة منطقة أمن وسلام ورخاء بعيداً عن التيارات الهدامة والمبادئ المنحرفة التى طالما جرت على الشعوب الويلات ...»[٥].

ويحدد الملك فهد نظرته الداعمة لمهام المجلس لا تنظيراً بل كواقع فعلى إذ يطبق مبادئ ومهام المجلس على الأحداث التى تشهدها الساحة وذلك لتحقيق الغاية المنشودة من تأسيس المجلس من الجوانب المختلفة.

أ- نظرته لدور المجلس فى أمن وسلامة المنطقة:

يرى الملك فهد بأن الأمن الخليجى كل لا يتجزأ ، وأن مجلس التعاون قد بدأ مسيرته وسط أجواء عاصفة وفى مواجهة تحديات فُرضت على المنطقة وحولتها إلى بؤرة توتر وصراع إقليمى؛ ولذلك فلابد من تظافر جهود دول المجلس لتحقيق انطلاقة تمكنها من احتواء الأزمات التى تواجهها منطقة الخليج والقضاء على الحروب المحيطة بها أو المشاكل التى نشبت بين بعض دول المجلس من جهة ودول الجوار الأخرى كما حدث فى الحرب العراقية الإيرانية أو خلال أزمة الخليج الناجمة عن غزو العراق لدولة الكويت، أو كما حدث من متازعات بين دولة الإمارات العربية المتحدة وإيران بشأن بعض الجزر وغيرها من المشاكل[٦]، ولذلك يؤكد الملك فهد بأنه : «لابد من وضع مسألة أمن المنطقة فى مكان الصدارة وإن اهتمام دولنا يدفعنا صوب التعاون فى هذا المجال الذى يعتمد كياننا وحياتنا وتوطيد الأمن والاستقرار فى بلداننا

والسـلام فى منطقتنا فـلابد من أن يتـحـقق مـزيد من التنسـيق العـسكرى والأمنى بين دول المجلس..»(٧).

ويبين الملك فهد من منظور أمنى عميق وخلال كلمة ألقاها فى جمادى الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م بمناسبة انعقاد الدورة الثامنة للمجلس فى الرياض بأن مبدأ القوة ليس حلاً للمشاكل التى تقع بين دول المنطقة وجيرانها لأن المقياس للقوة فى العصر الحديث ليس بعدد السكان ، ولابد أن يسود مبدأ المنطق والعقل والحكمة والتعقل، كما يرى أن من حق كل دولة الدفاع عن نفسها بما تملك من قوة «وربما تستعين بدول أخرى ومن حقها أن تستعين بدول ولكن لا أريد أن يصل الأمر لهذا الحد ...»(٨).

وهذه المقولة أكدت بلاشك سلامة فكر الملك فهد السياسى وحكمته فى اتخاذ قرار الاستعانة بالدول الصديقة بعد سنتين من حديثه هذا حينما اعتدت العراق على دولة الكويت وحشدت حشودها على حدود المملكة العربية السعودية؛ فكان لذلك القرار دور فى إخراج المنطقة من ذلك الخطب الذى ألم بها وإعادة الحكومة الشرعية للكويت.

وفى الوقت ذاته شدد الملك فهد على أن بناء القوة الدفاعية لبلدان المجلس، أمر فى غاية الأهمية ولذلك فإنه أولى اهتمامه لتطوير قوات درع الجزيرة وتعزيزها عدة وعدداً بحيث تصبح قوة فى إطار أمنى متكامل فضلاً عن إنشاء نظام للإنذار المبكر وتنسيق العمل بين شبكات الرادار فى جميع دول مجلس التعاون(٩).

ب- نظرته لدور المجلس من الجانب الاقتصادى:

يتبين منظور الملك فهد لمجلس التعاون الخليجى فى الجانب الاقتصادى من خلال تأكيده على ضرورة إيلاء هذا الجانب اهتماماً كبيراً لتحقيق الرخاء لشعوب بلدان المجلس وضرورة إعطاءه مزيداً من الجهد ليتحقق استكمال تنفيذ الاتفاقية الاقتصادية الموحدة وإزالة أية عقبات تعترض تطبيقها ، وتعميق وتوسيع ممارسة مواطنى دول المجلس لحقوق المواطنة الاقتصادية وإقامة السوق الخليجية الموحدة(١٠).

ويرتفع الملك فهد بفكره ونظرته الكبيرة تجاه اقتصاديات المجلس حينما يلغى الفوارق ويتخلى عن حب الذات فيرى دول المجلس دولة واحدة اقتصادياً حين يقول: «أنا من الناس الذين يفضلون أن يروا مصنعاً مكتوباً عليه مصنع دول الخليج فى جدة، وأرى مصنعاً مكتوباً عليه أيضاً ذلك فى الكويت وفى الإمارات وعمان وقطر والبحرين .. ونرى رأس مال وطنياً مشتركاً من جميع دول الخليج ليس من الحكومة وإنما من المواطنين . هذه الروابط المالية

دائمًا تدعم الصلات بين مواطنى دول الخليج وتدفعها للأمام [١١]. ومما لاشك فيه أن هذه العبارات تؤكد النظرة الشمولية تجاه اقتصاديات المجلس وضرورة العمل لاندماج دوله فى تجمع اقتصادى موحد.

ج- نظرته لدور المجلس من الجوانب الاجتماعية والثقافية:

لقد أكد الملك فهد أن الجانب الاجتماعى والثقافى لدول المجلس هو جزء أساسى من اهتماماته بل هو محور مركزى تتبنى عليه قوة دول المجلس ونموها ويتبين هذا بقوله إن الجانب الاجتماعى والثقافى هو : «محور اهتمامنا منذ قيام المجلس فإننا نأمل أن يحظى بمزيد من العناية بعد أن تم السير بخطوات نافعة فى مجالات التعاون والتبادل الثقافى وتمتع الطلبة فى دول المجلس بمعاملة المواطنين ، وكذلك الحال بالنسبة لشؤون التعاون فى مجالات الصحة والعلاج وشؤون التعاون فى المجالات المتعددة الأخرى....»[١٢].

ويخلص الباحث من خلال ما سبق إلى أن نظرة الملك فهد تجاه مجلس التعاون تنطلق من أسس عظيمة الأهمية من أبرزها .

- أن الإسلام هو منبع التفكير وهو العروة الوثقى لوحدة دول المجلس ولكل أعماله التعاونية.
- أن التعاون الخليجى هو جزء لايتجزأ من التضامن العربى والتآخى الإسلامى.
- أن هناك عوامل وحدة جمعت شعوب منطقة الخليج منها الدين واللغة والأصول العرقية والعادات الاجتماعية الواحدة، والتاريخ المشترك والجوار الجغرافى، وأن المجلس جاء ليكرس تلك العوامل ويرسخها .
- أن قيام المجلس ما هو إلا تلبية لآمال وتطلعات وطموحات شعوب المجلس لرغبتها وميولها الحقة نحو التعاون المثمر فى كافة الجوانب.
- أن مجلس التعاون يجب أن يكون اسمًا على مسمى بحيث تكون صفة التعاون ملازمة لكل ما يتخذ من قرارات مع ضرورة التشاور فى كل أمر تطبيقًا لمبدأ الشورى فى الإسلام.
- أن شعوب مجلس التعاون هى حجر الزاوية فى كل ما يتخذ من قرارات إذ أن الهدف من إنشاء المجلس حفظ مصالح وحقوق هذه الشعوب.
- أن مجلس التعاون يجب ألا ينغلق على نفسه بل لابد أن يكون حلقة داخل منظومة

التكتلات الإقليمية والدولية الهادفة إلى إسعاد الشعوب وحفظ أمنها ورخائها واستقرارها ، وأن لا يقتصر دور المجلس على حل مشاكل دوله بل لا بد من مساهمته بحل مشاكل الشعوب العربية والإسلامية ، وكذلك المشاكل الدولية ومنها على سبيل المثال قضية فلسطين.

- أن وجود بعض المشاكل فيما بين دول المجلس أمر وارد ولذلك فإن دور المجلس هو المعول عليه في القضاء على تلك المشاكل والخلافات ، وضرورة حصر هذه المشاكل داخل نطاق المجلس.
- أن دول المجلس تقف على قدم المساواة مع بعضها البعض من حيث حقوقها وواجباتها المنوطة بها في هذا المجلس وما تمثله من دور في المنطقة.
- أن دور المجلس يجب أن يتصف بالشمولية في رعاية جوانب الحياة المختلفة دون استثناء ولهذا لابد من عناية كاملة بالجوانب الأمنية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية إذ أن جميع تلك الجوانب تصب في مصلحة شعوب دول المجلس ولاغنى لهم عن أي منها، كما أن شمولية دور المجلس يجب أن تنعكس على الأمة العربية والإسلامية باعتبارها الهدف الأسمى لكل وحدة[١٣].

دعم الملك فهد لمجلس التعاون في المجالات المختلفة :

إزاء هذه النظرة التفاؤلية للملك فهد تجاه المجلس ، فقد عمل الكثير لدعمه ومساندته ماديًا ومعنويًا لتحقيق أهدافه وتحويل الأسس النظرية إلى واقع ملموس للوصول إلى المبتغى؛ فبالإضافة إلى ما تقدمه المملكة العربية السعودية من دعم مالي سنوي للمجلس مقاسمة مع دول المجلس الأخرى ، فإن هناك جوانب دعم إدارية ومالية للمجلس اختص بها الملك فهد، ولقد أوضح السيد عبدالله بشارة أمين عام المجلس عام ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ذلك الموقف الداعم بقوله : «إن الملك فهد يطبق المثل القائل إذا اصطنعت المعروف فاستره ، وإذا اصطنع إليك فانشره...»، حيث أشار الأمين العام إلى الدعم اللا محدود من قبل الملك فهد للمجلس وقال : «باسم الجميع أحييكم يا خدام الحرمين الشريفين لعطائكم ووفائكم ورعايتكم للمجلس منذ ولادته حتى انطلاقته ، أعبر لكم ولسمو ولي عهدكم الأمين وحكومتكم الرشيدة عن الامتنان الذي لا يوصف والتقدير الذي لا يقاس.. يقول العرب من هان عليه المال تعلقت به الآمال، وكنا في الأمانة العامة نسأل فنعطى ونطمع فنرضى، جزى الله من أعطى كل خير..»[١٤].

ولعل أبرز الشواهد التاريخية على الدعم المادى السخى من قبل الملك فهد للمجلس هو ذلك الصرح العظيم الذى تبرع به ليكون مقراً للمجلس فى الرياض؛ حيث شيد المبنى على مساحة مائة وستة وعشرين ألف متر مربع ومساحة مبانيه أربعة وثلاثين ألف متر مربع وصمم بشكل هندسى إسلامى وفاءً للبيئة واحتراماً للتراث ، وقسم إلى أربعة أجزاء: الأول : قاعة كبرى للاجتماعات وقاعات تستوعب اثنى عشر اجتماعاً في وقت واحد ، وتسهيلات ممتازة، وغرف للقاعات الجانبية . الثانى: مبنى يضم المكتبة ، وقاعة الكمبيوتر على أحدث طراز ، يفى بحاجة الأمانة لأجيال قادمة. الثالث : مبنى مكاتب الموظفين ، رائع فى مظهره ، يفى بحاجة الأمانة حتى أربعين سنة قادمة . الرابع: سكن الأمين العام يغطى حاجة من يسكنه ويوفر له امتيازات رائعة(١٥).

ولأن الملك فهد لم يرغب بإعلان التكلفة المالية للمشروع ، فقد خلت كلمة الأمين العام آنذاك من ذكر المبلغ حيث اكتفي بالقول «والتكلفة سخاء..»(١٦). والواقع أن تنفيذ المشروع قد تكلف نحو أربعمائة مليون ريال قدمها خادم الحرمين الشريفين ، كهدية إلى المجلس وأبناء الخليج، وتم تنفيذ المشروع بزمن لم يتجاوز تسعة وعشرين شهراً(١٧).

وقد تم افتتاح المبنى يوم الأحد السابع من جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ الموافق ٢٧ ديسمبر ١٩٨٧م بحضور قادة دول المجلس، حيث ألقى الأمين العام للمجلس آنذاك السيد عبدالله بشارة كلمة أشاد فيها بذلك الدعم السخى من قبل الملك فهد حيث قال: «يشرفنى أن أتحدث باسم المجلس كأمين عام طوقه يا خادم الحرمين الشريفين سخاؤكم .. لقد وعدتم فوفيتم وعملتم مع إخوانكم قادة دول المجلس لتطوير حلم القدماء إلى أمل الآباء ليتوج عملاً شامخاً وهو منحتكم للأبناء..» ثم أضاف قائلاً : «... والمبنى هو هدية خادم الحرمين الشريفين إلى جيل المجلس ومنحة من المملكة العربية السعودية تودعها بثقة فى جيل الوفاء الذى يعى سخاء هذه الأرض وهو سخاء ينير الأمل بأن الغد يفوق الحاضر .. لقد قلنا بأن المجلس هو كائن تكبر قامته كل يوم هذا المقر يعطى لمن يراه فكرة عن قامة المجلس بعد جيلين وبرهاناً على أنه بالهمة وحدها يصبح الحلم واقعًا ... هذه مناسبة أدخلت المجلس حقبة جديدة من التاريخ، أشكركم على كل شئ....»(١٨).

وانطلاقًا من ذلك الدعم المادى السخى، والذي صاحبه دعم معنوى ، فقد قدر للمجلس وعلى مدى عقدين من الزمن ومن العمل الخليجى المشترك أن يخطو خطوات واسعة ، ويقفز

قفزات كبيرة نحو تحقيق أهدافه فى مختلف المجالات السياسية والأمنية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والقانونية والإعلامية والتعليمية.

أ- جهود الملك فهد فى دعم المجلس من الجانب السياسى والأمنى:

عمل الملك فهد جاهداً من خلال مجلس التعاون لإنهاء حالة الحرب بين العراق وإيران ، والتى استمرت طوال الثمانينيات من القرن العشرين، ورغم إدراكه لصعوبة التوفيق بين البلدين المتحاربين بشكل أعجز العديد من الهيئات الدولية والبعثات الإسلامية والأمين العام للأمم المتحدة إلا أنه لم ييأس وكان من خلال جلسات مجلس التعاون يحاول طرح الوساطات بين الجانبين لإدراكه لخطورة تلك الحرب التى ستكون كما قال: «خسارة على الجميع إن كانت الدولتين المتجاورتين أو ربما دولنا الخليجية ودولنا العربية والإسلامية كل ما أتمناه أن يوفقنا رب العزة والجلال لأفضل الطرق وأنسبها لإنهاء هذه الحرب بأسرع وقت ممكن إذا أمكن ذلك...»[١٩].

وحين قامت العراق باحتلال جارتها الكويت مع مطلع التسعينات من القرن العشرين كان لخادم الحرمين الشريفين دور بارز فى إخراج منطقة الخليج بل والعالم بأسره من تلك الأزمة وذلك باتخاذ قراره التاريخى بالاستعانة بالدول الشقيقة والصديقة للدفاع عن المملكة وشقيقتها الكويت، ورغم أن هذا الموضوع واسع البحث إلا أننا نشير إلى أن ذلك القرار كان له دور مهم جداً فى الحفاظ على مسيرة مجلس التعاون الذى أكد قدرته على التحدى حين التف قادته وشعوبهم للدفاع عن بلدان الخليج؛ ولهذا فإن أول قمة عقدت بعد إزالة الاحتلال العراقى للكويت قد عقدت على الأرض المحررة للربط بين مسيرة المجلس وعودة أحد أعضائه إليه؛ ولقد أعرب الملك فهد عن تفاؤله بمناسبة عقد تلك القمة قائلا: «ومن حسن الطالع أن يأتى هذا الاجتماع للقمة الثانية عشرة فى الكويت المحررة وطبيعى أن تطغى مشاعر التفاؤل بما ينتظر أن تسفر عنه هذه القمة وهى تنعقد فى أجواء مابعد التحرير والقضاء على العدوان، فلتكن هذه القمة إذن قمة الانطلاقة الجديدة لمسيرة التعاون لدول الخليج العربية، انطلاقة فى كل الاتجاهات التى حددتها المسيرة من خلال مواثيقها الأساسية....»[٢٠].

ومنذ أن أقدمت إيران على احتلال الجزر الثلاث أبو موسى وطنب الصغرى وطنب الكبرى المتنازع عليها مع دولة الإمارات العربية المتحدة فإن الملك فهد وجه نداءاته المتكررة من خلال المجلس إلى إيران بالقبول بحل النزاع بالطرق السلمية من خلال الحوار الجاد والمباشر مع دولة الإمارات العربية المتحدة أو القبول بإحالة القضية إلى محكمة العدل الدولية ونبذ سياسة

فرض الأمر الواقع بالقوة المتنافي مع أمن واستقرار المنطقة ومع مبادئ القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة ومبادئ حسن الجوار واحترام سيادة ووحدة أراضي دول المنطقة(٢١).

ولأن خادم الحرمين الشريفين يؤمن بأن القضية الأساسية للعرب والمسلمين هي قضية فلسطين فقد حرص من خلال مجلس التعاون لدول الخليج العربي على بذل المساعي لإيجاد حلّ يحفظ للفلسطينيين حقوقهم المسلوبة ؛ فبعد أن أعلن مشروعه للسلام ودعى لتوحيد الصف العربي خلال مقررات القمة العربية الثانية عشر المنعقدة في مدينة فاس في المغرب سنة ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ولقي موافقة القادة العرب بالإجماع على ذلك المشروع كأساس لسلام شامل في الشرق الأوسط لم يلبث الملك فهد أن سارع الخطى لمناقشة الموضوع الفلسطيني خليجيًا في قمة المنامة، ثم جاءت القمة الخليجية في مدينة الدوحة ليواصل فيها دوره مع قادة دول مجلس التعاون للمساهمة بحل قضية فلسطين وتوحيد الصف العربي لدعم الشعب الفلسطيني(٢٢)، وهو ما عاد ليؤكده في القمة الرابعة عشر في الرياض عام ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م حيث عبر عن أمله الكبير في أن تكون اتفاقية أوسلو الموقعة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل خطوة أولى صحيحة في سبيل التوصل إلى حل عادل ودائم وشامل للنزاع العربي الإسرائيلي(٢٣) موضحًا ذلك بقوله : «قضيتنا الأولى تحرير القدس تنتظر منا الاعتصام بحبل الله جميعًا كي يعود أبناء فلسطين إلى وطنهم مع حقهم في تقرير المصير..(٢٤)». واستمر الملك فهد مصرًا على أن قضية العرب والمسلمين الأولى هي قضية فلسطين متخذًا من مجلس التعاون أداة فاعلة لحل تلك القضية.

ومع انعقاد القمة الثانية والعشرين للمجلس في سلطنة عمان عام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م أوضح أن من أبرز اهتمامات المجلس قضية فلسطين وأن «دول المجلس ستتواصل جهودها- بحول الله وقوته- عبر كل القنوات من أجل حفز الإرادة الدولية لتفعيل دورها لتطبيق الشرعية ذات الصلة وإن شاء الله لن يضيع حق وراءه مطالب سواء طال الزمن أم قصر...»(٢٥).

وفي الوقت الذي عمل الملك فهد من خلال مجلس التعاون لإيجاد الحلول الناجحة للقضية الفلسطينية فإنه لم يتجاهل المشاكل السياسية الناشئة داخل البيت الخليجي نفسه ويحاول بكل قوة إقناع أطرافها باللجوء للحكمة والتفاهم وحلها داخل إطار المجلس، ومنها ذلك الخلاف الذي نشب بين دولتي قطر والبحرين على بعض المناطق الحدودية حيث قال عن هذا الخلاف : « بالنسبة لدول الخليج وإن كان هناك بعض المشاكل الطارئة مثل ما هو موجود بين البحرين وبين قطر فهي مشكلة موجودة ولكن اعتقد أن الحكمة بالنسبة للقادة في البحرين

والقادة فى قطر جديرة أن تحل هذه المشكلة بالطرق المحببة للنفوس...» ثم يحاول التقريب بين وجهات نظر أطراف الخلاف مبينًا أن «أى مشاكل تطرأ بالنسبة لدول الخليج مع بعضها البعض دائمًا تحل بالطرق الودية، ولدول الخليج سياسة معينة هى ألا تتدخل فى شؤون أحد ولاتسمح لأحد أن يتدخل فى شؤونها...»(٣٦). ولقد أثمرت تلك الجهود عن حل ذلك الخلاف وعودة الصفاء إلى العلاقات بين الدولتين.

غير أن الدعم السياسى الأبرز الذى يمثله الملك فهد لمجلس التعاون هو ذلك التعامل المرن مع الدول أعضاء المجلس فيما يتعلق بترسيم الحدود، إذ أنه يدرك تمامًا حساسية وضع الحدود غير المرسومة بين الدول، واحتمال كونها مصدر نزاع مستقبلى بين الجيران، وإذا كان وجود الملك فهد فى قمة الهرم السياسى للمملكة العربية السعودية كفيل بتذليل كل مشكلة حدودية مع دول المجلس لما عرف عنه من حكمة وقدرة على احتواء الأزمات إلا أنه أيقن أن ترك الأمر عائمًا أمرٌ محذور ، ولذلك فإنه ركز جهوده بالتعاون مع أشقائه فى الكويت وعمان والإمارات العربية المتحدة وقطر من أجل تحقيق إنجاز غير مسبوق بالاتفاق على ترسيم الحدود فيما بين المملكة وتلك الدول.

وتبرز نظرة الملك فهد حول هذا الأمر من خلال الابتعاد عن التصعيد الإعلامى المرتبط بالحدود والتركيز على العمل بصمت وتجاوز العقبات التى تواجه طريقه للوصول إلى الهدف المنشود إذ لم يكن هدفه الاحتفاظ بهذا الجزء أو ذاك من الأرض بقدر ما كان هدفه الوصول إلى حل يرضى الجميع مع ضمان حقوق شعبه وعدم التفريط بمكتسباته .

وتبعًا لهذا التوجه فقد تم الانتهاء من ترسيم الحدود السعودية العمانية بعد أن ظل موضوع الحدود مقلقًا للبلدين وبقية بلدان المنطقة لمدة طاولت القرن العشرين غير أن قادة البلدين أدركوا ضرورة التفاهم والانتهاء من ترسيم الحدود، وقد تم ذلك عبر اتفاقية حفر الباطن الموقعة فى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م بين الملك فهد والسلطان قابوس بن سعيد سلطان عمان(٣٧)، وكان لتلك الاتفاقية دور كبير في ترسيخ العلاقات بشكل أكبر بين الطرفين وجعلها تنمو من حسن إلى أحسن(٣٨).

وواصل الملك فهد جهوده للانتهاء من ترسيم الحدود وحل إشكالاتها مع بقية دول المجلس حيث شهد العام ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م عقد قمة ثنائية سعودية قطرية فى المدينة المنورة تم خلالها الاتفاق على ترسيم الحدود بين البلدين بعد أن بقيت تلك المشكلة تلقى بظلالها على العلاقة بين الجانبين مدة طويلة، وتتابع بعد ذلك التفاهم الودى بين الملك فهد وقادة دول المجلس

الأخرى للانتهاء من المشاكل الحدودية المعلقة حيث شهد العام التالى اتفاقًا بين المملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة على إجراء بعض التعديلات الحدودية بما يرضي الطرفين(٢٩).

وتلاشت المشاكل الحدودية مع دولة الكويت حينما تم توقيع اتفاقية ترسيم الخط الحدودى فى المنطقة المغمورة المحاذية للمنطقة المقسومة سابقًا بين البلدين حيث وقع الطرفان ممثلان بوزيرى خارجيتيهما على الاتفاقية وذلك فى ربيع الأول ١٤٢١هـ / يوليو ٢٠٠٠م فى مدينة الكويت، وقد صادق مجلس الشورى السعودى على الاتفاقية بعد سبعة أيام من توقيعها ثم وافق مجلس الوزراء عليها فى اليوم التالى مما يدل على ترحيب الجهات السياسية الرسمية فى المملكة بتلك الاتفاقية ، وفى الثامن من شهر جمادى الأولى ١٤٢١هـ أصدر الملك فهد مرسومًا ملكيًا يوافق بموجبه على الاتفاقية المبرمة وملحقها الأول الذى يوضح ملكية البلدين للثروات الطبيعية فى المنطقة المغمورة(٣٠).

والحقيقة التى لابد من إثباتها أن تلك الاتفاقات لم تكن لتتم لولا حرص الملك فهد ومرونته وتجاوزه لكثير من العقبات والإشكالات التى كانت سببًا فى بقاء المشاكل الحدودية بين المملكة وشقيقاتها دول المجلس معلقة لفترة طويلة؛ يتضح ذلك من خلال تتبع ملفات مشاكل الحدود وسبب بقائها معلقة كل تلك الفترة وكيف كان للملك فهد الدور الأكبر فى الوصول إلى حل يرضى جميع الأطراف ليصل فى نهاية الأمر إلى إنهاء مشكلة تاريخية، وكل ذلك نابع من إيمانه بأن مجلس التعاون يجب أن يتجاوز تلك الإشكالات ولأنه ركيزة من أهم ركائز العمل المشترك فى سبيل تحقيق آمال وطموحات شعوب الخليج نحو مستقبل أفضل (٣١).

ب- جهود الملك فهد فى دعم المجلس من الجانب الأمنى :

أما فى مجال التعاون الأمنى فقد أولى خادم الحرمين الشريفين عنايته واهتمامه بموضوع الأمن على كافة الأصعدة وتفاعل مع التطورات التى يشهدها العالم وكان له السبق بإعلان نبذه لظاهرة الإرهاب وسبق الجميع بتوجيه دعوة فى عام ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م لعقد مؤتمر دولى لمناقشة ظاهرة الإرهاب مع عدم الخلط بينه وبين حقوق الشعوب فى الدفاع عن وجودها (٣٢).

وقد أثبتت وقائع الزمن صدق مرئياته حول هذا الجانب بما عانته كثير من دول العالم خلال السنوات التالية من هذه الظاهرة، ولذلك فإنه أعاد دعوته لمحاربة الإرهاب من خلال مجلس التعاون خلال دورته الثانية والعشرين فى مسقط عام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م حين قال : «إن

الإرهاب فى المصطلح السياسى الإعلامى المعاصر هو فى حقيقته إفساد فى الأرض وديننا يحرم ذلك .. ولذا فمن الطبيعى التعاون من أجل اجتثاث جذوره تفادياً لشروره وهذا ما كنا ومازلنا نطالب به ونلح فى طلب التعاون لمعالجته حتى لايستفحل خطره والمملكة العربية السعودية وأخوتها دول مجلس التعاون تسهم بكل ما تستطيعه لدعم وتعزيز الجهود الدولية فى هذا الصدد على شرط أن يتوافق ذلك مع شريعتنا الإسلامية السمحة ومع ما توصى به الشرعية الدولية ليتسنى المضى قدماً لما فيه خير البشرية..»(٣٣).

ولقد أولى الملك فهد موضوع التعاون الأمنى أهمية كبيرة بالتعاون مع قادة دول المجلس مدركًا أن الخطط التنموية والتطور والازدهار لايمكن أن تتحقق إلا فى ظل من الأمن والاستقرار ؛ ولذا عمل المجلس على تأسيس لجنة وزراء الداخلية فى دول المجلس والتى تتابع عبر اجتماعاتها الدورية المهام والمسؤوليات الأمنية فى دول المجلس، وقد أثمرت تلك اللجنة عن بعض الإنجازات ومنها : إقرار الاتفاقية الأمنية لدول المجلس وكذلك الاستراتيجية الأمنية الشاملة التى شكلت الإطار العام للتعاون الأمنى بين الدول الأعضاء، بالإضافة إلى كثير من الإنجازات الجماعية والثنائية حول الجوانب الأمنية المختلفة(٣٤).

ج- جهود الملك فهد فى دعم المجلس من الجانب العسكرى:

فى الشأن العسكرى اعتبر الملك فهد الاعتداء على دولة خليجية هو اعتداء على كل دول المجلس ولذا فإن موقفه التاريخى من العدوان العراقى على دولة الكويت خير مثال لهذا التوجه ، وتبعًا لذلك حرص الملك فهد على وضع ترتيبات عسكرية من شأنها تحمل مسؤولية الدفاع عن دول المجلس فتم إقرار العديد من الوثائق والدراسات المتعلقة بالسياسة الدفاعية والتصور الاستراتيجي ومجالات التعاون العسكرى الأخرى، ومن هنا برزت فكرة إنشاء قوة درع الجزيرة (التدخل السريع) سنة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م لإجراء التمارين العسكرية بين دول المجلس، وتم تكوين لجنة عسكرية عليا من قبل وزراء الدفاع لمتابعة موضوع الدفاع الجماعى مع التركيز الشديد على تطوير قوة درع الجزيرة وبنائها: حيث وضعت تحت إشراف قيادة جيش المملكة العربية السعودية ، وقد بدأت تلك القوة تؤتى أكلها مع مطلع التسعينات من القرن العشرين حيث ساهمت بحرب تحرير الكويت والدفاع عن الأراضى السعودية ضد الغزو العراقى ، كما تم العمل على إيجاد حزام التعاون العسكرى، وتوحيد موضوعات المساحة العسكرية(٣٥)، بالإضافة إلى متابعة تنفيذ مشروع التغطية الرادارية والإنذار المبكر بين مراكز عمليات القوة الجوية والدفاع الجوى لدول المجلس وتوحيد عدد كبير من مناهج الدورات

العسكرية وتبادل الزيارات والخبرات والتدريب بين الكليات والمعاهد والمدارس العسكرية في دول المجلس (٣٦).

د- جهود الملك فهد في دعم المجلس من الجانب الاقتصادي:

لأن الاقتصاد هو عصب الحياة فإن الملك فهد إضافة إلى ما سبق أن طرحه من رؤى وجهود لدعم اقتصاديات دول المجلس اتبع القول بالعمل من خلال جهوده الكبيرة في هذا الجانب ؛ منها على سبيل المثال إعلانه عن تخصيص حصص من أسهم شركة سابك السعودية للمساهمة بها من قبل دول الخليج والهدف من ذلك إيجاد التصاق مالي بين دول المجلس إذ أنه يرى «أن الالتصاق المالي أقوى من الالتصاقات السياسية والاجتماعية لأن رأس المال إذا اشترك مع بعضه ربط الأمم بعضها ببعض برباط قوي جداً وأصبحت كلها تدافع عن رأسمالها...»(٣٧).

وهذه النظرة الاقتصادية الكبرى للملك فهد يكرسها لا لخدمة حكومات دول المجلس فحسب بل لأفراده فيطرح نفسه الفكرة قائلاً وهو يعبر عن أمله بأن : «... نرى رأسمال مشترك وطني من جميع دول الخليج ليس من الحكومات وإنما من المواطنين ، هذه الروابط المالية دائمًا تدعم الصلات بين مواطني دول الخليج وتدفعها إلى الأمام.. فلا شك أنه من العمليات المفيدة جداً أن يوجد ترابط بين دول الخليج من الناحية الاقتصادية...»(٣٨).

وإذا كانت هذه نظرة الملك فهد لخدمة اقتصاد دول المجلس فليس من المستغرب أن يسعى المجلس بكل السبل للعمل الاقتصادي المشترك خلال عقدين من الزمن ولهذا فإن المجلس وضع من أولوياته وعبر نظامه الأساسي تحقيق العديد من الأهداف الاقتصادية (٣٩)، كما هدف المجلس إلى إيجاد الاتفاقية الاقتصادية الموحدة والتي تم التوقيع عليها في الرياض في ١٥ / ١ / ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م وضمت سبعة فصول وثمانية وعشرين مادة تهدف في مجملها إلى الرقي بالجانب الاقتصادي والتنسيق المشترك فيما بين دول المجلس بهذا الشأن وهي شاملة لجميع الجوانب الاقتصادية (٤٠).

وقد بين الملك فهد حرصه على دعم هذه الاتفاقية ومتابعة مراحل تنفيذها معبراً عن هذا الاهتمام بقوله : «لقد خطت الاتفاقية الاقتصادية الموحدة، خطوات واسعة نحو التنفيذ في مجالات التعاون الاقتصادي بما يجعل منطقتنا منطقة اقتصادية موحدة ونموذجًا للتكامل الاقتصادي ومن الأمثلة على ذلك رفع الحواجز الجمركية وحرية انتقال رؤوس الأموال وانتقال

الأشخاص والعمالة وإعطاء الأفضلية فى المشروعات الحكومية فى الدول الأعضاء للمنتجات الوطنية وغير ذلك من مجالات التعاون الاقتصادى»[٤١].

كما تم وضع استراتيجية تنموية شاملة بعيدة المدى لدول المجلس تمتد لخمس وعشرين سنة تبدأ من عام ٢٠٠٠م وحتى ٢٠٢٥م، وتهدف إلى تحقيق التنمية فى المحاور المتعددة ومنها المحور الاقتصادى والتعاون فى مجاله بين دول المجلس لكى يتم تحقيق النمو الاقتصادى بشكل متصاعد عبر سنوات هذه الاستراتيجية ، وقد تم اعتماد هذه الاستراتيجية فى الدورة التاسعة عشر للمجلس الأعلى المنعقد فى أبوظبى عام ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م[٤٢].

وكذلك تم إيجاد الاستراتيجية الموحدة للتنمية الصناعية والإطار العام للاستراتيجية السكانية لدول المجلس وكذلك السياسة الزراعية المشتركة لهذه الدول، وتعمل تلك الاستراتيجيات والسياسات لتحقيق المساواة بين مواطنى المجلس فى كثير من المجالات الاقتصادية كالمعاملات الضريبية والجمركية والتجارية وغيرها [٤٣]، ولا مجال للحديث عن منجزات اقتصادية للمجلس لكن أبرز ما تحقق فى هذا الشأن بدء العمل بالاتحاد الجمركى لدول مجلس التعاون اعتباراً من العام ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م بدلاً من العام ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م، حسبما كان مقرراً من قبل، إضافة إلى العمل على إيجاد عملة خليجية موحدة بدءًا من عام ١٤٣٠هـ / ٢٠١٠م [٤٤]، وقد أشاد الملك فهد بالتقدم الذى تم فى هذا الشأن خلال القمة الخليجية الثانية والعشرين فى مسقط والمنعقدة فى شوال ١٤٢٢هـ/ ديسمبر ٢٠٠١م معتبراً إياه «.. نقلة نوعية ومهمة وضرورية فى إطار سعى الدول الأعضاء لتحقيق التكامل الاقتصادى بينها ونحن على ثقة- إن شاء الله- أننا سنتمكن جميعًا من التخلص من المعوقات أولاً بأول وسنصل بإذنه تعالى إلى التكامل المنشود فى الوقت المناسب...»[٤٥].

د- جهود الملك فهد فى دعم المجلس من الجوانب الإنسانية والعلمية والإعلامية:

بدعم مباشر من الملك فهد حقق المجلس العديد من الإنجازات على صعيد خدمة شؤون الإنسان والبيئة ، والشؤون القانونية المختلفة ، والشؤون الإعلامية ومراكز المعلومات خاصة فيما يتعلق بالحاسب الآلى والإحصاءات الرسمية للدول الأعضاء وإصدارها عبر نشرات سنوية شاملة ، وكلها إحصاءات شاملة لجوانب حياة الإنسان الخليجى، ولايبتعد ذلك عن الجانب الثقافى والعلمى ، الذى حرص مجلس التعاون على الرفع من مكانته وشأنه ، ولذا فقد تم العمل على إيجاد مكتبة متخصصة فى شؤون مجلس التعاون وغير ذلك من كتب ودوريات

عربية وأجنبية ومطبوعات حكومية ودوريات متخصصة وفقًا لاحتياجات العمل والباحثين في الأمانة العامة لدول المجلس، مع توفير المعلومات على أقراص ممغنطة وفقًا لاحتياجات القطاعات والإدارات المعنية في الأمانة العامة إضافة إلى استخدام الشبكة الدولية (الانترنت) في أعمال البحث ، وفي الإطار الثقافي والعلمي أيضًا فإن الأمانة العامة وبدعم من دول المجلس قد رعت ونظمت الكثير من الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية (٤٦)، كما تمت مساواة طلاب دول المجلس في الاستفادة من التعليم قبل الجامعي واعتبار الشهادات والوثائق الدراسية الصادرة من كل دولة خليجية مماثلة للشهادات الصادرة من بقية دول المجلس، إضافة إلى مساواة طلاب دول المجلس في الاستفادة من التعليم العالي بحيث تكون أفضلية القبول لمواطني دول المجلس بعد مواطني الدولة نفسها ، والمساواة في المعاملة بعد الدراسة، وكذلك في خدمة الطلاب فيما يتعلق بالعلاج والسكن والرسوم والمكافآت وغيرها (٤٧)، وإلى جانب ذلك فهناك المنح الدراسية المتبادلة بين جامعات دول المجلس لأبناء تلك الدول حيث تقدم الجامعات والكليات والمعاهد السعودية العديد من المنح الدراسية لأبناء دول المجلس.

غير أن من أبرز جوانب دعم الملك فهد للمجال العلمي خليجيًا هو العمل على إيجاد الجامعة الخليجية الموحدة متمثلة بجامعة الخليج العربي ومقرها البحرين حيث تعتبر تلك الجامعة وحدة علمية ثقافية لأبناء دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ضمن منظومة الوحدة بين أبناء دوله التي تشترك في دعم الميزانية المالية للجامعة التي حظيت بدعم كبير من الملك فهد وكان له الفضل- بعد الله- في استمرارية الجامعة وذلك حينما عصفت بها أزمة مالية كادت أن تؤدي إلى إلغاء مشروعها الأساسي سنة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م مما دعا المسئولين في الجامعة لإبلاغ الملك فهد بمعاناتها المالية ؛ ورغم ما كانت تعيشه المنطقة آنذاك من ظروف تمثلت بالاحتلال العراقي للكويت وما تطلبه الموقف حينذاك من إجراءات اقتضت مبالغ ونفقات مالية كبيرة هددت اقتصاد المنطقة بأسرها إلا أنه سارع بدعم الجامعة وإخراجها من أزمتها(٤٨).

وإزاء ذلك الدعم المتواصل من خادم الحرمين الشريفين تجاه الجامعة ، فقد خصصت كرسيًا علميًا يحمل اسمه، ولاشك أن هذا الكرسي العلمي يعطي عراقة للجانب الأكاديمي والعلمي في هذه الجامعة(٤٩).

نظرة خادم الحرمين المستقبلية تجاه المجلس:

عرف عن الملك فهد بن عبد العزيز تفاؤله بمستقبل مجلس التعاون يوماً بعد يوم وسنة بعد أخرى ، بل أنه راهن على المستقبل المشرق الذى ينتظر المجلس وفى ذلك يقول : «أن صيغة مجلس التعاون كمجتمع ليست مهددة بعدم الاستمرار لأن الشأن الخليجى لشعوب هذه المنطقة هو شأن يدرس ويهيأ جيداً من قبل الأجهزة المختصة فى الدول الأعضاء ثم يأتى القادة ليجددوا فى لقاءاتهم مشاعر الألفة والمحبة بينهم... نعم إن مجلس التعاون مستمر ومتطور بإذن الله تعالى وهدفنا أن نصل فيه إلي الأهداف التى اتفقت عليها الدول المؤسسة له ولا شك أنها حريصة عليها .. وسنؤكد للعالم أجمع أن هذا التجمع أقوى من ظنون الذين لايريدون له الاستمرار...»(٥٠).

لقد رأى الملك فهد أن الأزمات التى حلت بالمنطقة قد أثبت تماسك المجلس ودوله وأن مسؤولية الحفاظ على هذا المجلس منوطة بجميع دوله فيقول : «.. إننا جميعاً مسؤولون عن هذا الصرح الذى بنيناه والذى نطالب اليوم بترسيخه والحفاظ عليه..»(٥١).

وابتعد الملك فهد عن المفهوم الضيق لعلاقات دول المجلس حين أكد أن التباين فى وجهات النظر بينها تجاه بعض القضايا لايعنى أنه خلاف، وأن الاختلاف فى الرأى داخل المجلس لا يصل إلى الطرق المسدودة، كما أكد على ضرورة احترام آراء الدول ووجهات نظرها فى أى قرار ، وأن يترك الوقت الكافى لاقتناع الجميع وتشاورهم فى أى أمر، ورأى أن التباين فى الرأى قد يؤدى إلى تصحيح المسار بشكل أفضل مطبقًا بذلك مبدأ (اختلاف الرأى لايفسد للود قضية)، ومن هنا فإنه قطع الطريق على إثارة الخلافات بين دول المجلس فيؤكد قائلاً : «من الخطأ أن يتصور أحد أنه قادر على المتاجرة بخلافاتنا أو النفخ فيها لأنها خلافات الأشقاء داخل البيت الواحد .. فَمَنْ يظن أنه قادر على المتاجرة بها أستطيع أن أقول بإنه مخطئ ... إننا لانريد أن نتيح أى فرصة لأى أجنبى خارج لُحْمتنا أن يستغل رؤيتنا للصورة التى يجب أن نحل بها خلافاتنا فى هذه المنطقة .. فتباين وجهات نظرنا سيبرز بين حين وآخر وبين طرف وآخر وهى تباينات تنحصر فقط بين المختلفين حولها ولاتصيب كيان تجمعنا..»(٥٢).

ومن المؤكد أن تمسك الملك فهد بهذا التكتل وعمله الدؤوب لتطويره منبثق من إيمانه العميق بأن العصر عصر التكتلات الاقتصادية مهما كانت المستجدات السياسية والهدف الأبعد لهذا التكتل الخليجى أن يكون درعًا للأمة العربية والإسلامية وحماية لها من الابتزاز و الاحتكار والتجويع (٥٣).

كما أكد أن إقامة هذا التكتل دليل على حكمة الرأى وحسن التقدير ، وأنه جاء فى الوقت المناسب، وأن المستقبل سيكون أفضل عن طريق الأخذ بالطرق العلمية المدروسة باعتبار المجلس: «كيان حيوى يأخذ بالأسباب لكل ما يندرج فى مفهوم التطوير الإيجابى ، وأن المجالس الوزارية المتخصصة ذات الصلة تخصص حيزًا عريضًا من خلال اجتماعاتها الدورية المنتظمة لتفعيل آليات عمل المجلس والاستفادة من التجارب العملية والمستجدات وما يستنبط من طروحات العلماء والمفكرين ، ومن ضمن أولئك ما ينبثق عن المجلس الاستشارى الأعلى الذين هم صفوة من ذوى الرأى الحصيف ، ولذا فإن عملية تطور آليات عمل المجلس مستمرة....». ولذا فإنه أكد على ضرورة التفاؤل بمستقبل المجلس موضحًا أن هناك العديد مما ينتظر شعوب دوله من البرامج والفرص الاستثمارية والاقتصادية التى يعول عليها ضمن برنامج الشراكة الاقتصادية ، وإذا توفرت لدول المجلس تلك القفزة الاقتصادية تيسر لها النهوض بكل أعبائها، مع ضرورة تجنب تلك الدول الوقوع فى الأخطار الناجمة عن سوء التقدير وضرورة الالتزام بالسياسات الرشيدة ، ورغم هذا التفاؤل الذى أبداه الملك فهد بمستقبل المجلس ودوله ، إلا أنه أوضح بأن التقويم الناجح هو أساس البناء ، لذلك فهو وبنقد موضوعى وبشفافية هادفة أكد أن المجلس لم يتمكن بعد من تحقيق أحلام أبناء الخليج ، ولكنه يراهن بأن قادة دول المجلس ، لن يدخروا وسعًا فى سبيل تحقيق تلك الأحلام وذلك بالمضى فى نهج قويم مصدره توجيه سياسى معتدل ومنهج أخلاقى رفيع(٥٤).

وقد أكد سياسة الملك فهد تلك الأمير عبدالله بن عبد العزيز فى كلمته التى ألقاها بمناسبة انعقاد القمة الثانية والعشرين للمجلس فى مسقط حيث بين أن هناك تأخر فى منجزات المجلس خاصة فيما يتعلق بتحقيق الوحدة الاقتصادية ، ومعاهدة الدفاع المشترك ، اللتين يعول عليهما قادة دول المجلس لاتخاذهما منطلقًا للدفاع المشترك عن الأمة العربية وقضاياها وتخليص الفلسطينيين مما يلحق بهم من قمع دموى على يد إسرائيل، كما أكد الأمير عبدالله أيضًا على ضرورة محاسبة النفس وتوجيه اللوم لها قبل غيرها، وحث دول المجلس على الاستفادة من أخطاء الماضى والابتعاد عن الشكليات والعمل للمستقبل عبر قنوات اقتصادية ومناهج دراسة موحدة وقنوات عربية وإسلامية ، تستطيع مجتمعة معالجة مشاكل الأمة بأسرها(٥٥).

إن ذلك النقد الذاتى الموضوعى الصريح هو الطريق السليم لمواصلة مسيرة المجلس وهو ما آمن به الملك فهد ليكون النهج الذى يجب السير فيه لتحقيق الأهداف المرسومة التى اتفقت

عليها الدول المؤسسة له، ومن هذا المنطلق عاد الملك فهد للتأكيد بأن المجلس «مستمر ومتطور- بإذن الله- حتى نؤكد للعالم أن هذا التجمع أقوى من ظنون الذين لايريدون له الاستمرار وبإذن الله سنحافظ على هذا التجمع حتى لو اختلفنا حول بعض القضايا لأن الخلاف يزيل فى بعض الأحيان الشوائب ويطور القرار حول الشأن المطروح وسنسير لتأكيد أن هذا التجمع وجد ليبقى وأنه سيستمر...»(٥٦).

الخاتمة

من المؤكد أن تلك الانطلاقة القوية لمجلس التعاون لدول الخليج العربية لم تكن وليدة الصدفة بل كانت ثمرة لتخطيط مدروس ساهم بإبرازه خادم الحرمين الشريفين منذ أن كان وليًا للعهد فى بلاده، وحين تولى الحكم حمل على عاتقه دعم المجلس وتحقيق مطالبه المادية والسياسية رغبة بإبرازه ككيان وتكتل منبثق من الوحدة العربية وعاملاً لتحقيق مصالح الأمة العربية بأسرها خاصة أن الملك فهد قد أكد بأن المجلس ليس موجهًا ضد أحد وأنه مرحلة تعاون ضمن التعاون العربى عامة وسيكون سندًا ودرعًا للأمتين الإسلامية والعربية ومتعاونًا مع المجتمع الدولى للمحافظة على الأمن والسلم الدوليين وتجنيب مجتمعاته كل ما يؤثر على رخائها واستقرارها .

وبما أن الملك فهد قد أولى أمن الخليج الأهمية القصوى فإنه رأى فى هذا التكتل دعامة أساسية لتحقيق ذلك الأمن، ولأنه حريص على توفير الرخاء الاقتصادى لأبناء دول الخليج العربى فقد رأى أن المجلس طريق لتكتل اقتصادى يغنى بلدان الخليج وشعوبها عن الغير ويكفل لها الحياة الهانئة، ومن هذين المنطلقين وما يتفرع عنهما من جوانب لم يكن مستغربًا أن يعلن «أن المملكة العربية السعودية تضع كل قدراتها لخدمة دول المجلس ونتطلع معها إلى بناء العنصر الخليجى البشرى القادر على الاستفادة من كل معطيات العصر بما يتلائم مع عقيدته الإسلامية الصحيحة وعاداته وتقاليده.. وقد بذلنا من الجهود والمساعى مع إخواننا قادة دول مجلس التعاون ما هو معلوم للجميع ...»(٥٧). وإذا كان المجلس بهذا الدعم من قبل الملك فهد قد حقق الكثير من المنجزات فإن المشوار لايزال طويلاً لتحقيق المزيد بالتعاون والدعم من كافة قيادات دول المجلس مع إخلاص النية ووحدة الصف والهدف.

ورغم بعض الآراء التى تقلل من دور المجلس إلا أن الواقع يؤكد أنه وعبر عمره القصير قد حقق كثيرًا من الإنجازات خاصة فى المجالات الإدارية والاقتصادية والتنموية بشكل عام، و لا

بضير المجلس إن تأخر فى متابعة ما خطط له من أهداف فى المجال العسكري إذ أن هذا الجانب تحديداً يجب التعامل معه بحذر ومرونة حسب مقتضيات الظروف السياسية والعسكرية المحيطة بالمنطقة، والعالم عامة مع الابتعاد عن المجازفة وسوء التوقيت الذى قد يؤدى إلى نتائج وخيمة على بلدان المنطقة ووحدتها .

وبنظرة فاحصة لسيرة المجلس بعد عقدين من الزمن- هما أيضًا مسيرة الملك فهد فى حكم بلاده- نرى أن هناك تلازمًا بينهما أدى إلى أن يكون اهتمام الملك فهد موجهًا بشكل كبير لدعم هذا المجلس الذى ولد متزامنًا مع تحمله لأعباء الحكم ومسؤولياته فى المملكة العربية السعودية.

الهوامش

١- مجلس التعاون لدول الخليج العربية- نظامه وهيكله التنظيمي وإنجازاته من إصدارات الأمانة العامة للمجلس في الرياض : ط٢، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، ص ص١٨-٢٠ ؛ محمد حسن العيدروس ، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ط١، القاهرة : عين للدراسات والبحوث ، ١٩٩٦م، ص ص٣٠٩-٣١١ .

٢- انظر: النظام الأساسي لمجلس التعاون لدول الخليج العربية الصادر عن الأمانة العامة للمجلس ، إصدار الأمانة العامة للمجلس في الرياض : ط٦، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م، ص٥ وما بعدها ، وكذلك : مجلس التعاون لدول الخليج العربية ، نظامه وهيكله - مصدر سابق، ص ص٢١-٨٥ .

٣- من كلمة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الخامس لدول الخليج العربية بدولة الكويت سنة ١٤٠٥هـ ، انظر : المنظور الفكري لخادم الحرمين الشريفين (المواقف) ، إصدار وزارة الإعلام، ط١ ، الرياض، الوكالة الأهلية للإعلام، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م، ص٩٧ .

٤- من كلمة خادم الحرمين الشريفين قبيل انعقاد القمة السادسة لمجلس التعاون عام ١٤٠٦هـ . انظر : خالد بن محمد القاسمي : فهد بن عبد العزيز قائد ومسيرة . ط١ . دمشق : دار الجيل للطباعة والنشر، ١٩٩٥م، ص١٤ .

٥- من حديث خادم الحرمين الشريفين بمناسبة اليوم الوطني للمملكة العربية السعودية جدة ١١ / ٢ / ١٤٠٩هـ . موقع دارة الملك عبد العزيز على الانترنت : WWW. darah. org . sa

٦-من حديث خادم الحرمين الشريفين بمناسبة انعقاد القمة الثانية عشر لدول مجلس التعاون في الكويت ١٤١٢هـ / ١٩٩١م . موقع كلمات الملك فهد على شبكة الانترنت : .WWW. mypag. ayna. com وكذلك عادل رضا : فهد بن عبدالعزيز الإنسان- الملك . القاهرة: دار أخبار اليوم. د.ت ن، ص٢٤٦ .

٧- موقع كلمات الملك فهد على شبكة الانترنت : WWW. mypag . ayna . com

٨- نفس المصدر .

٩- عادل رضا: المصدر السابق، ص٢٤٦، وللمزيد عن النظرة السعودية تجاه أمن الخليج وسبل تحقيقه ، انظر : الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز : أمن الخليج العربي من منظور وطني، ط١ أبوظبي . مركز الإمارات للدراسات والبحوث ، ١٩٩٧م، ص ص٥-٣٨ .

١٠- من حديث الملك فهد للقمة الثانية عشر ١٤١٢هـ / ١٩٩١م . موقع كلمات الملك فهد على شبكة الإنترنت : .WWW. mypag . ayna. com

١١- جريدة المدينة المنورة العدد ٦٧٢٩ ، ٧ / ١ / ١٤٠٦هـ .

١٢- موقع كلمات الملك فهد على شبكة الإنترنت : WWW. mypag . ayna . com

١٣- من تصريحات خادم الحرمين الشريفين. جريدة أم القرى، السنة (٦٠) العدد (٢٩٤٠) ٢٦ / ١ / ١٤٠٣هـ، ص١ ، ٢٤ .

١٤- نص كلمة الأمين العام عبدالله بشارة في افتتاح مبنى الأمانة العامة لمجلس التعاون في الرياض، الأحد ٧ جمادى الأولى ١٤٠٨هـ ، من إصدارات الأمانة العامة، ص٤،٦ .

١٥- المصدر السابق، ص٦ .

١٦- نفس المصدر والصفحة .

١٧- هاشم عبده هاشم : الدور السعودي في الخليج . ط١ . د.م الإسراء للخدمات الإعلامية، ١٤١٤هـ، ص١٥٠ .

١٨- كلمة الأمين العام عبدالله بشارة. مصدر سابق، ص ص٣-٧ وانظر ملحق رقم (١) .

١٩- من كلمة خادم الحرمين الشريفين في الدورة الثامنة للمجلس في الرياض ١٤٠٨هـ:

موقع كلمات الملك فهد على شبكة الإنترنت : WWW. mypag . ayna . com

٢٠- من كلمة خادم الحرمين الشريفين في الدورة الثانية عشر للمجلس في الكويت ١٤١٢هـ نفس المصدر السابق.

٢١- موجز إنجازات مجلس التعاون لدول الخليج العربي. إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية . الرياض ٢٠٠٠م، ص١٤ .

٢٢- كمال الكيلاني: فهد بن عبدالعزيز ومسيرة دولة . ط١ ، الرياض : شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ص١٠١-١١٨ .

٢٣- من كلمة خادم الحرمين الشريفين في افتتاح الدورة الرابعة عشر للقمة الخليجية ، رجب ١٤١٣هـ/ ديسمبر ١٩٩٣م . المنظور الفكري لخادم الحرمين الشريفين ص١٠٤ .

٢٤- من كلمة وجهها الملك فهد إلى الأمة الإسلامية بمناسبة عيد الفطر المبارك عام ١٤٠٧هـ .

موقع دارة الملك عبد العزيز على الإنترنت : WWW. darah . org. sa

٢٥- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية ١٤ شوال ١٤٢٢هـ . جريدة الرياض، السنة ٣٨ العدد ١٢٢٤٢ ، الأحد ١٥ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٢٦- من حديث خادم الحرمين الشريفين إلى مركز تليفزيون الشرق الأوسط في لندن ، ٩ / ٥ / ١٤١٢هـ. المنظور الفكري، مصدر سابق، ص١٣٧ .

٢٧- مشارى بن عبد الرحمن النعيم : الحدود السياسية السعودية البحث عن الاستقرار. ط١ . بيروت : دار الساقى ، ١٩٩٩م، ص ص٨٧-٩١ .

٢٨- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية ١٤ شوال ١٤٢٢هـ . جريدة الرياض، السنة ٣٨ العدد ١٢٤٢، الأحد ١٥ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٢٩- مشارى النعيم: المرجع السابق، ص٨٥-٨٦ .

٣٠- المرسوم الملكى رقم ٢٠ وتاريخ ٨ / ٥ / ١٤٢١هـ. وقرار مجلس الوزراء رقم ٨٨ وتاريخ ٨ / ٤ / ١٤٢١هـ ، وكذلك نص الاتفاقية المبرمة وملحقها حول الثروات الطبيعية والمرفقة بالمرسوم الملكى. المصدر: معهد الإدارة العامة . قسم الوثائق.

٣١- من تصريحات خادم الحرمين الشريفين . جريدة أم القرى. السنة (٦٠) العدد (٢٩٤٠) ٢٦ / ١ / ١٤٠٣هـ، ص١ .

٣٢- من خطاب ألقاه خادم الحرمين الشريفين فى الأمم المتحدة بنيويورك ٢٠ / ٢ / ١٤٠٩هـ .

موقع دارة الملك عبد العزيز على شبكة الانترنت : WWW. darah. org. sa

٣٣- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية ١٤ شوال ١٤٢٢هـ . جريدة الرياض، السنة ٣٨ العدد ١٢٢٤٢، الأحد ١٥ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٣٤- موجز إنجازات مجلس التعاون لدول الخليج العربية، مصدر سابق، ص ص٢٦-٢٩ .

٣٥- حيى جمعة الهاملى «التعاون العسكرى فى دول مجلس التعاون لدول الخليج العربى» ضمن كتاب مستقبل مجلس التعاون لدول الخليج العربية، ط١ . أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ، ١٩٩٩م، ص٤٩ : البيانات الختامية لدورات المجلس الأعلى. إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية فى الرياض. ط٤ . د.ت.ن، ص١٩٦ .

٣٦- موجز إنجازات مجلس التعاون، ص٣٦ .

٣٧- حوار خادم الحرمين الشريفين فهد بن عبد العزيز مع أساتذة وطلبة جامعة الملك عبد العزيز. انظر وثائق للتاريخ من إصدار وزارة الاعلام، ط١، الرياض شركة العبيكان ١٤٠٥هـ، ص١١٦ .

٣٨- المصدر السابق، ص١١٧ .

٣٩- انظر المادة الرابعة من النظام الأساسى لمجلس التعاون. النظام الأساسى. من إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون فى الرياض، ص٦ .

٤٠- THE UNIFIED ECONOMIC AGREEMENT . Cooperation Council for the Arab States of the Gulf- Secretariat General Riyadh, 1988. pp. 3-10 .

٤١- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق ، ص٩٢ ؛ من حديث لخادم الحرمين الشريفين جريدة الشرق الأوسط، العدد ٢١٩٤، ٨ / ٣ / ١٤٠٥هـ .

٤٢- استراتيجية التنمية الشاملة بعيدة المدى لدول مجلس التعاون (٢٠٠٠-٢٠٢٥) إصدار الأمانة العامة للمجلس، الرياض، ١٩٩٩م ، ص ص٥، ٢١-٢٩ .

٤٣- موجز إنجازات مجلس التعاون، مصدر سابق ص٣٧ وما بعدها .

٤٤- جريدة الرياض السنة ٣٨ ، العدد ١٢٢٤٣، الاثنين ١٦ شوال ١٤٢٢هـ ، ص١ .

٤٥- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية . جريدة الرياض، السنة ٣٨ ،العدد ١٢٢٤٢، ١٦ شوال ١٤٢٢ هـ، ص١ .

٤٦- موجز إنجازات مجلس التعاون ، ص ص ٧٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢- ١٣٤ .

٤٧- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق، ص٨٣ .

٤٨- لقاء مع رئيسة جامعة الخليج الدكتورة رفيعة غباش، جريدة الرياض (٢) ، السنة ٣٨ العدد ١٢٢٤٨، السبت ٢١ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٤٩- وقد افتتحت الجامعة بعد ذلك (كراسي علمية) باسم بقية قادة دول مجلس التعاون ، المصدر السابق، ص١ .

٥٠- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق، ص١٠٥ ، نقلاً عن حديث لخادم الحرمين الشريفين في جريدة السياسة الكويتية العدد ٨٦٢٩ في ٢٨ / ٥ / ١٤١٣هـ .

٥١- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق ، ص١٠٦ ، من حديث خادم الحرمين الشريفين لجريدة الشرق الأوسط العدد ١٩ ، ٧٧٥ ، ٤ / ٦ / ١٤١٢هـ .

٥٢- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق ، ص١١٠-١١١ .

٥٣- وفاء فايد : الأمة الإسلامية في عصر خادم الحرمين الشريفين، د.م.ن، د.ن ١٤٠٩هـ، ص٨٠ .

٥٤- من حديث خادم الحرمين الشريفين لوكالة الأنباء العمانية. جريدة الرياض، السنة ٣٨ ، العدد ١٢٢٤٢، ص١ .

٥٥- من كلمة الأمير عبد الله بن عبدالعزيز إلى القادة الخليجيين في قمة مسقط ١٤٢٢هـ . جريدة الرياض، السنة ٣٨ العدد ١٢٢٤٣، الاثنين ١٦ شوال ١٤٢٢هـ، ص١ .

٥٦- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق ، ص٩٢ ؛ من حديث لخادم الحرمين الشريفين. جريدة الندوة، العدد ١٠٢٣٨ ، ٢٧ / ٦ / ١٤١٣هـ .

٥٧- هاشم عبده هاشم : المرجع السابق، ص٩٥ ؛ من حديث لخادم الحرمين الشريفين. جريدة الرياض ، العدد ٧١٢٠، ٣ / ٥ / ١٤٠٨هـ .

مصادر البحث

أ- وثائق :

- مرسوم ملكي رقم م / ٢٠ بتاريخ ٨ / ٥ / ١٤٢١هـ .
- قرار مجلس الوزراء رقم ٨٨ وتاريخ ٨ / ٤ / ١٤٢١هـ .
- نص الاتفاقية الحدودية بين المملكة العربية السعودية والكويت ٣٠ / ٣ / ١٤٢١هـ .
- اللوحة التذكارية لمقر الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية.

ب- الدوريات :

- جريدة أم القرى.
- جريدة الرياض .
- جريدة الشرق الأوسط.
- جريدة المدينة .
- جريدة الندوة.

ج- مصادر مطبوعة (بالعربية) :

- استراتيجية التنمية الشاملة بعيدة المدى لدول مجلس التعاون (٢٠٠٠-٢٠٢٥م) إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون في الرياض، ١٩٩٩م.
- البيانات الختامية لدورات المجلس الأعلى (من الدورة الأولى حتى الحادية والعشرين) إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون في الرياض ، ط٤، ٢٠٠١م .
- رضا ، عادل : فهد بن عبد العزيز الإنسان .. الملك، القاهرة: دار أخبار اليوم، د.ت.ن.
- آل سعود، الأمير خالد بن سلطان بن عبد العزيز: أمن الخليج العربي من منظور وطني ، ط١ . أبو ظبي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث، ١٩٩٧م.
- العيدروس ، محمد حسن: تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ط١، القاهرة ، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٦م.
- فايد ، وفاء : الأمة الإسلامية في عصر خادم الحرمين الشريفين. د.م.ن.د.ن، د.ت.ن.
- القاسمي ، خالد بن محمد : فهد بن عبد العزيز قائد ومسيرة ، ط١ . دمشق: دار الجيل للطباعة والنشر، ١٩٩٥م.

- الكيلانى ، كمال : فهد بن عبد العزيز ومسيرة دولة . ط١ . الرياض : شركة الطباعة العربية السعودية، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

- مجلس التعاون لدول الخليج العربية- نظامه وهيكله التنظيمى وإنجازاته- من إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون فى الرياض، ط٢ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.

- المنظور الفكرى لخادم الحرمين الشريفين (المواقف) . إصدار وزارة الأعلام فى المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١ . الرياض : الوكالة الأهلية للأعلام، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٢م.

- موجز إنجازات مجلس التعاون لدول الخليج العربية. إصدار الأمانة العامة لمجلس التعاون فى الرياض، ٢٠٠٠م.

- نص كلمة الأمين العام عبدالله بشارة فى افتتاح مبنى الأمانة العامة لمجلس التعاون فى الرياض . إصدار الأمانة العامة، الأحد ٧ جمادى الأولى ١٤٠٨هـ .

- النظام الأساسى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية. إصدار الأمانة العامة فى الرياض، ط٦ ، ١٩٩١م.

- النعيم ، مشارى عبد الرحمن: الحدود السياسية السعودية (البحث عن الاستقرار) ط١ . د.م.ن، الإسراء للخدمات الإعلامية ، ١٤١٤هـ .

- وثائق للتاريخ . من إصدار وزارة الإعلام، ط١ ، الرياض ١٤٠٥هـ .

د- البحوث :

- الهاملى، حيى جمعة : «التعاون العسكرى فى دول مجلس التعاون» ضمن كتاب: مستقبل مجلس التعاون لدول الخليج العربية. ط١ . أبو ظبى : مركز الإمارات للدراسات والبحوث ، ١٩٩٩م، ص ص٤٩-٥٢ .

هـ- مواقع إنترنت :

- WWW. mypag. ayna . com.
- WWW. darah . org. sa.

و- مصادر بغير العربية:

- THE UNIFIED ECONOMIC AGREEMENT. . Cooperation Council for the Arab States of the Gulf - Secretariat General, Riyadh, 1988 .

د. يسرى أحمد زيدان(*)

دور الهنود فى الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين

زمن سلاطين المماليك

مقدمة :

ارتبطت شبه القارة الهندية منذ بداية الفتح الإسلامى لها بعلاقات وثيقة ببلاد الحرمين الشريفين ، وأخذت هذه العلاقات فى نمو دائم، وازدياد مستمر، حتى بلغت الذروة زمن سلاطين المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٤٩-١٥١٧م) (١) وإشرافهم على الحرمين الشريفين(٢).

وقد كان لحكام الهند وعلمائها دوما دور ثقافى فى مكة المكرمة(٣) والمدينة المنورة ، أثروا من خلاله الحياة العلمية والثقافية بهاتين المدينتين المقدستين إثراء ملموساً ، وصل مداه أثناء تبعيتها لحكم سلاطين المماليك .

ولم يقف التأثير الثقافى للهنود عند حدود الحرمين الشريفين ، وإنما تعدى ذلك إلى باقى المدن والبلاد الإسلامية الأخرى مثل : مصر(٤) والشام(٥)، وغيرهما. لكنه ظهر واضحًا فى الحرمين بسبب مكانتهما الدينية، وارتباط مكة المكرمة بشعيرة الحج وبسنة مجاورة البيت العتيق ، الأمر الذى أدى إلى تدفق علماء الهند إليها بأعداد كبيرة ؛ مساهمين فى الحياة الثقافية والتعليمية ، فكان منهم القضاة ، والأئمة ، ومعلمو الحديث النبوى الشريف، والفقه، والقراءات واللغة والبلاغة بجمع فروعها، وغير ذلك. وكان منهم أيضا المؤدبون والنساخ ، وغيرهم.

* الأستاذ المساعد بقسم التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة.

ولم تقتصر مشاركة الهنود فى الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين زمن سلاطين المماليك على العلماء فحسب. وإنما ساهم فيها حكام الهند أنفسهم من خلال إنشاء المدارس والوقف عليها، وبناء الأربطة . وهكذا فإن للهنود دوراً مهماً فى الحياة الثقافية بمكة والمدينة زمن المماليك، ذلك الدور الذى توزعت أخباره وتفرقت مادته بين بطون الكتب التاريخية، وبخاصة كتب التراجم منها، وجاء هذا البحث ليظهر هذا الدور ، وليجمع شتات ما تفرق فى المصادر التاريخية متصلاً بهذا الموضوع.

أولاً : إسهامات ملوك الهند فى الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين:

شارك ملوك الهند مشاركة فاعلة فى الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين، وكانوا هم أنفسهم من المتلقين للعلم، القارئين له، النابغين فيه، ومن ثم أدركوا أهمية تنشيط الحياة العلمية وتوفير احتياجاتها ومقوماتها الأساسية. ومن أبرز المشتغلين بالعلم من الملوك: أعظم شاه غياث الدين بن اسكندر شاه بن شمس الدين ملك الهند ببنجالة ، (ت ٨١٤هـ / ١٤١١م) وكان له حظ فى العلم والفهم والخير [٦]. ومحمد بن قندر ملك بنجالة[٧] وتوفى سنة ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م . كما كان ملوك كلبرجه[٨] من بلاد الهند يقرأون العلم على أساطينه الهنود ومنهم: علاء الدين محمد البخارى الهندى الذى أقرأ بعض ملوك الهند العلم [٩]، وراجح ابن داود الهندى وقرأ عليه العلم صاحب كلبرجه [١٠]. كما أن صاحب كنبايه بالهند كان يستمع إلى الحديث النبوى من أحد المحدثين لسنين عديدة[١١].

وهكذا كان لعلماء الهند صلة وثيقة بالعلم وأهله، ومن ثم فلا غرابة فى أن تتجه أنظارهم صوب مركز من مراكز الثقافة فى العالم الإسلامى زمن المماليك مساهمين فى تنشيط الحياة الثقافية به من خلال عدة أمور منها :

إنشاء المدارس بالحرمين الشريفين:

عرفت بلاد الحرمين الشريفين عدداً كبيراً من المدارس زمن سلاطين المماليك نذكر منها : المنصورية والمجاهدية والأفضلية[١٢] والرسولية [١٣]، وغيرها [١٤].

أ- المدرسة البنجالية الغياثية بمكة المكرمة :

يعود انشاء هذه المدرسة البنجالية الغياثية بمكة المكرمة إلى صاحب بنجالة الملك أعظم شاه بن اسكندر شاه بن شمس الدين، غياث الدين أبو المظفر سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م حيث أرسل فى هذه السنة هدية طائلة لصاحب مكة مع رسوله ياقوت الغياثى ومعه رسالة تتضمن

نية ملك الهند فى بناء مدرسة بمكة المكرمة ، وشراء وقف لها . وقد اشترى ياقوت الغياثى دارين متلاصقتين مجاورتين للمسجد الحرام لبناء المدرسة فى مكانهما، كما اشترى ياقوت الغياثى من أمير مكة السيد حسن بن عجلان[١٥] حديقتين لتكونا وقفًا على المدرسة ، «وما رضى فى ذلك إلا باثنى عشر ألف مثقال» [١٦]. وقد انتهى من العمل فى بناء هذه المدرسة فى جمادى الأولى سنة أربع عشرة وثمانمائة من الهجرة [١٧].

وقد تم تدريس الفقه علي المذاهب الأربعة فى هذه المدرسة، وكان مدرسوها عند الفراغ منها هم القضاة الأربعة بمكة المكرمة : القاضى الشافعى جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة، والقاضى الحنفى شهاب الدين أحمد بن الضياء الهندى[١٨]، والقاضى المالكى تقى الدين محمد بن أحمد الحسنى الفاسى، والقاضى الحنبلى سراج الدين عبد اللطيف بن أبى الفتح الفاسى[١٩].

أما عن أوقافها فقد قسمت خمسة أقسام: قسم للمدرسين الأربعة بالسوية بينهم، وثلاثة أقسام للطلبة، وهم ستون نفرًا : عشرون من الشافعية ، وعشرون من الحنفية، وعشرة من المالكية، وعشرة من الحنابلة بالسوية بينهم، والقسم الخامس يقسم أثلاثا: قسمان لسكان المدرسة وهم عشرة رجال، وقسم لمصالحها من العمارة والزيت والمياه وغير ذلك. وأوقف أيضا على مصالح المدرسة دار مقابلة اشتريت بخمسمائة مثقال[٢٠].

وقد أعيد بناء المدرسة البنجالية عام ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م . وكان بناؤها مرتفعا لكنه لم يعل على بيت الله المعظم. وللسخاوى ثناء على هذه المدرسة ضمنه كتابه «وجيز الكلام»[٢١].

ومن أبرز من درس بهذه المدرسة البنجالية الغياثية بمكة المكرمة إضافة إلى ما سبق [٢٢]: عبد الوهاب تاج الدين بن ظهيرة[٢٣] (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) وعبد القادر بن محمد الفاسى المكى الحنبلى[٢٤] (ت ٨٢٧هـ / ١٤٢٣م) ، ومحمد الجلال أبو السعادات بن ظهيرة [٢٥].

أما أبرز طلبة المدرسة البنجالية : محمد بن عبد الكريم بن محمد بن عطية الملقب بالجمال، وهو من الطلبة الشافعية بالمدرسة [٢٦]. وعلى بن أحمد الماردينى [٢٧]. وهذان الطالبان كانا من سكان هذه المدرسة.

ب- المدرسة البنجالية الغياثية بالمدينة المنورة :

بنى هذه المدرسة بالمدينة المنورة بانى المدرسة البنجالية بمكة المكرمة غياث الدين أبو المظفر صاحب بنجالة بالهند فى عام ٨١٣هـ / ١٤١٠م نفسه . وكان هذا السلطان قد ندب

حاجى إقبال مولى خان جهان[٢٨] وزير صاحب الهند الغياث بصدقة لأهل المدينة النبوية وهدية لأميرها جماز بن منصور، وأمر حاجى إقبال بعمارة مدرسة للسلطان الهندى بالمدينة المنورة، وشراء وقف لها بها [٢٩]. وكانت هذه المدرسة بمكان يقال له: الحصن العتيق عند باب السلام[٣٠]. وكان هذا الحصن العتيق منزلاً لأمراء المدينة ثم انتقل إلى السلطان غياث الدين شراء ؛ حيث أقيم فيه المدرسة البنجالية[٣١].

ج- المدرسة الكلبرقية بمكة المكرمة:

أنشئت هذه المدرسة سنة ٨٣٠ هـ / ١٤٢٦م مكان دار لأمير مكة الشريف بركات بن حسن الحسنى عند باب الصفا أحد أبواب المسجد الحرام[٣٢] بأمر من سلطان كلبرجه شهاب الدين أبى المغازى أحمد شاه[٣٣].

وقد استمر العمل فى هذه المدرسة حتى سنة ٨٣١هـ / ١٤٢٧م بدليل قول ابن فهد فى هذه السنة : «وفيها شرع الهنود فى عمارة المدرسة الكلبرقية، واستمرار فى عمارتها طوال السنة»[٣٤]، وأوقف على هذه المدرسة الكلبرقية بيت بقعيقعان[٣٥]، وأثبت وقفية المدرسة الكلبرقية والنظر عليها للشيخ علاء الدين البخارى الهندى بشهادة الهنود على صاحب كلبرقة، وولى الشيخ علاء الدين تدريس المدرسة الكلبرقية وصحبته الشيخ جلال الدين عبد الواحد المرشدى ، وأن يقرر الشيخ عبد الواحد فيها أربعين طالبًا من أى مذهب كان ، وتدريس أى فن أراد ، من تفسير وفقه ونحو وغير ذلك بالمدرسة المذكورة ، وطلب الشيخ علاء الدين القضاة والفقهاء والطلبة لحضور إجلاس الشيخ عبد الواحد بالمدرسة المذكورة ، فحضروا . وخلع على الشيخ عبد الواحد خلعة . وبعد الفراغ من الدرس فرق على الحاضرين بعض الأزر[٣٦].

ومن العلماء الذين قاموا بالتدريس فى هذه المدرسة : عبد الواحد بن إبراهيم بن أحمد المكى الحنفى (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) [٣٧]. كما أن أحد المقادسة وهو ناصر الدين المقدسى نزل مكة وأدب الأطفال بها مدة ، وناب فى المدرسة الكبرقية فى إقراء عشرة من القراء كل يوم[٣٨]. وتوفى سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م. كما أن بعض الهنود الكلبرجيه نزلوا مكة وسمعوا بها العلم[٣٩].

وقد قام ملك كلبرجه بالاهتمام بطلبة هذه المدرسة وأرسل إليهم المال والهدايا ، ومن ذلك ارساله بالهدايا إلى الفقيه علاء الدين البخارى ليفرقها على الطلبة الملازمين له وغيرهم[٤٠]. وهناك أخبار أخرى عن هداياه وعطاياه للعلماء[٤١]، ولذلك لانستبعد أن يكون ملك كلبرجة قد اهتم أيضا بطلبة وأساتذة مدرسته بمكة المكرمة من حيث العطاء والإهداء.

د- المدرسة البنجالية بمكة المكرمة:

ذكرت بعض مصادرنا[٤٢] التاريخية أن هناك مدرسة كبيرة بمكة المكرمة بناها ملك بنجالة من الهند وهو محمد بن قنو الجلال أبو المظفر (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) ولم ترد معلومات أخرى سوى هذا الخبر الذى يشير إلى هذه المدرسة.

هـ- المدرسة الكلبرجية[٤٣] بالمدينة المنورة:

أنشأ هذه المدرسة بالمدينة المنورة سلطان كلبرجه بالهند شهاب الدين أبو المغازى أحمد شاه فى السنة التى توفى فيها ، أى سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م، وبنيت فى موضع دار كانت لجعفر بن يحيى البرمكى.

و- المدرسة الخلجية[٤٤] بمكة المكرمة :

بنى هذه المدرسة صاحب مندوه من الهند محمود بن مغيث الخلجى بمكة المكرمة عند باب أم هانئ ، وقرر فى مشيخة التدريس والحديث بها إمام الحنفية الشمس البخارى. ولدينا خبر عن أحد الذين تولوا مشيخة المدرسة الخليجية للخلجى محمود صاحب مندوه [٤٥]. ويبدو أن هناك أموالاً كانت مخصصة لهذه المدرسة للإنفاق على مصالحها ، ويفهم هذا مما ذكره السخاوى من أن رجلاً يدعي مفتاح الحبشى الكمالى بن ظهيرة توفى تحت العقوبة الزائدة سنة ٨٨٧هـ- ١٤٨٢م بسبب ما أشيع من اختلاسه للأموال الخلجية التى كان أميناً عليها.

ز- المدرسة الكنبايتية فى مكة المكرمة :

ورد خبر واحد عن هذه المدرسة ذكره ابن فهد[٤٧] هو : «فيها- سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢م- كملت عمارة المدرسة الكنبايتية»، وجاء هذا الخبر فى أثناء حديثه عن مكة المكرمة وتاريخها.

وكنبايه بلد هندى له ملك مسلم، قرأ عليه الحديث النبوى أحمد بن محمد المعروف بابن المرجانى ، عندما توجه إليها من مكة سنة ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م فأقام بكنبايه وقرأ الحديث عند ملكها ، وأثابه عليه[٤٨] إلى أن توفى هذا العالم المحدث هناك سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م كما ورد خبر عن سفر على بن محمد ابن الكريم من مكة سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م إلى كنبايه[٤٩]. كما عُمل سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م باب بكنبايه من بلاد الهند وأهدى إلى أمير مكة أحمد بن عجلان[٥٠]. وقد قدم صاحب كنبايه هدية لأمير مكة حسن بن عجلان سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م، وأرسل فى الوقت نفسه خياما لتنصب حتى يستظل بها المصلون يوم الجمعة الذين لم يكونوا يستظلون بشيئ عند سماع الخطبة بالمسجد الحرام [٥١].

ومما سبق يتبين وجود صلة بين مكة المكرمة وبين مدينة كنبايه الهندية، مما يؤكد أن المدرسة التى عرفت بالكنبايتيه تعود إلى ملك كنبايه المسلم الذى بناها سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢ بمكة المكرمة .

وهكذا بنى ملوك الهند عدداً من المدارس بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، وإن كانت مدارس مكة المكرمة قد فاقت مدارس المدينة المنورة. وما من شك فى أن هذه المدارس قد قامت بدور مهم فى إثراء الحياة العلمية والثقافية بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، ويعود الفضل فى ذلك إلى الهنود الذين أسسوا هذه المدارس.

ثانيًا – إسهامات الهنود فى إنشاء الأربطة :

عرفت بلاد الحرمين الشريفين عدداً كبيراً من الأربطة خلال تبعيتها لحكم المماليك ، وشهدت هذه الأربطة حركة علمية واسعة، كما ضمت خزائن للكتب أوقفها العلماء على هذه الأربطة. ومن أبرز هذه الأربطة : رباط رامشت [٥٢]، ورباط ربيع [٥٣]، ورباط السدرة[٥٤] ورباط غزى[٥٥] ، ورباط الموفق [٥٦]، ورباط الخوزى [٥٧]. وغيرها [٥٨] من أربطة بمكة المكرمة. وقد أدت هذه الأربطة دورها فى إقراء الطلبة العلم[٥٩]. ومن أبرز أربطة المدينة. رباط دكالة[٦٠] وغيره[٦١].

وقد عرف أحد الأربطة بمكة باسم رباط الهنود[٦٢]. كما كان بها رباط نسب إلى سعيد الهندى [٦٣]. وهو أحد الفقهاء الهنود الذين درسوا الفقه على المذهب المالكى، وكان له تلاميذ[٦٤]. كما أن صاحب كلبرجه أحمد بن شاه، شهاب الدين أبو المغازى قد أنشأ بمكة «رباطًا هائلاً»[٦٥].

على أن هناك خبرا لابد من إيراده هنا لاتصاله بالهنود بمكة، وهو أن محمد بن إسحاق الشيرازى المعروف بغياث الدين الأبرقوهى قد أنشأ رباطًا بمكة قبالة باب الصفا سنة إحدى وسبعين وسبعمائة للهجرة لسيده السلطان شاه شجاع صاحب بلاد فارس ، وأوقف عليه الأوقاف «وفى هذا الرباط حجر مكتوب فيه : أن الواقف شرط أن يسكنه الفقراء الأعاجم المجردون المتقون دون الهنود و من لا سكن له بمكة »[٦٦]. ولم أجد فى المصادر التى اطلعت عليها ما يفسر عدم سكنى الهنود لهذا الرباط ، فلعل ذلك يرجع إلى كثرة الأربطة المخصصة للهنود بمكة والتى انشئوا هم أنفسهم بعضا منها. أما بالمدينة المنورة فقد أقام بها الخادم

الهندى ريحان أحد خدمة المسجد النبوى رباطين حسنين عم النفع بهما. وكان ريحان الهندى مشهوراً بكثرة المعروف والمآثر الحسنة بالمدينة المنورة(٦٧).

ثالثًا : إسهامات الهنود فى العلوم الدينية:

شهدت الهند خلال فترة البحث نشاطًا علميًا واسعًا ، دلّ عليه نبوغ عدد كبير من العلماء الهنود فى كافة المجالات: الدينية واللغوية والأدبية والتجريبية وغيرها. فعلى سبيل المثال برع محمود بن محمد المقرئ فى النحو والصرف والأصلين والمنطق والعروض، واعتمد عليه فى تدريس هذه العلوم فى الهند(٦٨). كما اشتهر مخدوم بن برهان الدين الهندى الأحمد آبادى بالعلم فى المعانى والبيان ، وأقرأ الطلبة فى بيته الذى جعله مدرسة (٦٩). كذلك عُرف محمد بن التاج الحنفى بالتقدم فى علم الهيئة والكلام (٧٠). ولعل قول السخاوى عن أحد علماء الهند راجح بن داود : «اشتغل فى بلاده بتفسه على أكابر علمائه فى فنونهم»(٧١). مما يؤيد ما ذهبت إليه(٧٢) من وجود نشاط علمى واسع بالهند خلال فترة البحث.

وقد تبوأ العلماء الهنود مكانة علمية مرموقة فى المشرق الإسلامى واشتهروا بتدريس العلوم الدينية وغيرها. فعلى سبيل المثال كان بمصر منهم خلال فترة البحث : محمود الهندى(٧٣)، والبرهان الهندى(٧٤) والسراج الهندى(٧٥) والجلال الهندى(٧٦) وغيرهم(٧٧)وكان منهم بالشام : عطاء الله الدروالى الهندى(٧٨) والبدر الهندى(٧٩) وعبد الرحمن بن على الهندى(٨٠) والسراج الهندى(٨١) وغيرهم(٨٢).

أما فى مكة المكرمة فقد أدى هؤلاء العلماء الهنود دوراً مهما فى تدريس العلوم الدينية للمكيين وغيرهم، وبرزت أسرة هندية فى هذا المجال هى أسرة بنى الضياء، وكان نبوغها فى مجال الفقه وأصوله بصفة خاصة. وتعود هذه الأسرة الهندية إلى محمد بن محمد بن سعيد ابن عمر بن على الهندى الحنفى الملقب بضياء الدين (ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٧م) وكان قد نزل المدينة المنورة أولاً ، وأقام بها مدة يدرس، ثم سكن مكة المكرمة وتولى تدريس الفقه على المذهب الحنفى «وكان عارفًا بمذهبه وأصوله ، مع مشاركة فى العربية وغيرها»(٨٣). ومن أبرز تلاميذه محمد بن محمد، ضياء الدين الهندى فى مكة إمام الحنفية بها : عمر بن محمد أبى بكر المكى الملقب بالسّراج ، المتولى لإمامة الحنفية بمكة من سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م إلى ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م وقد أخذ الفقه(٨٤) عن الشيخ ضياء الدين الهندي. ومحمد بن على بن محمد بن داود المكى المعروف بالزمزمى(٨٥) (ت ٨٣٧هـ / ١٤٣٣م) .

وللشيخ ضياء الدين الهندى ابن هو الشهاب بن الضياء، أحمد بن محمد ابن سعيد الهندى الحنفى الذى تولى قضاء مكة على المذهب الحنفى[٨٦] سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م وعرف بابن الضياء الهندى (ت ٨٢٥هـ / ١٤٢١م). وقد اعتنى ابن الضياء الهندى بالعلم كثيراً، وكانت له فى الفقه نباهة، ودرس، وأفتى، وكان يدرس الفقه بالمسجد الحرام وبالمدرسة البنجالية والزنجبيلية[٨٧] والأرغونية [٨٨]، وناب عن عقود الأنكحة عن العز النويرى، ثم فى الأحكام عنه أيضاً سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م إلى أن استقل بقضاء مكة ، وكان أول حنفى استقل بها [٨٩]. ومن بين الذين تلقوا العلم عن ابن الضياء من المكيين: القاضى الشافعى أحمد بن محمد بن الجلال أبو السعادات، وكان يتولى أموال الأيتام والغائبين بمكة، ثم أضيف إليه النظر فى الحرم، إلى غير ذلك من وظائف [٩٠].

ومن أسرة ابن الضياء أيضاً: محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن الشهاب، المعروف كأبيه بابن الضياء (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م) وكان متقدماً فى العلوم الدينية واللغوية، وضرب فيها بنصيب وافر وناب فى القضاء بمكة، ثم استقل به بعده، وأضيفت إليه نظر الحرم والحسبة[٩١] وصنف عدة مؤلفات فى الفقه والتفسير ، وفى فضائل المسجد الحرام، وفى شعيرة الحج وغير ذلك [٩٢]. «وكان إماماً علامة متقدماً فى الفقه والأصلين والعربية، مشاركا فى فنون حسن الكتابة والتقييد، عظيم الرغبة فى المطالعة والانتقاء بحيث بلغنى- السخاوى- عن أبى الخير بن عبد القوى أنه قال : أعرف أزيد من خمسين سنة، وما دخلت إليه قط إلا ووجدته يطلع أو يكتب » [٩٣]. وقد حدث ودرس وأفتى وصنف ، وأخذ عنه بعض الأئمة[٩٤].

ومنهم محمد الرضى أبو حامد بن الضياء الحنفى (ت ٨٥٨هـ / ١٤٥٤م) شقيق السابق، تفقه بأبيه، وأخذ النحو عنه ، وعن غيره ، ودرس الأصول والمعانى والبيان ، وناب فى القضاء عن أبيه ثم عن أخيه ثم بعد موته استقل به، وكتب فى الفقه، ودرس أفتى ، وممن أخذ عنه المحيوى المالكى أيضاً [٩٥].

وهناك غيرهم [٩٦]ممن ساهموا فى تدريس العلوم الدينية وغيرها بمكة الكرمة ، وأخذ المكيون وغيرهم[٩٧] هذه العلوم عن هؤلاء الهنود من هذه الأسرة العلمية.

ومن العلماء الهنود الذين نبغوا فى أصول الفقه بمكة:

العز أبو بكر بن عطا الله الهندى وأخذ عنه الفقيه المكى محمد بن إبراهيم الحنفى[٩٨] .
كما أخذ عالم الحجاز ورئيسه إبراهيم بن علي الملقب بابن ظهيرة أصول الفقه عن أحد العلماء

الهنود (٩٩). وممن كان لهم دور بها أيضًا حسين بن أحمد بن ناصر الحنفي، وكان يدرس بالمسجد الحرام، مقابل مدرسة عز الدين عثمان الزنجبيلي، ودرس بالمدرسة المذكورة ، وتولى وقفها، وناب في الحكم عن قاضي مكة جمال الدين بن ظهيرة وعنه في العقود أيضًا، وكان يُذاكر بمسائل من مذهبه (١٠٠). ومنهم، أبو علي محمود بن علي الهندي الأصل، ويعرف بالهندي، وهو عن تصدر في القراءة والرواية (١٠١). والمحب محمد بن محمد الهندي الحنفي (ت ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م) وكان شديد التعصب للمذهب الحنفي على حساب الشافعي(١٠٢). وبرز مكي بن سليمان الهندي في تأديب الأطفال بمكة(١٠٣) من سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م، فعلم دوراً بعد دور، وكان حافظًا للقرآن الكريم، وللشاطبيه وللقراءات (١٠٤)، وتوفي سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م.

أما عن دور العلماء الهنود بالمدينة المنورة ، فلقد كان للعلامة ضياء الدين الهندي الحنفي دور بالمدينة قبل مكة، حيث أقام بالمدينة سنين «يدرس ويفتي »(١٠٥) وكذلك كان للبهاء الهندي الحنفي دور في تدريس الفقه والأصول والعربية بالمدينة النبوية المباركة، وقد كان ينقطع في الحرم الشريف غالب نهاره للتدريس والإفادة، مع محبته للطلبة، والحرص على إفادتهم، حتى إنه إذا تأخر مجئ الطالب، جاءه في بيته، وقد قرأ عليه بعض الطلبة جميع الكافية لابن الحاجب بحثاً في بيته ليلاً «وكان في الأصلين والفقه والعربية إمام زمنه مع حلم وعقل راجح وحسن خلق»(١٠٦). وقد قيل عن العالم الهندي راجح بن داود الأحمد ابادي الحنفي : «اشتهرت بالمسجد الشريف فضيلته وتقررت أوصافه وفطنته»(١٠٧) مما يبين دوره العلمي بمسجد النبي ﷺ .

وبعد فهؤلاء أهم من كان لهم دور في تدريس العلوم الدينية بالحرمين الشريفين، وتبين من خلال العرض السابق الدور المهم لعلماء الهنود في تدريس الفقه على المذهب الحنفي بصفة خاصة ، وظهر أن هؤلاء العلماء علموا العلوم الدينية لمكيين ومدنيين تبوأوا مناصب علمية مرموقة بالحجاز بعد تلقيهم العلم على أساطينه، ومن بينهم العلماء الهنود.

وكان لهؤلاء العلماء الهنود وظائف دينية مهمة في الحرمين الشريفين منها : القضاء واشتهرت أسرة بني الضياء بهذا المنصب الجليل بمكة المكرمة حتى قيل عنهم : «قضاة مكة»(١٠٨). كما نبغ هنود آخرون في القضاء من غير هذه الأسرة الهندية، ومنهم : شاذي الهندي قاضي الحنابلة بمكة(١٠٩). وناب بعضهم عن القضاة في الحكم في بعض القضايا وفي

عقود النكاح (١١٠). كما ناب آخرون فى الإمامة بالحرم المكى(١١١) بل أم بعضهم بمقام الحنفية به ومنهم محمد بن محمد الهندى الكابلى الحنفى ، و«كان شيخًا مباركًا كتب بخطه كثيراً ووقف جملة » (١١٢). بل إن هندى الأصل هو أحمد بن سعد ناب بمكة عن أميرها السيد بركات ثم عن ولده (١١٣).

رابعًا : إسهامات الهنود فى العلوم اللغوية والبلاغية:

بالرغم من أن الهنود أعاجم إلا أن بعضهم برز فى العلوم اللغوية والبلاغية بصفة خاصة، حتى أن أحدهم وهو عبد الرحمن بن على الهندى وصف بأنه كان فصيحًا مفوهًا (١١٤). ولذلك عندما كان يمتنع مقرئ الحرم المكى العفيف الدلاصى عن إقراء العجم لكونهم- فى نظره- لايخرجون الحروف من مخارجها، اجتمع به هندى وصف بالعلامة ، وقرأ عليه(١١٥). ومن أبرز العلماء الهنود فى هذين المجالين: أحمد بن محمد الشهاب بن الكمال الهندى الحنفى (ت ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م) وكان عالمًا بالنحو والصرف وآداب البحث ، والهندسة والحساب أيضًا(١١٦). والبرهان الهندى وكان ماهراً فى النحو والمعانى والبيان، وتتلمذ عليه فى هذه العلوم عالم الحجاز ورئيسه إبراهيم بن على المكى الملقب بابن ظهيرة (ت ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م) الذى انتهت إليه رئاسة الحجاز دينًا، وفضلا وعقلا وشهامًا (١١٧). وإبراهيم الهندى الحنفى، الذى أخذ عنه بمكة البرهان بن ظهيرة العربية والمعانى والبيان(١١٨).

هذا بالإضافة إلى الضياء الهندى والبهاء الهندى وقد سبق الحديث عن دورهما بمكة والمدينة فى المجال الدينى، وكانا فى الوقت نفسه من علماء العربية الأفذاذ.

خامسًا : إسهام للهنود فى نسخ الكتب :

ذكرت مصادرنا التاريخية اثنين من الهنود كان لهما دور كبير فى نسخ الكتب بمكة المكرمة عن أصحابها ، الأول منهما: محمد بن محمد بن محمود الهندى وكان يخدم الشيخ عبدالله اليافعى، ويكتب له تصانيفه ، كما خدم القاضى أبا الفضل النويرى ولازم درسه ومجالسه وقرأ عليه(١١٩). والثانى منهما: نجيب الدين الهندى وكتب بخطه كثيراً من كتب العلم(١٢٠)، وتوفى بمكة بعد التسعين وسبعمائة بيسير. وهناك هندى ثالث بمكة هو محمد بن محمد بن عمر الهندى وقيل عنه «كتب بخطه كثيراً»(١٢١).

وبعد ... فهؤلاء هم أبرز العلماء الهنود الذين كان لهم دور فعال ومؤثر فى الحياة الثقافية والتعليمية بالحرمين الشريفين إبان تبعيتها لسلاطين المماليك. وبالإضافة إلى هؤلاء العلماء كان هناك عدد آخر من الهنود تلقوا العلم على أساطينه بالحرمين الشريفين دون أن يكون لهم بهما

دور ثقافي أو تعليمي (١٢٢)، وإنما كانوا جزءاً من الحركة العلمية بمكة المكرمة والمدينة المنورة في هذه الفترة التاريخية.

وقد كان للعلماء الهنود وجود دائماً في المناسبات الثقافية، ومنها بيع خزائن الكتب، وحدث هذا الأمر مرة بمكة (١٢٣). كما اقتضت العلاقة الثقافية بين بلاد الحرمين الشريفين أن تتبادل أخبار وفيات العلماء بين الجانبين (١٢٤)، بل وربما امتد ذلك ليشمل وفيات التجار المترددين على الهند من الحجاز(١٢٥).

والارتباط بين الحرمين الشريفين والهند كان يجد من يغذيه ويقويه عن طريق رسم وكتابة صفة الكعبة المشرفة وإهدائه للناس بالهند (١٢٦). الأمر الذى كان يزيد من الارتباط العاطفي الروحي بمكة المكرمة بصفة خاصة.

ومن الملاحظ أن جل العلماء الهنود كانوا على المذهب الحنفي، وأن بعضهم(١٢٧) تعصب له تعصبا جعله يذم باقى المذاهب وعلى رأسها المذهب الشافعي ، وهذا - بدون شك- مما يؤخذ على هؤلاء العلماء. كما يتضح أن دور هولاء العلماء الهنود بمكة المكرمة كان أشد وضوحاً منه بالمدينة المنورة. والسبب واضح كل الوضوح وهو ارتباط مكة المكرمة بشعيرة الحج والعمرة وبسنة مجاورة البيت العتيق ، ولذا فإن العلماء الهنود كانوا أكثر عدداً بمكة عن المدينة، ومن ثم ظهر دورهم بمكة أشد وأقوى وأوضح.

الخلاصة

قـام الـهنود (ممثلون فى الملوك والعلمـاء) بـدور مـهم بالحـرمين الشـريفين زمن سـلاطين المماليك، وتمثل هـذا الدور فى إقامة المدارس التى بلغ عددها سبعًا : خمس منها بمكة المكرمة واثنتـان فـى المدينة المنورة، وظهـر هذا الدور أيضًا من خـلال إنشـاء الأربطة التـى لعـبت دوراً علميا وثقافيا كدور المدارس، وكانت هذه الأربطة تحتوى على خزائن الكتب ، ويقيم بها طلبة العلم والمدرسون . ونبغ العلماء الهنود فى العلوم الدينية واللغوية والبلاغية بصفة خاصة، وكان دورهم بالحـرمين الشـريفين يتـمـثل فـى تدريس هـذه العلوم والمعـارف بالحـرمين وبالمدارس وبالأربطة ، وأحيانًا فى بيوتهم أو بيوت طلبة العلم وقد قام بهذا أحد الهنود بالمدينة المنورة . إضافة إلى ذلك فقد اشتـهر بعض طلبة العلم من الهنود بنسخ الكتب . وتبوأ العلمـاء الهنود مناصب دينية عديدة منها: القضـاء وإمامة الحرم المكى. واتضح من خـلال المصـادر أن دور الهنود بمكة المكرمة كان أقوى وأظهر منه بالمدينة المنورة ، ويرجع ذلك إلى ارتباط بارتباط مكة المكرمة بفريضة الحج أو بشعيرة العمرة، وبسنة مجاورة البيت العتيق.

ولم يقتصر دور العنصر الهندى على الجانب الثقافى والعلمى بالحرمين الشريفين، بل كانت له أدوار أخرى[١٢٨] تمت الإشارة إليها فى ثنايا البحث.

الهوامش

١- تعاقب على الحكم بالهند خلال فترة البحث عدد من الأسر المسلمة هى مماليك الغوريين (٦٠٢-٦٨٩هـ/ ١٢٠٦-١٢٩٠م) والخلجيون (٦٨٩-٧٢٠هـ / ١٢٩٠-١٣٢٠م) وآل تغلق (٧٢٠-٧٩٩هـ/ ١٣٢٠-١٣٩٦م) والمغول الذين اجتاحوا الهند سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م وحكموها لمدة ثلاثة قرون، وفى أيامهم استقلت إمارات عن حكمهم فى دهلى حاضرة المسلمين بالهند، وأبرز هذه الإمارات والولايات المنفصلة عن حكم المغول: إمارة البنغال والكجرات والدكن وغيرها . وقد ارتبطت هذه الإمارات المستقلة بالعلاقات الثقافية مع بلاد الحجاز وغيرها، كما أن سلاطين هذه الإمارات المستقلة هم الذين ساهموا فى إثراء الحياة الثقافية بالحرمين الشريفين . وللوقوف على ملوك «بنجالة» راجع الفاسى العقد الثمين ج٤ ص١٠٤ و١٠٨ ؛ الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ج٣ ص٢٩٧ ، وص٣٦٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٤٩٦ ؛ السخاوى : وجيز الكلام ج٢ ص٥٢٤ و٥٤٣ والضوء اللامع ج٢ ص١٦٦ و٣١٣ ، ج٨ ص٢٨٠ و٢٩٣ ، ج١٠ ص٢١٤ : التحفة اللطيفة ج١ ص١٩٢ ؛ السمهودى : وفاء الوفاء ج١ ص٧٠٢ . ولمعرفة أمراء كجرات راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص٩١ وج١٠ ص١٤٤ . ولمعرفة ملوك كلبرجه راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٣ ص١٨٣ و٢٢٢ ، ج١٠ ص١٤٤ و١٤٧ والتحفة اللطيفة ج١ ص١٦١ ؛ السمهودى: وفاء الوفاء ج١ ص٦٩٦ ؛ الصيرفى: نزهة النفوس ج٣ ص٣٢٤ . وراجع أيضا ابن قاضى شهبة : تاريخ ابن قاضى شهبة ج٢ ص٢٨-٢٩ وابن أيبك : كنز الدرر ج٩ ، ص٢٢ و ٢٩٩ و ٣٤٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج٥ ، ص٦١-٩٨ وج١٠ ص١٢٩ .

٢- وللوقوف على العلاقات التجارية بين مكة والهند بصفة خاصة راجع النجدى: السحب ج٢ ص٨٨٢ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج٤ ص٣٢١ وج٨ ص١٠٣ وراجع ج٥ ص١٧٥ وج٧ ص١٢٥ ، وراجع أيضا الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٧٨ وج٤ ص١٤٥ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ج٤ ص٨٤٣ . عن التجارة مع الهند بصفة عامة راجع السخاوى: الضوء ج١ ص٦٩ ، ج٧ ص١٣٣ ، ج١٠ ص١٣٦ و١٥٤ ؛ وجيز الكلام ج٣ ص١٢٤٨ ؛ الصيرفى: نزهة النفوس ج٣ ص١٤٥ ؛ السلفى: معجم السفر ص٤٣ و ١٩٨ ؛ ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج٨ ص١٨٦ ؛ السيوطى: بغية الوعاة ج١، ص٦٦ .

٣- كان هذا التأثير قديماً قبل فترة البحث بقرون، والدليل على ذلك دور عدد من العلماء الهنود بمكة ، ومنهم على سبيل المثال : محمد بن إبراهيم الديبلى (ت ٣٢٢هـ) ووصف بأنه محدث مكة. راجع الفاسى: العقد الثمين ج١ ص٣٩٦-٣٩٧ ؛ الذهبى : سير أعلام النبلاء ج١٥ ص٩ . وبدليل وقف الملك

العادل بهاء الدين محمد ملك الغور والهند سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م رباط ابن غنايم بمكة المكرمة على الصوفية . راجع الفاسي : العقد الثمين ج١ ص١٢٣ وج٢ ص٢٢٣ وابن فهد: اتحاف الورى بأخبار أم القرى ج٢ ص٥٧٠-٥٧١ .

٤- انظر السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص١٥ و٣٦٧ ، ج٢ ص٤٤ ،٢٣١ ، ج٣ ص٣٠٢ ، ج٤ ص١٥٠ ج٥ ص٦٩ ، ج٨ ص٨٤ ، ٨٥ ص١٢٧ ،ج١٠ ص٥٢ .

٥- راجع السخاوى : الضوء اللامع ج٤ ص٥٩-٦٠، ١٠٢، ج٧ ص٢٣٣ ،ج٩ ص٢١٨ ،ج١٠ ص٣٠ ص٦٩ . وراجع النعيمي: الدارس ج١ ص١٣٠ .

٦- ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٤٩٦ والسخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص٣١٣ ، وجيز الكلام للسخاوي ج٢ ص٤١٧ والتحفة اللطيفة ج١ ص١٩٢ .

٧- عندما توفى أعظم شاه غياث الدين ملك بنجالة سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م ملك ابنه حمزة بعده، فثار عليه مملوكه شهاب وقتله، فتسلط عليه ملك غير مسلم اسمه فندو قتل شهابا، وثار ابن فندو على أبيه فقتله، وأسلم وتسمى بمجد ، وتلقب بجلال الدين، وأقام هذا السلطان الهندى المسلم محمد بن فندو شعار الإسلام فى بلده، وجدد ما خربه أبوه من المساجد ونحوها، واختار مذهب الإمام أبى حنيفة مذهبًا له، وارتبط بعلاقات سياسية مع المماليك بمصر، واعتنى بمكة المكرمة ، فبنى بها مدرسة ، وتصدق بأموال على أهلها سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م . راجع ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٤٩٦ ؛ الصيرفى : نزهة النفوس ج٣ ص٢٩٧ والسخاوى : الضوء اللامع ج٨ ص٢٨٠ وراجع ج٢ ص١٦٦ ؛ وجيز الكلام ج٢ ص٥٢٤ . وذكر السخاوى فى «الضوء اللامع» ج٨ ص٢٩٣ أنه رأى شيئًا من كتبه.

٨- من أبرز ملوك كلبرجه السلطان شهاب الدين أحمد أبو المغازى (ت ٨٣٨هـ / ١٤٣٤م) الذى أقام فى المملكة أربع عشرة سنة، وقام من بعده ابنه ظفر شاه واسمه أحمد، ووصف بأنه من خير ملوك زمانه، وكان لهذين الملكين وزير قائم بدولتهما هو خلف بن حسن بن مهيوف واشتهر بحب العلماء والإحسان إليهم، ووصفته المصادر بأنه أحد أفراد العالم فى زمانه لما عليه من دين وورع وكرم وشجاعة . راجع الصيرفى: نزهة النفوس ج٣ ص٣٢٤ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ج٣ ص١٨٣ ؛ الفاسى : العقد الثمين ج٨ ص٢١٠ .

٩- السخاوى : الضوء اللامع ج٩ ص٢٩١ ، ص٢٩٤ .

١٠- السخاوى : الضوء اللامع ج٢ ص٢٢٢ ، ص٢٢٣ .

١١- السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص١٠٥ .

١٢- راجع الفاسى : العقد الثمين ج١ ص٢٠١ - ٢٠٧ ، ص٤٣١ ، ٤٣٢ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص١٣٥ .

١٣- راجع الفاسى : العقد ج١ ص٤٢١ .

١٤- الفاسى : العقد ج١ ص٣٠١ ، ٤٢١ ، ص٤٥٤ ، ج٦ ص٣٤ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج٥ ص٩٣، ج٩ ص٢٢٣ ، ج١٠ ص١٦٠ ؛ التحفة اللطيفة ج١ ص٩٤ و١٠٦ و ١١١ و ١١٢ و ١٤٦ و ١٧٧ و ٢٤٩و ٤٢٤ و ٤٥٨ وج٢ ص٦٦ و٨٦ و ١٧١ و١٩٨ ، ٤٦٣ و ٥٦٢ ؛ ابن فهد : اتحاف الورى ج٤ ص٣٦ .

١٥- راجع ترجمته عند الفاسى: العقد الثمين ج٤ ص٨٦-١٣٨ ، ج٣ ص١٣٤ . ومن بعض الأمراء الأخرين لمكة زمن البحث راجع ج٤ ص١٦٦-١٧٤ ، ٤٠٣-٤٢٤ ، ج٦ ص٥٨-٧٢ ، ٢٠٦-٢١٦ كما ترجم السخاوى فى «التحفة اللطيفة» لأمراء المدينة.

١٦- الفاسى: العقد الثمين ج٤ ص١٠٨ ، راجع ج١ ص١١٧ ؛ ابن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص٤٨٥-٤٨٦ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ج٢ ص٣١٣ وذكر أنه صرُف على المدرسة وأوقافها اثنى عشر ألف مثقال مصرية انظر ج١٠ ص١٦٤ . ومن هذه المدرسة راجع ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٤٩٦ وابن تغرى بردى: المنهل الصافى ج٢ ص١٨٢ ؛الفاسى : شفاء الغرام١ ص٣٢٨ و٣٢٩ .

١٧- راجع الفاسى: العقد الثمين ، ج١ ص١١٧ .

١٨- القاضى الحنفى شهاب الدين أحمد بن الضياء الهندى تولى قضاء مكة سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م وفى السنة نفسها تولى قضاء المالكية القاضى تقى الدين محمد بن أحمد الفاسى راجع ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٢٩٨ .

١٩- راجع ابن فهد: اتحاف الورى ج٣ ص٤٨٥-٤٨٦ ، السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص٣١٢ ؛ الفاسى : العقد الثمين ج١ ص١١٧ .

٢٠- ابن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص٤٨٦ .

٢١- السخاوى : وجيز الكلام ج٣ ص١٠٧٤-١٠٧٥ .

٢٢- راجع الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص٥٥-٥٧ ؛ السخاوى: التحفة اللطيفة ج١ ص١٤٦ وابن تغرى بردى : المنهل ج٢ ص١٨٢ .

٢٣- السخاوى : الضوء اللامع ج٥ ص١١٣ .

٢٤- السخاوى : الضوء اللامع ج٤ ص٢٨٧ .

٢٥- السخاوى : الضوء اللامع ج٩ ص٢١٤ .

٢٦- السخاوى: الضوء اللامع ج٨ ص٧٤ ؛ الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص١٢٤ .

٢٧- الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص١٣٨ ؛ انظر السخاوى : الضوء اللامع ج٥ ص١٧٤ .

٢٨- عنه راجع السخاوى : الضوء اللامع ج١٠ ص٢٤٠ .

٢٩- الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص١٠٩

٣٠- السخاوى : الضوء اللامع ج٢ ص٣١٣ .

٣١- السمهودى: وفاء الوفا ج١ ص٧٠٢ و٧٠٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ج٢ ص٣٦٨ ؛ السخاوى: التحفة اللطيفة ج١ ص١٩٢ .

٣٢- راجع ابن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص٦٤٣ ، ج٤ ص٥ .

٣٣- راجع ترجمته عند الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان ج٣ ص٣٢٤ ؛ الفاسي : العقد الثمين ج٨ ص٢١٠ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج١٠ ص١١٧ .

٣٤- ابن فهد : اتحاف الورى ج٤ ص٢٤ .

٣٥- قعيقعان : جبل بمكة يشرف على المسجد الحرام من جهة الشمال والشمال الغربى ، ويعرف بأسماء عدة ، فالجزء المشرف على المعلاة يسمى بجبل العبادى، وجبل السليمانية، أما الجزء الجنوبى فيسمى بجبل هندى. ومن هذه الأسماء جبل القرارة وجبل فلفلة من جهة الشامية ، وكل هذه الأجزاء تمثل جبل قعيقعان . هامش (٢) ص٢٥ ج٤ من كتاب ابن فهد: اتحاف الورى .

٣٦- راجع ابن فهد : اتحاف الورى ج٤ ص٢٥-٢٦ .

٣٧- السخاوى : الضوء اللامع ج٥ ص٩٣ .

٣٨- السخاوى : الضوء اللامع ج٧ ص٢٣ .

٣٩- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج١٠ ص٢٠٣ ، ج٣ ص١٢٧ ، ج٥ ص٥٧ .

وبالعكس هناك مكيون سافروا إلى كليرجه من بلاد الهند . راجع السخاوى : الضوء اللامع ج١ ص٢٨١ وج٥ ص١٧٥ ؛ الفاسي : العقد الثمين ج٢ ص٧٨ وج٤ ص١٣٧-١٣٨ ، راجع النجدى : السحب الوابلة ج٢ ص٥١٢ . كما أن هناك علماء مصريين دخلوا كليرجه من الهند . راجع

السخاوى: وجيز الكلام ج٢ ص٤٨٢ .

٤٠- السخاوى : وجيز الكلام ج٢ ص٤٩٨ .

٤١- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص٢٢٢ .

٤٢- راجع السخاوى : الضوء اللامع ج٨ ص٢٨٠ ؛ وجيز الكلام ج٢ ص٥٣٤-٥٣٥ .

وربما عرفت هذه المدرسة بالبنجالية الجديدة تمييزا لها عن البنجالية الغياثية . راجع السخاوى: الضوء ج٨ ص٧٤ ؛ الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص١٢٤ .

٤٣- راجع السمهودى : وفاء الوفاء ج١ ص٦٩٦ والسخاوى: التحفة اللطيفة ج١ ص١٦١ وهناك حديث عن القناديل التى أرسل بها صاحب كليرجه للمسجد النبوى .

٤٤- راجع السخاوى : الضوء اللامع ج١٠ ص١٤٨ . ويذكر أن صاحب مندوه من الهند توفى سنة بضع وسبعين وثمانمائة من الهجرة ، وأنه كان مشهوراً بالكرم والصدقة وبشيشة هائلة له بمكة انقطعت بعد موته . راجع ص١٤٩ .

٤٥- السخاوى : الضوء اللامع ج٩ ص٢٢٣ . وهو محمد بن محمد الحسنى الحنفى.

٤٦- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج١٠ ص١٦٦ .

٤٧- ابن فهد : اتحاف الورى ج٤ ص٤٤٢ .

٤٨- السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص١٠٥ .

٤٩- السخاوى: التحفة اللطيفة ج٢ ص٣٧٦ ، راجع خبراً آخر عند السخاوى: السابق ج٥ ص١١٣ .

٥٠- ابن فهد : اتحاف الورى ج٣ ص٣٤٥ ويذكر هنا أن هناك علاقة تجارية قد قامت بين كنباية وميناء مكة المكرمة ، ميناء جدة، راجع السخاوى: وجيز الكلام ج٣ ص١٢٤٨ .

٥١- الفاسى: العقد الثمين ج٤ ص١٠٤ .

٥٢- راجع الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص٣٥٠ ، ٤١٤ ج٤ ص١٥٥ ، ٢٥٤ ، ٣٨٥ والسخاوى: الضوء ج١٠ ص٤٥ .

٥٣- راجع الفاسى: السابق ج٦ ص٢٢١ ، ٤٥٦ والسخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص٢٠٥ وص٣١٠ و ٣٣٠ ج٥ ص٧٦ ، ٢٣٦ ، ٣٠٧ ، ٣١٢ ،ج٦ ص١٤٦ ، ج٧ ص١٠٥ ، ج٩ ص٢٢ . ونصت المصادر على احتواء هذا الرباط على الكتب الموقوفة على العملية التعليمية به .

٥٤- راجع الفاسى : السابق ج٤ ص٣١٨ ، ج٦ ص١٣١ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج٨ ص٥٨ .

٥٥- الفاسي: السابق ج٦ ص٤٥٦ .

٥٦- الفاسي : السابق : ج١ ص٤٥٤ ، ج٦ ص٢٠٤ . ونصت المصادر على وجود كتب به مفهرسة . الضوء اللامع ج٣ ص٣١٢ ؛ السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٢١٧ ، ج٥ ص١٤٣ ، ج٧ ص٢٥٢ ، ج١٠ ص٥٥ ، ١٢٣ .

٥٧- السخاوي: الضوء اللامع ج٥ ص١٧٤ ، ج٧ ص٢٥٣ ونصت المصادر على وجود كتب به .

٥٨- ومنها رباط الصفا وبه كتب حسنة . السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص١١٥-١١٦ ورباط الخرازين. الفاسي : السابق ج٤ ص١٧٤ ، وراجع للوقوف على كل هذه الأربطة الفاسي : السابق ج١ ص١١١٧-١١٨ ، ص١٢١-١٢٣ .

٥٩- راجع السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص٢٤٨ .

ويذكر هنا أن كثيراً من الفقهاء كانوا يسكنون هذه الأربطة ، راجع على سبيل المثال السخاوي: السابق ج١ ص٢٠٨ ، ج٥ ص١٧٤ ، ص٢٣٦ ، ج٧ ص١٠٥ والفاسي: العقد الثمين ج٢ ص٤١٨ ، ج٦ ص١٣١ .

٦٠- السخاوي: الضوء اللامع ج٨ ص٨٨ .

٦١- راجع السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص٨٤ ، ١٠١ ، ١٠٩، ١٢٧، ١٦٤، ١٨٤، ٢٨٥، ج٢ ص١٨٣، ٢٢٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤، ٣٠٩ ، ٣٥٨ ، ٣٧٩ ، ٤٧٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٩ .

٦٢- الفاسي: العقد الثمين ج٦ ص٣٤ .

٦٣- الفاسي: العقد الثمين ج١ ص١٢١ .

٦٤- راجع السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٢٥٧ و٣٠٣ .

٦٥- الفاسي : العقد الثمين ج٨ ص٢١٠ .

٦٦- راجع الفاسي: العقد الثمين ج١ ص٤٠٩-٤١٠ .

ويذكر هنا أن للشيخ غياث الدين معرفة بالطب ، وله فيه مؤلفات حسنة، وقد انتفع به الناس في ذلك بمكة كثيرا ، وكان يقدم الأدوية للناس، وتوفي بمكة سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م . راجع الفاسي: السابق ص٤١٠ .

٦٧- السخاوي : التحفة اللطيفة ج١ ص١٦١ .

٦٨- راجع السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٢٢٢ وراجع ج-١ ص١٤٨ .

٦٩- راجع السخاوى: السابق والصفحة نفسها وج١٠ ص١٥٠ .

٧٠- راجع السخاوى: السابق ج٣ ص٢٢ .

٧١- السخاوى: السابق ج٣ ص٢٢ ؛ راجع الفاسى: العقد الثمين ج٤ ص١٧٦ ؛ الكتبى: فوات الوفيات ج١ ص٣٥٩ .

٧٢- راجع السخاوى : السابق ج١٠ ص٢٩٨ ؛ راجع ج٢ ص١٦٦-١٦٧ .

٧٣- راجع السخاوى : السابق ج٥ ص٦٩ ، ج٨ ص٨٤ ، ج١٠ ص٥٢ .

٧٤- راجع السخاوى: السابق ج١ ص٣٦٧ ، ج٨ ص٨٥ .

٧٥- راجع ابن حجر : الدرر الكامنة ج٥ ص٢٤٨ وإنباء الغمر ج١ ص٢٧ والسخاوى: السابق ج١ ص٣٢٥ ، ج٢ ص٢٣١ ، ج٤ ص١٥٠ ، ج١٠ ص٣٠ .

٧٦- راجع السخاوى: السابق ج٨ ص١٢٧ .

٧٧- راجع السخاوى: السابق ج١ ص١٥ ، ج٢ ص٤٤ ، ج٣ ص٣٠٣ وراجع الصفدى: الوافى ج٣ ص٢٣٩ ؛ المقريزى: المقفى ج٦ ص٦٨ ؛ درر العقود ج١ ص٢١٩ ، ٤٢٠ .

٧٨- السخاوى: الضوء اللامع ج٤ ص٦٠ .

٧٩- السخاوى: السابق ج١٠ ص٦٩ .

٨٠- السخاوى : السابق ج٤ ص١٠٣ وقد وصف هذا الصفدى بأنه كان فصيحاً مفوهاً .

٨١- السخاوى : السابق ج٧ ص٢٢٢ وج١٠ ص٣٠ . ويذكر هنا أن هناك عالمين هنديين عرفا بالسراج . راجع الضوء اللامع ج٩ ص٢١٨ .

٨٢- راجع النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس ج١ ص١٣٠ .

٨٣- راجع الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص٢٩١-٢٩٢ ؛ السخاوى: وجيز الكلام ج١ ص٢٤١ .

٨٤- الفاسى : العقد الثمين ج٦ ص٣٥٥-٣٥٦ .

٨٥- السخاوى: الضوء اللامع ج٩ ص١٥ .

٨٦- ابن حجر : إنباء الغمر ج٣ ص٢٩٨ .

٨٧- تنسب هذه المدرسة إلى الأمير فخر الدين المعروف بالزنجبيلى، أحد أمراء السلطان صلاح الدين الأيوبى، وكانت هذه المدرسة عند باب العمرة . راجع الفاسى : العقد الثمين ج٦ ص٢٤ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ج٣ ص١٣٧ .

٨٨- راجع الفاسي: العقد الثمين ج١ ص١١٧-١١٨ .

٨٩- السخاوي: التحفة اللطيفة ج١ ص١٤٦ ؛ الضوء اللامع ج٢ ص١٧٩ ؛ والمقريزي: درر العقود ج٢ ص٤٢٩-٤٣٠ ؛ راجع ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص١٨٢ .

٩٠- السخاوي : الضوء اللامع ج٢ ص١٩١ .

٩١- السخاوي: الضوء اللامع ج٧ ص٨٥ .

٩٢- راجع هذه الكتب المؤلفة في المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها.

٩٣- السخاوي: الضوء اللامع ج٧ ص٨٥ .

٩٤- السخاوي: السابق نفسه والصفحة نفسها ، ج٩ ص١٩١ .

٩٥- السخاوي : الضوء اللامع ج٧ ص٨٦ .

٩٦- راجع السخاوي : السابق ج٧ ص٨٦ .

٩٧- راجع السخاوي: السابق ج٢ ص١٦٧ ، ج٣ ص١٣٧ ،ج٤ ص١٨٧-١٨٨ .

٩٨- راجع السخاوي: السابق ج٦ ص٢٤٢ .

٩٩- السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص٨٨ .

١٠٠- راجع الفاسي: العقد الثمين ج٤ ص١٨٧-١٨٨ ؛ السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٣٧ .

١٠١- السخاوي : وجيز الكلام ج٢ ص٧٤٢ .

١٠٢- السخاوي: وجيز الكلام ج١ ص٢٨٣ .

١٠٣- كان تعليم الأطفال وتأديبهم معروفا بمكة على نطاق واسع زمن المماليك ، وكان يتم بالحرم الشريف تحت مآذنه وعند أبوابه راجع الفاسي: العقد الثمين ج١ ص٤١٣ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ج٢ ص٣١٤ ،ج٤ ص٨٥ ، ج٨ ص١٧ ، ص٩٥ ؛ السخاوي: الضوء اللامع ج٢ ص١٠٩ ، ج٣ ص١٠٢ وج٥ ص٨٩ ، ج٩ ص١٣٤ ، ١٦٦ ، ١٨٣ كذلك عُرف هذا التعليم للأطفال بالمدينة المنورة . راجع السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص٢٣-٢٤ . والتحفة اللطيفة ج١ ص٩٤ ، ٤٥٣ ، ج٢ ص١٣٥ ،٣٥٩، ٥٠٥ .

١٠٤- السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص١٦٩ .

١٠٥- الفاسي: العقد الثمين ج٢ ص٢٩١ .

١٠٦- السخاوى: التحفة اللطيفة ج٢ ص٣٥٢-٣٥٣ ؛ راجع ترجمة مختصرة له عند الفاسى : العقد الثمين ج٦ ص٣٥٤ .

١٠٧- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٧ ص٢٢٣ . ونذكر هنا أن هنديًا كان أحد خدام المسجد النبوى، وكان فى الوقت نفسه عالمًا. راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٣ ص١٧٣ .

١٠٨- السخاوى: وجيز الكلام ج١ ص٢٤١ .

١٠٩- السخاوى: الضوء اللامع ج٣ ص٢٩٠ .

١١٠- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٤ ص١٧٩ ،ج٣ ص١٣٧ ، ج ص٥٣ ؛ التحفة اللطيفة ج١ ص١٤٦ .

١١١- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٨ ص٥٦ ؛ الفاسى: العقد الثمين ج٨ ص٢٨ ، ج٨ ص١٦٣ .

١١٢- الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٣١٩ .

١١٣- السخاوى: الضوء اللامع : ج١ ص٣٠٤ .

١١٤- السخاوى: الضوء اللامع ج٤ ص١٠٣ .

١١٥- راجع الفاسى : العقد الثمين ج٢ ص٣٤٠-٣٤٢ .

١١٦- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص١٦٧ ، ١٧٥ .

١١٧- راجع السخاوى: الضوء اللامع ج١ ص٨٩ وراجع من ص٨٨-٩٩ .

١١٨- الفاسى : العقد الثمين ج٨ ص١٩٠ .

١١٩- راجع الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٣٢١ .

١٢٠- راجع الفاسى: السابق ص٣٤٠-٣٤٢ .

١٢١- الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٣١٩ .

١٢٢- راجع السخاوى : الضوء اللامع ج٢ ص٢٠٧ ، ٣٢١ ،ج٣ ص١٢٧ ، ١٣٤ ص٢٣٢ ، ج١٠ ص٢١ ص٢٠٣ ؛ الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٣٢٠-٣٢١ ، ص٣٢٢ ، ص٣٣٢ .

١٢٣- راجع الفاسى: العقد الثمين ج٢ ص٢٩٢ .

١٢٤- راجع ابن فهد: اتحاف الورى ج٣ ص٢٤٧ وفيات سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م.

١٢٥- السخاوى: الضوء اللامع ج٨ ص١٠٣ .

١٢٦- الفاسى: العقد الثمين ج١ ص٤١٢ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج٧ ص١٣٣ .

١٢٧- منهم الضياء الهندى. راجع الفاسى: السابق ج٢ ص٢٩٢ ؛ السخاوى: وجيز الكلام ج١ ص١٤١ . والمحب محمد الهندى. راجع السخاوى: وجيز الكلام ج١ ص٢٨٣ . وتجب الإشارة هنا إلى أن أحد حكام الهند من المشهورين بالعدل وتقريب العلماء وهو غياث الدين الغورى الملقب بقسيم أمير المؤمنين كان يكره التعصب المذهبى ويقول : «التعصب فى المذاهب قبيح». الذهبى: سير أعلام النبلاء ج٢١ ص٣٢١ . الأمر الذى يؤكد ظهور هذا التعصب بالهند على نطاق واسع مما جعل حاكم الهند الغورى يذمه .

١٢٨- منها على سبيل المثال ما قام به الملوك الهنود من إرسال الأموال لأهالى الحرمين الشريفين ، فضلا عن إرسال الهدايا لأمراء مكة وأئمة الحرم وقضاة مكة . راجع فى ذلك الفاسى: العقد الثمين ج٤ ص١٠٤ و ١٠٨ ؛ السخاوى: الضوء اللامع ج٢ ص٣١٣ ؛ج٣ ص١٨٣ ، ٢٢٢ وج٨ ص٢٨٠ ؛ وجيز الكلام ج٢ ص٤٩٨ وابن فهد: اتحاف الورى ج٤ ص٤٤ . وجدير بالذكر هنا إلى أن هناك إشارات فى المصادر عن أدوار العامة من الهنود بالحرمين الشريفين ومنها إشارة السخاوى (الضوء اللامع ج٣ ص١٥٢) إلى أحد الهنود البنائين الذين مارسوا هذه الصناعة بمكة وهو حسين بن عمر الهندى وتوفى سنة ٨٦٠هـ / ١٤٥٥م إلى غير ذلك من إشارات عديدة لم يعرض إليها الباحث لأنها خارج نطاق بحثه .

المصادر

ابن أيبك (أبوبكر بن عبدالله ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م) :

١- كنز الدرر وجامع الغرر ج٩ تحقيق هانس رويرت . المعهد الألمانى للآثار بالقاهرة.

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) :

٢- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ج٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ابن حجر (شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م):

٣- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة. تحقيق محمد سيد جاد الحق . دار الكتب الحديثة.

٤- إنباء الغمر بأبناء العمر . تحقيق د. حسن حبشى. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الذهبى (شمس الدين محمد بن أحمد ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) :

٥- سير أعلام النبلاء. تحقيق عدة محققين مؤسسة الرسالة – بيروت .

السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت ٩٠٢هـ / ١٣٩٦م) :

٦- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع . دار مكتبة الحياة . بيروت .

٧- وجيز الكلام فى الذيل على دول الإسلام . تحقيق بشار عواد وعصام الحرستانى وأحمد الخطيمى. مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م.

٨- التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة الشريفة. دار الكتب العلمية . بيروت. لبنان ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

السلفى (الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد . ت ٥٧٦هـ / ١١٨٠م) :

٩- معجم السفر . تحقيق عبدالله البارودى. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ١٩٩٣م / ١٤١٤هـ .

السمهودى (نور الدين على بن أحمد ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

١٠- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى. تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد. دار إحياء التراث العربى. بيروت . لبنان .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م):

١١- بغية الوعاة فى طبقات اللغويين. تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم . المكتبة العصرية، صيدا ، بيروت .

الصفدى (صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م):

١٢- الوافى بالوفيات ج٣ اعتناء س. ديدرينغ.

ابن الصيرفى (على بن داود ت ٩٠٠هـ) :

١٣– نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان تحقيق د. حسن حبشي. دار الكتب ١٩٧٠م.

الفاسى (محمد بن أحمد الحسنى ت ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م) :

١٤– شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . تحقيق د. عمر عبد السلام تدمرى. دار الكتاب العربى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٥– العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين . تحقيق عدة محققين مطبعة السنة المحمدية.

ابن الفرات (محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) :

١٦– تاريخ ابن الفرات ج٨ تحقيق د. قسطنطين زريق ود. نجلاء عز الدين.

ابن الفهد (محمد بن محمد بن محمد بن فهد ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) :

١٧– اتحاف الورى بأخبار أم القرى. تحقيق د. عبد الكريم على بار. السعودية ، جامعة أم القرى. مركز إحياء التراث الإسلامى. مكة المكرمة.

ابن قاضى شهبة (قضى الدين أبو بكر أحمد ت ٨٥١هـ / ١٤٤٨م) :

١٨– تاريخ ابن قاضى شهبه . تحقيق عدنان درويش دمشق ١٩٧٧م.

القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) :

١٩– صبح الأعشى فى صناعة الانشا . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

الكتبى (محمد بن شاكر ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) :

٢٠– فوات الوفيات . تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر بيروت .

المقريزى: (أحمد بن على ت ٨٤٥هـ) :

٢١– المقفى الكبير تحقيق الأستاذ محمد اليعلاوى دار الغرب– بيروت.

٢٢– درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة. دراسة وتحقيق د. محمد كمال الدين عز الدين. عالم الكتب – بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

النجدى (محمد بن عبدالله بن حميد) :

٢٣– السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة . تحقيق بكر عبدالله أبوزيد ود. عبد الرحمن العثيمين. مؤسسة الرسالة . الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

النعيمى (عبد القادر بن محمد ت ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م) :

٢٤– الدارس فى تاريخ المدارس. تحقيق جعفر الحسنى .

د. محمد بهاء الدين محمد متولى(*)

المعاهدة السعودية البريطانية

(جـدة ١٩٢٧م)

مقدمة :

يتحفظ بعض الباحثين فى دراسة المعاهدات ، بزعم أنها مجرد وثائق منشورة تحمل فى ثناياها كل ما يمكن أن يقال بشأنها . لكن الأمر يختلف جوهريا عن هذه الرؤية ، فالمعاهدات رغم كونها وثائق منشورة تشير فى ذاتها إلى مضمونها ، فإنها تشغل ركنا أساسيا فى الدراسات التاريخية، لما تمثله من أهمية مستمدة من قيمتها كعهود أو مواثيق تنظم العلاقات بين الدول فى مراحل تاريخية حاسمة؛ وتتحكم بدرجة أو بأخرى فى نواح هامة من مجالات العمل الداخلى والخارجى. كما أن الظروف التى تدفع التفكير فى بلوغ معاهدة ما، والتفاوض الذى يلى ذلك، وما يتزامن معه من مناورات سياسية أو عسكرية ونشاط دبلوماسى مكثف فى مناقشة مواد وشروط المعاهدة المزمعة هى أمور توجب بدورها التركيز على دراسة المعاهدات ، إذ تأتى بمثابة مرآة تعكس أسلوب تفكير كل طرف وتعبر عن حقيقة نواياه واتجاهاته . ليس ذلك فحسب بل أن تتبع المعاهدة فى مجال التطبيق أمرا يستحق الرصد، ولايجب أن تقل النظرة إليه عن النظرة إلى المعاهدة ذاتها ، فهو يدخل المعاهدة فى النسيج العام للأحداث ، ويظهر حيويتها وتأثيرها . من ثم ، فإن هذه الأهمية متعددة الجوانب يجب أن تدفع إلى دراسة المعاهدات وتقييمها ، كى تحتل المكانة التى تليق بها فى الدراسات المتخصصة ، وتسد نقص هام تعانى منه المكتبة التاريخية العربية.

---

* كلية التربية – العريش – جامعة قناة السويس.

من هذا المنطلق تأتي دراسة المعاهدة السعودية البريطانية المعروفة باسم «معاهدة جدة ١٩٢٧» تلك المعاهدة التي كانت محور العلاقات السعودية البريطانية في مرحلة ما بعد ضم الحجاز ١٩٢٥، وهي من أدق مراحل قيام الدولة السعودية الحديثة، التي آثر الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود على عاتقه أن ينهض بأعبائها. وقد اتسمت تلك العلاقات بخصوصية شديدة بسبب هيمنة بريطانيا على معظم المنطقة العربية؛ بما في ذلك الخليج العربي من جهة ، وحاجة النظام السعودي لاعتراف ودعم دولي من جانب هذه القوة العظمى ؛ يساعده في اجتياز العقبات التي تعترض سبيله من جهة أخرى. ونصت المعاهدة ولأول مرة في التاريخ السعودي الحديث على اعتراف صريح باستقلال الدولة الناشئة استقلالا تاما، بجانب بنود أخرى عبرت عن درجة كبيرة من الاستقلالية والسيادة في إدارة شئون البلاد. فأشاع ذلك جوا من الثقة والاستقرار داخليا ، وانعكس خارجيا في اعتقاد المجتمع الدولي بقدرة الدولة السعودية على البقاء، فتمهد السبيل للتقدم بخطوات راسخة نحو التحديث. وقد وصفت المعاهدة دون مبالغة بأنها شهادة ميلاد للدولة السعودية في محيط الأسرة الدولية، وخطوة هامة في مرحلة تحول تاريخية حاسمة نحو بناء دولة عصرية. بالإضافة إلى ذلك، فقد أمنت المعاهدة مصالح بريطانيا في دولة باتت تسيطر على طريقين من أهم طرق المواصلات الهند؛ ضمت الحجاز الذي يطل على البحر الأحمر وبه الأماكن الإسلامية المقدسة؛ والإحساء ذات الموقع الاستراتيجي المتميز على الخليج؛ ونجد ذات الثقل البشري والاقتصادي. وجاء ذلك خلال فترة عصيبة كانت فيها الجزيرة العربية موضع تنافس دولي قوي. ونظرا للدور الهام الذي اضطلعت به المعاهدة، فقد جددت مرتين لمدة سبع سنوات الأولى في ١٩٣٦ والثانية في ١٩٤٣ . بذلك تكون قد ظلت في حيز التنفيذ حتى بداية عهد العلاقات السعودية الأمريكية المتميزة.

تنبع أهمية المعاهدة أيضا من أنها المرة الأولى في تاريخ العرب المعاصر التي يتفاوض فيها جانب عربي مع بريطانيا في جو تسوده ندية وتكافؤ . فكل طرف كان على نفس القدر من الحاجة للآخر، ورغم الهوة الساحقة بينهما عند بدء التفاوض. وسبقت المفاوضات وتزامنت معها مشاورات مكثفة من كافة الأجهزة السياسية البريطانية المعنية على اختلاف ميولها واهتماماتها ، مما دل على أهمية المعاهدة للجانب البريطاني. كما أن المفاوضات ذاتها اشتملت على تبادل واسع لوجهات النظر بين الطرفين، فألقي الضوء على فكر كل طرف وحقيقة نواياه، والمصالح الأساسية التي سعى إليها . وتسببت المفاوضات في تنازلات متتالية

من الجانب البريطاني نزولا إلى مطالب ابن سعود ، ومثلت في مرحل ما قبل التوقيع نموذجا لحالة نشاط غير عادى استهدفت فرض شروط التفاوض التى حملها كل طرف ، فى مجال التطبيق كان تأثير معاهدة جدة ملموسا فى معظم الأحداث الجسام التى مرت بها الدولة السعودية. وقد نفعت حينا وأخرت حينا، لكن يبقى أنها باتت جزء ليتجزأ من التاريخ السعودى وأخيرا ، فإنه رغم تلك الأهمية المتنوعة قلما تلقى المراجع والبحوث التى تناولت تاريخ المملكة العربية السعودية بضوء كاف على المعاهدة ربما اقتناعا برؤية المتحفظين من الباحثين ، أو بسبب التركيز على مراحل نمو وتطور المملكة خلال الحقبة التى وقعت فيها .

معاهدة دارين ١٩١٥

فى صيف ١٩١٤ وجدت بشبه الجزيرة العربية ثلاث قوى محلية رئيسة : الحكم السعودى فى نجد بوسط الجزيرة ، آل الرشيد فى جبل شمر، الشريف الحسين بن على فى الحجاز ، ووقعت جميعها فى دائرة السيادة التركية. غير أن تركيا لم تمارس نفوذا قويا سوى على ابن رشيد ، الذى كان أقربهم خضوعا إليها وتحالفا معها. بينما كان عبد العزيز آل سعود نسبيا أقوى هؤلاء الحكام وأكثرهم استقلالا نظرا لاستقرار سلطته، وتمتعه بتأييد قبلى واسع النطاق(١).

كانت بريطانيا الأقوى فى منطقة الخليج، بتفوق بحرى وتجارى وعسكرى ملموس؛ وسلسلة من معاهدات وقعت مع مشايخ وحكام المنطقة ، أطلق عليها معاهدات الحماية، لأنها نصت على توفير الحماية لأطرافها مقابل التبعية لبريطانيا، وآخرها مع الشيخ مبارك آل الصباح حاكم الكويت ١٨٩٩ (٢). ولم يكن وسط الجزيرة العربية يهم بريطانيا بنفس الدرجة نظرا لعدم وجود مصالح استراتيجي أو اقتصادية تسترعى الاهتمام، ولأنها قدرت ترك شئونه لتركيا حرصا على حسن العلاقات(٣).

بنشوب الحرب العالمية الأولى فى خريف ١٩١٤ تبنت الدوائر السياسية البريطانية فكر تشجيع الحكام المحليين على دخول الحرب ضد تركيا . وأبدت حكومة الهند اتجاها أكيدا نحو توطيد العلاقات مع ابن سعود باعتباره صاحب ثقل سياسى واضح فى منطقة الخليج ، ورنت إلى إمكانية مشاركته على نحو فعال فى الحرب ، بينما ناشدته الدولة العثمانية العون، فارتفعت أسهمه بسبب هذا التنافس، وأصبح فى وضع يسمح له بتحديد الاتجاه السياسى المناسب . ثم لعبت ظروف الحرب دورا فى اتجاه بريطانيا للاستفادة من جهود ابن سعود

أثناء الحملة على العراق، بينما خشي الأخير من احتلال موانئ الإحساء باعتبارها أملاكا تركية لو أبدى تقاعسا فى التعاون مع بريطانيا . لكن ابن سعود رأى قبل أن يقدم على قبول فكرة التعاون أنه بحاجة إلى معاهدة تقر فيها بريطانيا بأن الإحساء ونجد بلاد مستقلة تحت حكمه، مع ضمان بحمايته من أى اعتداء يقع عليه من أية دولة أخرى. وأبدى نوكس S.Knox المقيم السياسى فى الخليج استعداد بلاده لعقد معاهدة بالمفهوم السابق مقابل تعاون فى عملية الاستيلاء على البصرة . غير أن ابن سعود لم يشأ أن يقحم نفسه فى الحرب دون ترو، كما أن الاعتبارات الإقليمية صعبت المهمة التى كلف بها، فتوقفت الاتصالات فترة بهدف كسب الوقت وانتظار ما سوف تسير إليه الأمور(٤).

فى منتصف ديسمبر ١٩١٤ التقى شكسبير Shakespeare الوكيل السياسى فى الكويت بابن سعود، بهدف التأكد من استجابته لمطلب المشاركة فى الحرب. واتخذ الأخير موقف المساومة، وحاول تحقيق أهداف ذاتية ؛ مثل مهاجمة الحجاز أو حائل . وفى أوائل ١٩١٥ كتب شكسبير تقريرا مستفيضا ، احتوى على شرح للموقف السياسى فى نجد؛ مصحوبا ببعض التوصيات ، أهمها توقيع معاهدة حماية وتحالف صريحة توفر لابن سعود على المدى الطويل الأمن ضد أية محاولات انتقامية من جانب تركيا . وتضمن التقرير مقترحات ابن سعود بشأن المعاهدة ؛ التى لم تخرج عن ضمان باستقلال نجد والإحساء تحت الحكم السعودى؛ مع تحديد للحدود النجدية وضمان بسلامة تلك الحدود؛ مقابل عدم التعامل مع أية قوة أجنبية غير بريطانيا ؛ وتعهد بمقاومة عمليات تهريب السلاح والدفاع عن الرعايا البريطانيين فى نجد وملحقاتها(٥).

فى تلك الآونة ، أشارت التطورات إلى قرب طرد الأتراك من الخليج والجزيرة العربية، وتيقن المسئولون البريطانيون فى الهند ولندن على حد سواء بأن تلك المسألة سوف تجعل ابن سعود حاكما قويا ذا سلطة راسخة فى هاتين المنطقتين؛ وأنه لايجب تقييم العلاقة معه في ضوء ما يمكن أن يقدمه من خدمات فى ظل الظروف الراهنة التى تواكب مرحلة الحرب؛ إنما إلى مدى ما يمثله من تهديد أو فائدة للمصالح البريطانية فى مرحلة السلام المقبلة. وطبقا لهذا التصور ولمقتضيات الأمن فى الخليج بدا مهما أن تجرى ترتيبات محددة مع ابن سعود، أهمها إدخاله فى نظام معاهدات الحماية . فوضع اللورد هاردنج Lord Hardinge نائب حكومة الهند مسودة معاهدة اختلفت عن نظيرتها التى وضعها ابن سعود فى عدة أمور هام ، منها :

أ. جعل وراثة العرش بإشراف وموافقة بريطانية . ب) رهن المساعدة البريطانية حالة وقوع اعتداء خارجي بعدم وجود اعتداء مسبق من جانب ابن سعود . ج) تأجيل بحث مسألة الحدود إلى وقت لاحق (٦).

في فبراير ١٩١٥ شرع كوكس Sir Percy Cox المقيم السياسي الجديد في الخليج وضابط الاتصال السياسي للقوات الهندية المشاركة فى الحملة على الخليج فى التفاوض مع ابن سعود، وتمكن الأخير من رد بعض ما ورد بمسودة هاردنج فألغى شرط موافقة بريطانيا المسبق على من يتولى الحكم واقتصر فقط على الاعتراف بمن تختاره الأسرة المالكة السعودية، كما جعل مساعدة بريطانيا دون قيد، بينما فشل فى إلزام بريطانيا بوضع حدود سياسية معترف بها لنجد (٧). وأخيرا وقعت معاهدة فى جزيرة دارين أو تاروت المواجهة للقطيف في ٢٦ ديسمبر ١٩١٥ ، وهى معروفة باسم «معاهدة دارين أو القطيف ١٩١٥»(٨). ولاشك أن المعاهدة كانت جزءاً من تدابير بريطانية مختلفة لمواجهة تقلبات الحرب، لكنها ظلت محورا للعلاقات السعودية- البريطانية حتى معاهدة جدة ١٩٢٧ ، وكانت نواة نفوذ بريطاني متزايد بوسط الجزيرة العربية.

العلاقات السعودية- البريطانية ١٩١٥-١٩٢٥ :

على أى حال ، لم يصبح ابن سعود رهنا للسياسة البريطانية ، فثقته لم تكن كاملة . والثابت أنه كان يعمل علي رعاية مصالحه في كل الاحتمالات . كذلك كان يخشى موقف الشريف حسين بعد انتهاء الحرب ، خاصة وأنه لمس بوضوح قدر المعاملة الممتازة التى يلقاها من الجانب البريطاني (٩). وربما لهذا السبب لم يقدم على محاربة ابن رشيد حتى لايغضب تركيا حليفته أو يتخذ منه سندا لو هاجمه الحسين. وقد ذكر فلبى Philby فى مذكراته ، أنه وجد صعوبة شديدة فى إقناع ابن سعود بمهاجمة ابن رشيد (١٠). ومع يناير ١٩١٧ تلقى ابن سعود معونة مالية قدرت بنحو ٥٠٠٠ جنيه استرلينى شهريا ، بجانب كميات من الأسلحة ، استعدادا للمشاركة فى خطة طموحة للتخلص من كافة القوى الموالية لتركيا خاصة ابن رشيد فى حائل (١١).

أثر انتهاء الحرب، جرت اتصالات ومشاورات مكثفة بين ابن سعود والمسئولين البريطانيين فى الخليج حول أطماع الملك حسين فى نجد ، والتنافس حول المواقع الاستراتيجية الحدودية ، ومشكلات القبائل فى مناطق الحدود، وسبل التعاون فى الحملة ضد ابن رشيد . وفى أثناء ذلك

تبينَّ أن تيارا قويا داخل الإدارة البريطانية يؤيد ابن سعود . وذكر جورج كيستون George K. من الخارجية ، أن المسئولين بمكتب الهند «زرعوا كراهية شديدة لحسين وعدم ثقة به وتأييدا كبيرا لابن سعود فى الأوساط اللندنية»(١٢) وفى نهاية ١٩٢١ حسم ابن سعود مسألة القضاء على آل الرشيد فى حائل بعد أن ظلت معلقة ما يقرب من سبعة أعوام . واعترفت بريطانيا رسميا به حاكما على نجد وملحقاتها، وأقرنت اسمه بلقب «سلطان نجد»(١٣).

لم يكد ابن سعود يفرغ من آل الرشيد حتى واجهته مشكلات حدودية مع العراق بعد أن تقاربت خطوط التماس . وجرت مفاوضات بإشراف بريطانى لوضع حدود ثابتة والقضاء على أسباب الخلافات والنزاعات بين القبائل . وتعرض ابن سعود لضغوط من جانب كوكس، الذى كان يعمل بإيحاء من شركات رأسمالية فى لندن اهتمت بالتنقيب عن البترول فى جنوب العراق. وأخيرا وقعت اتفاقية المحمرة نهاية ١٩٢٢ بين العراق وسلطنة نجد، جاءت مطابقة فى شروطها لوجهة نظر بريطانيا . ونظرا لأنها لم تبحث فى صميم مشكلات القبائل لم توقف النزاعات الحدودية (١٤).

تفاقمت الأمور بين نجد والحجاز مع بداية ١٩٢٣ ، بينما شهدت الحدود بين نجد وكل من العراق وشرقى الأردن توترا شديدا بسبب تحركات القبائل، وربما بسبب تفاقم العداء بين الملك حسين وبين ابن سعود، واعتقدت بريطانيا أن بالإمكان وضع تسوية شاملة لمشاكل المنطقة . فدعت إلى عقد مؤتمر بالكويت تحت إشرافها ، يحضره ممثلون عن كل من نجد والعراق وشرقى الأردن والحجاز. ووضح منذ البداية ، أن بريطانيا تهتم بمشكلات الحدود بين العراق وشرقى الأردن مع نجد ، وترنو إلى ترسيم ثابت لها أكثر من حرصها على إيجاد حل للمشكلات المعقدة بين نجد والحجاز . لهذا فهى لم تكن جادة فى دعوة حسين بينما بدت أكثر جدية عند دعوة ابن سعود. وفى حين قبل ابن سعود- بعد بضغط شديد وعلى مضض- المشاركة فى المؤتمر بوفد رسمى ، رفض حسين كل الدعوات التى وجهت إليه، ولما عاد وقبل كان وقت بحث المشكلات قد فات ، ولم يعد لتمثيله فى المؤتمر أهمية تذكر(١٥).

انعقد المؤتمر بصور متقطعة على ثلاث مراحل، وأنهى أعماله أوائل مايو ١٩٢٤، ولم يسفر عن نتائج محددة على كافة الأصعدة نتائج ، بسبب تمسك وفدا العراق وشرقى الأردن بحل المشكلات المعلقة بين نجد والحجاز، ولم ينجح المسئولون البريطانيون رغم تدخلهم فى صميم المشكلات القبلية والحدودية فى التوصل إلى اتفاق وظلت مسألة الحدود معلقة. بيد أن إصرار

الملك حسين على عدم الحضور عمق من اتجاه بريطانيا نحو ترك مصيره لابن سعود، ووقف أى دعم أو مساندة له. كما أن المؤتمر ذاته أظهر بوضوح استحالة التعايش السلمى بين نجد والحجاز، وأنه لم يبق إلا القتال كى يحسم النزاع [١٦].

ومنذ احتدام النزاع بين ابن سعود وحسين أعلنت بريطانيا الحياد، ثم لم يلبث أن امتد هذا المبدأ إلى كل ما يتعلق بمستقبل حكم حسين. وكان حياد بريطانيا يعنى التخلى عن حماية الحجاز فى وقت تفاقمت فيه مبررات الصدام مع نجد . وقد تمسكت بريطانيا بموقفها الحيادى السلبى حتى أواخر عهد المملكة الحجازية ، ولم يشفع عندها أى من الالتماسات التى قدمها كل من له رغبة فى بقاء المملكة الحجازية رغم علاقاتهم الوطيدة بها. ثم قامت بقطع المعونة عن كل من حسين وابن سعود فى أبريل ١٩٢٤ . وجاءت تلك الخطوة إيذانا لابن سعود للإعداد للزحف على الحجاز ، فقد كان بحاجة إلى موارد مالية تعوض ما فقده بسبب قطع المعونة[١٧]. هكذا كانت الظروف كلها مواتية لابن سعود للقضاء على الحكم الهاشمى فى الحجاز ليس فقط لموقف بريطانيا الحيادى، إنما أيضا لتفوق عسكرى وسياسى وإدارى واضح امتاز به الجانب السعودى .

تثبيت الحدود بين نجد وكل من العراق وشرقى الأردن

أثناء سير العمليات العسكرية فى الحجاز، أصدر ابن سعود تعليمات إلى الفرقة الثانية من قوات الإخوان[١٨] التى كانت ترابط على حدود شرقى الأردن بالتوغل داخل وادى السرحان الواقع شمال الحجاز . ونجحت القوة السعودية فى امتلاك ممر على شكل رأس حربة ، يفصل بين الأردن والعراق وعلى مقربة من الحدود السورية [١٩] وفى ١٠ أكتوبر ١٩٢٥ زار جلبرت كلايتون G. Clayton الرئيس السابق للمكتب العربى بالقاهرة مسرح العمليات على رأس بعثة خاصة، حيث التقى بابن سعود، وأجرى معه مباحثات مكثفة استغرقت ما يقرب من شهر على مدار ١١ جلسة ، تناولت مسألة الجلاء عن وادى السرحان ، وأوضاع القبائل النجدية الحدودية، والتوصل إلى اتفاق بشأن حدود ثابتة ونهائية مع العراق وشرقى الأردن . وقد سمح كلايتون بإقليم الكاف ، واشترط ألا يتم تحويله إلى قاعدة عسكرية . ولم يكن إقليم الكاف يحتل نفس الأهمية الاستراتيجية لوادى السرحان ، فهو يحقق سيطرة محدودة على الممر الرئيسى الذى يربط بين العراق وشرقى الأردن ، وعندما أصر ابن سعود فى الجلسة الأخيرة على الاحتفاظ بوادى السرحان هدد كلايتون بوقف المفاوضات [٢٠].

وربما تبين لابن سعود أن تأزم العلاقات مع بريطانيا فى تلك المرحلة الحاسمة من حصار ما تبقى من مدن الحجاز الهامة خاصة جدة أمر غير مرغوب ، فما كان منه إلا أن وافق على مقترحات المبعوث البريطاني، وتعهد بالانسحاب من وادى السرحان ، وعدم المطالبة بالعقبة بوصفها جزءا من الأراضي الحجازية ، على أن يبحث مصيرها فى مفاوضات مقبلة ، وتعهدت بريطانيا بدورها بعدم إثارة مسألة استيلاء ابن سعود على الحجاز. وتناولت المفاوضات كذلك إمكانية وضع معاهدة جديدة بين البلدين ، تؤكد ما تم التوصل إليه . وتشير التقارير البريطانية أن ابن سعود هو الذى طلب ذلك ، وأنه أبدى حرصاً على أن تشمل المعاهدة بندا يجيز له استيراد الأسلحة «لأنها ضرورة من ضروريات الحياة فى نجد» . وأنه طلب مساعدة مالية لتعويض القبائل التى منعت من التحرك فى مناطق الحدود[٢١].

فور انتهاء المحادثات فى أول نوفمبر ١٩٢٥، وقعت اتفاقية بحرة بين نجد والعراق، كامتداد لاتفاقية المحمرة. وأشرف كلايتون على وضع بنودها . وذكر فى ديباجتها ضمان بريطانيا تنفيذ ما ورد بها . ووقع عليها بصفته مندوبا عن حكومة العراق[٢٢] .

فى اليوم التالى وقعت اتفاقية جدة على غرار الاتفاقية السابقة بين نجد وشرقى الأردن وركزت الاتفاقية بدورها على ترسيم دقيق للحدود، وإلزام نجد بعدم الاعتداء على أراضى شرقى الأردن. كما اهتمت بتنظيم علاقة الدولتين في وادى السرحان وحقوقهما فيه، وتجارة نجد مع سورية [٢٣]. والاتفاقيتان، رغم ما اعتراهما من سلبيات أثرت على قوة سلطنة نجد، كانتا خطوة هامة فى طريق إنشاء الدولة السعودية الحديثة، وأظهرتا بجلاء أسس المصالح المتبادلة بين نجد وبريطانيا .

ضم الحجاز وتكوين دولة جديدة:

نجم عن ضم الحجاز نهاية ١٩٢٥ تغير جوهرى فى وضع ابن سعود، إذ جاء بمثابة أهم خطوة على الإطلاق فى تكوين الدولة السعودية الحديثة، وتنمية علاقاتها الخارجية ، لاسيما مع بريطانيا . ومع بداية العام التالى أعلن ابن سعود ملكا على الحجاز وسلطانا على نجد وملحقاتها ، وسارعت بريطانيا إلى الاعتراف رسميا بالمملكة الجديدة، كما اعترفت بها دول أخرى مثل: فرنسا والاتحاد السوفيتى وسويسرا [٢٤].

فى مارس ١٩٢٦ وقع ابن سعود اتفاقية تجارة وصداقة مع فرنسا بصفتها الدولة المنتدبة على سورية ولبنان ، نظمت العلاقات التجارية مع هذين البلدين [٢٥]. وبتأثير ضم الحجاز ،

توطد الحكم السعودى فى عسير ، فوقع الملك عبد العزيز بن سعود اتفاقية مكة فى ٢١ أكتوبر مع حاكم عسير حسن الإدريسى، مكونة من ١١ مادة ، وتشبه فى نصوصها معاهدات الحماية التى وقعتها بريطانيا مع حكام الخليج[٣٦].

ثم أعلن ابن سعود أوائل ١٩٢٧ ملكا على نجد، ولقب «ملك الحجاز ونجد وملحقاتها »[٣٧]. ومن ثم أصبح قادرا من الناحية الرسمية على تمثيل مصالح المملكة بشقيها الحجازى والنجدى، وأضفى طابعا من الشرعية على جهوده الرامية إلى إحداث طفرة اجتماعية واقتصادية وبناء مؤسسات دولة متماسكة ومستقرة[٣٨]. لكن ظل نشاط الإخوان السياسى والدينى مشكلة مزمنة ونقطة ضعف فى حكم ابن سعود حتى توقيع معاهدة جدة ١٩٢٧ . وقد وافقت بريطانيا على كافة التطورات الداخلية بالنسبة لمشكلة الإخوان [٣٩]. وتسببت المشكلة فى خلق ظروف صعبة لابن سعود أثناء المفاوضات التى سبقت توقيع المعاهدة .

اعتبارات توقيع معاهدة جديدة:

لاشك، أن هذه التطورات جعلت ابن سعود يعتقد أن الوقت أصبح مناسبا كى يسعى إلى معاهدة جديدة مع بريطانيا تنهى علاقة التبعية والخضوع التى فرضتها معاهدة دارين ١٩١٥ فبقاء تلك المعاهدة ربما يعنى أنها تطلق على الحجاز كما تطبق على نجد ، ومن غير المناسب أن يكون حاكم الأراضى الإسلامية المقدسة يتعامل مع بريطانيا بهذه الدرجة من الخضوع. كما بدا لابن سعود أن تلك المعاهدة تحد من قدرته على إقامة علاقات دبلوماسية مع الدول الأخرى ، فى ظل مرحلة تقتضى توسيع دائرة اتصالاته وعلاقاته، ليس فقط بسبب قدوم رعايا مسلمين من كافة الدول إلى الحجاز فى أعداد كبيرة لأداء مناسك الحج إنما لأهمية تلك الاتصالات فى تنمية العلاقات الاقتصادية [٣٠]. فضلا عن أنه باعتباره حاكما جديدا لبلاد واسعة النطاق ويواجه مشكلات داخلية وحدودية تتزايد بسرعة كان بحاجة إلى إعادة صياغة علاقاته الودية مع بريطانيا بأسلوب يؤمن وضعه الجديد الذى اكتسبه بضم الحجاز ويناسب متطلبات المرحلة المقبلة.

أما بالنسبة للجانب البريطانى، فقد تعددت الاعتبارات التى دعت إلى إنهاء معاهدة دارين واستبدالها بأخرى تتفق وظروف التغير الذى طرأ على الدولة السعودية . فالوضع الجيوبوليتيكى الناشئ عن سيطرة ابن سعود على طريقين من أهم طرق المواصلات البحرية والجوية إلى الهند (الخليج العربى والبحر الأحمر) حتم إعادة تأمين المصالح البريطانية فى

دولته،. كما أن امتداد حدود تلك الدولة إلى بلاد تخضع للحماية البريطانية مثل : شرقى الأردن والعراق والكويت، وما شكله هذا التماس الحدودى من تحديات أمام الإدارة البريطانية مثل: التوتر الناجم عن الخلافات السياسية ، وغارات قبائل الحدود، ومحاولات التدخل السعودى فى شئون هذه البلاد، تطلب وضع معاهدة جديدة تمثل قيدا إضافيا ملزما بعدم الاعتداء أو التدخل فى الشئون الداخلية لهذه البلاد، وتأكيدا للاتفاقيات السابقة سواء بشأن الحدود السياسية أو لضمان هدوء القبائل (٣١).

ورغم أن البترول لم يكن قد اكتشف فى منطقة نجد أو فى أى مكان آخر على طول سواحل الجزيرة العربية على الخليج العربى فإن الاحتفاظ بصداقة ابن سعود كان مهما لبريطانيا لوجود شواهد تشير إلى وجود النفط بكميات كبيرة فى بلاده، ولأن هذه البلاد وقعت قريبة من مناطق هامة فى إنتاج البترول فى كل من العراق وإيران(٣٢).

وأصبح من المهم عقد معاهدة جديدة لوقف انجذاب ابن سعود نحو دول أوروبية أخرى مثل: إيطاليا والاتحاد السوفيتى، وكلتاهما ازدادتا اهتماما بالتطورات الأخيرة فى جزيرة العرب. وكان واضحا منذ أبريل ١٩٢٥ أن إيطاليا تحاول دعم مركز الإمام يحيى باليمن ، وجرت بالفعل مفاوضات حول توقيع معاهدة بين روما وصنعاء ، فى نفس الوقت الذى راح فيه الإمام يزيد من ضغطه على الإدريسى فى محاولة لإخضاعه(٣٣). بينما ازداد القلق مع بداية عام ١٩٢٦ إزاء إمكانية تأسيس علاقة وطيدة بين ابن سعود والاتحاد السوفيتى بسبب الأعداد الكبيرة التى يستقبلها الحجاز من البلاد الإسلامية الواقعة تحت السيادة السوفيتية ، مما يعنى تحوله إلى بؤرة مناوئة للغرب وساحة للدعاية القوية ضد الاستعمار (٣٤). ويذكر أن الاتحاد السوفيتى قام خلال هذا العام بمحاولات مدروسة لتوثيق صلاته بابن سعود، وزعزعة ثقته فى الحكومة البريطانية(٣٥).

وأخيرا ، فإن معاهدة جديدة تغير وضع ابن سعود من خاضع إلى حليف من شأنها أن تخفف حساسية الموقف الذى أصبحت عليه بريطانيا، التى ستبدو فى نظر العالم الإسلامى ، لو استمر العمل بالمعاهدة السابقة ، دولة تفرض حمايتها على الأماكن الإسلامية المقدسة مما يشكل إهانة لرعاياها المسلمين لاسيما فى الهند، ويؤدى إلى إثارة مشاعرهم(٣٦).

لقد تناولت المشاورات والاتصالات المكثفة التى سبقت التوصل إلى المعاهدة الجديدة مجمل الاعتبارات التى أدت إليها . لكن تبقى الاعتبارات السابقة الأساس فى حسم الموقف تماما،

وبعضها لم ينل نصيبا كافيا من الضوء رغم أهميته، لأنه تعلق بمصالح سعودية أو بريطانية محضة ، لم تكن تهم الطرف الآخر ، ومن ثم لم تشكل نقاط اتصال بين الطرفين أثناء التفاوض . منها على سبيل المثال: للجانب السعودي: تأمين ما تحقق من مكاسب ميدانية ، تنمية العلاقات الخارجية . للجانب البريطاني: مستقبل التنقيب عن البترول، وقف تغلغل النفوذ الأجنبي ، الارتكاز على الدولة السعودية في التصدي لمخططات الدول الاستعمارية في الجزيرة العربية ومدخل البحر الأحمر والخليج العربي.

الدخول في أجواء معاهدة جدة ١٩٢٧ :

كان ضم الحجاز أهم خطوة في اتجاه التفكير الجدي في وضع معاهدة جديدة. ففي أوائل ١٩٢٦ كتب اللورد أيروين Irwin نائب الهند «... لاشك أن امتلاك ابن سعود للحجاز جعله في مركز جديد مختلف تماما عن ذلك الذي كان عليه وقت أن وقعت معاهدة ١٩١٥، وأن ما كان ملائما آنذاك لم يعد ملائما الآن ... وأن ثمة شعور بالخطر ينتاب ابن سعود بالسماح لأية قوة مسيحية بأي شكل من الامتياز أو بوضع حماية لها في الحجاز، مثل ذلك الذي تجيزه مواد تلك المعاهدة... وأن هذا الأمر على وجه الخصوص يفكر فيه ابن سعود ويضعه ضمن الاعتبارات التي تدفعه إلى تغيير تلك المعاهدة .. كذلك يجب أن يدفعنا انتقال ملكية الحجاز إلي ابن سعود إلى التفكير في مشاعر مسلمي الهند، الذين قد يثيرهم وجود حماية بريطانية على الحجاز حال استمرار تطبيق معاهدة ١٩١٥ . «وأضاف أيروين أن كلايتون قد أشار في رسالة عاجلة في منتصف ديسمبر ١٩٢٥ في أعقاب لقائه بابن سعود وإبداء الأخير رغبته للمرة الأولى في وضع معاهدة جديدة ... أن معاهدة ١٩١٥ لاتنطبق إلا على إقليم نجد فقط .. وحمل ابن سعود على الإبقاء عليها بعد ضم الحجاز يسبب له مشكلات تفوق قدراته .. وبقاؤها قد يحدث قلاقل في الهند تنجم عن سوء فهم بأن شروطها تمتد إلى إقليم الحجاز .. وحكومة الهند معنية تماما بمنع سوء الفهم»[٣٧].

وأعدت وزارة المستعمرات في ١١ أغسطس مسودة معاهدة تضمنت كافة الأمور التي يمكن أن تشملها المعاهدة المزمع عقدها ، غير أن ثلاثة منها أثير حولها جدل عميق : توفير الحماية للحجاج البريطانيين. أمن الخليج. الامتيازات الأجنبية في الحجاز [٣٨].

كتب أيروين إلي بيركنهد Birkenhead سكرتير الدولة لشئون الهند حول انطباعاته بشأن النقطتين الأولى والثانية قائلا «.. نحن هنا ندرك أن من الصعب إن لم يكن مستحيلا أن يقبل

ابن سعود شرطا يقضى بضمان حرية ممارسة الشعائر الدينية لرعايانا من الحجاج المسلمين، بل أن من الصعب حال افتراض قبول هذا الشرط أن يكون قيد التنفيذ الفعلى. ولكن بالنظر إلى حالة السخط والألم التى تنتشر فى الهند بسبب تعصب الوهابيين أثناء الحج فإنه يجب علينا أن نشدد على أهمية إدراج مثل هذا الشرط .. ويبدو أمرا خطيرا لو أن حكومة بريطانيا فى ظل ما حدث فى حج هذا العام تجاهلت تأمين حرية ممارسة الشعائر الدينية . وأنه دون ورود مثل هذه المادة أو العبارة أو على الأقل تبادل خطابات مؤكدة على مضمونها وقت التوقيع أو أى شئ آخر يمكن لنا نشره على الملأ فإن توقيع المعاهدة مع ابن سعود ربما يكون ذا تأثير سيئ على مسلمى الهند. واتفق معك بوجوب أن تشمل المعاهدة الجديدة مادة تضمن استقلال مشيخات الخليج التى لها ارتباطات معنا بما فيها «مسقط» ... وأشعر مثلك بأن حذفها قد يعنى تشجيع ابن سعود على الاعتداء، وبأن ابن سعود لن يمانع فى إدراجها إذ لم تتجاوز حدود المادة ٦ من معاهدة ١٩١٥ ... والرأى فى الهند أن الاستفاضة فى المادة الخاصة بأمن الخليج أمر غير ضرورى.. »[٣٩] هكذا شغل موضوعا توفير حماية للحجاج البريطانيين وأمن الخليج جزءا من تفكير المسئولين قبل غيرهما . وبالنسبة للأول بدا الحرص أكثر وضوحا على ضرورة أن يتم ذلك فى شكل معلن يطمئن الرأى العام فى كل من بريطانيا والهند.

ثم فى ٦ أكتوبر ١٩٢٦ عقد اجتماع هام بوزارة المستعمرات شغل جانبا منه موضوع المعاهدة ، وظهر اهتمام خاص ببحث المادة ٦ من مسودة المعاهدة المنوه عنها آنفا، وتتعلق بموضوع تطبيق الامتيازات الأجنبية على الحجاز. وكانت قد صيغت بأسلوب متشدد للغاية؛ منح السلطات البريطانية امتيازات واسعة ؛ إلى حد أنها جعلت تنفيذ الأحكام التى تصدر ضد رعايا بريطانيين رهن بموافقة الحكومة البريطانية. وتوقع جوردان S.R. Jordan القنصل البريطانى العام فى جدة الذى حضر الاجتماع معارضة جادة من ابن سعود على مادة بهذه الصياغة ، وأشار أنها موضع خزى لايستطيع أن يقبله ، واقترح كإجراء عملى يحقق ما تصبو إليه المادة ٦ «أنه حالما يتعرض أى بريطانى لخطر التقاضى أو المحاكمة أمام القضاء المحلى وفقا لأحكام الشريعة، فبإمكان القنصل البريطانى الإسراع بالاتصال بابن سعود وتسوية الأمر بأن يتم وقف الإجراءات لفترة ما تكفى لقيامه ببحث الموضوع. ثم يتم تدبير الأمر على نحو يوقف المحاكمة تماما». مع ذلك فقد خيم على الاجتماع اقتناع بأن هذه المادة تمثل الحد الأدنى، وأن أية تنازلات تطرأ عليها تشكل سابقة خطيرة ، قد تدفع بلاد

أخرى مثل مصر وإيران تمارس فيها الامتيازات على نطاق واسع إلى محاولة القضاء عليها. ثم خيم قلق واضح على المجتمعين لاحتمال فشل المفاوضات بسبب هذه المسألة(٤٠).

خلال الشهر ذاته قام الأمير فيصل بن عبد العزيز بزيارة إلى بريطانيا لبحث المصالح المتبادلة ، صحبه خلالها عبد الله الملوجى القائم بأعمال الخارجية السعودية وجوردان، استغرقت ما يقرب من ثلاثة أسابيع ، اجتمع خلالها بملك بريطانيا الذى أحسن استقباله(٤١). وأثناء الزيارة ناقشت معه حكومة لندن مسألة المعاهدة الجديدة. وقدم فيصل تصوره بشأن أهمية المعاهدة، فأشار إلى ضرورة تغيير العلاقة القائمة بما يتفق والأوضاع الجديدة التى خلقتها عملية ضم الحجاز وتنمية المصالح المتبادلة . وكشف المسئولون البريطانيون- بدورهم- عن حرصهم على إعادة تقييم العلاقات بين البلدين وتفهمهم لضرورة وضع معاهدة جديدة تناسب ظروف ضم الحجاز . لكن مشاورات فيصل فى لندن لم تتطرق إلى بحث تفصيلات بنود المعاهدة لأنه لم يكن مخولا من قبل والده بذلك(٤٢).

عدلت المسودة التى كانت قد أعدت أوائل أكتوبر ١٩٢٦ بما يتفق ووجهات النظر المختلفة ، ثم قدمت لابن سعود لأول مرة فى نوفمبر التالى. وتضمنت ثلاثة مطالب هامة. الأول: الاعتراف بضم كل من العقبة ومعان إلى شرقى الأردن، وورد ذكره ضمن ملحق خاص فى مسودة المشروع . الثانى : الاعتراف بوضع بريطانيا فى فلسطين والعراق وشرقى الأردن بموجب نظام الانتداب . الثالث : الامتناع التام عن الاعتداء أو التدخل فى شئون إمارات الخليج العربى الخاضعة للحماية البريطانية (٤٣). والأخير وضع بهذه الصيغة بضغط من حكومة الهند ومكتب الهند بلندن، اللذان اعتقدا فى أهميته لحماية منطقة الخليج الاستراتيجية باعتبارها من أهم الطرق إلى الهند. وبنيت وجهة النظر الهندية على أن المصالح البريطانية تكون فى مأمن أكثر بإلزام ابن سعود باعتراف صريح بأن إمارات الخليج تحت الحماية البريطانية المباشرة؛ وتعهد صارم بعدم الاعتداء عليها ، وأن غير ذلك يتيح له حرية التعامل معها والتدخل فى شئونها ، فيصبح زعيما للمنطقة . أما الخارجية فقد بدت متساهلة نسبيا فى هذا الأمر. إذ لم تر أن باستطاعة ابن سعود تهديد أمن الخليج لقلة إمكانته وحرصه على صداقة بريطانيا(٤٤).

تضمنت المسودة البريطانية أيضا مادة تطالب بوقف تجارة الرقيق، والاعتراف بالسلطات الممنوحة للقنصل البريطانى فى جدة بمتابعة أحوال العبيد، وحمايتهم ، وعتق من يرغب منهم فى التخلص من العبودية ، وتوفير حياة كريمة لهم. والسماح للأسطول بتفتيش السفن التى

تحمل العلم السعودى لمراقبة تجارة الرقيق . احتلت تلك النقطة أهمية أخرى لدى الجانب البريطانى لما تمثله من أهمية اقتصادية فى إطار الفكر الاستعمارى القائم على الاستغلال، وفحواه إبقاء العناصر البشرية بمواطنها الأصلية حتى تستخدم فى عمليات الاستثمار المقدرة فيها. وما تعكسه من مظاهر الهيمنة والسيادة. ولما لها من تأثير على الرأى العام الذى يعارض بقوة مسألة الرق . وعزز ذلك الموقف أن بريطانيا وقعت فى سبتمبر ١٩٢٦ على معاهدة فى إطار عصبة الأمم تلزم الدول الأعضاء على التعاون فى مقاومة الرق، وبذل الجهود للقضاء التام على الرق فى كل أشكاله. وقد ذكر شكبيرجن Shackburgn سكرتير الدولة للشئون الخارجية «.. أن حق عتق الرق كان مهما، لأن كثيرا من الناس الذين أصبحوا أرقاء كانوا حجاجا وفدوا من نيجيريا المستعمرة البريطانية . وقد مارسه القنصل فى جدة بشكل فعال خلال الأثنى عشر شهرا الماضية (من سبتمبر ١٩٢٥ إلى أغسطس ١٩٢٦) وتمكن من عتق ٩٧ عبدا»[٤٥].

وأخيرا فإن المسودة البريطانية فى مادتها رقم ٦ ركزت على ما أسمته الرغبة فى الاعتراف المتبادل للطرفين بالوضع الدولى لرعايا كلا منهما، ولم يكن لرعايا ابن سعود وضع دولى متميز أو على الأقل مساو للوضع الدولى لرعايا بريطانيا. وعموما ، كان المقصود بهذه المادة ، أولئك الأشخاص الذين يتمتعون بامتيازات تفرضها الحماية ، ويتصادف وجودهم على أرض الطرف الآخر. ووضعت هذه المادة بدلا من نظيرتها، الخاصة بالامتيازات الأجنبية التى وردت فى مسودة أكتوبر ١٩٢٦ . وواضح أنه قد طرأ عليها تعديل جوهرى رغم أنها اعتبرت طبقًا لاجتماع أكتوبر ١٩٢٦ تمثل الحد الأدنى. ويلاحظ أنها لم تشتمل على بنود معينة تجسد الامتيازات ، ولم ترد فى شكل شرط يلزم قبوله على غرار ما حدث بالنسبة للشروط الثلاثة الأولى، إنما كمجرد رغبة . ويعزو السبب فى ذلك- من وجهة النظر البريطانية - إلى الاعتقاد برفض ابن سعود لأى تلميح لهذه الامتيازات ، والثقة فى قدرة القنصل البريطانى بجدة على ضمان وحماية الوضع المتميز للرعايا البريطانيين فى الحجاز ؛ حتى ولو افتقرت المعاهدة إلى بنود امتيازية ذات طابع رسمى ؛ وهو ما يشير إلى الأخذ بوجهة نظر جوردان بالاعتماد على النفوذ الشخصى للقنصل فى هذه المسألة. هذا بجانب استقرار الرأى على أن أى شكل من أشكال الإعلان الرسمى للامتيازات فى معاهدة ذات طابع دولى وإقليمى هام قد يثير دولا أوروبية أخرى ترغب فى ممارسة حقوقا سيادية فى الحجاز، كما أن الحكومة البريطانية أرادت أن تترك الباب مفتوحا لإمكانية تأكيد الحقوق السيادية فى الحجاز فى المستقبل. ومع ذلك فالمادة رغم التعديل تأتى بإشارة ضمنية إلى الامتيازات التى كانت تمارسها بريطانيا فى الحجاز قبل ضمه[٤٦].

مفاوضات ابن سعود– جوردان :

فى أوائل نوفمبر ١٩٢٦ كلفت الحكومة البريطانية جوردان. بالتفاوض مع ابن سعود، وسلمته نسخة من مسودة المعاهدة للاسترشاد بها، وزود بتعليمات واضحة ؛ بأنه ليس مطالبا بالالتزام التام بالشروط الدقيقة الواردة بها سوى فى أمرين: الأول: حق القنصل فى تحرير وعتق الرقيق ؛ الثانى: عدم المساس بمسألة الحدود بين شرقى الأردن والحجاز، ويقصد بذلك موضوع العقبة ومعان. بجانب أمر صريح بعدم التعهد بدفع أية أموال فى شكل معونة أو قروض لابن سعود لاعتبارات تتعلق بأزمة مالية تمر بها بريطانيا وخشية أن يفسر تقديم الأموال لابن سعود خاطئا من العناصر المعادية بأنه محاولة بريطانية تستهدف تعزيز السيطرة على الأراضى الإسلامية المقدسة(٤٧).

جرت نهاية نوفمبر مفاوضات مكثفة فى وادى العقيق حضرها ممثلون عن الجانبين . وأعلن الجانب السعودى رسميا فيما بعد أن المفاوضات كانت للنظر فى بعض الأمور المعلقة بين جلالة الملك والحكومة البريطانية ، وفى جملتها المنهوبات التى نهبتها قبائل شرقى الأردن من رعايا سعوديين ، فى محاولة واضحة لنفى أية صفة سياسية هامة عنها (٤٨).

على أى حال، لم تكن المفاوضات سهلة. فقد رفض ابن سعود الاعتراف رسميا بأى وضع متميز لبريطانيا فى فلسطين وشرقى الأردن والعراق، أو التنازل عن العقبة ومعان أو عن أية قبائل وأراض تطالب بها حكومة شرقى الأردن وتقع فى نطاق أراضى الحجاز أو نجد(٤٩) . وسعت مصادر بريطانية إلى تبرير موقف ابن سعود فذكرت ، أن معارضته لنظام الانتداب لم تستند إلى إنكار لحقوق السيادة البريطانية ، إنما لأن توقيع اتفاقيتى بحرة وجدة كفيلتان بضبط العلاقات مع العراق وشرقى الأردن، وأن قبوله الإشراف البريطانى على الاتفاقيتين كان بمثابة اعتراف بوضع بريطانيا المتميز فى كلتا البلدين ، وأنه لايفند أو يناقش امتلاك شرقى الأردن للعقبة ومعان، لكن ليس لديه النية أن يقبل هذا الموقف رسميا ، حتى لايبدو وكأنه يسلم أجزاء من أراضى إسلامية مقدسة إلى دولة مسيحية(٥٠).

رفض ابن سعود البند الذى يمنعه من الاعتداء أو التدخل فى إمارات الخليج الخاضعة للحماية البريطانية ، وذكر أن هذه العبارة غير مناسبة ، وتتعارض مع وضعه وهيبته كحاكم مستقل ، وأن لفظ «التدخل» يحتمل أكثر من تفسير واسع ، وفعليا يتعذر تنفيذه.

رفض أيضا السماح للقنصل البريطانى فى جدة بتحرير العبيد، لأنه امتياز يجحف

بحقوقه السيادية فى بلاده ويؤثر على مركزه ووضعه كحاكم مستقل. كما أبدى اعتراضا قويا على السماح للأسطول البريطانى بتفتيش السفن السعودية ومراقبة السواحل، واعتبر أن ذلك انتقاصا صارخا للسيادة الداخلية فى بلاده(٥١).

كما اعترض على تلك المادة التي تطلب الاعتراف المتبادل بالوضع الدولى للرعايا المشمولين بالحماية . وقد فهم بسهولة ، أن هذا الشرط يعنى إقرارا ضمنيا أو تأكيدا مستترا على شرعية الامتيازات الأجنبية وقانونيتها فى بلاده . وأبدى استعداده لقبول هذه المادة فى ظل شرط أساسى يؤكد خضوع رعايا كلتا الدولتين للقوانين المحلية والتزامهم بأحكام القضاء المحلى أثناء إقامتهم فى مقاطعات تابعة للدولة الثانية (٥٢). وكان ابن سعود قلقا إزاء مسألة الامتيازات فى الحجاز ، لأن نسبة كبيرة من المسلمين الهنود ذوى الرعوية البريطانية يترددون عليه باستمرار، وبقاء الامتيازات يجعلهم خارج سلطته. وقد قاسى منهم كثيرا منذ ضم الحجاز، خاصة وأنهم تدخلوا فى عدة أمور سياسية ؛ مثل محاولة إقامة حكومة مستقلة للحجاز تمثل فيها مختلف القوى الإسلامية.

بجانب هذه الاعتراضات طالب ابن سعود بإدخال أربعة بنود صريحة لم يشملها المشروع البريطانى . الأول : ينص بوضوح على استقلاله التام كحاكم لكل من نجد والحجاز . والثانى: ألا تعترض بريطانيا أو تعوق شراءه للسلاح والذخيرة . وقد كان ابن سعود مهتما بهذه المسألة لتوطيد دعائم حكمه وحماية بلاده، خاصة أن بريطانيا وبعض الدول الأوروبية الأخرى خلال صراعه الأخير مع الملك حسين قامت بفرض نوع من الحظر على تصدير السلاح والذخيرة إلى الجزيرة العربية. الثالث: أن تساعده بريطانيا فى الحصول على أموال وقف الحرمين فى مصر وفلسطين والعراق والهند . الرابع : الاعتراف بسيادة بلاده على ذلك الجزء من سكة حديد الحجاز الواقع فى فلسطين وشرقى الأردن، باعتبار أنه من الأمور التى تخص العالم الإسلامى، وأن حكومة الحجاز هى السلطة الوحيدة التى ينبغى أن تشرف على هذا الطريق الحديدى الهام. وطالب بريطانيا بالمساهمة بما قيمته ٥٠ ألف جنيه استرلينى ، بجانب كميات معقولة من الأدوات والمعدات الحديدية، حتى يكون قادراً على إصلاح الأجزاء المعطلة منها؛ والإسراع بالبدء فى تنظيم حركة القطارات استعدادا لموسم الحج القادم(٥٤).

الواقع أن معظم ما ورد بمشروع المعاهدة عبر عن مصالح استعمارية سافرة، لايمكن لأى حاكم وطنى قبولها. فالشرط الأول قصد به منع ابن سعود عن توجيه أية انتقادات ضد

بريطانيا بسبب نظام الانتداب عامة، والوضع في فلسطين وتأييد الحركة الصهيونية خاصة، وهو بمثابة اعتراف بالأمر الواقع وبالمركز المتميز لبريطانيا في هذه البلاد مما يجعله خائنا لقضية استقلال العرب. والثاني أثار مسألة العقبة ومعان، اللتان أصر ابن سعود على عدم الاعتراف بتبعيتهما لشرقي الأردن. والثالث يقيد حركة ابن سعود في منطقة الخليج، ويمنعه من الدفاع عن مصالحه الحيوية.

وواضح ، أن ابن سعود سعى من جانبه إلى بلوغ أقصى فائدة ممكنة من التفاوض دون تقديم تنازلات جوهرية . ولم يكن من المتوقع أن تستجيب بريطانيا إلا لمسألة الاعتراف به حاكما مستقلا . بيد أن هذا التفاوض المبكر كشف عن وجود هوة ساحقة بين الطرفين. وربما كان المشروع البريطاني مجرد عملية جس نبض للوقوف على مدى صلابة ابن سعود ومعارضته للأمور الجوهرية التي تحرص بريطانيا على تحقيقها .

بيد أن المفاوضات فشلت بسبب المغالاة في المطالب البريطانية . لم يلبث جوردان بعد ثلاثة أسابيع أن علق المحادثات . وأعد ابن سعود مذكرة وافية حملت وجهة نظره في كل ما دار في اللقاءات التي جرت معه ، ثم قام فلبي بترجمتها وتسليمها لجوردان . ولما عاد الأخير إلى بلاده أعد تقريرا تفصيليا ضمه مذكرة ابن سعود، مع تحليلات أخرى حول أسباب فشل المفاوضات . وأثنت لندن على حسن تصرف جوردان، ورأت أن فشل المباحثات جاء أفضل من توقيع معاهدة تنسجم والموقف الذي اتخذه ابن سعود. وظهر أن الحفاظ على الوضع الراهن بصورة مؤقتة هو الأنسب (٥٥).

أدى هذا الموقف إلى تبادل مكثف لوجهات النظر بين مسئولين في الخارجية ومكتب الهند وحكومة الهند (٥٦). وبينما كان مكتب الهند يميل إلى قطع المحادثات، فإن الخارجية رغبت في الاحتفاظ بباب التفاوض مفتوحا ، وهو الاتجاه الذي حظي بتأييد قوي من جانب جوردان وأنطونيوس، والذي كانت له الغلبة بعد أن قبله على مضض مكتب الهند. ففي رسالة بعث بها بيركنهد إلى إلى جوردان في ٢٠ فبراير ١٩٢٧ أيد وقف المفاوضات بشكل مؤقت، مع إمكانية التشاور بشكل غير رسمي مع ابن سعود لأجل الوصول إلى رأي نهائي بشأن ثلاثة أمور: أمن الخليج، موضوع الامتيازات في الحجاز، العقبة ومعان(٥٧).

احتلت اعتراضات ابن سعود جزءا كبيرا من المشاورات بحثا عن مخرج ، لاسيما بشأن مسألة العقبة ومعان ، وبحثت البدائل لو سلمت المدينتان لابن سعود ، ومنها تعزيز شرقي الأردن بقوات ضخمة، والذي سيكون إجراء ضروريا للدفاع عنه (٥٨). غير أن الرأي الغالب

كان ضرورة الاحتفاظ بالعقبة لأنها الميناء الوحيد لشرقي الأردن، ولأهميتها في الحفاظ على السيادة البحرية في البحر الأحمر، طبقا لما استقر عليه وقت وضع المسودة الأولى في أكتوبر(٥٩). في النهاية تقرر إدخال تعديلات للمرة الثانية على مسودة أكتوبر ١٩٢٦، لاسيما البنود التي أثارت اعتراض ابن سعود بشدة ، مع الإقلال قدر الإمكان من التفاصيل ، إذ قدر أنها تثير مزيدا من الصعوبات ، وتطيل أمد التفاوض .

في فبراير ١٩٢٧ وضعت المسودة الجديدة، التي أصبحت بعد استطلاع رأى حكومة الهند المشروع الأساسي الذي صيغت عليه المعاهدة . وحملت المسودة تنازلات وإضافات جوهرية على أمل أن تؤدي إلى اتفاق (٦٠). يمكن تلخيصها فيما يلي:

* وضع نص يقر بالاستقلال التام والكامل لابن سعود كحاكم لكل من نجد والحجاز .
* حذف مطلب الاعتراف بالانتداب على فلسطين وشرقي الأردن والعراق .
* حذف مطلب الاعتراف بملكية شرقي الأردن للعقبة ومعان، والاكتفاء في هذا الصدد .

حسب ما ورد بتقرير جوردان - بموافقة ابن سعود على إبقاء الوضع الراهن بالنسبة للمدينتين كما هو انتظارا لتسوية نهائية، مع الامتناع عن الدخول في نزاع مع شرقي الأردن حول هاتين المدينتين.

* وضع نص يلزم كل طرف بأن يستعمل كل ما لديه من وسائل وفقا لترتيبات خاصة ، ليمنع مقاطعاته من أن تستخدم كقاعدة لأنشطة معادية أو غير مشروعة توجه ضد مصالح الطرف الآخر. والنص جاء بديلا ولو جزئيا عن مطلبي: ملكية شرقي الأردن للعقبة ومعان، الاعتراف بالانتداب البريطاني. واستهدف تأمين الوضع الأمني للإدارة البريطانية في البلدان العربية الخاضعة للانتداب وتلك الواقعة تحت الاحتلال المباشر، وهو هام لبريطانيا ، لأنها خشيت روح العداء التي أبداها الإخوان الوهابيون ، وتقاعس ابن سعود في قمع أية أعمال عدائية من جانبهم .
* وضع نص يؤكد خضوع رعايا بريطانيا للقضاء المحلي إذا ما نشبت منازعات مع سكان محليين. وجاءت هذه الإضافة كمحاولة أخيرة لإرضاء ابن سعود، وحسم موضوع الامتيازات . ولأنها لا تشير صراحة إلى تطبيق القوانين المحلية فهي تبقى على شكل ولو مظهري أو غامض للامتيازات [... الأفضل النص على المساواة التامة بين رعايا بريطانيا والوطنيين أمام القضاء المحلي وتطبيق كافة القوانين والنظم

الداخلية ؛ الجنائية وغيرها على الرعايا الذين يتصادف وجودهم فى بلد الطرف الآخر] وتقرر التعويل على قدرة القنصل فى ممارسة نفوذ قوى لمنع الإضرار برعايا بريطانيا، مع تذكير ابن سعود بأن بريطانيا لاتقبل المساس بحقوق رعاياها حتى ولو لم يرد بذلك بندا فى المعاهدة.

* تعديل مادة وقف تجارة الرقيق ، فتضمنت تعهدا بالتعاون التام مع حكومة بريطانيا بكل الوسائل للقضاء على تجارة الرقيق. وجاءت المادة بهذا الشكل أخف وطأة من سابقتها. وألحق بالمادة اقتراحا فى شكل توصية بأن يتم بحث مسألة تخويل القنصل فى جدة صلاحية عتق الرقيق وتحريرهم بمشاورات جانبية بغية التوصل إلى اتفاق مناسب . وألغى بذلك موضوع تفتيش السفن، ومراقبة السواحل (٦١).

تبقى بعد وضع المسودة استطلاع رأى حكومة الهند فى المادتين ٦،٣ (الأولى تتعلق بأمن الخليج ، والثانية تتعلق بموضوع الامتيازات فى الحجاز) بالإضافة إلى موضوع أموال الوقف حتى تصبح مشروعا نهائيا. تأخر رد الهند ما يقرب من شهر، إذ بعث أيروين إلى بيركنهد برسالة مستفيضة فى ٢٢ مارس ١٩٢٧ تبين بدقة موقف حكومته. فبالنسة إلى المادة ٣ قبلتها الهند كما وردت بالمسودة . أما المادة ٦ المتعلقة بالامتيازات فقد أبدت تفهمها للصعوبات التى تعترض وضع نص واضح بشأنها فى معاهدة رسمية، وترى أن مثل هذا النص (الوارد بالمسودة) لايمثل عمليا قيمة كبيرة، ومع ذلك فإنها تقبله. وبشأن أموال الوقف قدرت الهند أن وضع تعهد يلزم بريطانيا بها أمر لايمثل أدنى فائدة ، بل هو مجرد تسليم بطموحات ابن سعود دون مصوغ منطقى، وأوصت بحذف هذا التعهد . أخيرا أفصح أيروين عن شعوره بأن المسودة بهذا الشكل قد لاترضى ابن سعود ، وأنه من وجهة النظر الهندية «.. نحن نقر بوجوب استئناف المفاوضات، وإذا كتب لها الفشل إن كان مقدرا لها ذلك فيجب أن يكون من الطرف الآخر!»(٦٢).

يتضح مما سبق، أن بريطانيا الأكثر حرصا على التوصل إلى معاهدة جديدة ، فقد جاء المشروع الجديد مغايرا تماما لسابقه بالتنازل عن بعض النقاط التى كانت أساسية من قبل، وإبداء مرونة فى البعض الآخر. ولاغرو فى ذلك، فاشتداد التنافس الدولى على مناطق النفوذ فى الشرق الأدنى، وسرعة نمو الدولة السعودية؛ وتوجهها نحو عاقات خارجية مفتوحة ساعد دون شك على هذا التحول(٦٣).

مفاوضات ابن سعود- كلايتون :

تأخر التفاوض ما يقرب من شهرين، رغم إنهاء مشروع المعاهدة الجديد قرب نهاية فبراير، بسبب استطلاع رأى حكومة الهند. وربما لتسوية بعض الأمور الشائكة التى قد تعوق المفاوضات، والبحث عن شخص مناسب يتولاها ، والتريث انتظارا لما ستسفر عنه التطورات الداخلية فى الدولة السعودية ، حيث عانى ابن سعود من تجاوزات الإخوان خلال تلك الفترة(٦٤).

فى أبريل ١٩٢٧ كلف جلبرت كلايتون بإحالة المشروع لابن سعود، والتفاوض ، وإنهاء موضوع المعاهدة بأقصى سرعة ممكنة. وكلف بالمهمة لأن لديه سجل حافل بالنشاط والخدمة المتميزة فى الشرق الأوسط ، ولأنه فى سنة ١٩٢٥ قاد بنجاح مفاوضات اتفاقيتى بحرة وجدة. وحمل تعليمات محددة بالتركيز على الأمور الجوهرية ، وعدم الإفراط فى مناقشة المسائل الفرعية «فربما يتم تسويتها على نحو أيسر بعد توقيع المعاهدة» ، وبأن هذا المشروع يمثل أدنى حد ممكن من التنازلات التى يمكن أن تقدمها الحكومة البريطانية ، وأن على ابن سعود أن يقبلها أو يرفضها إجمالا (٦٥).

فى ١٠ مايو ١٩٢٧ بدأت المفاوضات فى جدة بين ابن سعود وكلايتون. وبعد فترة وجيزة تسربت شائعات عن محاولة التأثير على موقف ابن سعود ودفعه إلى تحالف غير متكافئ ، وتكتم الدوائر السياسية السعودية تفاصيل المفاوضات ، وسعى ابن سعود لأخذ إعانة مالية مقابل الموافقة على عدة شروط تجعل أملاكه تحت الحماية البريطانية . ولا يمكن تجاهل دور الإخوان فى نشر الشائعات ، خاصة وأنهم تشككوا فى نوايا ابن سعود وسعيه للحصول على السلاح حتى يتمكن من السيطرة عليهم(٦٦).

شهدت معظم مواد المشروع جدلا، جاء قويا حينا . وتعرض بعضها لتغيير أو حذف وبدا واضحا أن الحكومة البريطانية لاتعول كثيرا على المعاهدة الرسمية فى حسم أمور معينة هى: عتق الرقيق، العقبة ومعان ، أمن الخليج. فقد اعتبرتها أمورا شائكة يصعب التوصل فيها إلى التزامات نهائية أو دقيقة ، وفضلت تركها لاتفاقات ثنائية أو لالتزامات أدبية تشملها مذكرات متبادلة ، أو أن يتم حسمها فيما بعد حسبما تقضى إليه تطورات كل أمر منها . واعتمدت بقوة على قدرة كلايتون فى تحقيق استجابة ملائمة من جانب ابن سعود بالنسبة لهذه الأمور، واعتبر التوصل إلى اتفاق بشأنها ينسجم والرؤية البريطانية مهام جانبية مكلف بها . ولاشك

أنها استهدفت من وراء هذا الأسلوب أولا: إنهاء مسألة المعاهدة ، ثانيا : رفع الحرج عن ابن سعود داخليا وخارجيا عند حدوث أية تنازلات من جانبه .

كانت المادة الخاصة بالامتناع عن القيام بأى عمل عدائى أو تدخل فى شئون حكام إمارات الخليج الخاضعة للحماية أولى المواد التى تعرضت لتغيير. فقد سعى كلايتون إلى إقناع ابن سعود بحتمية وضع هذا التعهد، وقدم له نسخ من معاهدات الحماية الموقعة مع هؤلاء الحكام ، كمحاولة للتأكيد على أهمية الدور البريطانى فى الدفاع عن أمنهم. فأشار ابن سعود إلى مساس هذه المادة بمكانته كحاكم مستقل وهيبته فى المنطقة، وقبل كلايتون استبدال هذا النص بآخر أقل حدة وأكثر ضعفا ، يدعو ابن سعود «بأن يعمل على الاحتفاظ بعلاقات صداقة وسلام مع حكام الساحل» . حقيقة أن النص الأول كان أكثر انسجاما للمعايير الأمنية البريطانية ، إلا أن الأوضاع الإقليمية عامة ، بجانب الثقة المتوفرة فى ابن سعود ، وخصوصية العلاقات البريطانية السعودية جعلت كلايتون يتسم بالمرونة فى هذه النقطة . ومن وجهة نظره أن هذا الالتزام الأدبى تدعم ببند صريح فى المعاهدة يطلب من كلا الطرفين حظر استخدام أراضيه كقواعد لأنشطة غير قانونية ضد الطرف الآخر. ويذكر أن كلايتون تصرف فى هذا الأمر بموجب تعليمات صريحة من الخارجية بأن يقبل هذا التعديل كملاذ أخير (٦٧). بينما ظلت حكومة الهند ومكتب الهند غير مقتنعين ، واتهما كلايتون بأنه لم يكن قادرا على تأمين حماية أكبر لإمارات الخليج، وأن قبوله وضع هذا النص قد يعرض أمن الخليج للخطر(٦٨). يذكر أن بيركنهد لم ينس إحساسه بالضيق من التعديل الذى طرأ على نص المادة، رغم مرور أكثر من شهرين على التوقيع المبدئى الذى تم فى ٢٠ مايو ١٩٢٧، فقد كتب ويكلى L.D. Wakely سكرتير الدولة للشئون الخارجية على لسان بيركنهد إلى أيروين فى ٢٢ يوليو التالى مشاركا إياه إحساسه باليأس ، لأنه كان من الصعب استبدال نص المادة ٦ من المعاهدة الموقعة بنظيره الذى ورد بالمسودة التى قدمها جوردان أو بذلك الذى ورد بالمشروع الأصلى الذى حمله كلايتون. وأضاف ويكلى «أنه بدءا من الصفحة السادسة من تقرير كلايتون عن المحادثات يستشف أنه نجح إلى حد بعيد فى توضيح موقف بريطانيا توضيحا تاما فيما يتصل بعلاقاتها بأمراء الخليج »، وأنهى رسالته بسؤال أشبه بالتمنى مفاده «.. هل بالإمكان إثارة الموضوع مرة أخرى بمناسبة التوقيع النهائى على المعاهدة!»(٦٩).

بشأن المادة المتعلقة بالاعتراف المتبادل بالوضع الدولي لرعايا كل طرف من الطرفين، وهي الشق الأول في موضوع الامتيازات الأجنبية؛ والمادة الأساسية التي قصدت من ورائها بريطانيا الاحتفاظ بجوهر هذه الامتيازات ، والتي حلت محل مادة الامتيازات في المسودة السابقة ، فقد استبدل مصطلح «الوضع الدولي» بكلمة «جنسية»، وهي أكثر تعميما وأقل إشارة إلى الامتيازات الأجنبية . كما أضيف شرط يقضي بسريان أحكام القانون الدولي الذي ينظم العلاقات بين الدول المستقلة على العلاقة بين البلدين. هذه الإضافة أرضت ابن سعود لأنها- من وجهة نظره بجانب كلمة «جنسية» - تجعل حقوق رعايا كل طرف في بلد الطرف الآخر مسألة يحكمها القانون الدولي الذي بطبيعته يفرض المساواة ولايعترف بالامتيازات . من ثم فإن أي خلاف ينشب مآله التحكيم العادل ، وهو ما يؤدي إلى إسقاط الامتيازات إن وجدت على أرض الواقع بمرور الزمن أو بالتقادم. بينما كان كلايتون مرنا في هذه المسألة، لأن الإضافة غامضة من وجهة نظره، ولم تشر فعليا أو يفهم منها ضمنيا أنها تتعلق بالامتيازات الأجنبية (٧٠).

عند التعرض للمادة الجديدة الخاصة بموضوع خضوع رعايا بريطانيا للقضاء الوطني ؛ وهي الشق الثاني الذي أضيف إلى موضوع الامتيازات كمحاولة لإرضاء ابن سعود، طلب الأخير موافقة الحكومة البريطانية كتابة على كافة الإجراءات التي ستتخذها حكومته لإلغاء الامتيازات الأجنبية كلية، بما في ذلك تطبيق كافة القوانين والنظم المحلية على رعايا بريطانيا الذين يتصادف وجودهم فوق أراضي سعودية ؛ ومحاكمتهم في كل الأحوال طبقا للقضاء المحلي. غير أن كلايتون شرح أن بلاده قدمت بالفعل تنازلا جوهريا ، عندما ضمنت المشروع هذه المادة التي تخضع الرعايا البريطانيين للقضاء المحلي إذا ما تورطوا في نزاعات مع رعايا سعوديين. كما أنها لاتقبل إطلاقا تطبيق القوانين والنظم المحلية على رعاياها أو محاكمتهم طبقا للقضاء المحلي في حالات لايوجد فيها تورط مع رعايا سعوديين . عند هذه النقطة اقترح ابن سعود حذف هذا النص برمته (٧١).

بالتأكيد، كان ابن سعود يشك تماما في أن بريطانيا وضعت هذه المادة كمحاولة مستترة لتأكيد مبدأ الامتيازات في ظل إيماءة بوقف جزء معين منها. وبمعنى آخر، فإنه رأى أن إيقاف العمل بأحد مظاهر الامتيازات يؤكد بمفهوم المخالفة وجود ما تبقى منها.

يذكر، أن ابن سعود أبدى ترددا واضحا بشأن موضوع الامتيازات في مجمله، فقد سبق

ورفض مـادة الاعتـراف بالوضع الدولى أثناء مـفـاوضـاته مع جـوردان إلا لو أضيف شرط خضوع رعايا بريطانيا للقضاء المحلى ، لكنه عاد ورفضه على النحو السابق، ثم قبل المادة بإضافة شرطا جديدا يقضى بسريان أحكام القانون الدولى. ويعكس ذلك حرصا شديدا إزاء المواد التى تتحدث عن وضع متميز لبريطانيا فى بلاده.

لعل أهم المواد التى شهدت جدلا شديدا ، تلك الخاصة بإلزام كل طرف بأن يستعمل كل ما لديه من وسائل وفقا لترتيبات خاصة، ليمنع مقاطعاته من أن تستخدم كقاعدة لأنشطة معادية أو غير مشروعية توجه ضد مصالح الطرف الآخر. وبينما قدم كلايتون تنازلا فى مجال الامتيازات الأجنبية، قدم تنازلا أهم فى إطار هذه المادة، وربما تجاوز ما كان لديه من تعليمات صريحة بوجوب موافقة ابن سعود على هذه المادة برمتها . فقد وافق على عبارة بديلة، بأن يتعهد كل من الفريقين بأن يحافظ على حسن العلاقات مع الفريق الآخر، وبأن يسعى بكل ما لديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للأعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلم والسكينة فى بلاد الفريق الآخر(٧٢). اختلفت الصياغتان فى أربع نقاط « أ) كلمة «يسعى» بدلا من كلمة «يستعمل» ، والأولى أخف إلزاما لأن «السعى» لا يتطلب بالضرورة استخدام القوة (ب) حذف «وفقا لترتيبات خاصة» وهى قد تفيد التشاور مع الطرف الآخر، ومن ثم فإنها تمثل قيدا (ج) حذف «أنشطة معادية» والاكتفاء «بغير مشروعة»، وجعلت المجال متاحا أكثر فى التعامل مع قضايا الأمة العربية ذات الطابع القومى، فكلمة «معادية» كلمة مطاطة قد تفسر على أكثر من وجه ، بينما «غير مشروعة» مقيدة بالأحوال التى يمنع فيها القانون أفعالا معينة بذاتها . د. «مصالح الطرف الآخر» استبدلت بعبارة «السلم والسكينة فى بلاد الفريق الآخر» وبدورها تعطى حرية أكثر فى العمل، فقد يأتى النشاط غير ماسا بالسلام والهدوء لكنه مؤثر على مصالح الطرف الآخر. بشكل عام ، جاء التعديل، ولو أنه مقيدا إلى حد ما، فى صالح ابن سعود، إذ أتاح له حرية أكثر فى التعامل مع القضايا ذات الطابع القومى. بينما نظر كلايتون إلى التعديل على أنه قليل القيمة، باعتبار أنه لايؤثر كثيرا على روح المادة، كما أنه رأى أن ابن سعود لايستطيع الإضرار بمصالح بلاده فى البلدان الخاضعة لهيمنتها المباشرة وغير المباشرة ، لأنه لايريد أن يسئ إلى علاقاته الطيبة مع بريطانيا ، ولايملك قدرة مادية أو معنوية تكفل له القيام بذلك بشكل مؤثر (٧٣).

كذلك شهد الاقتراح المتعلق بموضوع عتق الرقيق مباحثات مكثفة . وأوضح كلايتون أن حكومته لاتطلب إلغاء الرق فى الأراضى السعودية ، لأنها تدرك تماما صعوبة اتخاذ هذا

الإجراء العنيف ، الذى ربما يتسبب فى ثورة داخلية أو تمرد سياسى يصعب السيطرة عليه. ثم ذكر أن الرأى العام فى بريطانيا يعارض بشدة الرق، ويستحيل على الحكومة البريطانية أن تتخلى عن دورها الهام والثابت منذ فترة طويلة فى عتق الرقيق . وأصر ابن سعود على اعتراضه السابق بتحرير الرقيق فى بلاده عن طريق موظفى قنصلية أجنبية، ووصف ذلك بأنه تدخل غير مقبول فى شئونه الداخلية . وألمح ، أنه ربما يكون أكثر استعدادا لتقبل إجراءات العتق ، لو أن بريطانيا قدمت له تعويضا ماليا مناسبا ، وتركت مسألة العتق لإجراءات داخلية تتخذها السلطات السعودية . ورد كلايتون، أن حكومته ليس باستطاعتها إطلاقا أن تقبل مثل هذا الالتزام ، لأنه يعادل مبدأ التسامح ، ويمثل سابقة خطيرة ربما تؤدى إلى تشجيع أى نظام آخر إلى الاقتداء بها ، فيرى فى إجراءات العتق مناسبة جيدة للحصول على مساعدات . بيد أن ابن سعود قبل أن يأتى نصا فى المعاهدة، يتعهد فيه بالتعاون التام بكل ما لديه من وسائل مع حكومة بريطانيا للقضاء على تجارة الرقيق. كما قبل تخويل القنصل البريطانى صلاحية عتق الرقيق شريطة أن يلجئوا إلى القنصلية ، وألا يتعرض للرقيق الملكى بأية شكل من الأشكال، وأن يعمل القنصل طبقا لروح الود التى تسود العلاقات المتميزة بين البلدين(٧٤). يذكر أنه بالنسبة للشق المتعلق بصلاحيات القنصل لم يرد بشأنه نص فى المعاهدة ، طبقا لما ورد بالمسودة.

تناولت المفاوضات أربعة أمورا أخرى لم يشملها المشروع الجديد. الأول: ضمان عدم حدوث تعدى على العقبة ومعان. وكان كلايتون قد كتب رسالة لابن سعود قبل بدء المفاوضات، بين فيها وجهة نظر بلاده، واستهلها بتذكيره بأن بريطانيا كانت ولاتزال تصر على اعتبار العقبة ومعان جزءا من شرقى الأردن، وأنها ترى أن الحدود مع الحجاز تبدأ جنوبى العقبة . وأعقب ذلك أن كتب ابن سعود خطابا أكد على موقفه السابق بعدم الاعتراف الصريح بتبعيتهما لشرقى الأردن، ثم أقر بالإبقاء على الوضع الراهن كما هو ريثما يتم إيجاد حل نهائى للمشكلة(٧٥).

الثانى: موضوع شراء الأسلحة. وقد وافق كلايتون على السماح لابن سعود بشراء أسلحة دون قيود محددة. ورغم أن تسليحا جيدا للجيش سعودى قد يجعله قادرا على تهديد مصالح بريطانية هامة فى الشرق الأوسط فإن كلايتون استبعد وقوع مثل هذا التهديد. أولا: بسبب حرص ابن سعود الدائم على صداقة بلاده. ثانيا: بموجب اعتقاد بأن السلاح لن يستخدم إلا للدفاع عن الأراضى السعودية إذا ما تعرضت لاعتداء؛ ولترسيخ سلطة ابن سعود فى الداخل،

وهى أمور تحرص عليها بريطانيا . ثالثا : لأنه قادر على شراء السلاح من أى مكان آخر، إن لم يشتريه من بريطانيا . رابعا : إقناع ابن سعود بشراء الأسلحة من شركات بريطانية ، وبالتالى فإنه يمكن للحكومة البريطانية أن تمارس نوعا من الرقابة على الصفقات ، وتحقق قدرا من النفوذ مع استمرار ابن سعود فى الاعتماد على هذه الشركات فى مجال استمرار المد والتزويد بالأسلحة والذخيرة ، بجانب اعتماده على الجيش البريطانى فى مجال التدريب ولو لزم الأمر(٧٦).

الثالث : موضوع المساعدة فى الحصول على أموال الوقف المخصصة للحرمين، ورفض كلايتون إقحام بريطانيا فى أمر كهذا باعتبار أنه موضوع إسلامى يتحتم تسويته بين الدول الإسلامية . وأضاف أن بلاده سوف تلتزم بسياستها التقليدية القائمة منذ أمد بعيد بعدم التدخل فى المسائل الدينية، وأنه لايعقل مثلا أن تفرض حكومته طلبا على الهند بدفع أموال الوقف لابن سعود ، كما أن إسهام بريطانيا فى جمع أموال الوقف قد يفسر على أنه تدخل فى شئون الحجاز ، فيثير رعاياها المسلمين فى الهند وخارجه . يذكر أن حكومة الهند أبدت اعتراضا شديدا على هذا الطلب، وبموجب ذلك نصح كلايتون باتخاذ هذا الموقف (٧٧). كما أن موقف كلايتون انسجم مع موقف فيصل ملك العراق، الذى عارض بقوة تسليم أموال الوقف العراقية لابن سعود ، لأسباب مختلفة سياسية وشخصية(٧٨). بيد أن ابن سعود لم يتمكن من تفنيد الذرائع التى طرحها كلايتون ، وتعين عليه قبول الموقف البريطانى .

الرابع : رفض كلايتون طلب ابن سعود باعتراف بريطانيا بسيادته على هذا الجزء من سكة حديد الحجاز الواقع فى فلسطين وشرقى الأردن. وبيّن أنه مسألة تهم فرنسا التى تسيطر على أجزاء من الخط الحديدى تمر عبر الأراضى السورية . ومن ثم لايمكن أن يرد مثل هذا الأمر فى معاهدة ثنائية بين ابن سعود وبريطانيا. علاوة على ذلك، تذرع كلايتون بأن سكة حديد الحجاز كانت من أملاك الدولة العثمانية ، وأنه طبقا لشروط معاهدة السلام الموقعة فى لوزان Lausanne عام ١٩٢٣ تؤول ملكيتها إلى كل الدول التى تقع أجزاء من الخط الحديدى فى أراضيها كل بحسب حصتها(٧٩).

إعلان المعاهدة:

فى ٢٠ مايو ١٩٢٧ وقعت المعاهدة مبدئيا، وأطلق عليها «معاهدة جدة ١٩٢٧»، وبعد أسبوع أعلنتها الحكومة السعودية فى صورة بيان مقتضب نشرته جريدة أم القرى، جاء به: «وصل السير جلبرت كلايتون والمستر جوردان المعتمد البريطانى السابق فى جدة والمستر

جورج أنطونيوس وكيل إدارة المعارف بفلسطين إلى جدة. للبحث فى وضع معاهدة تضمن الصداقة وحسن التفاهم بين الحكومتين على أساس احترام السيادة القومية والسلطان القومى المطلق. ودامت المفاوضات مدة عشرة أيام، وأنتجت معاهدة على الأساس المتقدم. وقد وقعها سمو الأمير فيصل نائب جلالة الملك باسم الحجاز ونجد وملحقاتها والسير جلبرت كلايتون باسم الحكومة البريطانية. وستكون المعاهدة مبرمة بعد توقيع ملكى بريطانيا والحجاز عليها»(٨٠).

ثم أقرت المعاهدة رسميا فى ١٧ سبتمبر ١٩٢٧ . ونشرت أم القرى نصها باللغة العربية فى العدد التالى مباشرة ، مرفقا به أربعة ملاحق، فى صورة خطابات رسمية بعث بها كلايتون إلى ابن سعود مع رد من الأخير .

الأول: يتناول الرد على اقتراح من جانب ابن سعود بوضع مادة فى المعاهدة تشترط على الحكومة البريطانية عدم الممانعة فى شراء وتوريد الأسلحة وغيرها من اللوازم الحربية . وجاء به «أن بريطانيا ترى أن هذه مسألة لاتحتاج إلى ذكر فى المعاهدة. وأن كلايتون مفوض بإبلاغه رفع الحظر المفروض على تصدير الأدوات الحربية إلى جزيرة العرب، وأن ابن سعود يستطيع أن يطلب ما يحتاج إليه من شركات بريطانية بمقتضى اتفاقية الاتجار بالأسلحة (١٩٢٥) .

الثانى : يتعلق بموضوع العقبة ومعان ويبين فيه كلايتون موقف بلاده بشأن الحدود بين شرقى الأردن والحجاز، وطلب وضع رسالته ضمن ملاحق المعاهدة . وقد جاء رد ابن سعود واضحا بأن يرى أن تسوية هذه المسألة فى الظروف الراهنة أمر متعذر ، وأنه مستعد لإبقاء الحالة على ما هى عليه، مع وعد بعدم التدخل في إدارتها إلى أن تحين الظروف المناسبة لتسوية نهائية . ثم أعلن أنه لايقبل إضافة رسالة كلايتون بشأن هذا الموضوع ضمن ملاحق المعاهدة .

الثالث : جاء بخصوص مسألة تجارة الرقيق . وقد أكد كلايتون إصرار بلاده على ممارسة حق عتق الأرقاء، وأشار إلى أنه حق قديم مارسه قناصل بريطانيون من قبل، وبموجبه يمكن للقنصل أن يطلق سراح أى عبد يتقدم إليه من تلقاء نفسه، ويطلب تحريره وإعادته إلى مسقط رأسه. وأن بريطانيا تنأى بنفسها أن يكون هدفها التدخل فى شئون المملكة الحجازية النجدية. كما أنها على استعداد أن تعيد النظر فى حق العتق إذا ما تبين للطرفين أن التعاون

المنصوص عليه فى المادة السابعة من المعاهدة قد أدى إلى تدابير عملية كافية لإبطال حق الاعتاق . ورد ابن سعود أنه يثق بأن المعتمد البريطانى فى جدة سيكون محافظا على روح التفاهم التى تحكم هذا الموضوع الذى قد يؤثر على الحالة الإدارية والاقتصادية، ولايدع مجالا للمبالغة فى هذا الموضوع الشائك.

الرابع : بشأن تسليم ممتلكات الحجاج من رعايا جلالة ملك بريطانيا الذين يتوفون بأرض الحجاز إلى المعتمد البريطانى فى جدة. وأكد فيه كلايتون أن الغرض من إدخال هذه المادة هو : أولا: وضع المعاملة المتبعة الآن على أساس رسمى. ثانيا: أن تقدم لبريطانيا تأكيدات تمكنها من إعلان أسس المعاملة المتبعة الآن لجميع المسلمين فى البلاد البريطانية . ثم أكد كلايتون أن هذه المادة لاعلاقة لها بالتصرف فى مخلفات غير الحجاج، التى لاتزال تخضع لقواعد المقابلة بالمثل ، التى هى أساس التعامل التقليدى المعتاد بين البلاد المستقلة . وأكد ابن سعود فى رده أن هذا هو المتبع بالفعل فى بلاده[٨١].

اشتملت المعاهدة على ديباجة ، وإحدى عشرة مادة . ويكاد يتطابق النصان العربى والإنجليزى فى مضمونها . الديباجة جاءت فى شكل إعلانين عن ملكى الحجاز ونجد وبريطانيا العظمى عن رغبتهما فى وضع معاهدة تعمل على توطيد العلاقات الودية السائدة بين البلدين.

أما المواد، فالأولى: تنص على اعتراف بريطانيا بالاستقلال التام المطلق لصاحب الجلالة ملك نجد والحجاز. الثانية : عن سيادة السلم والصداقة بين الدولتين ، والتعهد باستخدام الوسائل المتاحة لمنع الأعمال غير المشروعة . الثالثة : عن تسهيل أداء فريضة الحج لجميع الرعايا البريطانيين. الرابعة : تختص بتسليم مخلفات من يتوفى من الحجاج المشمولين بالحماية البريطانيين للمعتمد البريطانى فى جدة. الخامسة: تشير إلى اعتراف متبادل بجنسية رعايا كل من الدولتين فى بلد الطرف الآخر، على أن تراعى قواعد القانون الدولى السائد بين الحكومات المستقلة. السادس: تعهد ابن سعود بالمحافظة على علاقات الود والسلم مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العمانى الذين لهم معاهدات خاصة مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية . السابعة : تعهد ابن سعود بالتعاون بكل ما لديه من الوسائل مع صاحب الجلالة البريطانية فى القضاء على الاتجار بالرقيق . الثامنة: شكلية تختص بوجوب إنهاء كافة الأمور التى تجعل المعاهدة سارية المفعول ، مع بيان أن مدة العمل بها هى سبع سنوات قابلة للتجديد بشكل تلقائى ، مع حق كل طرف فى إبداء رغبته فى إنهاء العمل بها قبل انتهاء مدتها

بستة أشهر، وتعتبر منتهية فى هذه الحالة بعد انقضاء مدتها . التاسعة : تنص على إنهاء العمل بمعاهدة دارين ١٩١٥ . العاشرة : شكلية خاصة بتدوين المعاهدة باللغتين العربية والإنجليزية، مع التنويه أن للنصين قيمة واحدة، وعند وقوع خلاف حول تفسير أى بند أو جزء يرجع إلى النص الإنجليزى . الحادية عشرة : شكلية تتعلق بتاريخ التوقيع فى ٢٠ مايو ١٩٢٧(٨٢).

بإعلان المعاهدة رسميا تعرضت لانتقادات وتأييد من كلا الجانبين . فمؤرخون وكتاب عرب رأوا، أن المادة الثانية بمثابة إجهاض لأية دعوة مناهضة للاستعمار فى الحجاز ونجد، وهو أمر غير جائز شرعا، وأن ابن سعود لايستطيع الوفاء بهذه المادة. كما قيل أنها بنيت على عدم المساواة لأن بريطانيا لاتستطيع منع خصوم الحكم السعودى للحجاز فى الهند من ممارسة دعايتهم الموجه ضد ابن سعود. بينما أثنى على موقف الأخير من مسألة العقبة ومعان، وقيل أن إصراره على عدم الاعتراف بضم المدينتين لشرقى الأردن نبع عن رغبة فى مقاومة النفوذ البريطانى ومنعه من الاقتراب إلى الأراضى الحجازية المقدسة. واضح أن معظم الآراء التى انتقدت المعاهدة أو أثنت عليها تأثرت بطابع قومى عربى أكثر من تأثرها باعتبارات تتعلق بمستقبل الحكم السعودى ذاته(٨٣).

فى المقابل رأى مؤرخون بريطانيون أن المعاهدة كانت أمرا حتميًا فرضته اعتبارات إقليمية ودولية، لكنها لم تضمن الحد الأدنى من المصالح البريطانية. وذكروا أن التنازلات التى وقعت أدت إلى إرباك السياسة البريطانية فى المنطقة. وتمثلت أهم الانتقادات فى عدم وجود نص واضح يلزم ابن سعود بعدم اتخاذ بلاده ساحة للأنشطة المعادية للمصالح البريطانية ، وضعف الماة ٦ المتعلقة بأمن الخليج، وعدم الاحتفاظ بالامتيازات كما كانت قبل ضم الحجاز(٨٤). وأيا كانت الانتقادات التى قد تبدو هامة من وجة نظر قائليها ، فهى أمر طبيعى تتعرض له أغلب المعاهدات التى من هذا النوع.

المعاهدة في مجال التطبيق :

بيد أن هذه الانتقادات لم تؤثر فى وضع المعاهدة واستمرار العمل بها وتوطيد دعائم العلاقات السعودية البريطانية. وحتى بداية الأربعينات شهدت العلاقات نشاطا دبلوماسيا يقوم على التفاهم والتعاون، وبدا تأثير المعاهدة قويا خلال هذه الفترة.

فى أعقاب التوقيع المبدئى عينت بريطانيا ف. هـ استون F.H. Stone قنصلا جديدا لها فى مملكة نجد والحجاز. فى تلك الأثناء تزايدت حوادث توغل الأجانب لا سيما من الأمريكيين فى أراضى الحجاز لمارسة النشاط التبشيرى، فشارك القنصل الجديد بجهد ملحوظ أثمر عن تدخل المندوب السامى البريطانى فى فلسطين لمنع دخول الأجانب الحجاز دون تصريح . ويرجح ، أن هذا الجهد ساعد فى وضع حد للنشاط التبشيرى، إذ لم يرد ذكر شيئا عن مثل هذا النشاط فيما بعد . ولاشك أن موقف القنصل انسجم مع روح المادة الثانية التى تقضى بمنع الأعمال غير المشروعة فى أرض الطرف الآخر(٨٥).

كما تعاون ابن سعود إيجابيا مع بريطانيا فى اتخاذ إجراءات حازمة ضد النشاط الشيوعى فى الحجاز واليمن، دون أن يعر التفاتا للعلاقات التجارية الهامة مع الاتحاد السوفيتى، وذلك التزاما بروح المادة الثانية أيضا(٨٦).

خلال تلك الفترة دخلت المعاهدة فى اختبار حقيقى أثبتت خلاله قوتها وفائدتها للحكم السعودى. ففيما بين عامى ١٩٢٨ / ١٩٢٩ دأب هنرى دوبس H. Daubs المندوب السامى فى العراق على بناء الحصون على الحدود العراقية السعودية لمنع توغل الإخوان، مما أثار الأخيرين ، الذين تعددت هجماتهم على قبائل عراقية فى مناطق الحدود. فاضطر ابن سعود للتدخل تطبيقا للمادة الثانية أيضا . وتحرج مركزه كثيرا بعد أن رفض قادة الإخوان الانسحاب من مناطق الحدود، ودبروا ثورة ضده وسارعت بريطانيا بتقديم دعما هاما عندما وافقت على صفقة بيع أسلحة لابن سعود بقرض مالى طويل الأجل قيمته ٢٠٩٥٨ جنيها استرلينيا ، كى يحكم قبضته على الداخل (٨٧). ثم دفعت حكومة العراق إلى إزالة نقطة حراسة شهيرة على الحدود كانت تسمى «بوسيه » حتى توفر له دعما معنويا فى مواجهاته مع الإخوان، لاسيما بعد تزايد حدة الانتقادات التى وجهت إلى المعاهدة، التى وصفت بأنها جاءت فى صالح بريطانيا وحلفائها على حساب قوة واستقلال نجد والحجاز . كذلك استجابت بريطانيا لطلب ابن سعود بمنع العراق والكويت من إيواء الإخوان المتمردين . لكنها لم تستجب لطلب تقدم به سنة ١٩٣٠ بضم أربعة مناطق تقع شرقى الإحساء باعتبار أنها تابعة لإمارات الخليج الواقعة تحت الحماية (٨٨). على أي حال، فالمساندة التى قدمت لابن سعود مكنته من وقف ثورة الإخوان وإعادة تثبيت سلطته .

أفضت التطورات السابقة إلى تطوير العلاقات الدبلوماسية فى عام ١٩٣٠، فرفعت بريطانيا قنصليتها إلى سفارة ، وعينت أندروبن Androben مفوضا لدى المملكة ، كما عين الشيخ حافظ وهبه وزيرا مفوضا لدى بريطانيا (٨٩).

كان من المتوقع ، أن تشهد الأربعينات دعما أكثر للعلاقات السعودية البريطانية. غير أن الواقع سار فى غير هذا الاتجاه. إذ سرعان ما تبنى أندروين سياسة تسببت فى خلق توتر بين البلدين. فقد دأب على محاولة توطيد نفوذ بلاده بأسلوب اتصف بالصلف والجمود واتخذ فى ربيع سنة ١٩٣٢ موقفا كاد يعصف بالعلاقات بين البلدين، وقيل أن ذلك كان بسبب تخويله كقنصل حق عتق الرقيق الذين يلجئون إلى السفارة. فقد لجأ عبد كان قد أهدى إلى ابن سعود إلى السفارة فى جدة، وطلبت الحكومة السعودية إعادته لأنه من عبيد الملك، الذين يجب عدم قبولهم طبقا للاتفاق الثنائى بين كلايتون وابن سعود، فما كان من أندروين إلا أن رفض ونقل العبد إلى إحدى البوارج البريطانية . وآثر ابن سعود الهدوء وأمر بعدم استعمال القوة فى منع ركوب العبد، وتفادى بذلك أزمة خطيرة . ثم بعثت الخارجية السعودية بمذكرة احتجاج حادة إلى الحكومة البريطانية، لم يكن لها تأثير ثم أقدمت بريطانيا على تضمين شرط فى معاهدة روما الموقعة مع إيطاليا ١٩٣٨، يمنع الأخيرة من ممارسة أى نشاط سياسى داخل أراضى ابن سعود. وبطبيعة الحال، لعبت معاهدة جدة دورا هاما فى تضمين هذا الشرط .

وكانت معاهدة روما تدعو أيضا إلى تحقيق التوازن بين يحيى وابن سعود، ونصت على منع تدخل الأخير فى شئون عسير مقابل منع تدخل إيطاليا فى شئون المملكة النجدية الحجازية . فأبدى ابن سعود رسميا تحفظه إزاء معاهدة روما ، وعدم الاعتداد بأية شروط تحد من حرية بلاده فى التصرف ، إذ رأى فيها محاولة استعمارية مكشوفة لتقسيم البلاد المطلة على سواحل البحر الأحمر، ووضع نجد والحجاز ضمن مناطق النفوذ البريطانى (٩٦). الواقع، أن بريطانيا لم تستبعد نشاطا إيطاليا مكثفا يدفع الإمام يحيى حاكم اليمن لعداء ابن سعود والاستيلاء على عسير التى كانت موضع تنافس محتدم وخاضعة وقتذاك لنفوذ سعودى قوى. وقد وجب عليها التزاما بروح معاهدة جدة مساندة ابن سعود، إلا أنها لم تفعل، وآثرت التعامل مع الأزمة فى إطار مصالحها الاستعمارية العليا ، وظلت تحرص على تطبيق معاهدة روما ، وتنكرت بذلك للمكاسب الإقليمية التى حققها ابن سعود فى عسير، وأبدت اعتراضها على أية تسويات تبرم مع اليمن دون تشاور مسبق(٩٧).

شهدت فترة الأربعينات أيضا مواقف إيجابية من جانب ابن سعود إزاء قضية فلسطين فقد ساعد فى حركة النضال العربى فى فلسطين رغم الحظر الوارد بها بشأن منع القيام بأعمال غير مشروعة فى مناطق واقعة تحت سيادة الطرف الآخر(٩٨).

أثناء الحرب العالمية الثانية، مارست بريطانيا ضغوطا على ابن سعود حتى لايسمح بظهور نشاط ألمانى فى بلاده ووقفت ضد تأسيس مفوضية ألمانية فى جدة بزعم عدم وجود مصالح تستوجب وجودها . كما قدمت إليه مساعدة قدرت بنحو ٤٠٠ ألف جنيه استرلينى دعما لجهوده فى مساندة الحلفاء. ولعب ابن سعود بالفعل دورا بارزا فى الحفاظ على الاستقرار فى الجزيرة لصالح بريطانيا والحلفاء[٩٩]. لكن ربما كان هذا الدور نابعا من خوف على مستقبل البلاد أكثر من كونه حرصا على تنفيذ بنود معاهدة جدة أو الولاء لبريطانيا.

يذكر ، أن معاهدة جدة جددت رسميا مرتين لمدة سبع سنوات ، مع إدخال تغييرات ثانوية. الأولى سنة ١٩٣٦، فى أعقاب اجتماع عقد بوزارة الخارجية السعودية بجدة فى ٣ أكتوبر حضره يوسف ياسين وزير الخارجية وريد بولارد R. Bullard الوزير البريطانى المفوض، حيث اتفق على تجديد المعاهدة مع إدخال التعديلات الآتية: تنازل بريطانيا عن حق عتق الأرقاء الذين يلجئون إلى القنصل فى جدة . السماح للحكومة السعودية بشراء أسلحة بريطانية حسب الأنظمة الخاصة بتصدير السلاح المعمول بها فى بريطانيا وقت التصدير. قيام الحكومة السعودية ببيع مخلفات الحجاج البريطانيين أو بعضها بناءً على طلب الحكومة البريطانية وتسليم قيمتها للمفوضية البريطانية بجدة . جعل اللغة العربية مساوية للغة الإنجليزية فى النص والتفسير. احتفاظ الحكومة السعودية بموقفها بالنسبة للعقبة ومعان[١٠٠]. الثانية سنة ١٩٤٣، حيث أشير إلى تجديدها بشكل تلقائى ما لم يخطر أحد الطرفين الآخر برغبته فى إنهائها خلال ستة أشهر قبل حلول موعد التجديد [١٠١].

خاتمـــة

لاشك ، أن ابن سعود كان حاكما إقليميا واقعيا، سعى لتحقيق هدف أسمى هو إعادة ملك أجداده، وتوطيد دعائم قوية. تعامل مع الأحداث بقدر كبير من التريث والحكمة وفهم تماما أبعاد اللعبة السياسية فى المنطقة، فسار على نهج معتدل فى التعامل مع بريطانيا كقوة عظمى، لم يستهن بقدراتها وتاثيرها ، ولم يستسلم لأطماعها ولم يضع ثقة كاملة فى سياستها تجاهه. آمن بدوره فى خدمة قضايا الأمن القومى العربى بالقدر الذى يتفق وحماية وضعه الإقليمى. قدرت بريطانيا حكمته السياسية وتفهمه لكثير من مشكلات المنطقة . امتازت علاقته بالمسئولين البريطانيين الذين قدر له الالتقاء بهم بقدر من الاحترام المتبادل ، فكان ذلك داعيا لنجاح اتصالاته معهم.

من المؤكد أن ابن سعود لم يرض عن معاهدة دارين ١٩١٥، التى جعلته تابعا لبريطانيا وخاضعا لحمايتها. فقد وقعها فى ظروف طارئة نجمت عن الحرب، وظل يتحين الفرصة للتخلص منها. ولما نجح تدريجيا فى توسيع رقعة ملكه ، بضم جبل شمر ١٩٢١، والحجاز ١٩٢٥ ، وفرض الحماية على عسير ١٩٢٦ تغير وضعه الإقليمى، وتطلع إلى تغيير علاقة التبعية التى فرضتها تلك المعاهدة. أما بريطانيا فإنها لم تستطع أن تتجاهل طبيعة ومغزى التغير الذى طرأ عليه، ورأت بدورها أن معاهدة دارين لاتكفى وغير مناسبة . وبدت أكثر قلقا على مصالحها فى الحجاز ونجد لو استمر العمل بالمعاهدة السابقة، وخشيت من تحول ابن سعود إلى قوة أخرى خارجية تسانده أو من تغلغل النفوذ الأجنبى فى بلاده لو تعنتت فى مسألة تغيير المعاهدة.

من الثابت ، أن ضم الحجاز جاء سببا مباشرا فى السعى إلى تغيير العلاقة القائمة بين الطرفين ، ووضع معاهدة جديدة . فالفكرة نبتت لأول مرة عند زيارة كلايتون الأولى إلى الحجاز أثناء حصار جدة فى نوفمبر ١٩٢٥ . ثم سارعت الخارجية بوضع مسودة معاهدة لم تستند إلى دراسة متأنية تحت وطأة معاناة الحجاج البريطانيين أثناء موسم ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) . لذا فقد طرأ عليها تغييرات قبل أن تقدم لابن سعود بعد استطلاع رأى أولئك الذين لهم صلات وثيقة به ويعرفون اتجاهاته ومواقفه . ثم جرت مفاوضات مكثفة على مرحلتين: الأولى: بين ابن سعود وجوردان فيما بين نوفمبر وديسمبر ١٩٢٦ . الثانية: بين ابن سعود وكلايتون خلال أبريل ومايو ١٩٢٧ . قامت المفاوضات على أساس مسودتين مختلفتين الأولى حملها جوردان والثانية كلايتون، ورفضت الأولى بالكامل، أما الثانية فقد كانت امتدادا

للأولى بعد إدخال تعديلات جوهرية تناسبت ورد فعل ابن سعود وما أبداه من مطالب، وجرى عليها هى الأخرى أثناء التفاوض تعديلات تكاد تكون جوهرية.

خلال مرحلة التفاوض أثبت ابن سعود أنه خصم عنيد ومفاوضا شديد المراس، استطاع أن يفرض نسبيا كلمته خلال رحلة التفاوض منذ أن بدأها مع جوردان، لاسيما فى الأمور التى بدا إصراره عليها قويا مثل: عدم الاعتراف بالانتداب البريطانى على العراق وفلسطين وشرقى الأردن، أو بتبعية العقبة ومعان لشرقى الأردن، وعدم التعهد بأية صورة بالامتناع عن مهاجمة إمارات الخليج. بجانب نجاحه فى منع أية إشارة إلى وجود امتيازات أجنبية فى بلاده، رغم أنه فى هذا الوقت كان لبريطانيا مركزا إقليميا مرموقا وشرعيا فى مجال الامتيازات فى عدد من البلدان الإسلامية مثل: مصر وإيران.

أظهر ابن سعود حرصا شديدا إزاء التلاعب بالألفاظ التى تتبعها الدول الاستعمارية خاصة بريطانيا. ولعله استفاد من درس الحسين وتعهدات بريطانيا إليه إبان ثورة ١٩١٦، فلم يقبل أية عبارات تحمل تورية أو معنى ضمنى يؤثر في مستقبل بلاده. كذلك فإنه أظهر حرصا على الأمن القومى العربى، فلم يقبل أية إشارة تفيد موافقته على نظام الانتداب أو أى وضع متميز لبريطانيا فى المنطقة العربية.

خضعت ثلاث مواد فقط (الثانية، السادسة ، السابعة) من بين الإحدى عشرة مادة لنقاش وتبادل فى الرأى . بينما الأخرى لم يحدث بشأنها جدل، لأنها لم تكن موضع خلاف أو لأنها مواد شكلية سهل الاتفاق عليها. كذلك حوت المفاوضات موضوعات هامة لم يرد بشأنها نصوصا محددة فى المعاهدة بينما وردت فى ملاحقها ، أبرزها : العقبة ومعان ، شراء الأسلحة، تحرير الرقيق. ورغم الاتفاق على أن يكون تخويل القنصل حق تحرير الرقيق الذين يلجئون إليه اتفاقيا ثنائيا غير معلن إلا أن كلايتون ضمنه خطابه الذى مثل جوهر الملحق الخاص بتجارة الرقيق ، لكن الخطاب ورد ابن سعود تجاهلا منع القنصل من عتق الرقيق الملكى حال توجههم إلى القنصلية ، وهو الأمر الثابت فى المفاوضات التى سبقت التوقيع. بذلك تكون هذه الجزئية هى الأمر الوحيد الذى لم يبرز رسميا فى المعاهدة أو ملاحقها ، ويعتبر بمثابة اتفاق سرى.

فى مجال التطبيق ، ساهمت المعاهدة إلى حد بعيد فى الاحتفاظ بعلاقات ثنائية وطيدة. وكانت المادة الثانية التى تحدثت سيادة السلم والصداقة بين الدولتين، والتعهد باستخدام الوسائل المتاحة لمنع الأعمال غير المشروعة أكثر المواد تطبيقا .

لقد ظلت العلاقات السعودية البريطانية تتسم فى معظم مراحلها منذ توقيع معاهدة جدة بروح الصداقة والتعاون . وظل ابن سعود يعترف لبريطانيا بمركز ممتاز حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية. حيث أخذ النفوذ البريطاني يخبو تدريجيا ، ويقل تأثير المعاهدة، حتى توقف العمل بها مع بداية الستينات ، مع تفاقم النزاع حول واحة البوريمى بين المملكة العربية السعودية ودولتى الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان .

نتائج عامة :

أفرزت دراسة معاهدة جدة ١٩٢٧ نتائج عامة تنطبق على غيرها من المعاهدات . تأتى تلك النتائج بمثابة مسلمات أو قواعد ثابتة أو اعتبارات تؤثر فى كل حالة مشابهة ، فهى قواعد عامة مجردة تصلح للتطبيق على الحالات المشابهة . يمكن ذكرها فيما يلى :

* يظهر الاتجاه إلى عقد معاهدة عندما يصبح لدى طرفين أو أكثر مصالح متبادلة كل منهم يسعى إلى تحقيقها أو الحفاظ عليها، أو أن تكون العلاقات فى حاجة إلى تنظيم أو إعادة تنظيم بالقدر الذى يحافظ على هذه المصالح المتبادلة.

* يتحكم فى المفاوضات التى تسبق بلوغ معاهدة ما اعتبارات هامة : مثل مدى ما يتمتع به الطرف المفاوض من أوراق ضغط تتمثل فى اعتبارات استراتيجية أو أمنية أو اقتصادية أو غيرها، قدرته على المناورة والإقناع، الظروف الدولية والإقليمية المحيطة.

* يتوقف نجاح التفاوض على درجة الحرص فى نجاحه ، وهى بدورها تتوقف على قوة الاعتبارات التى تدفع إلى الاتفاق .

* تتأثر مرحلة التفاوض بالخطوط الفاصلة أو الحمراء . وهى خطوط تفصل بين ما يمكن التنازل بشأنه ومالايمكن . أو بمعنى آخر تحدد مجال التنازلات المتاح لكل طرف أن يعمل فى إطاره . وتكون المفاوضات أكثر اقترابا من النجاح كلما اتسع مجال التنازلات .

* يصعب أن تأتى معاهدة تتمتع برضاء كافة الأطراف ، فهى بطبيعتها تحمل تنازلات من أطرافها ، تكون بدورها مثار انتقادات شديدة.

* يعتبر إرجاء البت فى الأمور الحساسة إحدى وسائل الخروج من مأزق تحديد المواقف، وهو تدبير شائع يتخذ عند عقد المعاهدات، وكثيرا ما يحمل ضررا للطرف الأقل قوة.

* غالبا ما تلجأ الدول الأقوى إلى تفادى الاعتراف بحدود سياسية دقيقة، إذ يفرض عليها التزامات قوية يحد من قدرتها على المناورة . كما أن تجاهل وضع حدود سياسية دقيقة أو الاعتراف بها إن كانت قائمة يترتب عليها نتائج وخيمة بالنسبة للطرف الأقل قوة.

نتائج خاصة :

أفرزت المعاهدة نتائج خاصة مستمدة من موادها، وما أفضت إليه من تأثير على مستقبل الدولة السعودية؛ وعلى مصالح بريطانيا وسياستها تجاهها . ومن النتائج الخاصة برزت مجموعة لها صلة بالطرفين وتخص المعاهدة ذاتها. بينما أمكن استنباط نتائج أخرى تخص كل طرف على حدة.

نتائج تتعلق بالمعاهدة ذاتها :

* كانت معاهدة جدة أساس ضبط العلاقات السعودية البريطانية بصفة عامة. وفى مرحلة ما قبل الحرب بين عامى ١٩٣٢-١٩٣٨ ، التى شهدت توترا بين البلدين، كانت بمثابة سياج حمى العلاقات من تصدع كان متوقعا ، خاصة مع التزام كل طرف بأسس الصداقة وحسن التفاهم. كما لعبت المعاهدة نفس الدور أثناء سنوات الحرب.

* لم تكن معاهدة جدة معاهدة تحالف صريحة، فهى لم تضمن مادة تشير إلى تحالف أو اتخاذ مواقف موحدة فى أحوال الحرب أو توتر العلاقات . ولم يرد بها ما يشير إلى تأسيس قواعد عسكرية أجنبية ، أو ما يجعل الاتجاهات الخارجية لابن سعود مرتبطة بمواقف العداء أو الصداقة التى تكون عليها بريطانيا مع الدول الأخرى.

* المرونة التى اتسمت بها المعاهدة وغموض بعض النصوص عاملان ساهما فى منح قدر من حرية التصرف للطرفين دون أن يكون فى ذلك خرقا لبنودها .

* لم تلعب المعاهدة أى دور فى مشكلات الحدود، التى تفاقمت خطورتها مع تصاعد عمليات التنقيب عن النفط وظهوره بكميات كبيرة فى الحدود الشرقية، لافتقار المعاهدة بشكل متعمد من الجانبين لمادة تتعلق باعتراف صريح بحدود الدولة السعودية.

* لا يرجع عدم توثيق العلاقات السعودية مع إيطاليا وألمانيا لاعتبارات تتعلق بالمعاهدة بقدر ما يرجع إلى تحفظ سببه القلق إزاء الطموحات الإمبريالية الفاشية ومعارضة قوية اجتماعية ودينية للشيوعية.

نتائج تخص الجانب السعودى:

* إلغاء معاهدة دارين التى كانت تقر بالتبعية لبريطانيا .

* الاعتراف بالاستقلال التام والكامل لملكة نجد والحجاز.

* إلغاء الامتيازات الأجنبية فى أرجاء الدولة بشكل فعلى.

* الاعتراف بالجنسية الحجازية النجدية، ومعاملة الحائزين لها فى البلاد البريطانية بمثل المعاملة التى يعمل بها الرعايا البريطانيون فى المملكة الحجازية النجدية، مع الأخذ بأحكام القانون الدولى العام.

* إدارة الشئون الخارجية فى المملكة النجدية الحجازية بحرية كبيرة واتخاذ مواقف سياسية مناوئة للسياسة البريطانية بدرجة مناسبة.

* لم تتضمن المعاهدة ما يشير إلى تفضيل بريطانيا اقتصاديا ، بذلك كانت الدولة السعودية حرة فى اتباع ما تراه ملائما ، خاصة بالنسبة لامتيازات التنقيب عن البترول .

* رفعت القيود عن عمليات شراء السلاح، بجانب أن الدعوة إلى شرائه من شركات بريطانية كانت مجرد رغبة غير ملزمة.

* أتاحت المعاهدة فرصة طيبة لابن سعود كى يواصل جهوده فى دعم مركزه كحاكم لدولة جديدة، وفى توطيد سلطته والحفاظ على هيبته، وتدعيم مؤسسات الدولة الناشئة بصورة أفضل مما سبق ، وسار فى طريق الاعتماد على أفراد أسرته حتى يسد النقص فى مجال القيادة ، فجاء ذلك مدعما لظهور أسرة عربية حاكمة.

* لم تمنع المعاهدة ابن سعود من اتخاذ ما يناسبه من مواقف بحسب رؤيته الذاتية. ليس فقط فى إطار الدفاع عن مصالح سعودية محضة إنما أيضا فى المحيط العربى .

نتائج تخص الجانب البريطانى :

* لم ترق مكاسب بريطانيا إلى المستوى الذى كانت تتمناه من وراء المعاهدة. سواء بأن تكون من نوع الاتفاقيات التنازلية (اتفاقية الحماية) ، أم بأن تساهم فى الاحتفاظ بالوضع المهيمن فى الشرق الأوسط، خاصة إذا ما أدت الظروف فى المستقبل إلى تقييد وجودها المادى والمعنوى فى المنطقة.

* تعاملت بريطانيا مع المعاهدة بما يتفق ومصالحها الخاصة ، سواء فيما يتصل بالسياسة السعودية ذاتها أو في مواجهة الأخطار الخارجية . فتارة أيدت ابن سعود وتارة أخرى وقفت ضد طموحاته .

* ساهمت المعاهدة بشكل نسبى فى احتفاظ بريطانيا بمركز تجارى متفوق فى الحجاز، من خلال شركات التجارة والتأمين والشحن والصرافة وما شابه ذلك، والتى كانت أكثر عددا من نظيرتها التى تتبع أية دولة أخرى.

* لم تحقق المعاهدة الضمان الأمثل لبريطانيا بالنسبة لأمن الخليج. فقد طالب ابن سعود بتعديل الحدود، وسار فى إطار علاقات طبيعية مع حكام المنطقة، لم تستطع بريطانيا أن تسيطر عليها .

الهوامش

١- ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي آل سعود بمدينة الرياض عام ١٨٧٦ في خضم صراع حاد على السلطة بين أفراد أسرته. وتوفر له منذ استيلائه على الرياض كيان سياسي أشبه ما يكون بالمشيخة ، وهى وإن – كانت أقل إلى حد كبير سياسيا وإداريا عن الدولة ، وتفتقر إلى ولاء يقوم على أسس قومية أو وطنية – إلا أنه كان يتمتع برصيد تاريخي ضخم وزعامة روحية في المنطقة قوت مركزه كثيرا . راجع جوزيف كوستنر: العربية السعودية (من القبلية إلى الملكية) ١٩١٦-١٩٣٦ ، ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩٦ ، ص٨ . حول تاريخ الأسرة السعودية منذ أن استقرت بالكويت إلى تحرير الرياض ١٩٠٢ ، وشخصية وحياة عبد العزيز . راجع : رأفت غنيمي الشيخ : تاريخ العرب المعاصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ١٩٩٥ ، الطبعة الأولى، ص١٦٥ ، ١٦٩ ؛ صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٥ ، ص١٨٩ ، ١٩٠ . أحمد عبد الغفور عطار، صقر الجزيرة ، مطابع المؤسسة العربية ، جدة، ص١٣٢- ١٣٤ .

٢- Toller , G.: The Birth of Saudi Arabia , R. Hale, London, 1976 , pp. 17-19 .

راجع : . J.B. Kelly : Britain and the Persian Gulf 1795- 1880 , London 1968 , p. 113

٣- ظلت العلاقات العثمانية – البريطانية حتى صيف ١٩١٤ وبية نوعا ، وقد عقدت بريطانيا في العام السابق معاهدة صداقة مع الدولة العثمانية، وامتنعت عن التدخل في شئونها في حائل والإحساء وما جاورهما . جمال زكريا قاسم: الخليج العربي [دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٩١٤-١٩٤٥)] دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٣، ص٣١٥ .

٤- حول موقف بريطانيا خلال الحملة على العراق ودور ابن سعود في الحرب انظر: نازك زكي إبراهيم: التكوين السياسي والاجتماعي للمملكة العربية السعودية (١٩٠٢-١٩٣٢) ، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة ١٩٨٦ ، ص٩٧، وما بعدها . وانظر:

Philby, H.St. J.B: Saudi Arabia , R. Hale , New York, 1955 , p. 234-235.

٥- التقى شكسبير بابن سعود في معسكره بمنطقة زلفي التي تبعد عن الرياض ١٥٠ ميلا . ويطلق على هذا الاجتماع «اجتماع العقير الثاني» تمييزا له عن الاجتماع الأول الذي عقد نهاية ١٩١٣ . ويذكر أن شكسبير لعب دورا هاما في مساندة ابن سعود، وقد قابله عدة مرات بعد اجتماع العقير الأول، وتوطدت علاقته به .

أنظر: . Graves P. H., Life of Sir Percy Cox , F.A. Praeger , London 1941 , p. 104 , 105

J. Barker , The Neglected War [Mesopotamia 1914-1918] Hale , London 1967 , p. 221 .

انظر تقرير تفصيلى عن رحلة شكسبير إلى منطقة زلفى فى:

I.R.O. [India Record Office], L / P& S / 10 / 387 , Shakespeare to Cox, 4 Jan. 1915 , p. 9/5 / 15 .

٦- I.R.O. L / P&S / 10 / 387 , From Hardinge to India Office , 22 Jan . 1915 , p. 350 / 15 .

٧- حول سير المفاوضات بين ابن سعود وكوكس بشأن المعاهدة، ورد فعل كل طرف ، والعوامل الإقليمية والدولية التى أثرت على موقف كل منهما . انظر:

F.O. [Foreign Office] 371 / 882 / 9, IS / 18 / 113 , Memorandum on British commitments to Ibn- Saud February 1915 , pp. 2-4 &

I.R.O.L P&S / 10 / 387 , from Cox to Government of India , 3 Jan. 1919, p. 668 / 16 .

الوثيقة الثانية تحوى رواية كاملة لما وقع أثناء المفاوضات مع ابن سعود حول التوقيع النهائى فى دارين .

٨- انظر نص المعاهدة فى: حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين ، القاهرة ١٩٦٧ ، الطبعة الخامسة ، ص٢٥٠ ، ٢٥١ . ووردت أيضا ضمن مجموعة وثائق هامة أخرى فى :

J.C. Hurewitz: The Middle East and North Africa in world Politics, A documentary Record II, New Haven , Yale University Press, England 1975 , 2 d . ed . p. 57 .

٩- منذ ظهور الإمارة السعودية والحسين يشعر بقلق حقيقى خشية حدوث توسع سعودى فى بلاده . ثم ازداد التنافس بوضوح مع دخول ابن سعود فى دائرة النفوذ البريطانى، وساهم تبدل ولاء القبائل خاصة فى مناطق الحدود فى زيادة حدة الخلاف . ثم لم تلبث العلاقات أن ازدادت توترا أثناء الحرب، لما أبداه الملك حسين من رغبة فى السيطرة على أمراء الجزيرة العربية لاسيما بعد نجاح الثورة العربية. نازك زكى إبراهيم ، المرجع السابق، ص١١٩ وما بعدها .

١٠- كان فلبى يشغل منصب سكرتير كوكس فى بغداد. واستطاع أن يلعب الدور الذى لعبه شكسبير من قبل، ونظرا لطول مدة علاقته بابن سعود استطاع أن يحتل مكانة مرموقة لديه ويكون موضع ثقته، راجع: خيرى حماد: أعمدة الاستعمار البريطانى فى الوطن العربى [الحلقة الأولى (عبد الله فلبى)]، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٦٥ ، الطبعة الثانية ، ص١٢٧ وما بعدها.

١١- استمرت المعونة حتى مارس ١٩٢٤ . وكانت هامة لابن سعود نظرا لأن دخله السنوى أثناء تلك الفترة لم يتجاوز مائة ألف جنيه استرلينى . وقد خصصت فى الأصل لمدة ٦ أشهر ، واستمرارها كان مخالفة مالية واضحة . وجميع الإدارات البريطانية كانت تعلم ذلك، لكنها سكتت تقديرا لمصالح

بريطانية ملحة استدعت استمرار الدفع. حول تاريخ المعونة البريطانية لابن سعود وتطورها وأهم المبالغ الإضافية التي حصل عليها. راجع جوزيف كوستنر، المرجع السابق، ص٨٧ وما بعدها .

١٢- F.O., 371 / 6442 , Tel . No 96. from Sir George Keystone to Allenby, 32 July 1919 .

١٣- انظر تفاصيل الهجوم على حائل وموقف بريطانيا . جوزيف كوستنر ، المرجع السابق ، ص٨٢ وما بعدها

Philby H. St. J.B. op. cit., pp. 278-283 .

١٤- بشأن اتفاقية المحمرة وملابساتها. انظر:

موضي بنت منصور بن عبد العزيز : الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت (١٣٤٢هـ / ١٩٢٣-١٩٢٤م) دار الساقي ، بيروت، لبنان ١٩٩٢ ، الطبعة الأولى، ص١٠٩ وما بعدها .

١٥- بشأن ظروف دعوة ابن سعود والشريف حسين للمؤتمر وموقف كلا منهما، وشروط ابن سعود لحضور المؤتمر : الكتاب الأخضر (مؤتمر الكويت) ، سلطنة نجد، الرياض، بدون تاريخ ، ص٤ وما بعدها كذلك راجع : موضي بنت منصور بن عبد العزيز، المرجع السابق، ص١١٢ وما بعدها .

١٦- نفس المصدر ، ص١٣٤ وما بعدها .

١٧- راجع : حافظ وهبه : خمسون عاما في جزيرة العرب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٠، الطبعة الأولى ، ص٥٦ وما بعدها .

Philby, H. St. J.B . Arabian Jubilee, Hale, London 1952 , p. 62 .

١٨- يطلق لفظ «الإخوان» على أتباع المذهب الوهابي الذي انتشر في نجد. ونظام الإخوان يقوم على الاستقرار في «الهجر» (قرية يتجمع داخلها الوهابيون) يمارسون فيها الزراعة والعمل العسكري بعد أن يتخلوا عن أسلوب حياتهم البدوي التقليدي . وأقيم أول «هجر» في الأرطاوية بنجد عام ١٩١٢ . وبقدر ما استفاد ابن سعود من الإخوان في دعم سلطته وتكوين دولته تعرض لمشكلات من جانبهم أثناء جهوده لإقامة دولة عصرية . راجع " جوزيف كوستنر ، المرجع الساق ، ص٥٧ ، ١٠٢ .

١٩- Philby , H.St. J.B: Saudi Arabia , op. cit. p. 245 .

٢٠- L/ P&S / 10 / 1144 , From Sir Gilbert Clayton [Head of the British Diplomatic Mission to Ibn Saud in autumn of 1925] to Leopold Emery [Secretary of State for The Colonies] , 25 Nov. 1925 , p. 747 / 25 .

٢١- L/ P&S / 10 / 1144 , From Sir Gilbert Clayton to Leopold Emery , op. cit.,p. 749/ 25 .

حول موضوع زيارة جلبرت كلايتون للحجاز . راجع : بنو اميشان : عبد العزيز آل سعود (سيرة بطل ومولد مملكة) ، ترجمة : عبد الفتاح يس، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٥ ، ص١٨٤-١٨٩ .

Philby, H.St. J.B : Saudi Arbia , op. cit. p. 245 .

٢٢- وزارة الخارجية السعودية : مجموعة المعاهدات [(١٣٤١-١٣٥٠هـ / ١٩٢٢-١٩٣١م)] مطبعة أم القرى ، مكة المكرمة ١٩٣١ ، الطبعة الأولى، ص١٣ .

٢٣- نفس المصدر، ص١٨ .

٢٤- أمين الريحاني : تاريخ نجد وملحقاته ، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٥٤ ، ص٤٥٥ .

٢٥- وقعت هذه الاتفاقية في ١٩ مارس ١٩٢٦ . وزارة الخارجية السعودية ، مجموعة المعاهدات ، المصدر السابق، ص١٩، ٢٠ .

٢٦- نفس المصدر، ص٢٣ ، ٢٤ . وكان الإمام يحيى إمام اليمن قد انتهز الحرب الدائرة بين نجد والحجاز وسعى إلى ضم عسير ونجح في انتزاع ميناء الحديدة، وتسبب ذلك في قلق بريطانيا التي اعتبرت الوجود اليمني في عسير تهديدا خطيرا لمصالحها ، خاصة وأنها تأكدت أن الاستيلاء على الحديدة تم بمساعدات إيطالية هامة . انظر : عصام ضياء الدين سيد: عسير (في العلاقات السياسية السعودية- اليمنية ١٩١٩: ١٩٣٤)، دار الزهراء للنشر، القاهرة ١٩٨٩ ، الطبعة الأولى، ص١٧١-١٧٢ .

٢٧- أم القرى ، العدد ١١١ ، ٢٤ رجب ١٣٤٥ (٢٨ يناير ١٩٢٧) .

٢٨- راجع : صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٢ ، الطبعة الثانية، الجزء الثاني، ص٣٨٤ .

٢٩- الواضح ، أن مشكلة الإخوان الرئيسة تمثلت في معارضة أسلوب ابن سعود في تحديث الدولة سواء من حيث العلاقات الخارجية مع الدول الأوروبية أو من حيث استخدام التكنولوجيا الحديثة أو فرض هيبة الدولة على مواطنيها . راجع : جوزيف كوستنر، المرجع السابق، ص١٢٢-١٢٨ .

٣٠- بشأن مدى التغير الذى طرأ على وضع ابن سعود على الصعيد الدولي بضم الحجاز ، وشعوره بقوة مركزه وأهميته في نظر المسلمين . راجع : جلال يحيى : العالم العربي الحديث (الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين)، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠ ، الطبعة الأولى ، ص٦٣ .

٣١- L/ P&S / 10 / 1165 , from Sir Gilbert Clayton to sir John Shuckburgn [The Under Secretary of State Assistant for the Colonies] , 21 April, 1926 , p. 1436 / 26 .

٣٢- ظهر اهتمام غير مسبوق قبيل الحرب العالمية الأولى بإمكانية استخراج النفط من نجد بكميات كبيرة، بدرجة تجعلها منافسا خطيرا لحقول النفط الفارسية العراقية . وتحدثت دوائر اقتصادية

، بريطانية في صيف ١٩١٤ عن منح شركة النفط الإنجليزية الفارسية امتياز التنقيب عن البترول .
انظر:

F.O. 371 / 11065 No. 251 From Sir Jeffry Stanley [Representative of the Anglo - Persian Oil Company] to Foreign Office , 12 March 1914 .

٣٣- كانت الحكومة البريطانية في شهر أبريل ١٩٢٦ قد وجهت إنذارا شديد اللهجة عن طريق الحكومة الإيطالية إلى الإمام يحيى لوقف تدابير عسكرية استهدفت إنهاء الحماية السعودية على عسير .
انظر:

F.O. 371 / 12236 , E 1712 / 180 / 270 , From Sir R. Graham [The British Ambassador in Rome] to Sir Austin Chamberlain [Secretary of State for Foreign Affairs] , 6 April 1926 .

٣٤- F.O 371 / 11437 , E 180 / 180 / 91 , From Lord Irwin (Viceroy of India] to Lord Birkenhead [Secratery of State for India], 5 Jan . 1926 . [انظر الملحق رقم ١]

٣٥- راجع : Stephen Page : The USSR and Arabia [The development of Soviet policies and attitudes towards the countries of the Arabian Peninsula 1955- 1970] Yale press, London 1971 , pp. 16-18 .

٣٦- جوزيف كوستنر ، المرجع السابق ، ص١٧٥ .

٣٧- F.O. 371 / 11437 , p. 111 / 180 / 91 , from Lord Irwin to Lord Birkenhead , 5 Jan , op.cit. 1926

٣٨- انظر الملحق رقم ٢ F.O . 371 / 11438 , E 3850 / 180 / 91 , from Irwin to Birkenhead, Aug. 1926. 27

٣٩- Ibid .

٤٠- F.O. 371 / 11438 , E 5347 / 180 / 91 , Memorandum by Victor Mallet [Secretary of Eastern Department of Foreign Office] , 13 Oct. 1926 . [انظر الملحق رقم ٣]

٤١- Toynbe . A.J.: Survey of international affairs [Documents on international affairs 1928 - 1925] Oxford [U.P.] Publication of R.I.I.A., London 1929 , p. 285 .

٤٢- L / P&S 10/ 1155 , Memorandum by Colonial Office (British Interests on Arabia] , 26 Nov. 1926 , p. 2723 / 26 .

٤٣- L/ P&S / 10 / 1166 , Interdepartmental Conference holding on 17 Jan . 1927 , p. 476-/ 27 .

٤٤- Ibid , p. 478 / 27 .

٤٥- يذكر أن الدستور العثماني الصادر في عام ١٩٠٨ منع الاتجار في الرقيق في جميع أنحاء الدولة العثمانية، لكن ذلك لم يكن له تأثير في البلدان العربية بما فيها نجد والحجاز . وكانت الأخيرة سوقا رائجا للرقيق وقت بدء مفاوضات جوردان مع ابن سعود . وقد تضمنت جميع معاهدات الحماية الموقعة مع أمراء الخليج نصوصا تهدف إلى مقاومة تجارة الرقيق. ومارست البحرية البريطانية هيمنة تامة على سواحل الخليج، وساهمت كثيرا في إضعاف هذه التجارة. حول هذا الموضوع، راجع :
Bullard S.R., Britain and The Middle East , Hale Press, London , 1952 , p. 28 .

وحول موقف بريطانيا من مقاومة تجارة الرقيق في نجد والحجاز ورسالة شكبيرجن انظر:
L/ S&P / 10 / 1166 , From Shuckburgn, to Wakely [The Under Secretary of State for Foreign Affairs] , 11 , Dec. 1926 , p. 4363 / 26 .

٤٦- F.O. 371/ 11438 , E 5347 / 180 / 91 , Memorandum by Victor Mallet , 13 Oct. 1926 , op.cit.

٤٧- L/ P&S / 10 / 1165 , From Lancelot Oliphant [Head of the Eastern Department of Foreign Office to Jordan, 3 Nov. 1926, p. 4003 / 26 .

٤٨- كان يعاون جوردان في مفاوضاته جورج أنطونيوس ، وهو عربي مسيحي شغل منصبا في حكومة فلسطين بعد إقرار الانتداب . وشارك فيها من الجانب السعودي عبدالله الدملوجي مدير الشئون الخارجية والشيخ يوسف ياسين مدير المطبوعات. انظر : أم القرى العدد (١٠٦) ، ١٩ ربيع الثاني ١٣٤٥ (٢٤ ديسمبر ١٩٢٦) .

٤٩- عملت بريطانيا على ضم العقبة ومعان إلى شرقي الأردن حتى تبعد أي تهديد سعودي آخر. لكن ظل ابن سعود ينظر إلى العقبة ومعان على أنها أرضا حجازية تتبع دولته، ورفض بإصرار كل الضغوط التي مورست عليه لانتزاع اعتراف منه بتبعيتها لشرقي الأردن انظر:

بنو اميشان ، المرجع السابق، ص١٨٠ ، ١٨١ أمين الريحاني، المرجع السابق ، ص٣٤١ ؛ صلاح الدين المختار ، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٣٠٦ ، ٣٠٧ .

٥٠- وضع وصف شامل لفحوى المحادثات التي دارت بين ابن سعود وجوردان في رسالة تفصيلية إلى السير أوستن تشمبرلين وزير الخارجية انظر:
L/ P&S / 10 / 1166 , from Jordan to Austin Chamberlain, 26 Dec . 1926 , p. 494 / 26 .

٥١- Ibid ., p. 494 / 26 .

٥٢- Ibid., p. 495 / 26 .

٥٣- احتلت أموال وقف الحرمين أهمية في مصادر الدخل السعودى. وهى مخصصات ثابتة ، وضعت فى أوقات مختلفة من جانب بعض الدول الإسلامية مثل مصر وإيران. ولما استولى ابن سعود على الحجاز رفضت تلك الدول إحالة أموال الوقف إليه. وقد بلغت فى مصر وحدها أواخر حكم الأشراف ما يقرب من ٦٠ ألف جنيه استرلينى سنويا ، بينما قدر الإجمالى بمبلغ يزيد عن مليون جنيه استرلينى. انظر:

خير الدين الزركلى: شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧، الطبعة الثانية، الجزء الثالث، ص٣٣١ .

٥٤- L/ {&S / 0 / 1166 , From Jordan to Austin Chamberlain, 26 Dec. 1926 , op. cit., p. 496 / 26 .

٥٥- L/ P&S / 10 / 1166, Interdepartmental Conference, 13 Jan . 1927 , p. 476 / 27 .

٥٦- عقدت اجتماعات متتالية فى إطار الحكومة البريطانية لبحث موضوع العلاقات مع ابن سعود ، وصعوبات توقيع معاهدة جديدة معه . ويبدو أن الأمر شغل حيزا كبيرا من النشاط السياسى مع أوائل ١٩٢٧ لدرجة أن عدد الاجتماعات بلغت ثلاثة فى غضون أسابيع (١٣، ١٩ يناير، ٤ فبراير):
L/ P&S / 10 / 1166, Interdepartmenta Conference , op. cit, 13 Jan, 19 Jan . 1927 , 4 Feb . 1927 , p.p. 476 to 491 / 27 .

٥٧- [انظر الملحق رقم ٤] F.O. 371 / 12244 , E 13554 / 180 / 91 , from Birkenhead to Jordan , 20 Feb. 1927 .

٥٨- L/ {&S / 1166 , Tel. From Lord Plumer [The high commissioner in Palestine] to Shuckburgn 20 Jan . 1927 , p. 831 / 27 .

٥٩- L/ S&P / 10 / 1165 [Transjordan's claim to Akaba and Maan] Memorandum by Victor Mallet, 26 Oct. 1926 , p. 4104 / 26 .

٦٠- جاء ذكر التعديلات التى تضمنها المشروع الجديد فى الاجتماع الذى عقد فى ٤ فبراير ١٩٢٧ انظر:
L/ P&S / 10 / 1166 , Interdepartmental Conference, Op. cit, 4 Feb. 1927 , pp. 487 to 491 / 27 .

٦١- F.O. 371 / 11438 , E 13566 / 180 / 91 , Memorandum by Lancelot Oliphant , 12

Mar. 1927 .

٦٢- انظر الملحق رقم ٥ F.O. 371 / 12244, p. 1318 / 165 / 92 , From Irwin to Birkenhead, 22 Mar. 1927 .

٦٣- حدث في أثناء توقف المفاوضات تقارب سعودي فرنسي. ففي لقاء وصف بأنه ودي للغاية التقى الأمير فيصل بن عبد العزيز بالقنصل الفرنسي في جدة، وبحث العلاقات الثنائية، ومنح الأمير نيشان شرف فرنسي من رتبة «قومندور». انظر: أم القرى، العدد (١١٨)، ١٥ رمضان ١٣٤٥هـ (١٨ مارس ١٩٢٧) .

٦٤- تعرض ابن سعود لضغوط وقلاقل شديدة من جانب الإخوان بسبب استمرار سياسة التحديث وتأكيد هيمنة الدولة، وموقفه الودي تجاه بريطانيا وغيرها من القوى الأوروبية. وقد وصفوا مفاوضات مع جوردان بأنها «مفاوضات مع الكفرة» واتهموه بأنه باع نفسه للإنجليز. ورغم حساسية العلاقة بين ابن سعود والإخوان فإنه نجح خلال فترة توقف المفاوضات في وقف تجاوزاتهم ، والتعامل معهم بقدر من الحكمة والتهديد في آن واحد. راجع : جوزيف كوستنر، المرجع السابق، ص١٧٤ وما بعدها.

٦٥- L/ P&S / 10 / 1166 , From Chamberlain to Clayton , 14 Apr. 1927 , p. 2156 / 27 .

٦٦- أنكرت إدارة الشئون الخارجية هذه الأخبار ووصفتها بالكاذبة . مقال بعنوان «مفتريات باطلة»، أم القرى (العدد ١١٧)، ١٥ رمضان ١٣٤٥ (١٨ مارس ١٩٢٧) .

٦٧- وصفت مفاوضات كلايتون مع ابن سعود التي تمت في شهر مايو ١٩٢٧ في جدة بدقة شديدة في رسالة بعث بها كلايتون إلى تشمبرلين وزير الخارجية في ٦ يونيو ١٩٢٧ . انظر:

L/ P&S / 10 / 1166. From Gillbert Clayton to Austin Chamberain , 3 June 1927 , pp. 3269- 3275-27 .

٦٨- L/ P&S / 10 / 1166. From Irwin to Birkengead, 18 July 1927 , p. 3608 / 27 .

٦٩- الملحق رقم ٦ F.O. 371 / 12245 , E 13334 / 180 / 92 , Letter from Wakley to Lord Irwin, 22 July 1927 .

٧٠- Ibid . , p. 3272 / 27 .

٧١- L/ P&S / 10 / 1166, From Gilbert Clayton to Austin Chamberlain , 3 June, 1927 , op. cit., p. 3271 / 27 .

٧٢- Ibid., p. 3272 / 27 .

٧٣- Ibid., p. 3273 / 27 .

٧٤- L/ P&S / 10 / 1166 , From Gilbert Clayton to Austin Chamberlain , 3 June 1927 ,

op. cit. p. 3275 / 27 .

٧٥- F.O. 371 / 12245 , E 3334 / 119 / 91 From Gilbert Clayton to Wakely , 22 June 1927 .

جدير بالذكر أن موضوع العقبة ومعان قد تم حله في سنة ١٩٦٥ ، عندما اعترفت المملكة العربية السعودية بالمدينتين كمقاطعتين أردنيتين ، في إطار اتفاقية ترسيم الحدود بين البلدين . انظر:

Kirk , J. : The Saudi - Jordanian Treaty of 1965 , Middle East Journal , Middle East Institute, U.S.A. vol . XX, 3, Summer 1968 , pp. 346-348 .

٧٦- كان موضوع السماح لابن سعود بشراء الأسلحة قد اتفق عليه داخل الإدارة البريطانية أثناء الاجتماع الذي عقد ١٧ يناير ١٩٢٧، انظر:

L/ P&S / 10 / 1166 , Interdepartmental Conference holding on 17 Jan . 1927 , op.cit , p. 476 / 27 .

٧٧- F.O. 371 / 12244, E 1467 / 119 / 91 , From Irwin to Birkenhead, 22 Mar. 1927 .

٧٨- L / P&S / 10 / 1166 , From Sir Henry Dobbs [High Commissioner for Iraq] to Leopold Emery , 7 Mar . 1927 , p. 1175 / 27 .

٧٩- L/ P&S / 10 / 1166 "Note on Ibn - Saudi's Proposals Regarding the Hejaz Railways", Report putting by Colonial Office, 26 Jan, 1927 , p. 831 / 27 .

٨٠- أم القرى ، العدد (١٢٩) ، ٢٦ ذي القعدة ١٣٤٥ (٢٧ مايو ١٩٢٧) .

٨١- انظر: أم القرى، العدد (١٤٥)، ٢٤ ربيع أول ١٣٤٦ (٢٣ سبتمبر ١٩٢٧)، ص٢،٧ .

٨٢- وردت المعاهدة بالكامل باللغة العربية في : وزارة الخارجية السعودية، مجموعة المعاهدات ، المصدر السابق ، ص٣٣، ٣٤ . ووردت بجريدة أم القرى الناطق الرسمي باسم الحكومة السعودية العدد السابق (٢٣ سبتمبر ١٩٢٧) . كما وردت باللغة الإنجليزية (النص المعتمد من الجانبين) في:

Public Record Office , Treaty Series [1927] , No. 25, Cnd. 2951.

كما نشر النص الإنجليزي في: J.C. Hurewitz, op. cit, under number 88, pp. 383 .

وانظر نص المعاهدة باللغتين العربية والإنجليزية (الملحق رقم ٨،٧) .

٨٣- راجع صلاح الدين المختار، المرجع السابق، الجزء الثاني، ص٤٥١ .

٨٤- J.B. Kelly , Eastern Arabia Frontiers, London 1964 , 123-133 .

D.C. Watt, The Foreign Policy of Ibn - Saud 1936 - 1939 , Article, Journal of the

Royal Center Asian Society , vol II April 1963, pp. 158-159 .

٨٥- يذكر أن الفترة التي أعقبت توقيع المعاهدة شهدت تزايدا ملحوظا في محاولات التبشير داخل الحجاز، وتعددت حالات التسلل من ناحية الحدود الأردنية الفلسطينية. وقد ورد ذكر بعض حالات التسلل من جانب أشخاص أمريكيين، مع رد فعل السلطات البريطانية، في رسالة احتجاج أخرى أرسلها مدير إدارة الشئون الخارجية لملكة الحجاز ونجد إلى الوزير الأمريكي المفوض في مصر في ١٨ ديسمبر ١٩٢٧ . انظر:

Department of State, U.S.A., Tel . No 224 / 1 KH., From the Director of Foreign Affairs of the Kingdom of Higas and Najd to the American Minister in Egypt, Dec. 18, 1927 .

٨٦- Stephen Page , op. cit . p. 21 .

٨٧- تمت الصفقة على مرحلتين الأولى في يناير ١٩٢٨ وبلغت نحو ٣٠٠٠ بندقية متطورة وذخيرة ضخمة، والثانية كانت في صيف ١٩٢٩ وتجاوزت هذا المعدل بقليل . راجع : خير الدين الزركلي، المرجع السابق الجزء الثاني، ص٢٩٨ & جوزيف كوستنر، المرجع السابق، ص١٨٨ وما بعدها .

٨٨- J.B.Kelly , Eastern Arabia Frontiers , op. cit. p 125 .

٨٩- أم القرى ، العدد (٢٦٤) ، ٣ شعبان ١٣٤٨ (٣يناير ١٩٣٠) .

٩٠- انظر : حافظ وهبة ، خمسون عاما في جزيرة العرب، مرجع سابق، ص٩٥-٩٩ .

٩١- Stephen Longrigg: Oil in the Middle East [Its Discovery and Development] , London 1961 Second ed. pp. 107-108 .

٩٢- كان ابن سعود قد سعى إبان الأزمة الاقتصادية التي انعكس أثرها على بلاده إلى مساعدة بريطانيا للتنقيب عن البترول، كما سعى إلى عقد قرض، لكنه فشل . فجرت اتصالات مع رجل أعمال أمريكي يدعى شارلز كراين Charles Crane أسفرت عن اتفاق التنقيب عن البترول في المقاطعات الشرقية نهاية مايو ١٩٣٣، كما وافقت الشركة الأمريكية على منح ابن سعود قروضا كان في أمس الحاجة إليها . انظر: سليم طه التكريتي : صراع البترول في الخليج العربي، دار الحرية، بغداد ١٩٨٩ ، ص١٠٢، ١٠٣ .

٩٣- للإطلاع على مزيد من التفاصيل حول الخلاف الحدودي مع قطر شرقي نجد ١٩٣٤، ورد فعل السلطات البريطانية ، والأسانيد السعودية بشأن تعيين الحدود. انظر:

وزارة الخارجية السعودية : عرض حكومة السعودية [التحكيم لتسوية النزاع بين مسقط وأبوظبي وبين

المملكة العربية السعودية] الرياض ١٩٥٥ ، الجزء الثاني، الملحق ١٥ ص٣٨١ .

٩٤- Bullard S.R., op.cit., p. 28 .

٩٥- حافظ وهبه ، خمسون عاما فى جزير العرب ، مرجع سابق، ص١٠٦ .

٩٦- أم القرى ، العدد ٧٥٠ ، ٨ ربيع أول ١٣٥٨ (٢٨ أبريل ١٩٣٩) .

٩٧- يتذكر أن بريطانيا فى غضون الفترة التى واكبت توقيع معاهدة جدة ، اعترفت بمعاهدة مكة ١٩٢٦ بين ابن سعود والإدريسى حاكم عسير ، التى وضعت المنطقة تحت الحماية السعودية ، وأيدت كافة الإجراءات التى اتخذها ابن سعود دعما لمركزه فيها . لكنها عادت فيما بعد وتنكرت لمطالبه فى عسير تحت ضغط التنافس الاستعمارى الدولى. انظر : عصام ضياء الدين السيد : عسير ، المرجع السابق ص١٩٥ وما بعدها .

٩٨- حول موضوع جهود ابن سعود فى الدفاع عن حقوق العرب فى فلسطين ووقف سياسة بناء الوطن القومى اليهودى بجناحيها الرئيسيين: الهجرة اليهودية ، تهويد الأرض . راجع :

جان جاك بيربى: جزيرة العرب، ترجمة : نجدة هاجر، أمين العز، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ١٩٦٠ ، ص٦٢ &

John Marlowe, The Persian Gulf in the twentieth century , Yale Press, London , 1962 , p. 10/8 D.C. Watt, op. cit., p. 159 .

٩٩- حول العلاقات السعودية البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، راجع :

وليامز سيتون: بريطانيا والدول العربية ١٩٢٠-١٩٤٨ ، ترجمة : أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة ١٩٥٢ ، ص١٩٥ . Bullard, op. cit, p. 82 &

Kirk , J., The Middle East in the war , R.Hale London 1952 , p. 352 and the next pages .

١٠٠- أم القرى، العدد (٦١٧) ، ٢٣ رجب ١٣٥٥ (٩ أكتوبر ١٩٣٦) (بلاغ رسمى رقم ١٣) .

١٠١- نفس المصدر، العدد (٩٨١) ، ٤ شوال ١٣٦٢ (٣ أكتوبر ١٩٤٣) .

مصادر البحث

أولا : وثائق غير منشورة بلغة أجنبية :

British Documents [Public Record Office].

Foreign Office [F.O] , 371 No .: *

(882 / 9, IS/ 18 / 113) , (11065 No. 251), (11437, E 180 / 180 / 91) (11437, p. 111 / 180 / 91) , (11438 , E 3850 / 180 / 91) , (11438, E 5347 / 180 / 91), (11438 , E 13566 / 180/ 91), (12236 , E 1712 / 180 / 270) , (12244 , E 1467 / 119-91), (12244 , E 13554 / 180/ 91), (12245 , E 3334 / 119 / 91) , (12245, E 13334 / 180 / 92) .

India Record Office [I.R.O] L/ P&S / 10 No . : *

(387), (1144), (1155) , (1165) , (1166) .

ثانيا : وثائق منشورة

* باللغة العربية :

١- سلطنة نجدة :

- الكتاب الأخضر : مؤتمر الكويت، صدر بأمر سلطان نجد، الرياض، بدون تاريخ .

- جريدة أم القرى: الجريدة الرسمية الناطقة باسم حكومة سلطنة نجد والحجاز، أسبوعية.

تصدر كل جمعة الأعداد : ١١١ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٩، ١٤٥، ٢٦٤ ، ٦١٧ ، ٧٥٠ ، ٩٨١ .

٢- وازارة الخارجية السعودية :

- مجموعة المعاهدات (١٣٤١-١٣٥٠هـ / ١٩٢٢-١٩٣١م مطبعة أم القرى، مكة المكرمة ١٩٣١، الطبعة الأولى .

- عرض حكومة السعودية : التحكيم لتسوية النزاع بين مسقط وأبو ظبى وبين المملكة العربية السعودية ، الرياض ١٩٥٥، ثلاثة أجزاء .

* بلغة أجنبية :

British Documents:

Documentary Record II, By , J.C. Hurewitz, The Middle East and North *

Africa in World Politics, New Haven, Yale University Press, England 1975 , Second Edition.

* Public Record office , treaty Series 1927 , No . 25 , Cnd . 2951 , Asian society , vol . II, April 1963 .

* Survey of International Affairs [documents n Internatinal affairs 1925-1928 , By Toynbee A.J., Oxford (U.P.) Publication of R. I.I.A., London 1929 .

American Documents [Department pf State]

* Foreign Relations of the United States, (1928) Three Volume, Washington, 1943 .

ثالثا : مراجع عربية

* أحمد عبد الغفور عطار : صقر الجزيرة ، مطابع المؤسسة العربية ، جدة ١٩٦٤ .

* أمين الريحاني: تاريخ نجد وملحقاته، دار الكاتب العربي، بيروت ١٩٥٤ .

* جلال يحيى: العالم العربي الحديث (الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين)، ، الطبعة الأولى دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠ .

* جمال زكريا قاسم : الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية ١٩١٤-١٩٤٥ ، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٧٣ .

* حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين، الطبعة الخامسة القاهرة ١٩٦٧ .

حافظ وهبه: خمسون عاما فى جزيرة العرب، مطبعة مصطفى الحلبى ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦ .

* خير الدين الزركلى: شبه الجزيرة فى عهد الملك عبد العزيز، دار العلم للملايين، الطبعة الثانية، أربعة أجزاء بيروت ١٩٧٧ .

* خيرى حماد : أعمدة الاستعمار البريطانى فى الوطن العربى [الحلقة الأولى (عبد الله قلبى)]، دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٥ .

* رأفت غنيمى الشيخ : تاريخ العرب المعاصر ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٥ .

* سليم طه التكريتي: صراع البترول في الخليج العربي، دار الحرية، بغداد ١٩٨٩ .

* صلاح الدين المختار : تاريخ المملكة العربية السعودية في ماضيها وحاضرها ، دار مكتبة الحياة بيروت، الطبعة الثانية ، الجزء الثاني ١٩٧٢ .

* صلاح العقاد: التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة ١٩٦٥ .

* عصام ضياء الدين السيد : عسير (في العلاقات السياسية السعودية اليمنية ١٩١٩-١٩٣٤) ، دار الزهراء للنشر، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٨٩ .

*موضي بنت منصور بن عبد العزيز : الملك عبد العزيز، ومؤتمر الكويت ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣-١٩٢٤م دار الساقي،الطبعة الأولى بيروت لبنان ١٩٩٢ .

* نازك زكي إبراهيم : التكوين السياسي والاجتماعي للملكة العربية السعودية ١٩٠٢-١٩٣٢ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٦ .

رابعا : مراجع أجنبية مترجمة:

*بنو أميشان : عبد العزيز آل سعود (سيرة بطل ومولد مملكة) ، ترجمة عبد الفتاح يس، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٥ .

* جام جاك بيربي : جزيرة العرب، ترجمة نجدة هاجر، أمين العز، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٠ .

* جوزيف كوستنر : العربية السعودية من القبلية إلى الملكية ١٩١٦-١٩٣٦ ، ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩٦ .

* وليامز سيتون: بريطانيا والدول العربية ١٩٢٠-١٩٤٨ ، ترجمة : أحمد عبد الرحيم مصطفى، القاهرة ١٩٥٢ .

خامسا : مراجع أجنبية :

* Bullard S.R ., Britain and the Middle East , Hale Press, London 1952 .

* Graves P.H., Life of Sir Percy Cox, F. A. Praeger , London 1941 .

* D.C. Watt, the Foreign Policy of Ibn - Saud 1936-1939, Article, Journal of the Royal Center .

* J.Barker , the Neglected War [Mesopotamia 1914-1918] Hale , London 1967 .

J.B . Kelly , Britain and the Persian Gulf 1795-1880 , London , 1968 . *

J.B. Kelly , Eastern Arabia Frontiers , London 1964 , 123-133 . *

John Marlowe, The Persian Gulf in the twentieth century, Yale Press, London, 1962 .

Kirk, J., The Middle East in the war , R. Hale, London 1952 . *

Philby , H. St. J.B ., Arabian Jubilee, Hale London 1952 . *

Philbu , H. St. J.B , Saudi Arabia R. Hale New York , 1955 . *

*Stephen Longrigg, Oil in the Middle East [its Discovery and Development] London 1961 , Second Ed.

Stephen Page, the USSR and Arabia [the development of Soviet policies * and attitudes towards the countries of the Arabian Peninsula 1955-1970] Yale press, London 1971 .

Toeller, G., The Birth of Saudi Arabia, R. hale , London, 1976 . *

سادسا : دراسات بلغة أجنبية :

Kirk J. , The Saudi - Jordanian Treaty of 1965 , Middle East Journal , Middle East Institute , U.S.A. vol. XX, 33, Summer 1968 .

ملاحق

الملحق رقم [١]

١٢

PJM/JRL/IA. (111 groups) 52. P84 54 10

COPY OF TELEGRAM.

From . Viceroy, Foreign and Political Department, to Secretary of State for India.

(COPIES CIRCULATED)

Dated Viceroy's Camp, Shillong, 5th January, 1926.



Received 5th January, 1926, 7-35 p.m.

XX

E8012

21/C. Jeddah telegram, 131. Presumably Bin Saud, in his public reference to his relations with Great Britain, spoke deliberately merely as the ruler of Nejd and not as the holder, permanently or temporarily, of the Hedjaz. His possession of the Hedjaz has clearly brought about a completely different situation from that which the 1916 Treaty was designed to cover. What was then appropriate is no longer appropriate when applied to Moslem Holy Land, and Bin Saud's consciousness of the danger to himself of admitting any Christian Power to any sort of exclusive or protectorate position in the Hedjaz, such as is accorded to Great Britain by Articles 2, 3 and 4 of his Treaty, is possibly at the back of his desire for a new Treaty; vide Clayton's letter dated 16th December to London Colonial Office. Point is no doubt clear to His Majesty's Government; question is of importance in India because, though it appears beyond question that the existing Treaty only applies to territories possessed by the Sultan Nejd at the time of signing that Treaty, Ibn Saud's public utterances above referred to, as reported, may give rise in India to the misconception that the terms of the Treaty may be taken to cover territories in the Holy Land now acquired by him. It is most desirable, as far as India is concerned, to avoid any such misconception by the Moslem public.

الملحق رقم [٢]

7981

HIR/FHM/JEL/MS. (148 Groups) 16 30th. 157

COPY OF TELEGRAM.

(COPIES CIRCULATED)

From Viceroy, Foreign and Political Department, to Secretary of State for India.

Dated Simla, 27th August, 1926.

Received 27th August, 1926, 1.0 p.m.



XX

14978. Your telegram No.2245. We are in agreement with you that we should try to get some form of restrictive article included in the new treaty, guaranteeing the integrity of the Gulf Chiefs (including Muscat) with whom we have treaty relations, and, like you, feel that Bin Saud would be unlikely to reject such an article if it did not go beyond the scope of Article 6 of the 1915 Agreement, and that its omission now might encourage aggression. We recognize that it may be difficult and perhaps impossible to make Bin Saud agree to the inclusion in the new treaty of a clause guaranteeing freedom of religious observance for our Moslem pilgrims, and that, even if he does, it may be difficult and perhaps impossible for him to implement his undertaking, but in view of the indignation and distress in India over Wahabi intolerance during the Haj, we wish again to emphasise the importance we attach to the inclusion of such a clause. We are chiefly concerned with the effect on public opinion of the publication of new treaty with this iconoclast, without something to balance it. It would indeed be serious matter for our Moslems if His Majesty's Government, in negotiating a treaty with experience of this year's Haj before them, were to make no attempt to secure freedom of religious observance. Without such freedom, they are beginning to think that they might as well not go on the Haj at all, and they will

be

الملحق رقم [٣]

187

Memorandum by Mr. Mallet.

At the inter-departmental conference held at the Colonial Office on October 6 to consider the provisions of the proposed new treaty with Ibn Saud, of which the Colonial Office are shortly going to send us the minutes, careful consideration was given to the proposal that this treaty should contain a clause defining the extent of extraterritorial privileges to be enjoyed by British subjects and protected persons in the Hejaz.

An article (No.6) had accordingly been inserted in the draft treaty prepared by an earlier inter-departmental conference held on August 11, the text of which was as follows:-

"His Majesty the King of the Hejaz and Sultan of "Nejd agrees that in all cases which arise in Nejdi and "Hejazi territories and in which a British subject or "person enjoying the protection of His Britannic Majesty "is plaintiff or defendant, a British consular "representative shall be entitled to attend the Nejdi "or Hejazi courts during the hearing of the case, and "where the British agent wishes to make diplomatic "representations on grounds of equity to His Majesty "concerning any such case, judgment shall be adjourned "and shall not be executed while such representations "are being made, and in no case shall the execution of "judgment proceed except after permission of His Majesty."

This draft article was the subject of a minute by Mr. Malkin on E 4266/180/91, in which he explained that it did not grant capitulatory or extraterritorial rights in matters of jurisdiction, as these rights are usually understood, at all. Mr. Malkin expressed the opinion that

الملحق رقم [٤]

It is requested that in any further communication on this subject the under-mentioned letter and number may be quoted, and the reply addressed to—
The Under Secretary of State for India,
Political Department,
India Office,
London, S.W. 1.

P. 831.

146

200

INDIA OFFICE,
WHITEHALL,
LONDON, S.W. 1.

20th February 1927.

Sir,

I am directed by the Secretary of State for India to acknowledge the receipt of your letter No.E9009/27, dated the 17th February, with reference to the negotiations for a revision of the treaty with Ibn Saud, King of the Hedjaz and Sultan of Nejd.

I am to say in reply that, in view of the difficulties raised by Ibn Saud and of the doubt whether, even with the concessions now proposed to be made to him, it will be possible to conclude a treaty, the Earl of Birkenhead is inclined to the view that a friendly agreement to discontinue the negotiations for the present would be on the whole the best course.

But he does not press this view, and if the negotiations are to be continued, he would desire to reserve a final expression of opinion, especially as regards Articles 3 and 6 of the revised draft treaty, until he has received the views of the Government of India.

Subject to these reservations, Lord Birkenhead agrees generally with the conclusions of the Inter-Departmental Conference and with the views expressed in your letter under reply. In particular

The Under Secretary of State,
Foreign Office.

الملحق رقم [٥]

RJR/IA. (165 groups) 1318.

P1394
248

COPY OF TELEGRAM.

From Viceroy, Foreign and Political Department, to Secretary of State for India. 192

(COPIES CIRCULATED)

Dated New Delhi, 22nd March, 1927.

Received 22nd March, 1927, 1.30 p.m.

IMPORTANT.

860-S. Foreign and Political Department.

Your telegram dated 28th February, 637. Treaty negotiations with Ibn Saud.

We are commenting by telegram on the two Articles, of which final text is before us, and on the general questions of renewal of negotiations and Haramain-Waqfs, without waiting for fuller consideration of papers sent by mail of 17th, on which we may have further observations to offer.

Article 3. We accept the present form in default of more definite undertaking.

Article 6. We should have liked to secure as effective protection as possible for our Nationals (see our telegram dated 12th July, 1926, 1213-S,) but we realise the difficulties attendant upon attempting to get capitulatory rights recognised in Treaty, and after all, in practice, such recognition might have little value. We are, therefore, prepared to accept this Article.

As to Waqfs, we consider that, if proposed undertaking means anything at all, it would be dangerous, and, if nothing, would only raise Ibn Saud's hopes to no purpose. We, therefore, recommend that it should not be given.

We share your doubts of treaty being concluded, even with concession(s) now proposed, and even from purely Indian standpoint are inclined to suggest that His Majesty's Government should resume negotiations and let breakdown come, if come it must, from the other side.

الملحق رقم [٦]

E 3364
29 JUL 1927

195

It is requested that in any further communication on this subject the under-mentioned letter and number may be quoted, and the reply addressed to—
The Under Secretary of State for India,
Political Department,
India Office,
London, S.W. 1.

P. 3608.

INDIA OFFICE,
WHITEHALL,
LONDON, S.W. 1.

22nd July, 1927.

Sir,

1. With reference to your letter of the 5th July, No.T.8102/2724/381, relative to the Ibn Saud Treaty, I am directed by the Secretary of State for India to forward, for the information of the Secretary of State for Foreign Affairs a copy of a telegram from the Government of India. The Secretary of State agrees with the Government of India that, so far as India is concerned, the Treaty may be ratified by His Majesty the King.

...ted 18th
...ly, 1927.
T9102.

2. The Earl of Birkenhead shares the Government of India's disappointment that it was not found possible to secure the insertion, in lieu of Article VI of the signed Treaty, of the original or at least of the first alternative draft of the Article. From page 6 of Sir Gilbert Clayton's record of the conversations it would appear that he made the position of His Majesty's Government in relation to the Persian Gulf chiefs sufficiently clear to Ibn Saud, though not perhaps in precisely the manner contemplated by paragraph 6 of his instructions. Lord Birkenhead doubts whether in any case it would be desirable, even if it were considered possible, to raise the question again now by proposing an exchange of notes, but he would be glad to have

Sir

The Under Secretary of State,
FOREIGN OFFICE.

E 371 1224

الملحق رقم [٨٤٧]

[illegible]

أم القرى

﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾

[illegible]

[illegible] سنة ١٣٤٥ — [illegible] سنة ١٩٢٧

معاهدة جدة

بين جلالة ملك بريطانيا وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

[illegible]

([illegible])

[illegible]

(المادة الأولى)

[illegible]

(المادة الثانية)

[illegible]

(المادة الثالثة)

[illegible]

(المادة الرابعة)

[illegible]

(المادة الخامسة)

[illegible]

(المادة السادسة)

[illegible]

(المادة السابعة)

[illegible]

(المادة الثامنة)

[illegible]

(المادة التاسعة)

[illegible]

(المادة العاشرة)

[illegible]

(المادة الثانية عشر)

تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة جدة .

وقعت هذه المعاهدة في جدة يوم الثامن عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤٥ هجرية الموافق (٢٠ مايو سنة ١٩٢٧) .

جلبرت فالكنهام كلايتن — فيصل بن عبد العزيز السعود

[illegible]

حرر في اليوم الحادي والعشرين من ربيع الاول سنة الف وثلاثمائة وست واربعين هجرية الموافق السابع عشر من سبتمبر سنة الف وتسعمائة وسبع وعشرين ميلادية .

الختم الملكي — عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تبادل قرارات الابرام

[illegible]

[illegible]

والقرار [illegible] .

حرر في جدة في اليوم الثاني والعشرين من شهر ربيع الاول سنة ١٣٤٦

معتمد وقنصل صاحب الجلالة البريطانية — مدير الشؤون الخارجية

في جدة — المملكة الحجاز ونجد وملحقاتها

عبد الله الدملوجي

الكتب الملحقة

تبودلت مع المعاهدة كتب [illegible] ما يلي :

(١)

الى صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

يا صاحب الجلالة

[illegible]

حررت في جدة [illegible] مايو سنة ١٩٢٧ الموافق [illegible] ذي القعدة سنة ١٣٤٥

المندوب المفوض من صاحب الجلالة

البريطانية

جلبرت كلايتن

الجواب

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود الى [illegible] صاحب الجلالة المندوب المفوض من صاحب الجلالة البريطانية

[illegible]

(الختم الملكي)

(٢)

الى صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

يا صاحب الجلالة

[illegible]

[illegible] بقبول فائق الاحترام

حررت في جدة [illegible] مايو سنة ١٩٢٧ الموافق [illegible] ذي القعدة سنة ١٣٤٥ — جلبرت كلايتن

المندوب المفوض من صاحب الجلالة

البريطانية

(*) [illegible]

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود الى حضرة صاحب الفخامة ... لصاحب الجلالة البريطانية

[illegible]

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

... ذي القعدة سنة ١٣٤٥ المخلص المركي

(٣)

الى صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

[illegible]

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

المندوب السامي من صاحب الجلالة البريطانية

(٤)

الى صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

[illegible]

المندوب السامي من صاحب الجلالة البريطانية

الجواب

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى صاحب الفخامة المندوب السامي لصاحب الجلالة البريطانية

[illegible]

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

المخلص المركي

سكة حديد الحجاز

[illegible]

حوادث محلية

امراء الساحلية

[illegible]

مادية امريكية

[illegible]

الشركة السعودية

[illegible]

88. TREATY (JIDDAH): BRITAIN AND KING 'ABD AL-'AZIZ OF THE HIJAZ AND OF NAJD AND US DEPENDENCIES
20 May 1927

(Ratifications exchanged, Jiddah, 17 September 1927)
[Great Britain, *Treaty Series* (1927), no. 25, Cmd. 2951]

* *Saudi Arabia.*

ART. 1. His Britannic Majesty recognises the complete and absolute independence of the dominions of His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies.

ART. 2. There shall be peace and friendship between His Britannic Majesty and His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies. Each of the high contracting parties undertakes to maintain good relations with the other and to endeavour by all the means at its disposal to prevent his territories being used as a base for unlawful activities directed against peace and tranquillity in the territories of the other party.

ART. 3. His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies undertakes that the performance of the pilgrimage will be facilitated to British subjects and British-protected persons of the Moslem faith to the same extent as to other pilgrims, and announces that they will be safe as regards their property and their person during their stay in the Hejaz.

ART. 4. His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies undertakes that the property of the aforesaid pilgrims who may die within the territories of His Majesty and who have no lawful trustee in those territories shall be handed over to the British Agent in Jeddah or to such authority as he may appoint for the purpose, to be forwarded by him to the rightful heirs of the deceased pilgrims; provided that the property shall not be handed over to the British representative until the formalities of the competent tribunals have been complied with and the dues prescribed under Hejazi or Nejdi laws have been duly collected.

ART. 5. His Britannic Majesty recognises the national (Hejazi or Nejdi) status of all subjects of His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies who may at any time be within the territories of His Britannic Majesty or territories under the protection of His Britannic Majesty.

Similarly His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies recognises the national (British) status of all subjects of His Britannic Majesty and of all persons enjoying the protection of His Britannic Majesty who may at any time be within the territories of His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies; it being understood that the principles of international law in force between independent Governments shall be respected.

ART. 6. His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies undertakes to maintain friendly and peaceful relations with the territories of Kuwait and Bahrain, and with the Sheikhs of Qtar and the Oman Coast, who are in special treaty relations with His Britannic Majesty's Government.

ART. 7. His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies undertakes to co-operate by all the means at his disposal with His Britannic Majesty in the suppression of the slave trade.

ART. 8. The present treaty shall be ratified by each of the high contracting parties and the ratifications exchanged as soon as possible. It shall come into force on the day of the exchange of ratifications and shall be binding during seven years from that date. In case neither of the high contracting parties shall have given notice to the other six months before the expiration of the said period of seven years of his intention to terminate the treaty it shall remain in force and shall not be held to have terminated until the expiration of six months from the date on which either of the parties shall have given notice of the termination to the other party.

ART. 9. The treaty concluded between His Britannic Majesty and His Majesty the King of the Hejaz and of Nejd and its Dependencies (then Ruler of Nejd and its then Dependencies) on the 26th December, 1915, shall cease to have effect as from the date on which the present treaty is ratified.

ART. 10. The present treaty has been drawn up in English and Arabic. Both texts shall be of equal validity; but in case of divergence in the interpretation of any part of the treaty the English text shall prevail.

ART. 11. The present treaty shall be known as the Treaty of Jeddah.